الكتاب الأول

ألكسي تولستوي

ثلاثية درب الآلام

الشقيقتان

مكتبة ١٢٩١

ترجمة: غائب طعمة فرمان

الشّقيقتان

مكتبة | 1291

رواية

Author: Алексе́й Толсто́й
Title: **The Road to Calvary**
Translator: **Gaeb Tohmeh Faramen**
cover designed by: **Majed Al-Majedy**
P.C. : **Al-Mada**
First Edition: **1975**
First Edition: **2016**

Copyright © Al-Mada

المؤلف: ألكسي تولستوي
عنوان الكتاب: ثلاثية درب الآلام
ترجمة: غائب طعمة فرمان
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
الناشر: دار المدى
الطبعة الاولى: 1975 - دار التقدم
الطبعة الثانية: 2016

جميع الحقوق محفوظة

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد : حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- منفرع من شارع 29 آيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

5 8 2023

مكتبة
t.me/soramnqraa

ألكسي تولستوي

مكتبة | 1291

ثلاثية درب الآلام

الكتاب الأوَّل: الشّقيقتان

ترجمة: غائب طعمة فرمان

مكتبة
t.me/soramnqraa

لذلك الزمن، وكاتبة، (رواية "قلبٌ قلق" وقصص بعنوان "مكانٌ منسيّ". وبعد ذلك جملةٌ من كتبٍ للأطفال وأكثرها شعبيةً هو "الصَّديقة")...

انقضت طفولتي في ضيعة زود أمي المُسماة سوسنوفكا. بستان، وبرك يحيط بها الصفصاف، وينمو فيها القصب. والنهير السهبي تشاغرا. والرفقاء هم أولاد القرية. وخيول الركوب. والسهب المعشوشب، حيث الربى وحدها كانت تكسر خط الأفق الرتيب... وتعاقب فصول العام مثل أحداث ضخمة وجديدة دائماً. إنّ كلّ ذلك ولا سيما نشأتي وحيداً قد وسّعت دائرة أحلامي.

حين كان الشتاء يحلّ، وتتراكم الثلوج في البستان وحول البيت كان عواء الذئاب يرتفع في الليل. وحين تغني الريح في مداخن المواقد، يضاء مصباحٌ معلّقٌ فوق مائدة مستديرة في غرفة الطعام، وهي حجرةٌ مجصصةُ الجدران ومفروشةٌ بشكلٍ بائس، ويقرأ زوج أمي في العادة نكراسوف، وليف تولستوي وتورغينيف بصوتٍ عالٍ...

وكانت أمي تُصغي وهي تحيك الجوارب. وكنت أرسم أو ألوّن صوراً...ولم تستطع أيّة حادثة أن تخرق صمت تلك الأمسيات في ذلك البيت الخشبي القديم حيث تفوح حرارة المواقد المجصصة،

المدفـأة بالرّوث المجفف أو القشـ، وحيث لا بدّ من شمعةٍ للتّنقّل من حجرةٍ مظلمةٍ إلى أخرى...

لم أقـرأ كتب أطفالٍ غالباً، فمن المُحتمـل أنها لم تكن لدي. وكان كاتبـي المُفضّل تورغينيف. وقد بـدأت أسمعهُ في أمسيات الشتاء وأنا في سـنّ السابعة تقريبـاً. ثمّ ليف تولستـوي ونكراسوف وبوشكين. (كان أهل البيت ينظرون إلى دوستويفسكي بشيءٍ من الرُّعب باعتباره كاتباً "قاسياً").

وأنـا في نحـو العاشـرة أخـذتُ أكـثر المطالعـة، كلّ مـا لهـؤلاء الكلاسيكيـين. وبعد حوالي ثلاثة أعوام حين أدخلوني بصعوبة (لأنني حصلـتُ في امتحانات القبـول على درجـة سُقوطٍ تامّـة تقريباً) في مدرسـة ثانويّة استطعـتُ الحصول في مكتبة المدينـة على جيول فيرن وفينيمور كوبـر وماين ريد والتهمتهم بتعطّش، رغم أنّ أمي وزوجها كانا ينعيان على هذه الكتب تفاهتها.

وقبل دخولي إلى المدرسة الثانوية كنت أتعلّم في البيت، فقد استقدم زوج أمي من سامارا معلّماً هـو أركادي إيفانوفيتش سلوفواخوتوف وهو طالب مدرسة ثانويّـة دينيّة، وكان مجدوراً أحمر كالنار وشخصاً ممتازاً انسجمنا معاً ولكننا درسنا العلوم على مهل.

ذات شتـاء، وكنـت في نحو العاشرة، نصحتني أمـي بكتابة قصّة. وكانت تـودّ كثيراً أن أصبح كاتباً. وقد قضيـت أمسيات كثيرة منكباً علـى مغامرات الصبيّ ستيبكا...وأنا لا أذكر شيئاً من هذه القصّة غير عبـارة: كان الثّلج يتلألأ تحت ضوء القمر كالألماس. وأنا لم أر الألماس قـط، ولكن هذا التشبيه أعجبني. ولم تكن قصة ستيبكا موفّقةً على ما يبدو، فلم تُكرهني أمي مرّة أخرى على الإبداع.

قبـل الثالثة عشـرة، قبل دخـولي إلى المدرسة الثانويـة عشت حياةً

تأمليّـةً حالمة. و لم يعفني هذا بالطبع من أن أقضي أياماً كاملةً في حصد العشـب ومـكان حصاد الحُبـوب ودراسهـا، وعند النهر مـع أولاد القرية، والتردد شتـاءً إلى المعارف من الفلاحين لأستمع إلى الحكايات والحواديـث والأغاني، ولعب الورق والكعـاب، والعراك على أكوام الثلـج بالقبضات، والتقمّصـ في أعياد الميلاد، وركـوب الخيول غير المروّضة بلا لجامٍ ولا سرج، وإلى غير ذلك.

تركت سنوات المجاعـة الثلاث من عام ١٨٩١ حتى عام ١٨٩٣ أثراً عميقاً فيَّ ما زلتُ أحسّه حتى الآن. كانت الأرض آنذاك مشقّقةً، والخضرة قد ذبلت قبل الأوان وتناثرت، والحقول صفراء محروقة. وفي الأفق عتمةٌ كدرة أحرقت كلّ شيء.

وفي القرى تعرّت سطوح الأكواخ لأنّ الناس استخدموا قشّها علفاً للمواشـي، وربطت المواشي النحيلة السليمـة بالسيور إلى الروافد... في تلـك السنوات نجـت ضيعة زوج أمي بالكاد مـن الخراب...ومع ذلـك فقد اضطرّ بعد بضع سنواتٍ إلى بيعهـا...إنّ ولاية سمارا كلّها أصبحـت تعـود إلى كبير مالكـي الأراضي شوخوبالـوف الذي كان يشتري أراضـي الأعيان كلّها ويأخذ من الفلاحـين أجور الاستئجار السنوي بالقدر الذي كان يشتهيه...

في عـام ١٩٠١ أنهيـت المدرسة الثانوية في سامـارا وسافرتُ إلى بطرسبورغ للاستعداد لامتحانات القُبول. وأدّيت امتحان القبول إلى المعهد التّكنولوجيّ ودخلتُ فرع الميكانيك.

أرجـع تجاربي الأدبيّة الأولى إلى سـنّ السادسة عشرة، وهي عبارةٌ عـن أشعارٍ هي تقليدٌ عاجـزٌ لنكراسوف ونادسون. وأنا لا أستطيع أن أتذكّر السببَ الذي حداني إلى كتابتها، فقد يكون الحلم الطائش الذي لم يجد شكلاً له، كانت الأشعار فجّة فتركتُ العكوف عليها.

ولكنني كنتُ أشتاق مرّةً بعد أخرى إلى عمليّة خلق لم تتبلور بعد. وأحببتُ الدفتر والحبر والريشة. وعندما كنت طالباً كنتُ أعود بين الفينة والأخرى إلى تجربة الكتابة، ولكن ذلك كان بداية شيءٍ ما لا يستطيع أن يتشكّل، أن يكتمل...

تزوّجتُ في وقت مبكّر، في التاسعة عشرة، طالبةً في معهد الطبّ، وعشنا سويّةً عيشةً طلابيّةً عاملةً اعتياديّة حتى نهاية عام ١٩٠٦. واشتركتُ مثل الجميع في الاضطرابات والإضرابات الطّلابيّة، وانضممتُ إلى كتلة الاشتراكيين الديمقراطيين، وإلى لجنة مطعم المعهد التكنولوجيّ. وفي عام ١٩٠٣ كدتُ أقتل بحجارة طائرة أثناء مظاهرة عند كاتدرائيّة قازانسكي، فأنقذني كتابٌ كنتُ قد حشرته تحت المعطف على صدري.

وعندما أُغلقت المعاهد التّعليميّة العالية سافرتُ في عام ١٩٠٥ إلى درزدن، حيث قضيت سنةً في مدرسة تكنيكيّة. وهناك عدتُ إلى كتابة الشعر مرّةً أخرى، وكانت هذه تجاربٌ ثوريّة وغنائيّة.

في صيف ١٩٠٦ عدتُ إلى سامارا، واطّلعتْ والدتي عليها. فقالت في أسىً أنّها جميعاً غثّةٌ جداً. و لم أحتفظ بهذا الدّفتر. إنّ لكلّ عصرٍ شكله الذي يصوغُ به الأفكار والمشاعر والعواطف. و لم يكن لديَّ هذا الشّكل الجديد و لم أكن قادراً بعد على خلقه.

في صيف ١٩٠٦ توفّيت أمي ألكسندرا اليونتيفنا بالتهاب السّحايا. فرحلتُ إلى بطرسبورغ لأتابع دراستي في المعهد التّكنولوجيّ.

وبدا عهدُ الرّجعيّة، ويطلع الرمزيون معها على أضواء المسرح. عند ذاك، في ربيع ١٩٠٧، كتبتُ أوّل ديوان لي وهو أشعارٌ "منحلّة". وكان ذلك كتيّباً تقليدياً ساذجاً رديئاً. ولكنّه بالنّسبة لي شققتُ به الطريق إلى فهم الشكل الحديث للشّعر. وبعد عامٍ أصدرتُ الديوان

الثـاني: "وراء الأنهار الزرقـاء". وأنا لا أتبرّأ منه حتـى يومنا هذا. فإنّ "وراء الأنهـار الزرقـاء" حصيلـة أوّل تعـرّفي بالفولكلـور الروسيّ، بالإبداع الشعبيّ الروسيّ.

حينـذاك بدأت تجاربـي الأولى في النثر "حكايـات القعقع". وقد حاولـتُ فيها أن أصف على شكل حكايـات انطباعاتي في الطّفولة. ولكن استطعتُ بعد سنواتٍ عديدةٍ أن أوفَّق في ذلك بقدرٍ أكثر كمالاً في قصّة "طفولة نيكيتا".

وأنـا مدينٌ ببدايـة عملي ككاتبٍ قصيّ لصلتـي بالشاعر والمُترجم. فولوشـين. في صيف ١٩٠٩ سمعتُ فولوشـين وهو يقرأ ترجماته من هنري دو رينيـه. وقد بهرني سبك الصـور. إن الرمزيين في بحثهم عن الشـكل والجماليين، مثل رينيـه، أعطوني مبادئ الشـيء الذي لم يكن لديّ آنذاك، ولا سبيل للإبداع والشكل والتكنيك بدونه.

في خريـف ١٩٠٩ كتبتُ أوّل قصّة طويلةٍ لي هي "أسبوعٌ في ضيعة تورغينيفـو" وهي إحدى القصص التي دخلـت فيما بعد في كتاب "ما وراء الفولغا" وبعد ذلك في المُجلّد الموسّع "تحت أشجار الزّيزفون القديمة" وهـو كتابٌ عن تقليـدات حياة الأعيان من ذلـك القسم من أصحاب الأطيـان الذين طحنهم سلاطـين الأرض الجُـدد–آل شاخوبالوف. لم يمسّ كتابي الأعيان المُترسّخين علـى الأرض الذين انتقلوا إلى الأشكال المُكثّفـة من الاقتصـاد. فلم أكن أعرفهم. ثمّ تتبّع ذلـك روايتان "السيّد الأعـرج" و"غريبو الأطـوار". وبذلـك ينتهي عهـدي الأوّل في الفنّ القصصيّ، المترابط بالبيئة التي كانت تحيطني في صباي.

استنفـدتُ موضوع الذكريات، واقتربتُ تماماً مـن الواقع المُعاصر. وهنا منيتُ بالفشل. فقد كانت قصص وأقاصيص الواقع المُعاصر فاشلةً وغير نموذجيّة. والآن أدرك سبـب ذلك. فقد واصلتُ العيش في دائرة

الرمزيــين الذين لم يكن فنّهم الرّجعيّ يتقبّل الواقع المُعاصر الفائر بعنفٍ وتهديدٍ في اتّجاهه نحو الثّورة.

ابتعــدَ الرّمزيــون في التجريــد، في الغُموض قابعــين في "الأبراج العاجيّة" حيث كانوا ينوون انتظار انتهاء ما كان يزحف.

لقــد أحببتُ الحيــاة، وكرهتُ بكلّ جوارحــي التّجريد والمذاهب المثاليّــة. والــذي كان نافعاً لي في عام ١٩١٠ أضـرّني وأعاقني في عام ١٩١٣.

كنتُ أدرك جيّداً أنّ من المُستحيل الاستمرار في ذلك. كنتُ أعمل كثـيراً دائماً، والآن أعمــل بإصرارٍ أشدّ، ولكــنّ النتائج كانت بائسة: فأنــا لم أر الحيــاة الحقيقيّــة للبلاد والشعــب. وبدأت الحــرب العالميّة الأولى. وكنــتُ في جبهات القتال كمراســلٍ حربيّ لجريدة "روسكيه فيدرموستــي"، وزرتُ انجلترا وفرنسا (عــام ١٩١٦). وأنا منذ زمان بعيــد لا أعيد إصــدار كتاب اللوحات الأدبيّة عن الحــرب لأنّ الرّقابة القيصريّــة لم تسمــح لي بكلّ قوّة أن أقول ما رأيتــه وما شعرتُ به. و لم تدخل غير بضع أقاصيص ذلك الوقت في مجموعة مؤلّفاتي.

ولكنني رأيتُ الحياة الحقة، وساهمتُ فيها بعد أن نزعت عني رداء الرّمزيين الأســود المسدل كليّاً. ورأيتُ الشّعــب الروسيّ. في الأشهر الأولى من ثورة شباط تحوّلت إلى موضوع بطرس الأكبر. ومن المُرجّح أنّ سليقــة الفنــان أكثر مــن الوعي هي التــي جعلتنــي أبحث في هذا الموضوع عن مفاتيح لغز الشعب الروسيّ، والدولة الروسيّة.

وأنــا أرجع بداية عملي المسرحيّ ككاتــب مســرح إلى الأيام الأولى من الحرب. وقبل ذلك، في عام ١٩١٣، كتبتُ كوميديا "المُغتصبون" وعرضتها على مسرح "مالي" في موسكو..وقد أثارت حماسةً في قسم من المُشاهدين، وسرعان ما مُنعت من قبل مُدير المسارح الامبراطوريّة.

مــا بين عام ١٩١٤ و١٩١٧ كتبتُ وعرضت خمس كوميديّات:

"الطلقــة" و"الشيطان" و"السّنونو" و"الصاروخ" و"اللون المُرّ". ومع قيــام ثورة أكتوبر عدتُ إلى النثر مرّةً أخــرى، وأنهيت المسودّة الأولى لـ"يــوم بطرس" وأكثر قصّة "كونوا رحمــاء!" التي هي أوّل تجربةٍ لنقد المثقّفين الليبراليين الروس في ضوء لهيب أكتوبر.

وفي خريــف عام ١٩١٨ سافرتُ مــع العائلة إلى أوكرانيا، وقضينا الشتاء في أوديسا، حيث كتبــتُ كوميديا "الحبّ كتابٌ ذهبيّ" وقصّة "كاليوســترو". ومن أوديســا سافرتُ مع العائلــة إلى باريس، وهناك بدأتُ في تمّوز عام ١٩١٩ بكتابة ملحمة "درب الآلام".

كانــت الحياة في الهجــرة أقسى فترةٍ في حياتــي. هناك أدركتُ ما تعني أن تكون منبوذاً، إنساناً مقطوعاً عن الوطن، بلا وزن ولا ثمرة، ولا حاجة لأحــد بك في كلّ الأحوال. وكتبتُ بحماس رواية "درب الآلام" (الجزء الأوّل "الشّقيقتان") وقصّة "طفولة نيكيتا" و"مُغامرات نيكيتا روتشين" وبدأتُ عملاً كبيراً امتدّ عدّة أعوام: أعدتُ من جديد عمل كلّ ما هو ثمين مما كتبته حتى ذلك الوقت...

وكان باكــورةُ عملي بعد العــودة إلى الوطن مؤلّفــان: قصّة "على العتبــة". وبذلك انقطعت في الحال كلّ صلاتــي بالكتّاب المُهاجرين. و"لبس الحداد عليّ" أصدقائي السابقون. وفي ربيع ١٩٢٢ وصل من روسيا السوفييتيّة ألكسي مكسيموفيتش بشكوف[1]. وانعقدت بيننا علاقاتٌ وديّة.

في فــترة إقامتــي في برلين كتبتُ روايــة "آيليتــا" وقصص "الجمعة السوداء"، و"مقتل أنطوان ريفو" و"المخطوطة المُكتشفة تحت السّرير" وهي أكثر هذه الأعمال أهميّةً من حيث الموضوع...في ربيع ١٩٢٣ سافــرتُ مــع العائلة إلى روســيا السوفييتية. وكان باكــورة عملي بعد

١- مكسيم غوركي.

العودة إلى الوطن مؤلّفان: قصّة "إيبيكس" وقصّةٌ غير طويلة هي "المُدن الزّرق"...

في عام ١٩٢٤ عدتُ إلى المسرح: كوميديا "طرد الشيطان الضال" ومسرحيّتا "مؤامرة الامبراطورة" و"آزيف" وكوميديا "أعاجيب في المنخل" و"الشباب العائد" وتحويلاتٌ مسرحيّة "تمرّد الآلات" و"أنّا كريستي" و"رجل أعمال" (حسب موضوعات مسرحيّات الشاعر الألماني غازينكليفر).

وفي عام ١٩٢٦ كتبتُ رواية "هيبربولويد المُهندس غارين"، وبعد عام بدأت بكتابة الجزء الثاني من رواية "درب الآلام" وهو "عام ١٩١٨". وفي نفس الوقت لم أكفّ عن تحوير وتنقيح كلّ ما كتبته من قبل...

في عام ١٩٣٠ كتبتُ الجزء الأوّل من رواية "بطرس الأوّل". وبعد عام ونصف العام الرواية الهجائيّة: "الذهب الأسود" التي أعدتُ صياغتها في عام ١٩٣٨ ونشرتها تحت عنوان "المُهاجرون"، وأنهيت الجزء الثاني من "بطرس الأوّل" في عم ١٩٣٤.

إنّ كلا الجزئين التي نشرتهما من "بطرس الأوّل ما هما إلا مدخلٍ إلى الرواية الثالثة، إلى العمل الذي بدأت به (في خريف ١٩٤٣).

ما الذي ساقني إلى ملحمة "بطرس الأوّل"؟ ليس صحيحاً أنني اخترت ذلك العهد لتفسير الواقع المُعاصر. لقد جذبني الإحساس بكمال القوّة الفوّارة والإبداعيّة للحياة التي تفتح فيها الخلق الروسيّ بنصوع فريد.

إنّ أربعة عهودٍ تجذبني إلى التصوير لنفس هذه الأسباب: عهد إيفان الرهيب، وعهدٍ بطرس الأوّل، والحرب الأهليّة ١٩١٨-١٩٢٠ وعهدنا الحاليّ المُنقطع النّظير بسعة نطاقه وأهميّته. ولكنّ الكتابة عنه

رهنٌ بالمُستقبل. ولفهم سرّ الشعب الروسيّ وعظمته يجب أن يُعرف ماضيه معرفةً جيّدةً وعميقة: أن يُعرف تاريخنا، وعقده الجذريّة، والعُهود التراجيديّة والإبداعيّة التي تشكّل فيها الخلق الروسيّ.

في عام ١٩٣٥ بدأتُ بكتابة قصّة "الخبز" التي هي نقلةٌ ضروريّة بين رواية "عام ١٩١٨" ورواية "صباحٌ غائم" التي كنتُ أعمل الفكر فيها في ذلك الوقت. وأنهيت "الخبز" في خريف ١٩٣٧. وقد سمعتُ إلى العديد من الانتقادات لهذه القصّة، وهي في غالبها تنحصر في أنّها جافّةٌ وعمليّة". ولتبرير ذلك أستطيع أن أقول شيئاً واحداً هو أنّ "الخبز" كانت محاولةً لتمثيل مادّة تاريخيّة دقيقة بوسائل فنيّة. ومن هنا جاء جُموح الخيال. ولكن من المُمكن أنّ تنفع هذه المُحاولة أحداً من الناس في وقتٍ ما. وأنا أدافع عن عن الحقّ للكاتب في التجربة وفي الأخطاء المُرتبطة بها. ويجب احترام تجربة الكاتب، فلا فنّ بلا جُرأة. والطريف أنّ "الخبز" شأنها شأن "بطرس الأوّل" يمكن أن تترجم إلى جميع لُغات العالم تقريباً، وربّما في أعدادٍ كبيرة.

وسويّةً مع هذه الأعمال الأدبيّة أقوم بإعداد خمسة أجزاءٍ من الفولكلور الروسيّ لدار النّشر للأطفال. وأنا أرفض تحوير وتنقيح الحكايات. وباحتفاظي بنقاء القصّة الشّفاهيّة أربط روايات الموضوع المرويّ في موضوعٍ واحدٍ مع الاحتفاظ بجميع خصائص الكلام الشّعبيّ ومع تنقية المُوضوع من جميع التّفاصيل والهوامش التي أدخلت أما بأن يعمد الراوي على إدخال تفاصيل حكاياتٍ أخرى بشكلٍ آليّ، وأما بسبب عدم نُضوج الراوي، وأما بسبب خصائص الكلام الحليّة غير المُميّزة.

في اليوم الذي بدأت فيه الحرب الوطنيّة الكبرى، يوم ٢٢ حزيران ١٩٤١، فرغتُ من رواية "صباحٌ غائم". وعند إعدادي الثُّلاثيّة كلّها

للطبـع قمتُ بتنقيـح الكتابين الأوّلـين من هذه الملحمـة. وقد كتبت الثلاثية خـلال اثنين وعشرين عامـاً. وموضوعها العـودة إلى البيت، الطريـق إلى الوطن. والواقـع أنّ كتابة السطـور الأخيرة والصفحات الأخـيرة من "صباحٌ غائم" يوم كان وطننا في نـار الحرب تقنعني بأنَّ سبيل هذه الرواية صائب.

عندما أعود بنظري الآن إلى السنتين الرهيبتين المدمّرتين من الحرب أجـد أنّ الإيمان يقوي شعبنا التي لا تنضـب، الإيمان في صحّة طريقنا التاريخـيّ، الطريق الباهـظ والصعب والمُستقيـم الإنسانيّ نحو الحياة العظيمـة، وحبّ الوطن وحـده، والتّأليم الممضّ بعذاباته، وكراهية العدوّ–كل هذا قد أعطى القوى للنضال والنّصر. وقد آمنت بانتصارنا حتـى في أصعب الأيام من تشرين الأوّل–تشريـن الثاني عام ١٩٤١. ويومذاك بدأت في زيمينكي (على مقربة من مدينة غوركي على شاطئ الفولغا) قصّتي الدّراميّة "إيفان الرّهيب". فكانت رداً على المهانة التي عرَّض الألمان وطني لها. فأخرجت من العدم الروح الروسيّة المُلتهبة–إيفـان الرهيب–لأسلّـح "ضمـيري المضطـرم". وواصلـتُ كتابتـي المقـالات، وأنا أعمل في هذه المسرحيّة، ومن بـين أكثر هذه المقالات صدى:

"أيه، أيتها الأرض الروسيّة: .."

من قصيدةٍ ملحميّةٍ قديمة بعنوان

"حديثٌ عن فصيلة إيغور"

١

أرى أنّ أيّ إنسانٍ غريب على بطرسبورغ يدخلها بعين مراقبٍ من أحد الشوارع الضيقة المُعرشة بأشجار الزيزفون لأيّة بلدة نائية سينتابه، في لحظة الانتباه، شعورٌ معقّدٌ من الانفعال الذهنيّ والانسحاق النّفسيّ.

أنّه يجوب شوارع مستقيمة ضبابيّة، ويمرّ ببيوت كئيبة ذات نوافذ داكنة، على بواباتها حجاب ناعسون، ويطيل النّظر إلى انبساط نهر النيفا الغزيرة المياه العابسة، وإلى الخطوط المُزرقّة للجُسور ذات المصابيح التي تُضاء قبل هبوط الظلام، والقصور غير المُريحة الخالية من البهجة المزيّنة واجهاتها بالأعمدة، ويتطلّع إلى كتدرائيّة بطرس وبولس بارتفاعها الشاهق غير المألوف للهندسة الروسيّة وإلى القوارب البائسة المُترائية في الماء الداكن، وإلى المراكب التي لا حصر لها مثقلةً بالخشب الرّطب، وممتدّةً على الشطئان الغرانيتيّة، ثم ينقل بصره في وجوه المارة الشاحبة المهمومة ذات العُيون الكدرة كدرة المدينة ذاتها، إنّ هذا المُراقب الدّخيل بعد أن يمتلأ بصره وسمعه بكلّ ذلك سيخفي رأسه عميقاً في ياقته، إذا كان حسن النّية، أما إذا كان سيئ النّية بإنّه

سيتصــوّر أنّ أفضلٍ شــيء أن تسدَّد ضربةٌ قاضية علــى كلّ هذه الفتنة الجامدة وتمزّق إرباً.

ذات مرّةٍ في عهد الامبراطور بطرس الأوّل تملّك الرّعب الشّديد شماساً مـن كنيسة ترويتسكايا القائمة حتى الآن على مقربةٍ من جسر ترويتسكـي، حـين رأى الظلام، وهو نــازلٌ من بــرج الجرس، شبح ساحرةٍ نحيلة حاسرة الرّأس، وفيما بعد صرخَ في حانةٍ...

كانت بطرسبــورغ، مثل أيّة مدينة أخرى، تعيشــ حياتها الخاصة المُتوتّــرة المُثقلة بالهُموم. وكانت القوّةً المركزيّة فيها توجّه هذه الحياة، إلا أنها لم تكــن مندمجةً مع ما يمكن أن يدعى بروح المدينة: لقد كانت القوّة المركزيّة تسعى إلى استتبــاب النّظام، والهُدوء، والعقلانيّة، بينما كانــت روح المدينة تسعى إلى تحطيم هذه القوّة. وكانت روح التّهديم منتشــرةً في كلّ مــكان تغــذى بالسّم الفتّــاك المضاربــات بالهائلة في البورصــة لساكيلمانٍ الشهير، والحنق القاتم في نفس العامل في مصنع الفولاذ، الأمنيات الشوهــاء لشاعرةٍ على الموضة جالسةً حتى الساعة الخامســة صباحاً في قبــو "الأجراسٍ الحمراء" للفنانــين. وحتّى الذين كان عليهــم أن يكافحوا هــذا التّهديم كانوا دون وعيٍ منهم يأتون كلّ شيءٍ لتسعيره وزيادة حدّته.

ذلــك زمنٌ كان فيه الحبّ، والمشاعر الطّيبــة والسّليمة تعتبر ابتذالاً ومــن مخلّفات الماضي، وكان الناس فيه لا يحبّون، بل يشتهون الحبّ، ويتهالكون، كالمسومين، على كلّ ما هو حادٌّ ومثير للألم في بواطنهم.

كانت الفتيات يخفين بكارتهنّ، والأزواج وفاءهم. وكان التّهديم يعتــبر إمارةً على حسن الــذّوق، والإعياء العصبــيّ علامةً على رهافة الحسّ. وكان المروّجــين لذلــك كُتّابٌ علــى الموضة كانــوا يبزغون مــن العدم خــلال موسمٍ واحــد. وابتكــر الناس لأنفسهــم الموبقات

والانحرافات لمجرّد أنّهم لا يريدون أن يُعتبروا عاديين. تلك هي بطرسبورغ في عام ١٩١٤. كانت منهوكةً بليالي السّهر، تغرق سأمها بالخُمور والذّهب، والحبّ الفارغ، بأنغام التانغو المُمزّقة لنياط القلب والحسيّة اللامُتناهية—رقصة الموت—فكأنّها كانت تعيش على انتظار يوم مُهلكٍ رهيب. وكانت لذلك بوادره: فإنّ شيئاً جديداً غامضاً كان يتسلّل من كلّ الشّقوق.

مكتبة
t.me/soramnqraa

٢

—...نحن لا نُريد أن نتذكّر شيئاً. نحن نقول: كفى، ولندر ظهورنا إلى الماضي! ومن وراء ظهري؟ فينوس دو ميلو؟ وهل هذه يمكن أن يؤكل؟ أم تستطيع أن تطيل وتنمي شعري؟

أنا لا أفهم لماذا أنا بحاجة إلى هذا العملاق الرّخاميّ؟ ستقول أنه الفنّ، الفنّ. كفى! أما تزالُ معجباً بدغدغة هذه الفكرة لك؟ أنظر إلى يمينك وشمالك، وإلى أمامك، وفي موضع قدميك. إنّك تحتذي حذاءً أمريكياً! عاشت الأحذية الأمريكيّة! أنَّ الفنّ هو سيارةٌ حمراء، وإطاراتٌ من المطاط، وصفيحةٌ من البنزين، وتسعون ميلاً في الساعة. فإنّ ذلك يثير في نفسي التهام المسافات. والفنّ أيضاً إعلان مساحته ستّون ذراعاً يصوّر فتىً أنيقاً عليه قبّعةً عاليةً مشعّةً كالشّمس. والفنّ خياطٌ فنان، عبقريٌّ يومنا هذا! أنا أريد أن التهم الحياة، وأنت تطعمني ماء سكّرٍ يوصف لمن يُعانون من الضّعف الجنسيّ...

ارتفع ضحكٌ وتصفيق من نهاية القاعة الضّيقة وراء الكراسي، حيث كان طلابٌ من الدّورات الدّراسيّة ومن الجامعة يقفون منزاحمين. عدّل المُتحدّث سيرغي سيرغييفيتش سابوجوكوف من

وضع نظارته الأنفيّة الناطة على أنفه الكبير، مُبتسماً من فم مبلّل، وهبط درجات المنبر البلوطيّ الكبير بحركةٍ رشيقة.

كان أعضاء "جمعيّة الأمسيات الفلسفيّة" يجلسون على جانبٍ من القاعة وراء منضدةٍ طويلة يضيؤها شمعدانان خماسيّا الشّموع وهؤلاء هم رئيس الجمعيّة أنتونوفسكي الأستاذ في اللاهوت، ومحاضر اليوم المؤرّخ فليامينوف، والفليسوف بورسكي، والكاتب الماكر ساكوتين.

وكانت "جمعيّة الأمسيات الفلسفيّة" قد تعرّضت هي هذا الشّتاء إلى هجوم شديد مغمورين ولكنّهم ذوو ألسنة لاذعة، هاجموا الكُتاب الموقّرين، والفلاسفة المُحترمين بضرواةٍ عنيفة، وقالوا أشياءً جريئةً ومُغرية جعلت الفيلا القديمة مقرّ الجمعيّة في شارع فونتانكا تغصّ بالناس أيّام السّبوت، حين تكون الدّعوة مفتوحةً للجميع.

وهذا ما حدث اليوم أيضاً. عندما اختفى سابوجكوف في الحشد وسط تصفيقٍ صعد إلى المنبر أكوندين، وهو رجلٌ قصير ذو جمجمة حليقة الشّعر ناتئة، ووجّه فتىً أصفر بارز الوجنتين. كان حديث العهد في الحُضور إلى مثل هذه الأمسيات، وافر الحظّ من النّجاح ولا سيما في الصّفوف الخلفيّة من القاعة. وكان العارفون يتبسمون بغموض حين يتساءل المُتسائلون: من هذا ومن أين جاء؟ وعلى أيّة حال لم يكن أكوندين اسمه الأصليّ، وقد جاء من خارج الحُدود، ولم يكن تحدّثه في هذه الأمسيات يخلو من غرض. أجال أكوندين بصره في القاعة التي خيّم عليها السّكون وهو يداعب لحيته الهزيلة الشهر، وأخذت شفتاه تنشقّان عن بسمةٍ خفيفة، وشرع يتحدّث.

في تلك الأثناء كانت فتاةٌ شابّة تجلس في صفّ المقاعد الثالث عند الممرّ الأوسط تسند ذقنها بجمع يدها. كانت ترتدي فستاناً أسود من الجوخ عالياً حتى العُنق. وكان شعرها الناعم الرماديّ مرفوعاً

فــوق أذنيها، ومعقوصاً في عقصة كبــيرة، يسندها مشط. كانت الفتاة تتمعّــن في الجالسين وراء المنضدة الخضــراء دون أن تتحرّك ولا تبتسم، وأحياناً كانت عيناها تستقران على الشّموع. وعندما ضرب أكوندين المنــبر البلوطي، وصاح: "الاقتصاد العالمي يوجــه أول ضربة من قبضته الحديديّــة إلى قبّة الكنيسة" زفرت الفتاة زفــرةً خفيفة، وأنزلت قبضتها من تحت ذقنها المحمرّ قليلاً في أسفله، ووضعت قطعة ملبسٍ في فمها.

وتكلّم أكوندين:

-...وأنتــم ما تزالــون تحلمون أحلاماً غامضــةً عن ملكوت الرّب علــى الأرض. بينما هو ماض في سباته رغــم كلّ جهودكم. أم لعلّكم تأملون أنّه سيستيقظ في آخر الأمر، ويتكلّم مثل أتان بلعام[٢]؟ أجل، إنّه سيستيقــظ، ولكن لا على أصوات شعرائكم المعسولة، ولا على دخان المباخر. بل إنّ صافرات المصانع وحدها قادرةٌ على إيقاظ الشّعب. إنّه سيستيقــظ، ويتكلّم وسيكون صوته غير مريــح لأسماعكم. أم لعلّكم تعتمدون علــى سباتكم وجهالتكــم؟ أذكر لكُم أنّكــم تستطيعون أن تسدروا فيهــا نصف قرنٍ آخر. ولكن إياكــم أن تسموّا ذلك الخلاص المُنتظــر. أنّ ذلك ليس هــو المُستقبل بل الماضي. هنا في بطرسبورغ في هذه القاعة الفاخرة اختلقوا الفلاح الروسيّ على أوهامهم، وكتبوا عنه مئــات المُجلّدات، وألّفوا الأوبرات، وأنا أخشى أن تنتهي هذه التّسلية بدمٍ كثيرٍ يُراق...

إلا أنّ رئيس الجمعيّة أوقف الخطيب في هذه اللحظة. ابتسم أكوندين ابتسامةً باهتة، وأخرج من جيب سترته منديلاً كبيراً، ومسح جمجمته ووجهه بحركةٍ مُعتادة. وصدرت أصواتٌ من أقصى القاعة:

٢- حسب الإنجيل تكلّمت أتان بلعام بصوتٍ إنسانيّ احتجاجاً على ضرباتٍ انزلت عليها. (المُترجم).

– دعهُ يتكلّم!

– من الفظاظة أن يغلق فم إنسان.

– هذه سخرية!

– اسكتوا، أيّها الجالسون في الخلف!

– اسكتوا أنتم!

واستمرّ أكوندين يقول:

– ...الفلاح الروسيّ نقطةً تجذب أفكار الكثيرين. أجل. ولكن إذا لم تكن هذه الأفكار مرتبطةً ارتباطاً عضوياً بمطامحه العريقة، وبمفهومه الفطريّ عن العدالة وهو مفهومُ الإنسانيّة جمعاء، فإنّها ستقع كما تقع البذور على الصّخور. وطالما بقي الناس لا ينظُرون إلى الفلاح الروسيّ كإنسانٍ ذي معدة خاوية، وظهر موقّرٍ بالعمل، ولا يجرّدونه من خصائصه المسيحيّة الّتي ألصقها به بعض السادة في حقبةٍ من الزّمن، فسيبقى القطبان على وجودهما المأساويّ: أفكاركم الفخمة التي ولدت في ظلام المكاتب، والشعب الذي لا تريدون أن تعرفوا شيئاً عنه... ونحنُ هنا لا نريد حتى أن نوجّه نقداً حقيقياً لكم. فسيكون غريباً أن نضيع الوقت في إعادة النّظر في هذه الكتلة الضّخمة–هذه النّزوات الإنسانيّة. لا، بل نقول لكم انقذوا أنفسكم قبل فوات الأوان. لأنّ أفكاركم وكنوزكم ستُلقى في مزبلة التاريخ دونما أسف...

لم تجد الفتاة ذات الفستان الأسود في نفسها الرّغبة لتفكّر فيما قيل من على المنبر البلّوطي. فقد كان يبدو لها أنّ جميع هذه الأقوال والمناقشات مهمّةٌ جداً بالطّبع، وكثيرة الدّلالة، إلّا أنّ الأكثر أهميّة شيءٌ آخر لم يتحدّث عنه هؤلاء الناس...

وفي غضون ذلك ظهر رجلٌ آخر وراء الطاولة الخضراء. جلس متمهّلاً إلى جانب الرئيس، وأحنى رأسه يميناً وشمالاً بالتّحية، ثمّ مرّر يده المُحمرّة على شعره الكتانيّ المُبلل من الثلج. وبعد أن أخفى يديه تحت الطاولة جلس منتصباً في سترته السّوداء الضّيقة جداً. كان لهذا الرّجل شعرٌ طويل وكثيف مثل قبّعة، ووجهٌ نحيل كامد له حاجبان مقوّسان، تحتهما عينان رماديتان وسيعتان مُحاطتان بظلّين. بيسونوف كان نسخةً طبق الأصل للصورة التي تشرتها له مجلّةٌ أسبوعية في عددها الأخير.

والآن لم تعد الفتاة ترى غير هذا الوجه الجميل بشكلٍ يبعث على النّفور. كانت تتمعّن بما يشبه الرّعب في تلك التّقاطيعً الغريبة التي كثيراً ما راودت أحلامها في ليالي بطرسبورغ العاصفة. ها هو الآن قد قرّب أذنه من جاوه، وابتسم بسمةً مشوبةً بسذاجة، ولكن الغرور والعجرفة، وشيئاً آخر لم تستطع أن تتبيّنه، وإن كان أشدّ ما يُثير قلقها لاح في منحنيات منخريه الدّقيقين وحاجبيه المُفرطين أنوثة، وفي تلك الجاذبيّة الناعمةً الخاصة المطلّة من وجهه.

وفي أثناء ذلك كان المُحاضر فليامينوف، وهو رجلٌ أحمر الوجه مرسل اللّحية، ذو نظارةٍ مذهّبةٍ شائبة تُحيط بجمجمته الكبيرة يردّ على أكوندين قائلاً:

– أنتَ محقٌّ أحقيّة الانهيار الجليديّ في تدهوره من الجبال. ونحن ننتظر منذ زمنٍ بعيد حلول العهد الرّهيب، ونتنبّأ بانتصار حقيقتكم.

أنتم ستتغلّبون على عناصر الطّبيعة، لا نحن. ولكنّنا نعلم أنّ العدالة المُثلى التي تصرخون لدعوتها بصفارات المصانع لن تكون إلّا كومةً من حطام، وفوضى يتيه فيها إنسانٌ مصعوق. إنَّ هذا الإنسان سيقول "أنا عطشان" لأنّه سيكون خلواً من أيّة قطرةٍ من الفيض الإلهيّ. فحذار،

–وهنا رفع فليامينوف اصبعاً طوليةً كالقلم، وراح ينظر إلى صفوف المُستمعين بحدّة من خلال نظارته، –أنتم تريدون أن تحوّلوا الإنسان في الجنّة التي تحلمون بها وبإسم هذه الجنّة إلى آلة حيّة، إلى رقم كذا– الإنسان إلى رقم–وفي هذه الجنّة الرّهيبة يكمن خطر ثورةٍ جديدة، أفظع كلّ الثّورات، ثورة الروح.

فقال أكوندين من مكانه ببرود:

– تحويل الإنسان إلى رقمٍ هو مثاليّةٌ أيضاً.

مالَ فليامينوف على الطاولة ونشر ذراعيه فوقها فألقت الشّموع لمعاناً على صلعته. أخذ يتحدّث عن الخطيئة التي سيتردّى العالم فيها، وعن القصاص الرّهيب المُقبل. وسَرتْ نحنحةٌ في القاعة.

حلّت فترة الاستراحة فخرجت الفتاة إلى المشرب، ووقفت في بابه معبسةً ومستقلّةً بنفسها. كان بعض المُحامين وزوجاتهم يشربون الشاي، ويتحدّثون بأصوات أعلى من أصوات الآخرين. وكان الكاتب الشّهير تشيرنوبيلين يأكل السّمك بمرق التوت قرب الموقد مديراً عينيه الخبيثتين الثّملتين على الرائحين والغادرين بين لحظة وأخرى. وعند منصّة المشرب وقفت سيّدتان في منتصف العُمر من المُشتغلات في الأدب لهما عنقان قذران وعقدتان كبيرتان على رأسيهما تَلوكانِ الشّطائر. وكان القساوسة يقفون في منأى وبتقوى ولا يختلطونَ بأهل الدّنيا. بينما وقف تحت الثّريّا رجل يخَطّ الشيب شعره المنقوش بإفراط وقد طوى ذراعيه خلفه تحت سترته الطّويلة مهتزاً على كعبيه. إنّه الناقد تشيرفا ينتظر أن يتقدّم أحدٌ من الناس إليه. دخل فليامينوف، فاندفعت إحدى السّيدتين الأدبيّتين نحوه، وتشبّثت بكمّه، وكفّت الأخرى عن مضغ الطّعام، ونفضت عنها

الفتـــات، وأحنت رأسها، ووسّعت عينيها. فقــد تقدّم بيسووف منها موزّعاً الانحناءات المُؤدّبة من رأسه ذات اليمين وذات الشّمال.

أحسّـــت الفتـــاة ذات الفستـــان الأسود بكلّ جلدهـــا أنّ الأديبة قد انكمشـــت بشدّة داخـــل مشدّها النسائـــي. قال بيسونـــوف شيئاً لها ببسمـــة كسلـــى. فبسطت هـــذه ذراعيها المُمتلئـــين، وضحكت مقلّبةً عينيها.

هـــزّت الفتاة كتفها، وتركـــت المشرب. سمعت مـــن يُناديها. كان شـــابٌّ أسمـــر نحيل في سترته من المخمل يشـــقّ الجمع نحوها. انحنى لهـــا فرحاً، وغضَّن أنفه أمارةً علـــى الغبطة، وأمسك يدها. كانت كفّه رطبـــةً، وعلى جبينه تدلّت خصلةٌ مبلّلة مـــن الشّعر، بينما كانت عيناه السّـــوداوان الطّويلتان تنظران إليهـــا برقّة طريّة. إنَّ هـــذا الفتى يُدعى ألكسندر إيفانوفيتش جيروف. قال لها:

– ما هذا؟ ماذا تفعلين هنا، يا داريا دميترييفنا؟

– مثل ما تفعل أنت.

ردّت عليـــه الفتـــاة بذلك، وحـــرّرت يدها منه، ودسّتهـــا في الفراء الـــذي تُدفّئ فيه يدها، ومسحتها بالمنديـــل الذي كان في داخله. قهقه الفتى، وزادت نظرة عينيه رقّة:

– عجيـــبٌ إذا كان سابوجكـــوف لم يعجبكِ في هذه المـــرّة أيضاً! أنّـــه تكلّم اليوم كنبيّ. وما يُثيرك منه حدّته وطريقته الفريدة في التّعبير. ولكـــنّ جوهر تفكيره، أليس هو ما نُريـــده في سرّنا، ونخشى أن نبوح به؟ بينما هو يملك الجرأة على قوله. اسمعي:

كلّنا شبابٌ في شباب

وفي المعدة جوعٌ والتهاب

غداً سنلتهم السّراب...

أنّــه يا داريا دميتريفنا شيءٌ غير اعتياديّ. جديد، وجريء ليس من المعقــول أنّــكِ لا تحسّين بذلك! شــيءٌ جديد كلّ الجــدّة يشقّ طريقه! إنّــه منّا، جديد، نهم، جــريء. وكذلك أكوندين. حقــاً إنّه مفرطٌ في منطقيّتــه، لكنّه جــادٌّ وجارحٌ في تعابيره. وما هــو إلّا شتاءٌ أو شتاءات أو ثلاثة من مثل شتائنا هذا حتّى ينهار كلّ شيء، ويتفتّق! عظيمٌ جداً!

كان الشّــاب يتحدّث بصوت خفيض، مبتسمــاً بحلاوة ونُعومة. وأحسّــت داشا[٣] بــأنّ كلّ شيء فيه يرتعش ارتعاشــاً دقيقاً، وكأنّه من انفعالٍ رهيب. انحنت له رأسها دون أن تدعه يكمل كلامه، وراحت تشقّ طريقها نحو مشجب المعاطف.

كان الحاجــب الغاضب المزيّن صدره بالمداليات، المُوكّل عن حفظ المعاطف مشغولاً يتسلّم المعاطف والكالوشات فلم يعرِ التفاتاً إلى داشا التــي كانت تمدّ الفيشة له. كان عليهــا أن تنتظر طويلاً، وكان تيارٌ من الهواء البارد يهبُّ على قدميها من خلال باب دائم الانفتاح مفضٍ إلى رواقٍ فــارغ. وقف فيه حوذيةٌ طــوالٌ في قطافين زرق مبلّلة يعرضون خدماتهم على الخارجين بمرحٍ ووقاحة:

– على حصانٍ سريع، يا صاحب المَقام!

– اركب معي، إلى منطقة بسكيه.

وفجأةً صَدر من وراء داشا صوت بيسونوف واضحاً، بارداً:

– يا حاجب، هات معطفي، وقبّعتي، عصاتي.

وأحسّت داشا بمثل الإبر الدّقيقة في ظهرها. أدارت رأسها بسرعة، وحدّقت بعينــيّ بيسونوف. قابــل بيسونوف نظرتها بهــدوء كشيءٍ

٣– صيغة التّحبّب والتّصغير لداريا، وسترد هذه الصيغة كثيراً فيما بعد. (المُترجم).

يستحقّه، إلا أنّ جفنيه رفّا، وظهرت نداوةٌ حيّة في عينيه الرّماديّتين، وكأنّهما استسلمتا، وشعرتْ داشا بخفقان قلبها.

قال بيسونوف وهو ينحني لها:

– أحسبُ أنّنا التقينا عند أختك، أم أنا مُخطئ؟

– نعم، التقينا.

واختطفت معطفها من الحاجب، وركضت إلى المدخل الرّئيسيّ. وفي الخارج حرّكت الريح الرّطبة الباردة ثوبها، ورشقتها بقطرات صدئة. التفَّت داشا بياقتها الفرائيّة حتى عينيها. سبقها شخص، وقالَ في أذنيها: "يا للعينين!"

حثّت داشا خُطاها على الإسفلت المُبلّل، عبر الأشرطة المُهتزّة من الضّوء الكهربائيّ. وترامت إلى سمعها أنغام الكمان من باب مطعم مفتوح. إنّها أنغامٌ للفالس جعلتها تدندن مع نفسها من خلال موقةً الفراء الشعثاء التي تدفئ فيها يديها:

– ليس بالأمر السّهل، لا، أبداً، أبداً!

٣

سألت داشا خادمتها لوشا، وهي تفكّ أزرار معطفها الفرائيّ المُبلّل:

– لا أحد في البيت طبعاً؟

وكانت لوشا تلقّب بالمغوليّ العظيم لوجهها العريض الوجنتين كوجه صنم، والمُغطى بطبقة كثيفة من البودرة. أجابت لوشا بصوتٍ نحيل وهي تنظر إلى المرآة، بأنّ السّيّدة غائبةٌ حقاً، إلا أنّ السيد بالبيت في غرفة مكتبه، وأنّه سيتناول العشاء بعد نصف ساعة. ذهبت داشا

إلى غرفة الجُلوس، وجلست إلى البيانو، ووضعت ساقاً على ساق، وطوّقت ركبتها بيديها.

ما دام نيقولاي إيفانوفيتش زوج أختها في البيت، فمعنى ذلك أنّه قد تشاجر مع زوجته، وأنّه الآن وعق المزاج وسيشكو لها. والساعة الآن الحادية عشرة، وليس لديها ما تفعله حتّى الساعة الثالثة حين يراود النّوم مقلتيها. فهل تزجي الوقت بالقراءة؟ ولكن ماذا تقرأ وليس لها من رغبة في القراءة؟ أم تظلّ جالسةً تفكّر، وذلك أبهظ على نفسها. حقاً، ما أتعب الحياة في بعض الأحيان!

زفرت داشا، وفتحت غطاء البيانو وجلست موليةً جنبها إلى المفاتيح، وراحت تسترجع في يدٍ واحدة لحناً لسكريابين. إنَّ الإنسان ليجد عُسراً في الحياة إذا كان في سن غير مُريحة كأن يكون في التاسعة عشرة، ولا سيما إذا كان فتاةً، وذكيّةً جداً، وصارمةً كثيراً، بسبب من نقاء أبله، مع أولئك الذين كانوا يبدون رغبتهم في تبديد ضجر الفتاة، وما أكثرهم!

في العام الماضي وصلت داشا إلى بطرسبورغ قادمةً من سامارا لتدخل دورات الحقوق، وأقامت عند أختها الكبيرة يكاترينا دميترييفنا سموكوفنيكوفا التي كانت متزوّجةً من محامٍ يتمتّع بشهرةٍ كبيرة؛ فكانت حياتهما صاخبةً ومُرفّهة.

كانت داشا أصغر من أختها بحوالي خمسة أعوام، وكانت ما تزال صبيّةً حين تزوّجت أختها، فكانت لقاءات الشّقيقتين في الأعوام الأخيرة قليلة، والآن بدأت بينهما علاقاتٌ جديدة: علاقاتُ محبّةٍ عند داشا، وعلاقات حنانٍ عند يكاترينا دميترييفنا.

كانت داشا في البداية تُحاكي شقيقتها في كلّ شيء، وتعجب بجمالها، وذوقها، وقدرتها على التّصرّف مع الناس. وكانت تخجل

في حضـرة أصدقائهـا، ولكنّ حياءهـا كان يجعل كلامهـا لاذعاً مع بعضهـم. كانت يكاترينـا دميتريفنا تسعى إلى أن تجعـل بيتها نموذجاً للـذّوق والجِدّة التي التي لم تصل بعد بين عامّة الناس. وكانت لا تترك معرضاً دون أن تشهده، وتشتري اللوحات لرسامين مُستقبليين. ومن جـراء ذلك كانت لها مع زوجها أحاديث شديـدةٌ في السَّنة الأخيرة، لأنّ الـزّوج كان يحبّ اللوحـة التي تنمّ عن فكرة عميقة، بينما كانت الزّوجة بكلّ حماسها النّسويّ تفضّل أن تُعاني في سبيل فنٍّ جديد على أن تُعتبرَ مُتأخّرةً في الذّوق.

وكانـت داشـا أيضـاً مُعجبةً بتلك اللوحـات الغريبـة المُعلّقة على جُـدران غُرفـة الجُلوس إلا أنها كانت قول لنفسهـا مفحومة: إنّ هذه الشّخوص المربّعة بوُجوههـا الهندسيّة وبعدد مـن الأيدي والأرجل أكـثر من اللازم، وتلك الألـوان الباهتة كالصّداع ما هي إلا نوعٌ ثقيل هازئ من الشّعر أعلى بكثير مما تستوعبه مخيّلتها الخاملة.

جرت العـادة أن نجتمع في بيـت آل سموكوفتيكوف كلّ ثلاثات مجموعـةً من الضُّيـوف صاخبةً مرحة لتتناول العشـاء في غرفة الطّعام المُؤثثـة برياشٍ مصنوع من خشـب القيقب. كان بينهـم مُحامون من هـواة الكلام، وزِيَرَةُ نسـاء، ومُتتبعون مُتحمّسون للتيـارات الأدبيّة؛ وصحفيّان أو ثلاثة علّامون فهّامون بأصول مُمارسة السّياسة الداخليّة والخارجيّـة؛ والناقد العصبيّ المِـزاج تشيرفا المبيّت أبـداً لكارثة أدبيّة أخرى. وفي بعض الأحيان كان يأتي في وقت مُبكّر شُعراءٌ شبان كانوا يتركـون دفاتر أشعارهم في جيوب معاطفهـم في رواق البيت. وقبيل بـدء العشاء كانـت تصل شخصيّةٌ شهيرة، وتتقدّم مـن ربّة البيت على مهـل، وتتّخذ مجلسها في مقعد وثير بعظمـة ووقار. وأحياناً، والعشاء في مُنتصفـه كان الضُّيـوف يسمعـون خشخشـةً كالوشـين جلديين يُخلعان في الرّواق، وصوتاً مخملياً يقول:

"السّلام عليك، أيّها المغوليّ العظيم!" وبعد ذلك كان وجهٌ حليق ذو خيشومـين متدلّين، وجه فنانٍ يُمثّل على الدّوام دور العاشق ينحني على كرسيّ ربّة البيت، ويقول:

– يا عزيزتي كاتيوشا[٤]، هاتي يدك!

كانت داشا تعتبر أختها الشّخص الرّئيسيّ في هذه الحفلات، وتحنقُ على من كان لا يعيرها اهتماماً كبيراً، وهي العذبة، الطّيّبة، الصافية القلب، وتغار ممن يُفرط في التّودّد إليها. فتحدجه بعينين غاضبتين.

ثمّ أخذت داشا تنفذ بالتّدريج إلى هذا العدد المُذهل من الوُجوه. فصارت الآن تزدري مساعدي المحامين، إذ لم تر شيئاً مهما فيهم عدا سُتَرهُمْ الطّويلة الوبراء، وأربطتهم البنفسجيّة، ومفارقهم عبر رؤوسهم كلّها. كما كرهت الفنان العاشق، لأنّها لم تر له الحقّ في أن يُسمي أختها يكاترينا بـ"كاتيوشا" ولا أن يدعو المغولي العظيم بلقبها البيتي هذا، ولا أن يقول وهو يضيق عينيه المُرتخيتين صوب داشا تتميّز غيظاً كلّما أقدم الرّجل على ذلك. كانت وجنتاها متورّدتين حقاً، ولكنّها لم تستطع التّخلّص من لون زهر شجرة اللوز هذا، اللون الملعون، فكانت وهي وراء المائدة تحسّ وكأنّها دميةٌ خشبيّةٌ ملوّنة.

ولم تُسافر داشا في الصّيف إلى أبيها في سامارا المُغبرة القائظة، وقبلت بفرح أن تظلّ عند أختها على ساحل البحر في سيستروريتسك. فالتقت هنا بنفس الناس الذين التقت بهم في الشتاء، لكنّهم كانوا يلتقون أكثر من قبل راكبين القوارب، سابحين، جالسين في الغابة يأكلون الدوندرمه. وفي الأماسي كانوا يستمعون إلى الموسيقى، ويتناولون عشاءهم تحت النّجوم، في شرفة الكازينو مضوضئين صاخبين.

٤– أو كاتيا صيغة التحبب والتصغير لإسم يكاترينا. (المُترجم).

وكانت يكاترينا دميتريفنا قد أوصت لداشا على ثوب أبيض مُطرّز بالساتان، يتوسّطه نطاقٌ حريريٌّ عريض ينتهي بعُقدة كبيرة عند ظهرها، وقبّعةٍ كبيرةٍ من الكريشة البيضاء مُحاطة بشريطٍ أسود. وإذا بداشا تجد نفسها موضع حبّ نكانور يوريفيتش كوليتشيك مُساعد زوج أختها، وكأنّه فتحوا عيني هذا الرجل فجأةً.

إلا أنه كان من "المُحتقرين". وتميّزت داشا غيظاً، ودعتهُ إلى الغابة، ودون أن تتركه يتفوّه بكلمة واحدة في الدفاع عن نفسه (كل ما استطاع هو أن مسح بمنديل يشدّ عليه قبضته) قالت له أنها لن تسمح لأحد بأن ينظر إليها كـ"أنثى"، وأنها حانقةٌ، وتعتبر شخصاً ذا مخيّلة فاسقةً، وأنها ستشكوه اليوم حالاً إلى زوج أختها.

وقد شكت إلى زوج أختها في ذلك المساء ذاته. أصغى نيقولاي إيفانوفيتش إلى قصّتها كلّها. وهو يمسّد لحيته المُعتني بها جيداً، ناظراً بدهشة إلى وجنتيها المتورّدتين من الغيظ، وإلى قبّعتها الكبيرة المُهتزّة غيظاً، وإلى كلّ قوامها الرّشيق في ثوبها الأبيض، ثم جلس على الرمل عند الماء، وراح يقيقه حتى أخرج منديله من جيبه، ومسح به عينيه قائلاً:

– اذهبي، يا داريا، اذهبي، ستجعلينني أموت من الضّحك!

فانصرفت داشا غير فاهمة شيئاً، في حيرة وارتباك. ومنذُ ذلك الحين لم يجرأ كوليتشيك على أن يرفع عينيه إليّ دائماً، وقد نحلَ ومالَ إلى الوحدة. وأنقذ شرف داشا. إلا أنّ هذه القصة كلّها أثارت فجأةً مشاعر كانت غافيةً في أعماق عُذريّتها. واختلّ التّوازن الرّقيق، وكأنّ ذاتاً أخرى خانقة، حالمة، عديمة الشّكل، كريهة قد نمت في جسم داشا كلّه من الرّأس حتى أخمص القدم. فاستشعرته بكلّ جلدها، وتعذّبت وكأنّما من دنس، واستولت عليها الرّغبة في أن تزيل عن نفسها نسيج

العنكبوت غير المرئيّ هذا وتعود من جديدٍ عضّة، متبرّدة، خفيفة.

وصارت تقضي ساعات بكاملها في لعب التّنس، وتسبح مرّتين في اليوم، وتستيقظ في الصَّباح الباكر حين تكون قطراتُ النّدى الكبيرة ما تزالُ متلألئةً على أوراق الشّجر، والبُخار يتصاعد من البحر الليلقي، الصقيل كالمرآة، المقاعد النّدية موزّعةٌ على الشرفة الفارغة، والممرات الرمليّة الرطبة منكوسة.

إلا أنَّ تلك الذات الثانية كانت ترتدّ حيّةً بعد أن تتدفّأ في الشمس، أو في الفراش الناعم ليلاً، وتتسلّل إلى قلب داشا بحذر، وتعصرها بيدها الطّريّة. وكان من المُستحيل إقصاؤها عنها، أو إزالتها، تماما مثل الدّم على المفتاح المسحور في حكاية اللحية الزّرقاء.

وصار جميع المعارف، وأختها الأولى بينهم، يرون داشا قد وقت محاسن في هذا الصيف وهي تزداد حُسناً كلّ يوم. وذات صباح جاءت يكاترينا دميتريفنا إلى شقيقتها، وقالت:

– ماذا سيكون علينا أن نفعل بعد الآن؟

– ما الأمر، يا كاتيا؟

جلست داشا في قميص النّوم على السّرير، ولوت شعرها في عُقدةٍ كبيرة.

– أنتِ تزدادين حُسناً، فماذا سنفعل بعد هذا؟

حدّقت داشا إلى شقيقتها بعينيها الصارمتين المُظلّلتين برموشٍ طويلة، وأعرضت عنها. ولوّن الدّم وجنتيها وإذنها.

– لا أريد، يا كاتيا، أن تتحدّثي معي على هذا النّحو. فإنَّ ذلك يُضايقني. أتفهمين؟

جلستْ يكاترينا دميتريفنا على السّرير وضغطت خدّها على ظهر

داشا العاري، وضحكت مقبلةً شقيقتها ما بين دفتي كتفيها. وقالت:

– مـا أسرع الغضب إليك! من أنت؟ قنفـذ أو هرّةٌ بريّة؟ ذات مرّة ظهر في ساحة التّنس رجلٌ إنجليزيٌّ نحيل، حليق، بارز الذّقن، طفوليّ العينـين، في قيافةٍ لا شائبة فيها جعلت بعض الشّبان من بطانة يكاترينا دميترييفنا في جزعٍ مـن أمرهم. دعا الإنجليزيّ داشا إلى اللعب ولعب معهـا كالآلة. وبدا للفتاة أنّ مُلاعبهـا لم يلق نظرةً عليها خلال اللعب كلّـه. بل كان ينظُر خلالها. وخسرت داشـا اللُعبة، وعرضت عليه أن يُلاعبهـا مرّةً أخرى. طوت داشا كمّي بلوزتهـا البيضاء لتكون أخفّ حركة. وخلال اللّعب تدلّت خصلة شعرٍ من تحت طاقيّتها من البيكه، ولكن دائماً لم تعدها إلى موضعها. وفكّرت في سرّها وهي تصدّ الكرة بضربةٍ قويّة قرب الشبكة تماماً:

"الفتاة الروسيّة البارعة رشاقةٌ لا تلمح في كلّ حركاتها، وتورّد الوجنتين يلائم محياها".

وربح الانجليزيّ اللعبة الثانية أيضاً، وانحنى لداشا بمُنتهى الجفاف. وأشعـل سيـكارةً شذيّة الرائحـة، وجلس على مقربـةٍ، بعد أن طلب لنفسه قدحاً من شراب الليمون.

ولعبت داشا اللعبة الثالثـة مع طالب مدرسة مشهور، فكانت أثناء اللعـب تلقى من طـرف عينيها نظرات على الأنجليـزيّ، فتراه جالساً وراء طاولـة صغيرة وقد وضع ساقاً على ساق وطوّق بيديه رسغ قدمه بجوربهـا الحريريّ، ودفع قبّعة القشّ إلى مؤخّرة رأسه، وراح يُحدّق في البحر دون التفات.

وفي الليل، حين كانت داشا مُضطجعةً على سريرها استرجعت كلّ ذلـك، متصـوّرةً نفسها بوضوح وهي تقفـز في ساحة اللعب، محمرّة الوجـه، متهدّلة خصلـة الشّعر، فإذا بها تبكي مـن كبريائها الجريحة، ومن شيءٍ آخر كان أقوى منها.

وكفّت عن الخُروج إلى التّنس منذ ذلك اليوم، حتى قالت لها يكاترينا دميتريفنا ذات مرّة:

– يا داشا، إنّ مستر بيلس يسأل عنك كلّ يوم لماذا كففت عن اللعب؟

قغرت داشا فاهها من شدّة الفزع. ثم قالت حانقةً إنّها لا تُريد أن تسمع "أقاويل حمقاء"، وإنّها لا تعرف شخصاً بهذا الإسم، ولا تريد أن تعرف وهو، بصراحة، وقح إذا كان يتصوّر إنها بسببه قد كفّت عن الاشتراك في "لعبة التّنس الحمقاء هذه". ورفضت داشا الخُروج إلى الغذاء، ووضعت في جيبها خبزاً وحبّات من عنب الثّعلب، وخرجت إلى الغابة. وبينما كانت تتمشى في ذلك الحرش الصّنوبريّ الفواح برائحة صمغ حارّ، بين الأشجار الطّويلة الحمراء الجُذوع بأعاليها المُتمايلة مع حَفيف الريح قررت مع نفسها أنّ أيّة إمكانيّة لم تبق للتمادي في إخفاء الحقيقة المؤسفة: غرامها بالإنجليزيّة، وتعاستها اليائسة.

وهكذا نما الشّخص الثاني في نفس داشا، رافعاً رأسه شيئاً فشيئاً. في بادئ الأمر كان وجوده كريهاً كالدّنس، مؤلماً كالدّمار. وبعد ذلك تعوّدت داشا هذه الحالة المُعقّدة، مثلما تتعوّد النّساء في الشتاء على المشدّ والثّياب السميكة بعد انتهاء الصّيف والنّسيم الطريّ، والماء المُنعش ببرودته.

وقضت داشا أسبوعين في حبّها الأنوف للإنجليزيّ. كانت تكره نفسها، وتحنق على هذا الرّجل. وقد رأته عدّة مرات من بعيد يلعب التّنس بتكاسل وبراعة، ويتعشى مع البحارة الروس، فكانت تقول لنفسها أنّه أكثرُ رجال الأرض جاذبيّةً على الإطلاق.

إلا أنّ فتاةً فارعة الطول نحيلة ترتدي لباساً من الفانيلة البيضاء

ظهـرت إلى جانبه فجأةً. إنّها خطيبتـه الإنجليزيّة. وإذا بهما يرحلان. وقضـت داشا ليلـةً مؤرقة، وبغضت نفسهـا بغضاً مشوبـاً باشمئزازٍ ضار. وقبيل الصّباح قالت لنفسها: لتكن هذه آخر غلطةٍ في حياتي.

وهـدأت بهذا التّفكير، بل وأدهشها، فيما بعد، أن يزول كلّ ذلك بمثـل السّرعة والسّهولـة. ولكن لم يزل كلّ شـيء. فقد أضحت تحسّ الآن وكأنّ "الشّخص الثـاني" ذاك قد اندمج فيها، وذاب في داخلها، واختفى، وهي الآن فتاةٌ أخرى: أنها كما كانت من قبل خفيفة، غضّة، ولكن كيانها كلّه كأنما أضحى أطرى وأرقّ، واكثر غُموضاً، وبشرتها أضحت أشف، حتى أنّها لم تتعرّف على وجهها في المرآة. ثم أنّ عينيها بوجـه خاصّ، عينيها الرائعتـين أضحتا عينين أخريـين، إذا نظر المرء فيهما صعد الدوار إلى رأسه. في أواسط آب انتقل آل سموكوفنيكوف مع داشا إلى شقّتهما الكبيرة في شارع بانتليموتوفسكايا بطرسبورغ. وعـادت من جديد حفلات العشاء أيام الثلاثـاء، ومعارض الصّور أو حفلات العرض الأوّل الصاخبـة في المسارح، ودعاوي الفضائح في المحاكـم، وشراء اللوحـات، وتفخيم الماضي، والرحـلات الليلية إلى الغجـر في مطعم "سمرقند". ظهر الفنـان العاشق من جديد وقد ألقى عـن جسمه في مصح المياه المعدنية ثلاثة وعشرين رطلاً. وأضيفت إلى كلّ هـذه المسرّات اللاغية شائعاتٍ مبهمة، مثـيرة وسارة عن حُدوث تحوّلٍ وشيك.

ولم تعـد لداشا متّسعٌ من الوقـت للتفكير ولا للشعور: في الصباح كانـت تختلف إلى المُحاضرات، وفي الساعة، الرابعة تخرج للتنزّه مع أختهـا، وفي المساء للمســارح والحفلات الموسيقيّـة، والدّعوات إلى العشاء، والناس، ولا دقيقةٍ واحدة تخلو فيها إلى نفسها.

وفي أمسيةٍ من أمسيات الثلاثاء، بعد أن فرغ الضّيوف من العشاء،

وراحـوا يحتسـون خمرة "الليكـور" دخـل أليكسـي ألكسييفيتش بيسونوف غرفـة الجُلوس، ولما وقع بصر يكاترينا دميتربيفنا عليه قرب الباب صبغت وجهها حمرةٌ قانية. وقطع الضّيوف حديثهم المُشترك. جلسـ بيسونوف على الأريكة، وتناول فنجان القهوة من يد يكاترينا دميتربيفنا.

جلسـ بالقُرب منه مُحاميان، هما مـن المُتضلّعين في الأدب، إلا أنّ بيسونـوف ابتدر يقول على غرة، وهو يرمق ربـة البيت بنظرةٍ طويلةٍ غريبـة، إنّ الفنَّ لا وُجود له على الإطـلاق، بل هناك دجل، وشعوذةً حاوٍ يجعل قرداً يتسلّق السماء على حبل.

"ولا يوجد شعر، إنّ كل شيء قد انقرض منذ زمانٍ قديم: الناس، والفن. أما روسيا فهي فطيسةٌ يحومُ عليها سربٌ من الغربان في وليمةٍ للغربان. وجميع الذين يكتبون الشّعر سيدخلون جهنم".

كان يتكلّـم بصوتٍ واطئ النبرة خالٍ من الرّنين، وتورّدت بقعتان علـى وجهه الحانـق الشاحب. وكانت ياقة قميصـه مدعوكة، ورماد السكائـر مُتناثراً على سترته. وكانت القهوة تنسكب على البساط من القدح الصّغير الذي يمسكه.

كان مُتضلّعا الأدب يُريدان إثارة جدال، إلا أنّ بيسونوف ظلّ يُتابع يكاترينـا دميتربيفنا بعينين غشتهما دكنـة، دون أن يعيرهما التفاتاً. ثم نهض وتقدّم نحوها، وسمعتْ داشا قوله:

– أنـا لا أطيق مجتمع الناس، فاسمحـي لي بالانصراف. طلبت إليه يكاترينـا دميتربيفنا بوجـلٍ أن يقرأ شيئـاً. فهزّ رأسـه. ووقف طويلاً ضاغطاً يدها إلى شفتيه، يودّعها، حتى احمرّ ظهرها احمراراً شديداً.

وبـدأ النّقاش بعد انصرافه. أجمَعَ الرجال على أنَّ: "هناك حُدوداً،

علـى أيّة حال، ولا يجوز له أن يحتقر مُجتمعنـا بهذا الشّكل السافر".
وتَنَقَّل الناقد تشيرفا من واحدٍ إلى آخر، وهو يكرّر:

"أيّهـا السـادة، إنّـه سكرانٌ كليـاً". واتّفقت السّيـدات على أنّ "بيسونوف سواء أكان سكران أم مُنساقاً مع مزاجه الخاصّ فإنّه رجلٌ مُثير على حدٍّ سواء، وليكن ذلك معلوماً للجميع".

في اليوم التالي قالت داشا عند الغداء أنّها تعتبر بيسونوف واحداً من أولئك الأشخاص "الحقيقيين" تعيشـ حلقة يكاترينا ديمتريفنا بأسرها علـى انفعالاته، وآثامه، وذوقه، وكأنما علـى الضوء المُنعكس منه. "أنا أفهم، يا كاتيا، أنّ مثل هذا الرجل يُمكن أن يُفقد المرأة صوابها".

ارتبكَ نيقولاي إيفانوفيتش وقـال: "مجرّد أنّ شهرته قد صعقتكِ، يـا داشـا". واعتصمـت يكاترينـا دميتريفنـا بالصمـت. ومنذ ذلكَ الحـين لم يزر بيسونـوف آل سموكوفنيكوف. وشـاع أنّه يُطيل البقاء في غرفـة الممثّلة تشاراديفا وراء كواليسـ المسرح. وذهب كوليتشيك مـع أصحابه ليروا تشاراديفا نفسهـا، فأصيبوا بخيبة ظنّ، فقد كانت نحيلةً كالهيكل العظميّ مجرّد تنوّرات مدنتلة.

ذات مـرّة التقت داشا ببيسنوف في أحد المعارض. كان واقفاً عند النافـذة يتصفّح فهرس المعرض بلا مُبـالاة، بينما وقفت أمامه طالبتان قميئتـان تنظـران إليـه بابتسامتين خامدتـين، وكأنّهما أمـام تمثالٍ في متحـف الشّمع. مرّت داشا به بطيئة الخُطى، ودخلت القاعة الأخرى وجلست على مقعد، فقد شعرت بتعبٍ في قدميها، وبكآبة.

وبعد هذا الحـادث اشترت داشا تصوير بيسونوف، ووضعتهُ على الطاولة. وقصائده—المجموعة في ثلاثة دواوين صغيرة بيضاء الغلاف— قد تركت في نفسها بادئ الأمر شعوراً بالتّسمم: قضت ثلاثة أيام غير مُتمالكـةً شعورها، وكأنّها أضحت شريكةً في قضيّـةٍ سريّةٍ خبيثة. إلا

أنها بعد أن أعادت قراءة قصائده صارت تجد مُتعةً في تلك الأحاسيس الموجعة وكأنَّ أحداً يهمس لها داعياً إياها لأن تفقد صوابها وترتخي، وتنثر شيئاً ما غالياً، وتحنّ إلى شيءٍ لن يكون.

وبسبب بيسونوف أخذت تتردد على جمعيّة "الأمسيات الفلسيفيّة". وكان بيسونوف يأتي إلى الجمعيّة في وقت متأخّر، ويتحدّث بندرة، إلا أنّ داشا كانت تعود إلى البيت في كلّ مرّةً مُستثارة وكانت مسرورةً إذا رأت في البيت ضيوفاً. صمتت كبرياؤها المهانة.

واليوم كن عليها أن تسترجع ألحان سكريابين في وحدة. كانت الأصوات، كالكرات الثّلجيّة، تتساقط ببطء في داخل صدرها، نافذةً إلى أعماق تلك البحيرة المُظلمة التي لا قعر لها. وحين كانت تسقط كانت تغضن سطح الماء وتغرق. ويصير الماء بين مدٍّ وجزر، وفي الظّلمة الساخنة، يدقّ القلب دقاً أجوف مذعوراً، وكأنَّ شيئاً مُستحيلاً سيحدثُ عاجلاً، الآن، في هذه اللحظة.

أرخت داشا ذراعيها على ركبتيها، ورفعت رأسها. في الضوء الهادئ لظليلة المصباح البُرتقاليّة كانت وجوهٌ قرمزيّة، منتفخة، ذات عيون جاحظة تطلّ من الجدران، وكأنّها أشباح فوضىً ما قبل الطّوفان، المُتشبّثة بعطش بسياج جنّة عدن في اليوم الأوَّل للخليفة.

قالت داشا لنفسها: "نعم، يا مولاتي، إنّ قضيّتنا لخاسرة". وتحرّكت أصابعها سريعةً في سلّم موسيقيّ من اليسار إلى اليمين، ثمّ أنزلت غطاء البيانو دون أن تحدثَ صوتاً، وأخرجت سيكارةً من علبةٍ يابانيّة، وأشعلتها. وسعلت، وسحقتها في النّفاضة.

صاحت داشا بصوتٍ يمكن أن يسمع عبر أربع حُجرات:

– يا نيقولاي إيفانوفيتش، كم الساعة؟

سقط شيءٌ في المكتب، ولم تتلقّ داشا جواباً. ظهرت "المغوليّ

العظيم"، وأعلنت، وهي تتطلّع إلى نفسها في المرآة، أنَّ العشاء جاهز.

جلست داشا في غُرفة الطعام أمام زهريّة فيها زهورٌ ذابلة. وأخذت تقطّعها بإصبع فتتساقط أوراقها على مفرشٍ المائدة. قدّمت "المغوليّ العظيم" الشاي، واللحم البارد، والبيض المقليّ، وأخيراً جاء نيقولاي إيفانوفيتش في بدلة زرقاء جديدة، ولكنّها بدون ياقة. وكان شعره غير مُصفّف، ولحيته مائلةٌ إلى اليسار، وقد تعلّقت فيها ريشةٌ من وسادة الأريكة.

انحنى نيقولاي إيفانوفيتش لداشا عابساً، وجلس في طرف المائدة، وقرّب منه مقلاة البيض، وشرع يأكل بنهم. وبعد ذلك أسند مرفقه إلى حافّة المائدة، ووضع خدّه على قبضته الكبيرة المُشعرة، وثبّت عينيه غير الرائيتين إلى كومة الوريقات المقطوعة، وقال بصوتٍ واطئٍ غير طبيعيٍّ تقريباً:

– في الليلة الماضية خانتني أختك.

٤

أنّ شقيقتها، كاتيا، اقترفت شيئاً رهيباً، غامضاً، أسود. في الليلة الماضية استقرّ رأسها على وسادة، وقد أعرض عن كلّ شيءٍ حيّ، عزيز، دافئ، بينما انسحق جسدها، وتشوّه. على هذا النّحو فهمت داشا، وهي ترتعش فزعاً، ما سمّاه نيقولاي إيفانوفيتش خيانة. وفوق كلّ ذلك لم تكن كاتيا في البيت، كأنّما لم يعد لها وجود في الدُّنيا.

في الدّقيقة الأولى كادت داشا تغيب عن الوُجود، وأظلم بصرها. وانتظرت مكتومة الأنفاس أن ينفجر نيقولاي إيفانوفيتش منتحباً، أو يصرخ بشيءٍ مُفزع. إلا أنه لم يضف كلمةً أخرى إلى ما أعلنه،

وراح يُدير بين أصابعه حمالة الشوكات. و لم تدرؤ داشا على النّظر في وجهه.

وبعد فترة طويلة من الصمت دفع الكرسيّ عن المائدة بحركة حادّة وذهب إلى مكتبه. وقالت داشا لنفسها: "سيطلق النار على نفسه". ولكنّ هذا أيضاً لم يحدث. وتذكّرت داشا بأسف حادٍّ خاطف يده الكبيرة المُشعرة على المائدة. ثمّ اختفى عن بصرها، وظلّت داشا تكرّر: "ما العمل؟ ما العمل؟" ورَنَّ في رأسها؛ كلّ شيءٍ قد فسد وتحطّم.

ظهرت "المغوليّ العظيم" من وراء ستارة الجوخ تحمل صينيّة؛ نظرت داشا إليها، وأدركت في الحال أنَّ "المغوليّ العظيم" لن تكون بعد الآن. فاضت دموعها من عينيها، وصكّت أسنانها بقوّة وركضت إلى غُرفة الجلوس.

هُنا، كانت كلّ الأشياء، حتى أصغر الدّقائق، قد رتّبتها، وصفّتها يدا كاتيا في رعايةٍ وحُبّ. إلا أنّ روح كاتيا قد غادرت هذه الغُرفة، وانقلب كلّ شيءٍ فيها حوشياً وخالياً من الحياة. جلست داشا على الأريكة، واستقرّ بصرها بالتّدريج على لوحةٍ اشتريت منذ وقتٍ قصير. ولأوّل مرّةٍ رأت داشا وفهمت ما كان مرسوماً فيها.

كانت اللوحة تصوّر امرأةً عارية رسمت بلونٍ أحمر مُتقيّح، وكأنّ جلدها مسلوخ. فمها منحرفٌ إلى جانب، وفي موضع أنفها ثقبٌ مثلّث، ورأسها مربّع، وقد ألصقت بها قطعة قماش. والساقان مثل خشبتين مُستديرتين مُنفصلتين. وفي اليدين زهرة. وبقيّة التّفاصيل فظيعة. وأفظع ما في اللوحة الرّكن البُنيّ الكدر الذي جلست فيه المرأة مُنفرجة الساقين. وقد أطلق على اللوحة اسم "حب". وكانت كاتيا تسمّيها فينوس الحديثة.

"لهذا السبب، إذن، كانت كاتيا مُعجبةً كثيراً بهذه الأنثى الفاسقة.

وهـي الآن مثلها، تحمل وردةً في رُكن". انبطحت داشا، ووجهُها إلى الوسـادة، وأخذت تبكـي عاضّةً على شفتيها لتكتـمَ صوت بُكائها. وبعـد برهةٍ من الوقت دخل نيقولاي إيفانوفيتش غرفة الجُلوس. باعد بـين ساقيه، وراح يضـرب زناد قداحته في غضب، وتقـدّم من البيانو وأخذ يدقّ على مفاتيحـه. وإذا بدقاته تتحوّلُ فجأةً إلى أغنية بسيطة. وشعـرت داشا ببرودةٍ تسري في أوصالها. صفّق نيقولاي إيفانوفيتش غطاء البيانو، وقال:

– كان يجبُ توقّع ذلك.

أعـادت داشـا هذه الجُملة في سرّهـا عدّة مرات، محاولـةً أن تفهم معناهـا. وفجـأةً رنّ الجرس رنّةً حـادّةً في الـرّواق. أمسكَ نيقولاي إيفانوفيتش لحيته، إلا أنّه قال بصـوت مكتوم: "أو–أو أو!" ولم يفعل شيئـاً سوى أنّـه أسـرع في الدّخـول إلى مكتبه. وأرسلـت خطوات "المغوليّ العظيم" في الدّهليز صوتاً مثل صوت الحوافر. ووثبت داشا من الأريكة. غامت الدُّنيا أمام عينيها، وقلبها يخفقُ بشدّة، وخرجت إلى الرّواق.

كانت يكاترينـا دميتريفنا هناك تفكّ الأشرطـة الليلقيّة لقلنسوتها الفرائيّـة بأصابع خدرها البرد، وكانت تقضُّ أنفها. عرضت لأختها خدّهـا المُتـورّد البارد لتقبّلـه، إلا أنّها لم تتلقّ القبلـة المرجوّة فنفضت رأسهـا لتلقـي القلنسوة عنـه، وتفرّست عيناهـا الرّماديّتـان بأختها. وسألت بصوتها الواطئ العميق العذب الفاتن أبداً:

– هل حدث شيءٌ عندكم؟ هل تشاجرتما؟

أخذت داشا تنظر إلى كالوشِ نيقولاي إيفانوفيتش الجلديّ. وكان يسمّـى في البيت بـ"الكالوش المُتحـرّك بذاته". وكان في تلك اللحظة يقبع مُهملاً. وارتعشَ ذقنُ داشا.

– لا، لم يحدث شيء. مجرّد مزاج.

فكّت يكاترينا دميتريفنا ببطء الأزرار الكبيرة على معطفها من فراء السّنجاب ونضّته مجنها بحركةٍ من كتفيها العاريتين، وها هي بكليتها دافئة، حنون، تعبى. وانحنت بشدّةٍ لتفكّ حذاءها الطّويل، وقالت:

– تبلّلت قدماي، وأنا أبحث عن سيارة.

عندئـذ سألت داشـا بحدّة، وهـي مُستمرّةٌ في النّظـر إلى كالوش نيقولاي إيفانوفيتش:

– أين كنتِ، يا كاتيا؟

– في عشـاء أدبيّ، يـا عزيزتي، تكريمـاً لشخص لا أعرف حتى اسمه، قسماً بالله. نفس النّمط. أنا تعبةٌ إلى حدّ الإعياء، وأريد أن أنام.

ودخلـت غرفـة الطّعـام. وألقت حقيبتهـا الجلديّة علـى المفرش، ومسحت أنفها الصّغير بمنديلها، وسألت:

– من قطعَ وريقات الزّهور؟ وأين نيقولاي إيفانوفيتش؟ أهو نائم؟

وتملّكت الحيرة داشا، فإنَّ شقيقتها لا تُشبه المرأة الفاسقة في اللوحة مُطلقـاً، ولم تكن غريبةً عليها، بل وهي اليـوم، لسببٍ ما، أقرب إليها من أيّ وقتٍ مضى، حتى لودَّت لو تمسد عليها بكليتها.

ومع ذلك فقد قالت داشا بكلّ ما في روحها من حُضور، وأظفرها يخدش المفرش في الموضع الذي تناول فيه نيقولاي إيفانوفيتش البيض المقليّ قبل نصف ساعة:

– يا كاتيا!

– ماذا، يا عزيزتي؟

– أنا أعرف كلّ شيء.

– ماذا تعرفين؟ بالله، ما الذي حصل؟

وجلست يكاترينا دميتريفنا إلى المائدة، ماسةً بركبتيها ساقيّ داشا، مُتطلّعةً إليها بفُضولٍ من الأسفل إلى الأعلى.

قالت داشا:

– كشفَ لي نيقولاي إيفانوفيتش كلّ شيء.

ولم تنظر إلى وجه شقيقتها، لترى ما يعصف في داخلها. وبعدَ صمتٍ طويلٍ جداً يكاد يفتك بالنّفس قالت يكاترينا دميتريفنا بصوتٍ حانق:

– أيّ خبرٍ عاصفٍ أعلن نيقولاي إيفانوفيتش؟

– أنتِ تعرفين، يا كاتيا.

– لا، لا أعرف.

وقد فاهت بـ"لا أعرف" هذه، وكأنَّ كرةً ثلجيّةً تكوّرت من هذه الكلمة.

وفي الحال هوت داشا على قدميها:

– إذن، فقد يكون ذلك غير صحيح؟ كاتيا، يا عزيزتي، ويا مُهجتي، يا شقيقتي الجميلة، قولي لي: كلّ ذلك غيرُ صحيح؟ وغطّت داشا بالقُبل السّريعة يد كاتيا الرّقيقة، العابقة بالعطر، ذات العُروق الزّرقاء كالجدول.

أجابت يكاترينا دميتريفنا، مغمضةً عينيها في وني:

– غيرُ صحيح، طبعاً. وها أنتِ تبكين فوراً. وغداً ستُصبح عيناك حمراوين، وأنفك منفوخاً.

ورفعت داشا، وظلّت تطبق شفتيها على شعرها طويلاً. وهمست داشا في صدرها:

– أنا حمقاء!

وفي تلك اللحظة صَدَرَ صوت نيقولاي إيفانوفيتش العالي الواضح من وراء باب مكتبه:

– إنّها تكذب!

التفتت الشّقيقتان فجأة، إلا أنّ باب المكتب كان مُغلقاً. قالت يكاترينا دميتريفنا:

– اذهبي للنّوم يا صغيرتي، أمّا أنا فذاهبةٌ لأستوضح الأمر. يا له من أمرٍ مُمتع، وأنا لا أكاد أقف على قدمي.

رافقت داشا إلى غرفتها، وقبّلتها ساهمة، ثمّ عادت إلى غرفة الطّعام، فاختطفت محفظتها، وعدّلت من وضع المشط على رأسها، ودقّت باب المكتب بإصبعها بهدوء.

– افتح، نيقولاي، أرجوك.

إلا أنها لم تتلقّ جواباً. كان صمتٌ منحوس، أعبقه نخيرٌ من أنف، وقلقلةُ مفتاح، ودخلت يكاترينا دميتريفنا، فرأت ظهر زوجها العريض. لم يلتفت إليها، بل سار نحوَ الطاولة، وجلس في المقعد الجلديّ، وتناول سكيناً من عظم العاج، ومرّره بحدّةٍ على كتاب (هو رواية فاسيرمان "رجل الأربعين").

فعل كلّ ذلك وكأنَّ يكاترينا دميتريفنا لم تكن في الغُرفة. جلست يكاترينا دميتريفنا على الأريكة، وجذبت تنّورتها على ساقيها، وأخفت منديلها في المحفظة، وسدّت قفلها. وبتلك الحركة ارتجفت خصلة الشّعر على هامة نيقولاي إيفانوفيتش. قالت يكاترينا دميتريفنا:

– شيءٌ واحدٌ لا أفهمه. أنت حرٌّ في أن تظنّ ما تشاء من الظُّنون،

ولكنّي أرجو ألا تشرك داشا في أمزجتك.

عندئـذ استدار على مقعـده بحمية، ومدّ رقبتـه ولحيته، وقال من خلال أسنانه:

– إذن، عندك الوقاحة الكافية لتسمّى ذلك مزاجي؟

– أنا لا أفهم.

– رائع! لا تفهمين؟ أما أن تتصرّفي كإمرأةٍ رخيصة، فأنتِ تفهمين، كما يبدو؟

فتحت يكاترينا دميتريفنا فمها قليلاً عند سماعها هذه الكلمات. وقالـت بهدوء وهي تنظر إلى وجه زوجهـا المُحمرّ بشدّة حتى تفصد بالعرق وجهه المشوّه غيظاً:

– قل لي: متى بدأت تتحدّث معي بهذه اللهجة المُهينة؟

– أرجـو المعـذرة، يا مولاتـي! ولكنّني لا أجيد التّحـدّث بلهجةٍ أخرى. وباختصار أودّ لو أعرف التّفاصيل.

– أيّة تفاصيل؟

– لا تكذبي عليّ في وجهي.

– هذا ما تعنيه إذن، –قالت ذلك، وتقلّبت عيناها الوسيعتان وكان ذلك من مُنتهى التّعب، –اليوم قلتُ لك شيئاً ما... ونسيته مُطلقاً.

– أريد أن أعرف مع من حصل ذلك.

– أنا لا أعرف.

– مرّةً أخرى أرجو ألا تكذبي...

– أنا لا أكذب. ولا داعي للكذب عليك. ولكنني قلت. وما أكثر ما أقول ساعة الغضب! قلت، ونسيت.

خلال هذا الكلام كان وجه نيقولاي إيفانوفيتش جامداً كالحجر، إلا أنّ قلبه غاص ووجب من الفرح: "حمداً لله، كانت تكذب على نفسها". والآن كان من المُمكن بأمانٍ أن يتظاهر في صخبٍ بأنّه لا يصدّق شيئاً تنفيساً عن كرب قلبه.

نهض من مقعده، وراح يتمشّى على البساط، متوقّفاً بين الحين والآخر، شاقاً الهواء بضربات من سكينه العاجيّة، وهو يتحدّث عن سقوط العائلة، وفساد الخلق، وعن الواجبات المُقدّسة المُهملة الآن، واجبات المرأة–الزّوجة، أمّ أولادها، ومساعدة زوجها. ولام يكاترينا دميتريفنا على خوائها الروحيّ، وعلى تبذيرها الأهوج للنقود المُكتسبة بالدّم (صحّحت يكاترينا دميتريفنا: "ليس بالدّم، بل بتحريك اللسان"). لا، بل وأكثر من الدّم، بحرق الأعصاب. ووبّخها على عدم عنايتها باختيار الأصحاب، وانعدام التّرتيب في البيت، وولعها بـ"تلك البلهاء" المغوليّ العظيم، وحتّى بـ"اللوحات التي تُثير قرفي في غرفة جُلوسك المُبتذلة".

وباختصار، نفّس نيقولاي إيفانوفيتش عمّا في صدره. تجاوزت الساعة الثالثة بعد مُنتصف اللّيل. وعندما بحّ صوت الزّوج وصمت، قالت يكاترينا دميتريفنا:

– لا يُمكن أن يكون هناك أبغض من رجلٍ سمينٍ وهستيريّ.

ونهضت، ودخلت مخدعها.

إلّا أنّ نيقولاي إيفانوفيتش لم يتكدّر الآن حتى من هذه الكلمات. خلع ملابسه ببطء، وعلّقها على ظهر المقعد، ودوّر الساعة، واندسّ في الفراش النّظيف المفروش على الأريكة الجلديّة. وأرسل زفرةً خفيفة.

فكّر وهو يفتح كتاباً ليُهدّئ نفسه بالقراءة انتظاراً للنّوم: "أجل، إنّ نمط حياتنا رديء. ويجب أن نعيد تنظيم حياتنا كلّها. مؤلم، مؤلم". إلا

أنّه أنزل الكتاب في اللحظـة التالية، وأرهف سمعه. كان الهُدوء يسود البيـت. مخط شخصٌ من أنفه، فوجـب قلبه لهذا الصّـوت. وفكر مع نفسه: "إنّها تبكي، أي، أي. يبدو أنّني تماديت في القول".

وعندمـا أخذ يسترجـع كلّ حوارهما، وتمثل كاتيـا جالسةً تُصغي، أخـذه الإشفاق عليهـا. رفع جسمه على كوعـه، واستعدَّ للخُروج من تحت الدّثار، إلا أنّه شعر باسترخاء يدبّ في جسمه كلّه، وكأنّه من تعب أيامٍ كثيرة، فألقى رأسه على الوسادة، وغفا.

خلعت داشا ملابسها في غرفتها النّظيفة المُرتّبة، وأخرجت المشط من شعرهـا، وهزّت رأسها حتى تطايرت دبابيس الشّعر فوراً، وانسلّت في فراشهـا الأبيض، وسحبت الغطاء حتى ذقنها، وقلّصت عينيها، وقالت لنفسها: "شكراً لله، كلُّ شيءٍ على ما يُرام! وليس لي الآن ما يشغل بالي، فلأنم". وتصوّرت أمامها وجهاً صغيراً مُضحكاً. فابتسمت، وعكفت ركبتيها قليـلاً، وطوّقت الوسادة. وغشتها سنة لذيذة مُظلمة من النوم، وفي الحال تردّد في ذاكرتها صوت كاتيا بوضوح: "غير صحيح، طبعاً". فتحت داشـا عينيها، "لم أقل لكاتيا كلمةً واحدة. سألتها فقط: صحيح أم غير صحيح. فأجابتني وكأنّما كانت تفهم تماماً مدار الحديث". وكان الوعـي يوخز جسمها كلّـه وخز الإبـر: "خدعتني كاتيـا!"، وبعد أن تذكّرت كلّ دقائق الحديث، وكلمات كاتيا وحركاتها رأت بوضوح أنّ في الأمر خُدعةٌ حقاً. وأحسّت داشا بصدمة. لقد خانت كاتيا زوجها، ولكنّهـا بعد اقـتراف خيانتها، وإثمهـا، وكذبها، أضحـت أكثر فتنة. والأعمى وحده لا يستطيع أن يلحظ فيها شيئاً جديداً، ورقةً وافية ذات نكهة خاصة. وهي تكذب بطريقة تأخذ باللب، تغري بالحبّ. ولكنّها جانيـة. أنا لا أفهم شيئـاً، لا أفهمً. وقلقت داشا وتحـيّرت. شربت ماءً، وأشعلت المصبـاح، ثمّ أطفأته ثانية، وظلّت تتقلّـب على الفراش حتى الصباح شاعرةً بأنّها لا تستطيع أن تدين كاتيا، ولا تُدرك ما اقترفته.

ولم تستطع يكاترينا دميتريفنا أيضاً أن تغفو في تلك الليلة. انطرحت على ظهرها خائرة القوى، ملقيةً ذراعيها فوق الدّثار الحريريّ، وبكت، دون أن تمسح دُموعها، على إحساس مُبهم في نفسها سيّء، وغير نظيف، ولكونها غير قادرة على أن تُغيّرَ من الأمر شيئاً، ولأنّها لن تكون مثل داشا أبداً متّقدة العاطفة وقويّة الخُلق، كما بكت لأنَّ نيقولاي إيفانوفيتش نعتها بالمرأة الرّخيصة، ووصف غُرفة الجُلوس الابتذال. وبَكتْ من البُكاء لأنَّ ألكسي ألكسييفيتش بيسونوف أخذها في مُنتصف اللّيلة الماضية على عربة سريعة الخيول إلى فندُق خارج المدينة، وهُناك امتلكها غير عارف، ولّا مُحبّ، ولا شاعر بكلِّ ما كان قريباً إليها، عزيزاً عليها، امتلكها بتماهُلٍ وقرف وكأنّها دُميةٌ ورديّة، من تلك الدُّمى الموضوعة في مخزن مدامٍ دوكليه للأزياء الباريسيّة في شارع مورسكايا.

٥

اتّخذت جمعيّةٌ أطلقت على نفسها اسم "المُجمّع المركزيّ لمُكافحة العرف السائد" مقراً لها في شقة المُهندس إيفان إيليتش تليغين في الطابق الخامس من بيتٍ حديث البناء في الشارع التاسع عشر في جزيرة فاسيليفسكي.

وكان تليغين قد استأجر هذه الشّقة "للسّكن" لمدّة عام، بسعر مُخفّض. فخصّص له غرفةً واحدة. أمّا سائر الغُرف المُؤثّثة بأسرّة حديديّة ومناضد ومقاعد من خشب الصّنوبر فقد خُصّصت للمُستأجرين من "العُزاب أيضاً، وعُشاق المرح حتماً". ولم يجد صديقه وزميل صفه السابق سيرغي سيرغيفيتش سابوجكوف كبير عناءٍ في أن يُوفّر هؤلاء له.

فسكـنَ الشّقة طالب كليّة الحُقوق ألكسندر إيفانوفيتش جيروف، والُمخبر الصّحفيّ أنتوشكا أرنولـدوف، والرّسام فاليـت، والآنسة الشابـة يلزافيتـا راستورغوييفا، التـي لم تجد حتـى الآن مشاغل على ذوقها.

كان نُـزلاء الشّقة يستيقظون في وقـتٍ مُتأخّر–ساعة عودة تليغين مـن المصنع لتنـاول فُطـوره، وكان كلُّ واحدٍ منهم يُقبـلُ على عمله مُتماهـلاً. كان أنتوشكا أرنولدوف يستقلُّ الـترام إلى مقهىً في جادّة نيفسكي، ليعـرف آخر الأخبار، ثمّ يذهب إلى مقرّ جريدته. ويجلسُ فاليت في العادة ليرسُم صـورةً شخصيّةً له. ويُغلق سابوجكوف عليه الباب ليعدّ خُطباً ومقالات عن الفنّ الجديد. وكان جيروف ينسلُّ إلى غُرفة يلزافيتا كييفا تعتبره نابغة.

كانـت يلزافيتا كييفنـا، إلى جانب أحاديثها مع جـيروف والنّزلاء الآخرين تحوكُ من صوفٍ مُتعدّد الألوان أشرطةً طويلةً لا تنفع لأغراض مُجـدّدة، وتُغني بصوتٍ عميقٍ قـويٍّ زائف أغاني أوكرانيّـة، أو تبتكرُ لنفسها تصفيفات شعرٍ غير مألوفة، أو تكفُّ عن الغناء، وتفل شعرها، وتستلقـي على السّريـر تطالع كتاباً، وتنغمـرُ في المُطالعة حتى تُصاب بصُـداع. ويلزافيتا كييفنـا جميلةٌ فارعة موردّة الخدّيـن، تبدو عيناها القصيرتا النّظر وكأنّهما مرسومتان على صفحة وجهها، وملابسها لا تنمّ عن ذوق، فكانت موضع نقدٍ حتى من نُزلاء شقّة تليغين.

حـين كان يظهر شخصٌ جديدٌ في البيت كانت تدعوه إلى غرفتها، ويبدأ حديثٌ يُدير الرَّأس، قائمٌ بكليّته على التّطرّف في الحُدود، وبعد ذلـك كانت تستـدرج محدّثها لتعرف هـل هو مُتعطّشٌ إلى الجريمة؟ وهل هو مُقتـدرٌ على القتل، مثلاً؟ وهل يستشعر في نفسه "التّحريض الذّاتيّ"؟ فقد كانت تعتبر هذه الخاصيّة علامةً على روعة الإنسان.

بل إنَّ نُزلاء شقّة تليغـين علّقوا هذه الأسئلة على باب غُرفتها. لقد كانـت يلزافيتا كييفنـا، عُموماً، فتاةً غير راضيـة، وكانت دائماً تتوقّع "تحـوّلات" و"أحداثاً مروّعـة" تجعل الحياة جذابة تُعاش بكُلّ كيان الإنسـان، بدلاً من الملل قرب نافذة صغيرة أعتمها المطر. وكان تليغين نفسه يجد غير قليلٍ من التّسلية في مُراقبة نُزلائه، ويعتبرهُم جماعةً من المُمتازيـن وذوي الصّبـوات، إلا أنّه لم يشـترك في ملاهيهم إلا قليلاً، بسبب قلّة الوقت.

وذات يـوم في عيد الميلاد جمع سيرغي سيرغيفيتش سابوجكوف نُزلاء الشّقة، وألقى عليهم الخُطبة التالية:

– أيّهـا الرّفقـاء، إنَّ أوان العمـل قد حان. نحنُ كثـيرون، ولكنّنا مُبعـثرون. وأعمالُنا حتى الآن تتّسمُ بطابـع التّشتّت والتّهيّب. وعلينا أن نؤلّـف فصيلـة، ونُسـدّد ضربـةً إلى المُجتمع البرجـوازيّ. ولهذا الغرضـ ينبغـي أوّل الأمر ان تكـون من بيننا الجماعـة المُبادرة، وبعد ذلـك نُذيع هذا البيان، وفيه نقول: "نحنُ الكولومبسيّون الجُدُدْ! نحنُ الدُّعـاة النَّوابغ! نحنُ بُذور الإنسانيّة الجديـدة! نحنُ نُطالبُ المُجتمع البرجـوازيّ السابـح في الدّسم أنْ ينبـذ كُلَّ الخُرافات. منـذُ الآن لن يكـون هناك وُجودٌ للفضائـل. تلغي العائلة والأعـراف الاجتماعيّة، وعُقـود الـزّواج. إنّنا نُطالب بذلك. يجب علـى الإنسان، امرأةً كان أو رجـلاً، أن يكون عارياً طليقاً. والعلاقات الجنسيّة ملكٌ للمُجتمع. أيّها الشُّبان والشابـات، أيّها الرّجال والنّساء اخرجوا من جُحوركم، واطلعوا عراةً سعداء إلى الرّقص تحت شمس الحيوان المُتوحّش!.."

وبعـد ذلك قال سابوجوكوف إنّ الضّرورة تستدعي إصدار مجلّة مستقبليّـة باسم "طبق الآلهة" سيقـدّم تليغين قسماً من المال المصروف

عليهـا، والقسـم الآخر يجـب أن يُنتزع مـن فُكـوك البرجوازيين- والمجموع ثلاثة آلاف روبل.

وعلـى هـذا النّحـو أسـس "المُجمّـع المركـزيّ لمُكافحـة العرف السائـد"، والإسم من ابتكار تليغين الـذي ضحك بشدّة من مشروع سابوجكوف، حين عاد من المصنع. وجرى في الحال الإعداد لإصدار العـدد الأوّل مـن "طبق الآلهـة". قدّم بعض رعاة الفنـون الأغنياء، والمُحامين، وحتى ساشكا ساكيلمان نفسه المبلغ المطلوب-ثلاثة آلاف روبل. وأوصى بطبـع استمارات على أوراق للـف تحمل اسماً غريباً هو "المركـز النابذ"، وبدأت الدّعوات تُوجّـه إلى المُحرّرين اللازمين، وصـارت المواد تُجمع للمجلّة. واقترح الرّسام فاليت أن تُشوّه جُدران حجـرة سابوجكـوف التي حوّلـت إلى مقرٍّ لهيئة التّحريـر، بالرُّسوم الماجنة. فرسم على الجُدران اثنتي عشرة صورة شخصيّة له، ونوقشت مسألة تأثيث الغُرفة مُناقشةً طويلة، وأخيراً أخليت الغُرفة إلا من طاولة كبـيرة ألصقت عليهـا أوراقٌ مُذهّبـة. وبعد صُدور العـدد الأوّل من المجلّـة بدأ الناس في المدينة يتحدّثون عن "طبق الآلهة". فأعلن البعض عـن سخطه، وأكّد آخرون علـى أنَّ الأمر ليس بالبساطة الذي يبدو فيهـا، وفي المُستقبل القريب قد تـودَعُ أعمال بوشكين في الأرشيف. وأصيب الناقد تشيرفا بالذّهـول، فقد نُعتَ في "طبق الآلهة" بالوغد. وأسرعت يكاترينا دميترييفنا بالاشتراك في المجلّة لسنة كاملة، وعزمت على أن تُنظّم عشاء يوم ثُلاثاء مع المُستقبليين.

أوفـد "المُجمع المركـزي" سيرغـي سيرغيفيتش سابوجكسوف للعشـاء في بيت سموكوفنيكوف. فجـاء مُرتدياً سترةً طويلةً قذرة من الفستيـان الأخضر أخذها بالاستعارة من حلاقـة المسرح، وكانت قد استعملـت في مسرحية "مانـون ليسكو". وأكل بإفـراط مُبالغ فيه في العشـاء، وضحك ضحكاً مُجلجـلاً بغيضاً حتى لسمعـه هو، وسمّى

النّقـاد، وهو ينظر إلى تشيرفا، بـ"بنات آوى أكلة الفطائس". بعد ذلك استرخـى، وراح يُدخّن مُعدّلاً نظارته الأنفيّة على أنفه المُبلّل. وبشكل عامّ كان الحُضور يتوقّعون أكثر من ذلك. بعد صُدور العدد الثاني تقرّر إقامة حفلات عشاء تحت اسم "التّدنيسات الرائعة". وقد شهدت داشا إحـدى هذه التّدنيسـات. فتح جيروف الباب الأمامـي لها، وانشغل بها في الحال. أخـذ منها كالوشها، ومعطفها الفرائيّ، بل ورفع خيطاً صغـيراً كان عالقاً بثوبها من الجوخ. ودُهشـت داشا لرائحة الكرنب في الـرّواق. سار جـيروف وراءها في الممرّ جنبـاً إلى مكان التّدنيس، وسألها:

– خبّريني بأيّ العُطور تتعطّرين؟ عطرٌ رائع الشّذى.

ثـمّ أدهش داشا رخصُ كلّ هذه الجسارة المُعلـن عنها بضوضاء. حقـاً لقد كانت تتناثر على الجُدران عيـونٌ، وأنوفٌ وأيد، وشخوصٌ مستهجنـة، وناطحات سحـاب مُتهاوية، وباختصـار، كلّ ما يؤلّف أجـزاء صورة فاسيلـي فاليت الـذي كان واقفاً هنـاك صامتاً، وعلى خدّيـه رسـم خطّـان مُنكسـران. وكان المُضيفـون والضّيوف–ومن بينهـم الشّعـراء الشّبـان الذين كانوا يحضـرون عشـاءات الثّلاثاء في منـزل سموكوفنيكـوف بمجموعتهـم تقريباً–يجلسون علـى ألواح غـير مسحوبة وموضوعة على كتل خشبيّـة (هبة من تليغين)، وكانوا يقـرأون الشعر بأصوات مُبالـغ في وقاحتها عن سيّـارات تدبّ على قبـو السّماء، وعن "بصقة علـى المُصاب بالزّهـري السّماري"، وعن فكين فتيين كسر بهما الشاعر قباب الكنائس، كما يكسر الجوز، وعن جندب غير مفهوم أبداً لابسَ معطفاً غالياً يقفز من النافذة إلى الرّصيف وهـو مُمسكٌ بمنظار مكبّر ودليل سياحيّة. إلا أنّ كلّ هذه البشائع بدت لداشـا شوهاء. ولم يعجبها بصدق إلا تليغين. تقدّم منها أثناء الحديث، وسألها بابتسامة حيية عما إذا كانت تُريد شاياً وشطائر.

– الشاي والسّجق عندنا اعتياديان، يعني جيّدان.

كان وجههُ ملوحاً، حليقاً، عليه مسحةٌ من السّذاجة، أمّا عيناه الزّرقاوان الطّيّبتان فيبدو أنّهما ذكيّتان وقاسيتان عند الضّرورة.

وفكّرت داشا بأنّها ستسرّه إذا قبلت بعرضه، فنهضت، ودخلت غرفة الطّعام، حيث رأت مائدةً عليها صحن الشّطائر، وسماور مبعوج. أسرع تليغين في جمع الصُّحون المُستعملة، ووضعها على الأرض في أحد أركان الغُرفة، والتفت باحثاً بعينيه عن خرقة، ومسح المائدة بمنديله، وصبّ لداشا قدح شاي، وانتقى لها "ألذّ" شطيرة. وقد قام بكلّ ذلك على مهل بيديه الكبيرتين القويّتين، وتكلّم، وكأنّما يجهد نفسه بشكلٍ خاصّ لتكون داشا مرتاحةً وسط هذه القذارة:

– شؤوننا البيتيّة فوضى لا نظام لها. هذا صحيح، ولكن الشاي والشّطائر من الدّرجة الفاخرة، مُشتراة من مخزن يليسييف الشّهير. وكانت هناك حلويّات إلا أنّها التهمت، ولكن...–وهنا أطبق شفتيه، ونظر إلى داشا، ولاح في عينيه الزّرقاوين خوف، ثمّ تصميم، وقال– هلا سمحت لي؟–وأخرج من جيب صدار، ملبستين ملفوفتين بورقتهما.

وفكّرت داشا مع نفسها "مع مثل هذا الرّجل لا يتردّى الإنسان"، ولكي تسرّه أيضاً قالت:

– هذا النّوع الذي أفضّله من الملبس.

ثمّ جلسَ تليغين مُقابل داشا بانحراف، وأخذ يُحدّق في علبة الخردل بانتباه. ونخخ العرق على جبينه العريض الكبير من التّوتّر. أخرج منديله بحذر، ومسح جبينه.

وافترت شفتا داشا عن ابتسامة لا إراديّة: ذلك لأنّ هذا الرّجل الكبير الجميل كان على درجةٍ من انعدام الثّقة بالنّفس تجعله يودُّ لو

يتـوارى وراء علبة الخردل تلك. وتخيّلتْ داشا أنَّ أمّه العجوز النّظيفة الملابســ تعيشُ في مدينة أرزماس، كما بدا لهــا، وتكتب له من هناك رسائـل حادّة حـول "عادتـه المُستأصلـة في تسليف نُقـوده لمُختلف الحمقى"، وتعظه بأنّ "احترام الناس، يا إبني العزيز، لا يُمكن أن نكسبه إلا بالتّواضــع والمُثابرة". وهو، على ما يبدو، يتأفّفُ من هذه الرّسائل، مُـدركاً كم هـو بعيدٌ عـن الكمال. واستشعـرت داشا رقّـةً تجاه هذا الرّجل. سألته:

– أين تشتغل؟

رفـع تليغين عينيه في الحـال، ورأى ابتسامتهــا، فابتسم هو الآخر ابتسامةً عريضة.

– في مصنع البلطيق.

– وهو عملك ممتع؟

– لا أعرف. أعتقد أنّ كلّ عملٍ مُمتع.

– أظنُّ أنّ العُمال يحبّونك كثيراً.

– لم أفكر أنّ العُمال يُحبونك كثيراً.

– لم أفكّر في ذلــك قط. ولكن لا أظنّ أنّهم يحبوني. ولماذا عليهم أن يحبوني؟ فأنا شديــدٌ معهم. رغم أنّ علاقاتنا طيّبةٌ بالطّبع، علاقاتٌ رفاقيّة.

– قُـل لي هـل أعجبك عن صــدقٍ كلّ ما جرى في تلـك الغُرفة، اليوم؟

زالــت غُضــونٌ من على جبــين إيفــان إيليتش، وانفجـر ضاحكاً بصوتٍ عالٍ.

– صبيّــان. أشقيــاء طائشــون. فتيةٌ رائعــون. أنا راضٍ عن نزلاء

شقّتي، يـا داريا دميتريفنـا. في بعض الأحيان تحـدث. مُنغّصاتٌ في عملنـا، وأعـود إلى البيت مُنزعجاً، فأجدهم هنا قـد ابتكروا هراءً من هراءاتهم...وفي اليوم التالي حين أتذكّر ما حصل أضحكُ وأبتهج.

قالت داشا بلهجة حازمة:

– أمّا أنا فلا تُعجبني هذه التّدنيسات أبداً. إنها سفاهةٌ محض.

نظر في عينيها بدهشة. فأكّدت قولها: "لا تُعجبني أبداً".

قال إيفان إيليتش مُفكّراً:

– أنـا المُذنب في ذلك بالطّبع. فأنـا الذي شجّعتهم عليه. حقاً، أن تدعي ضيوفـاً، وتقضي المساء كلّه في قول سفاسـف أمر...من المُؤلم جداً أنّ كلّ هذا لم يعجبك على هذا النّحو.

حدّقت داشـا في وجهه مُبتسمة، وأحسّت بأنّها تستطيع أن تقول ما تشاء لهذا الرّجل الغريب عليها تقريباً.

– أتصـوّر، يا إيفان إيليتش، إنّـك لا بدّ أن تهوى شيئاً مُختلفاً تماماً. يبـدو لي أنّك رجلٌ طيّـب، أحسن بكثير من تصـوّرك أنت لنفسك، حقاً، حقاً.

وركّـزت داشا كوعها على المائدة، ووسّـدت حنكها على كفها، ومسّـت شفتيها بخنصرها. كانت عيناهـا تبتسمان، إلا أنّهما، بدتا له مُخيفتـين، جميلتين إلى حـدٍّ مُذهل، عينين رماديّتـين واسعتين باردتين قليـلاً. ولذهولـه الشّديد لوى ملعقـة شاي ثمّ عدّلهـا. ولحسن الحظّ دخلت الغرفـة يلزافيتا كييفنا، كانت تلقي علـى كتفيها شمالاً تركياً، وقـد ضفرت شعرها فـوق أذنيها بضفيرتين كقـرني الخروف. مدّت لداشا يداً طويلةً مُقدّمةً نفسها باسم "راستورغويفا" وجلست وقالت:

– تحدّث جيروف عنك كثيراً جداً، واليوم درست وجهك. وأرى أنّك قد شعرت بالسّأم، وهذا شيءٌ جيّد.

أسرع إيفان إيليتش يسألها:

– يا ليزا، أتريدين شاياً بارداً؟

– لا، يا تليغين. أنتَ تعرف أنني لا أشرب الشاي أبداً...

إذن قد تسألين نفسك، بالطّبع، أيّ مخلوق غريب هذه الذي يتحدّث معك؟ أنا لا أحد. شخصٌ حقير، أنا فاسدةٌ وبليدة.

كان إيفان إيليتش واقفاً عند المائدة، فأشاح بوجهه يائساً. وغضّت داشا من بصرها. فامعنت يلزافيتا كييفنا فيها النّظر مُبتسمة.

– أنتِ أنيقة، مرفّهة وبارعة الجمال. لا تُنكري، فأنتِ تعرفين ذلك بنفسكِ. أنتِ موضع حبّ عشرات الرّجال، بالطّبع. ومن المُؤلم أنّ كلّ هذا سينتهي بغاية من البساطة. سيأتي الذّكر فتلدين له أولاداً، ثمّ تموتين. فما أضجر ذلكً!

ارتعشت شفتا داشا تكدُّراً. وأجابت:

– أنا لا أريد أن أكون خارجةً عن المألوف. ولا أدري لماذا يُقلقك مُستقبلي إلى هذا الحدّ.

ابتسمت يلزافيتا كييفنا بمرحٍ أشدّ، وبقيت عيناها حزينتين وديعتين.

– لقد حذّرتك بأنّني حقيرةٌ كإنسان، ومُقزّزةٌ كامرأة. والذين يتحمّلونني جداً، وعن شفقةٍ فقط كما يفعل تليغين مثلاً. فتمتم تليغين دون أن يرفع رأسه:

– أيُّ هُراءٍ هذا الذي تتحدّثين به، يا ليزا.

– أنا لا أطالبك بشيء، يا تليغين، فهدئ من روعك. –والتفتت إلى داشا مرّةً أخرى: –هل عانيتِ عاصفةً ذات مرّة؟ أما أنا فقد عانيت واحدة. كان هناك رجلٌ وكَنتُ أحبّه، وكان يكرهني بالطّبع. وكنتُ آنذاك أعيش على البحر الأسود. وثارت عاصفة. وقلتُ لذلك

الرّجل: "لنخرُج إلى البحـر..." فخرج معي موجدة وحنقاً. وحُملنا إلى عرض البحر...ما أروعها من تسلية...وخلعت عني ثوبي، وقلتُ له...

قال تليغين مُغضناً شفتيه وأنفه:

– اسمعي، يا ليزا. أنتِ تكذبين. لم يحدث ذلك. أنا أعرف.

عندئـذ نظـرت يلزافيتـا كيفنا إليـه بابتسامـة مُبهمـة، وأخذت تضحك فجّأة. وضعت كوعيها على المائدة، وأخفت وجهها بينهما، وضحكت، واهتزّت كتفاها المُمتلئتان. نهضت داشا، وقالت لتليغين أنّهـا تُريـد أن تذهب إلى البيـت، وتنصرفُ دون أن تـودّع أحداً، إذا أمكن ذلك.

وقدّمَ إيفان إيليتش لداشا معطفها بحذر شديد، وكأنَّ المعطف جزءٌ من كيانهـا أيضاً. ونزلَ إلى الأسفل على السّلّـم المُظلم، مُشعلاً طوال الوقت أعواد الثّقاب، مُتكدّراً من حلكة الظّلام وهُبوب الريح، وزلقة الأرضـ، وأوصل داشا إلى ركن لشـارع، وأجلسها في عربة زلاجة. كان الحـوذيّ عجوزاً، والثّلج يغمـرُ حصانه. ظلّ إيفـان إيليتش وقتاً طويـلاً واقفاً في البرد حاسـر الرّأس، وبلا معطف، ينتظـر إلى الزّلاقة الواطئـة وهي تتلاشـى وتذوبُ في الضّباب الأصفـر، ومعها يتلاشى ويـذوب شبح الفتاة الجالسة فيها. وبعـد ذلك عاد إلى البيت مُتمهلاً، ودخل غُرفة الطّعام. فـرأى يلزافيتا كيفنا في جلستها تلك، ووجهها بين يديها. حكّ تليغين ذقنه، وقال عابس الأسارير:

– ليزا.

عندئذٍ رفعت ليزا رأسها بسرعةٍ شديدة.

– ليـزا، لأيّ سبـب، وأرجو المعذرة، تخوضـين دائماً في حديثٍ يجعل الجميع في حرجٍ وخجل؟

قالــت يلزافيتا كييفنا بصوت خافــت وهي لا تفتأ تحدّق فيه بعينيها الحزينتــين، القصيرتــي النّظر، اللّتــين تبدوان مرسومتــين على صفحة وجهها:

– أحببت. رأيت ذلك من الوهلة الأولى. أوه، يا للضّجر.

قال تليغين وقد صعد الدّم إلى وجهه:

– هذا غير صحيح البتّة. غير صحيح.

– إذن، فأنا متأسّفة.

ونهضت بتكاسل، وخرجت، ساحبــةً وراءها على الأرض شالها التُّركيّ المُغبر.

سار إيفــان إيليتش بعض الوقــت مغموراً في أفــكاره، شرب شاياً بــارداً، ثمّ رفع المقعد الذي جلست عليــه داريا دميتربيفنا، وحمله إلى غرفتــه. وهناك تــروّى، ووضعه في أحــد الأركان، واحتوى كلّ أنفه براحته، وقال، وكأنّما قد صُعق صعقةً هائلة:

– هُراء...سخافة!

كان هــذا اللقاء بالنّسبة لداشــا مُجرّد لقاءٍ من لقاءات عديدة. التقت برجلٍ طيّب، وانتهــى الأمر. كانت داشا في سنٍّ لا يرى فيها المرء ولا يسمــع بشكلٍ جيّد: فإنَّ سمعــه موترٌ بضجيج الدم في عُروقه، وعيناه في كلّ مكان–وحتــى في وجه إنسانٍ أمامه–لا تريان إلا صورته هو، وكأنّها انعكاسه في مرآة. والقبح وحده في مثل هذه السّن يُثير الخيال، أمــا جمال الناس، ومناظر الطّبيعة الخلابة، وجمال الفنّ المُتواضع فإنّ كلّ ذلك يُعتبرُ حاشية الحياة اليوميّة لملكة في التاسعة عشرة من العُمر.

ولم يكــن الأمر كذلك مع إيفان إيليتشــ. والآن، وقد انقضى أكثر مــن أسبوعٍ على زيارة داشا، فقد أخذ يتعجّب من أن تظهر في شقّتهم

هــذه الفتاة ذات البشرة الورديّة الرّقيقــة، والثّوب الأسود من الجوخ، والشّعــر الأشقر الشاحب المُرتفع فوق رأسها، والفم الطّفوليّ المتكبّر، وتظهــر دون أن تلحــظ (حتى أنه لم يسلّم عليهــا رأساً) تظهر ببساطة (فقد دخلت، وجلست، ووضعت على ركبتها موفة الفراء التي تدفّئ بها يديها). ولم يكن مفهوماً كيف وافته العزيمة ليتحدّث معها ببساطة عن السّجق المُشترى من مخازن يليسييف.

والملبّستان الدافئتان اللتــان أخرجهما من جيبه، وعرض عليها أنْ تأكلهما؟ فيا له من نحس!

كان إيفــان إيليتشــ خلال حياتــه (تخطى التاسعــة والعشرين قبل حــين) قد أحبّ ستّ مرات: عندما كان تلميذاً في المدرسة الثانويّة في قــازان أحبّ فتاةً ناضجة، هي ماروسيــا خفويفا، ابنة طبيب بيطريّ، كانت تجوب الشارع الرّئيسيّ في الساعة الرابعة، ولزمنٍ طويل، دون فائدة، وهي في معطفٍ واحد لا يتغيّر مصنوعٌ من قماشٍ البلش، إلا أنَّ ماروسيا خفويفا لم تكن في وضع يقبل التّمازح، فنبذته، وانصرف هو عنهــا، دون مرحلةٍ انتقاليّة، إلى آدا تيليــه الفنّانة المُتجوّلة التي انتزعت دهشــة أهل المدينة بظهورها في جميــع الأوبريتات، من كلّ العُصور، علــى قدر الإمــكان بثوب سباحة، وهــو أمرٌ أبرزتــه إدارة المسرح في إعلاناتها: "آدا تيليه الحائزة على المداليّة الذّهبيّة لجمال ساقيها".

وتجرّأ إيفان إيليتش حتى على أن ينفذ إلى بيت الفنانة، ويحمل إليها باقــةً من الزّهور، المقطوعة من حديقة البلديّــة. إلا أنّ آدا تيليه أعطت هــذه الزّهور لتشمّها كلبتهــا الصّغيرة الغزيرة الشّعــر، وقالت لإيفان إيليتشــ أنّ معدتها قد مرضت تماماً من الطّعام المحليّ، وطلبت إليه أن يهرع إلى الصّيدليّة. وبهذا انتهى الأمر.

وبعــد ذلك، حين صار طالباً في بطرسبــورغ مال إلى طالبة الطّب

فيلبوشيفيتش، بل وكانت له مواعيد معها في مسرح التّشريح، إلا أنّ ذلك بحدّ ذاته لم يأت بنتيجةٍ مرجوّة، وغادرت فيلبوشيفيتش لتعمل في مُستشفى أحد الأقضية.

وذات مرّة أغرمت به فتاةٌ تُدعى زينوتشكا تعمل في مخزنٍ كبيرٍ للقبعات، غراماً شديداً أسلمها إلى اليأس. واستجاب إيفان إيليتش لكلّ ما رغبت فيه، لارتباحه ورقّة قلبه. إلا أنّه تنفّس الصّعداء حين رحلت الفتاة إلى موسكو مع الفرع الذي تعمل فيه من الشّركة، فقد مضى معها شعورٌ كان يراوده دائماً بأنّ ثمّة واجباتٌ لم يقم بها.

ويرجع تاريخ آخر عاطفة حبّ مسّت قلبه إلى حزيران قبل عامين. فقد كانت هناك فتاةٌ نحيلةٌ شاحبةٌ تظهر كلّ يوم قُبيل الغُروب في النافذة المُقابلة لنافذته المُطلّة على الفناء وتفتح النافذة، وتنظّف بالفرشاة، وبحرص شديد، ثوبها البنيّ الذي لا يتغيّر، ثمّ ترتديه. وتخرج لتجلس قليلاً في المُنتزه.

وفي المُنتزه، في أوائل الغسق، تحدّث معها إيفان إيليتش، ومنذ ذلك الحين أخذا يتنزّهان سويّةً كلّ مساء، ويُبديان إعجابهما بلحظات الغُروب في بطرسبورغ، ويتجاذبان أطراف الحديث. كانت هذه الفتاة، واسمها أولياً كوماروفا، تعمل في مكتب كاتب عدل، وكانت وحيدةً دائمة المرض والسُّعال. وقد تحادثا عن هذا السّعال، والمرض، وعن الوحشة التي تهبط على صدر الإنسان الوحيد عند المساء، وعن صاحبة لها تسمى كيرا، أحبّت رجلاً طيّباً، ورحلت معه إلى القرم. وكانت احاديثهما كئيبة. وكانت أولياً كوماروفا يائسةً من أمرها حتى أنها لم تخجل أن تبوح لإيفان إيليتش بأفكارها المكنونة وهي متوقّعةٌ أحياناً أن يقع في غرامها فجأة، ويتزوّجها ويأخذها إلى القرم.

وكان إيفان إيليتش يشفق عليها كثيراً، ويكنّ لها الاحترام، إلا أنّه

لم يقدر أن يحبّها، ولو أنّه بعد أحاديثهما أحياناً كان يُفكّر وهو مُستلقٍ على الأريكة في الظّلمة بأنّه إنسانٌ أنانيّ، سيء، وبلا قلب.

وفي الخريف أصيبت أوليا كوماروفا بنزلة صدريّة ووقعت طريحة الفراش. وقد أخذها إلى المُستشفى، ومن هناكَ إلى المقبرة. وقبيل موتها قالت له: "هــل ستتزوّجني إذا شفيت؟" فأجابها إيفان إيليتش: "كلمة شرف، سأتزوّجك".

و لم يكــن شعوره نحو داشــا يشبه مشاعره السابقــة. لقد قالت له يلزفيتــا كييفنا "أحببت". ولكنّ الإنسان يُمكن أن يُحبّ من يفترض أن ينالــه، وليس من المُمكن أن يحــبّ تمثالاً أو غيمة. وقد شعر نحو داشا بعاطفة فريدة، جديدةً عليه، ومشوبةً بالغُموض، لأنّ الأسباب الداعية لها قليلَة–بضع دقائق من الحديث، ومقعدٌ في ركنٍ من الغُرفة.

كمــا أنّ هذه العاطفة لم تكن على قدرٍ كبير من الحدّة، إلا أنّ إيفان إيليتشــ صــار الآن يحسّ في نفسه بالرغبة في أن يكــون فريداً، ويبدأ بالاهتمــام بنفســه كثيراً. وكان غالباً ما يقــول لنفسه: "قريبــاً سأبلغ الثلاثين، وأنا ما أزال أعيش لنفسي وبلا غاية. خواءٌ رهيب. أنانيّةٌ ولا مبالاة إزاء الناس. يجب أن أتماسك قبل فوات الأوان".

في أواخــر آذار، وفي يوم من أيام بواكــير الرّبيع، الطالعة بغتةً على المدينــة البيضاء مــن الثّلج، المُتدثّــرة طلباً للدّفــء، حــين تلمع قطرات الجمــد منــذ الصباح وتقطر مــن الأفاريــز السّطوح ويشرشــر الماء في أنابيــب تصريف المياه من أعالي البنايــات، ويطفح في البراميل الخضراء الموضوعــة تحتهــا، ويهشّ الثّلــج في الطّرقات، ويتصاعــد البخار من الإسفلت، وتجــفّ بقعٌ منه، ويحسّ المرء بثقل المعطــف الشّتائيّ على كتفيــه، وبين الحين والآخر تقع العين على رجــلٍ ذي لحيةٍ مُدبّبة يسير بدون معطف، وإذا بالناس كلّهم ينظرون إليه ويبتسمون، وحين يرفع

المـرء برأسه يرى السماء لا يسبر لها عمـق، زرقاء كأنها غسلت بالماء، في يـوم كهذا اليـوم، وفي السـاعـة الثالثة والنّصف بعـد الظّهر خرج إيفـان أيليتش من الدائرة الهندسيّة في جادة نيفسكي، وفكّ معطفه ذا الحاشية الفرائيّة، وقلّص عينيه اتّقاء الشّمس.

"الحياة رائعةٌ على أيّة حال".

وفي تلـك اللحظة وقع بصره علـى داشا. كانت تسـير على حافّة الرّصيـف وئيدة الخُطـى، ترتدي معطفـاً ربيعيـاً أزرق، وقبّعةٌ زرقاء شـدّت عليها زُهـوراً اصطناعيّةً بيضاء. وكانـت تؤرجح طرداً بيدها اليُسـرى فكانت الزّهـور على قبّعتهـا تتمايـل. وكأنّ التأمّل والحزن يطفحان من محياها. ومن ورائها كانت الشّمس الهائلة الشعثاء النور، المتوهّجة بوهج ربيعيٍّ في السماء الزرقاء النائية تنعكس على برك الماء، وخُطـوط الترام، والزجاج، وظُهور السابلـة، وتحت أقدامهم، وعلى محاور عجلات العربات.

بـدا وكأنّ داشا قد خرجت من هذه الزّرقة والنور، وتراءت لحظة، لتختفـي بعدهـا في جُمهور الناس. نظر إيفـان إيليتش طويلاً في تلك الناحيـة. وسمع قلبه يدقّ في صدره ببـطء. كان الهواء كثيفاً، لاذعاً، يُديـر الرّأس. سار إيفـان إيليتش ببطء إلى الناصيـة، ووضع يديه وراء ظهره، ووقف طويلاً أمام اسطوانة الإعلانات. وقرأ: "مُغامرات جاك الجديـدة الطّرفـة، منتزع الأحشاء"، وفكّـر بأنّه لا يفهم شيئـاً، وبأنّه سعيدٌ سعادةً لم يذقها في حياته كلّها.

ولما ابتعـد عن اسطوانة الإعلانـات رأى داشا ثانيـةً. عادت على هيمنتهـا تلك: الزّهور البيضاء على قبّعتها، والطّرد في يدها، وقدماها تسيران على حافة الرصيف. تقدّم منها، وخلع قبّعته.

– داريا دميتريفنا، ما أروع هذا اليوم...

جفلت داشا قليلاً. ثم رفعــت إليه عينين باردتين قليلاً لمعت فيهما من جراء النور نقاطٌ خضر. وابتسمت برقّة، ومدّت له يدها المُقفرة في قفّازٍ أبيض من جلد الجدي، وصافحته بقوّةٍ ومودّة:

– لطيفٌ أن ألتقي بك. بل وفكّرت اليوم فيك...

صدّقني، لقد فكّرت، —وهزّت رأسهــا، واهتزّت الزّهور البيضاء على قبّعتها.

– كانت لديّ مهمّةٌ في جادة ليفسكي، وأنا الآن حرٌّ طوال اليوم، يــا داريا ديميفرييفنا. ما أروع الطّقسـ اليوم...—وغضّن شفتيه مُحاولاً بكلّ طاقته ألا تنفرجا عن ابتسامة.

سألت داشا:

– يــا إيفان إيليتش هل تستطيع أن توصلني إلى البيت؟ وانعطفا في شارعٍ جانبيّ، وسارا الآن في الظّل.

– إيفيــان إيليتش، هــل سيبدو لك غريباً لــو أسألك عن شيء؟ لا، بالطّبع، أنا أستطيع أن أتحدّث معك. شرط أن تُجيبني رأساً. أجبني دون تردّد. وعلى الفور. أجبني في اللحظة التي أسألك فيها.

ولاح الهــمّ على وجهها، وقطّبت حاجبيهــا. وقالت، وهي تشقّ الهواء بذراعها:

– من قبل كنت أتصــوّر أنّ هناك لُصوصاً، وكذابين وقتلة...وهم موجــودون في مكان ما، مثل الثّعابين، والعناكــب، والفئران. ولكنّ البشــر، كل البشر—وقد تكون لهــم مواطن ضعف، ونزوات، إلا أنّهم جميعــاً طيّبــون، واضحون...انظر إلى تلك الفتــاة القادمة. إنّها كما تراهــا وباطناً. وكان العالم كلّه يبدو لي وكأنّه ملــوّنٌ بألوانٍ فاتنة. هل أنت تفهمني؟

– ذلك شيءٌ رائع، يا داريا دميتريفنا...

– علـى مهلـك. أمّـا الآن فكأننـي أغوصُ في هذه الصـورة، إلى الظلام واحتباس الهواء...أنا أعرف، قد يكـون الإنسان جذاباً، بل لطيفاً، حلواً حلاوةً يمكـن أن تتلمّسها، ولكنه في نفس الوقت يذنب ذُنوبـاً فظيعة. وأنـا لا أقصد أنّه يسرق الفطائر مـن الدولاب، بل يأثـم إثماً حقيقياً: يكذب، –وأشاحت داشا بوجهها، وارتعش حنكها–إنّ هذه الرّجل فاسقٌ بإمرأةٍ متزوّجة. وأنا أريد أن أسألك: هل يجوز هذا يا إيفان إيليتش؟

– لا، لا يجوز.

– ولماذا لا يجوز؟

– لا أستطيع أن أقول ذلك الآن، ولكنني أشعر بأنه لا يجوز.

– وهـل تظنّ أننـي لا أشعر بذلك؟ منـذ الساعة الثانيـة وأنا أهيمُ حزينة. الجوّ اليوم صاف مُنتعش، بينما أنا أتصوّر أنّ في هذه البيوت، وراء السّتائـر، يختفي أُناسٌ سودُ القلـوب. وعليّ أنا أن أعيش معهـم. هل تفهم؟

أجاب بسرعة:

– لا، لا أفهم.

– كلا، علـى أن أعيشـ معهم. آه، ما أعمق الحـزن في قلبي. إذن فأنا مجرّد فتـاةٍ صغيرة. وهذه المدينة لم تُشيّـد للفتيات الصّغيرات، بل للكبار.

وتوقّفـت داشا عند مدخل البيـت، وراحت تدفع على الإسفلت، برأس حذائها العالي، جيئةً وذُهوباً، علبة سيجارةٍ فارغة رسمت عليها سيّدةٌ باللون الأخضر تنفث الدّخـان من فمها. وأحسّ إيفان إيليتش،

وهـو ينظر إلى رأس حذائهـا الصّقيل، وكأنّ داشا تـذوب، وتتلاشى كالضّبـاب. وكان يودّ لو يبقيها معه، ولكن بأيّ قوّة؟ وكان يعرف أنّ هنـاك مثل هذه القوّة، ويشعر أنّها تعصر قلبـه، وتأخذ بخناقه. ولكن كلّ شعوره بالنّسبة لداشا مجرّد ظلٍ على حائط، لأنّه هو نفسه ليس إلا "إيفان إيليتش الطيّب واللطيف".

– والآن، مع السّلامة، وشكـراً لك، يا إيفان إيليتش. أنت لطيفٌ وطيّبٌ جداً. أنا لم أشعر بأيّ ترويح، ولكنني شاكرةٌ لك جزيل الشّكر، على أيّة حال. لقد فهمتني، أليس كذلك؟ تلك هي أُمور الدّنيا. يجب أن أصبح راشدة، ولا مفرّ من ذلك. زرنا في وقت فراغك، أرجوك.

وابتسمت، وهزّت يده، ودخلت البيت، وغيّبها الظلام.

٦

فتحـت داشا باب غرفتها، ووقفت مذهولة. فقد شمّت في الغُرفة رائحة زهورٍ رطبـة، وفي اللحظة التالية وقعت عيناها على سلّة زهورٍ عاليـة المقبضِ، مزيّنةً بشريـط أزرق، موضوعـةً على منضـدة الزينة الصغيرة. ركضت نحوها، وغمـرت وجهها فيها. إنها زهور بنفسجٍ مسحوقةٍ مُبلّلة.

وانفعلـت داشا. كانـت منذ الصّبـاح تُريد شيئـاً لا تعرف ما هو بالضّبـط، أما الآن فقد أدركت أنهـا كانت تُريد زهر البنفسج. ولكن مـن أرسل هذه الزّهور؟ ومن فكّر فيهـا هذا اليوم باهتمام شديد حتى حـزر ما كانت هي نفسهـا لا تعرف ما هـو؟ إلا أنّ الشريطَ وحده لم يعجبها، فقد كان في غير محلّه. وفكّرتْ داشا، وهي تفكّه:

"فتـاةٌ لا بأس بها، ولو كانت مُنفعلةً. ستسير في طريقها الخاص، مهما اقترفتم من ذنوب، أيّهـا الآثمون. ربّما تظنّون أنها تشمخ بأنفها

أكثر من اللازم؟ ولكن هناك أناساً سوف يفهمون الأنف الشامخ، بل ويُقدرونه".

وتبيّن أنّ ورقةً سميكةً قد حُشرت في الشريط كتب عليها: "أحبّي الحبّ". وفي الوجه الآخر من الورقة الآخر من الورقة: "تربية زهور في نيس". إذن، فقد كتب شخصٌ في محلّ بيع الزّهور هذه جملة "أحبي الحبّ". وخرجت داشا إلى الدّهليز وسلّة الزّهور في يديها، وهتفت:

– يا مغوليّ، من جلب لي هذه الزّهور؟

نظرت "المغوليّ العظيم" إلى سلّة الزّهور، وتنهّدت بصدق. فإنّ هذه الأشياء لم تكن تعنيها على الإطلاق.

– جلبها صبيٌّ من محلّ الزّهور ليكترينا دميتريفنا. ولكنّ السّيدة أمرتني أن أحملها لك.

– ألم يقل ممن؟

– لم يقل سوى: سلّميها إلى السّيّدة.

عادت داشا إلى غرفتها، ووقفت عند النافذة. كان الغروب يلوح من خلال زجاج النافذة، غمر السماء من اليسار، من وراء الحائط الآجريّ للبيت المجاور، ثمّ اخضوضر، ونحل. وظهرت نجمة في ذلك الخلاء الأخضر، وتوامضت، ولمعت وكأنّها قد غسلت لتوّها. وفي الأسفل، في الشارع الضيّق، الذي أخذ الضّباب يملأ أرجاءه، أنيرت المصابيح الكهربائيّة مرّةً واحدةً على امتداده كلّه، إلا أنّها لم تكن ساطعة النور بعد، ولا متألّقة. وزعقت سيارةٌ في مكانٍ قريب، ورأت داشا أنها كانت تسير عبر الشارع مُختفيةً ظلمة المساء.

تلبّد الظلام في الغُرفة تماماً، وفاحت زهور البنفسج رائحةً ناعمة.

لقد ارسلهــا ذلكِ الرّجل الذي أثمت كاتيا معــه. كان ذلك واضحاً. وقفــت داشا تفكر بأنّها كذبابة وقعت في شيءٍ مثل نسيج العنكبوت، رقيــق، ومغو. أنّ هذا "الشـــيءَ" كان في رائحة الزّهــور الرّطبة، وفي الكلمتين المُصطنعتين، المُثيرتــين: "أحبي الحبّ"، وفي السّحر الربيعيّ لهذا المساء.

وفجأةً خفق قلبها خفقاناً سريعاً قوياً. وشعرت داشا وكأنَّ أصابعها تمسّ شيئــاً مُحرّماً، سرياً، لاذع الحلاوة وتــراه، وتسمعه، وتحسّه. وإذا بها تطلق العنــان لعواطفها وكأنّما قد صمّمت على ذلك بكلّ كيانها. وكان من المُستحيل أن تفهم كيف وجدت نفسها في تلك اللحظة في الجانــب الآخر. ذابــت الصّرامة، ذلك الجدار الجليــديّ، وتحوّلت إلى ضبــاب، مثل ذلك الضّباب في نهاية الشارع، حيث انطلقت السّيارة بلا صوتٍ حاملةً سيّدتين في قبّعتين بيضاوين.

لم تشعــر إلا بخفقــان قلبها، وبدوارٍ خفيــف في رأسا، بينما رنّت في جسمهــا كلّه موسيقى تلقائيّة مثل موجــة برودةٍ بهيجة: "أنا أحيا، أحبّ. البهجة، الحياة، كلّ الدّنيا لي، لي، لي!"

فتحت داشا عينيها، وقالت بصوتٍ مسموع:

– اسمعــي، يا عزيزتي. أنتِ ما تزالين في نقاب عذرتك، وخلقك وعقٌ لا يُحتمل...

ومشــت إلى ركــن الغرفة البعيــد، وجلست في مقعــد مثير كبير، وراحت تسترجع كلّ ما حدث في الأسبوعين، وهي تفضّ الورقة عن قطعة شوكالاته بتأنٍّ وبطء.

لم يتغــيّر شــيء في البيــت. بــل وأصبحــت كاتيا تُعامــل نيقولاي إيفانوفيتشــ بمزيد من الرّقة. وكان مرح الأعطــاف، وينوي بناء بيت ريفــي في فنلنــده. وكانت داشا وحدهــا تُعاني صامتةً هــذه "المأساة"

لإنسانين أصيبا بالعمى. بم تجرأ أن تُفاتح أختها في الحديث. وأختها التي كانت دائماً شديدة الالتفات إلى تقلّب أمزجة داشا، لم تفطن هذه المرّة إلى شيء. أوصت يكاترينا دميتريفنا على بدلتين لها ولأختها بمناسبة عيد الفصح، فكانت تقضي ساعاتٍ عند محل الخياطة وصناعة القبّعات، وتشترك في أسواق البرّ والإحسان، وتنظم برجاءٍ من نيقولاي إيفانوفيتش، أمسيةً أدبيّةً لغرضٍ سريّ، هو جمع المال لمنفعة لجنة الجناح اليساريّ للحزب الاشتراكيّ الديمقراطيّ—أو من يسمّون بالبلاشفة—وتجمع الضّيوف في أيام الخميس فضلاً عن أيام الثلاثاء، وباختصار لم تكن لديها دقيقة فراغٍ واحدة.

وخاطبت داشا نفسها: "وأنتِ قد جبنت في هذا الوقت، ولم تستقرّي على شيء، ورحت تفكّرين في أشياء أنت فيها كالنعجة، لم تفهميها ولن تفهميها حتى تحرقي جناحيك"، وضحكت داشا بخفوت. ومن تلك البحيرة المظلمة التي كانت تتساقط فيها كرات الجليد الصّغيرة، والتي لم يكن من المُمكن أن يرجى منها خير، نهضت صورة بيسونوف اللاذعة الخانقة، كما كان يحدث كثيراً في هذه الأيام. أباحت هي نفسها، فاستولى هو على أفكارها. وهدأت داشا. وتكتكت الساعة في الغرفة المُظلمة.

ثمّ صُفِقَ بابٌ في مكانٍ بعيد في البيت، وسمعت داشا صوت أختها وهي تسأل:

– هل عادت منذ وقتٍ طويل؟

نهضت داشا من المقعد، وخرجت إلى الدّهليز. وإذا بيكاترينا دميتريفنا تقول في الحال:

– لماذا أنتِ محمرّة؟

كان نيقولاي إيفانوفيتش يخلع معطفه السميك وهو يروي

ملحةً لاذعـة من ملح عاشق المسرح. نظرت داشا نظرة كرهٍ إلى شفتيه الكبيرتـين الرّخوتين، وتبعـت كاتيا إلى مخدعهـا. وجلست هناك إلى منضـدة الزينـة الأنيقة الرّقيقـة كأيّ شيءٍ في هـذه الحجرة، وراحت تسمع كلام أختها الطّويل عن المعارف الذين التقت بهم أثناء النّزهة.

وكانـت يكاترينا دميتريفنا أثناء الحديث ترتّب الأشياء في دولابها ذي المـرآة، الحافـل بالقفازات، وقطـع الدنتلا، والبراقـع، والأحذية الحريريّة-مجموعـةٌ كبـيرة من الأشيـاء التافهـة العابقـة بالعُطور التي تستخدمها: "يظهر أنّ كرينسكي خسر القضيّة مرّةً أخرى، وهو الآن بلا نقود. التقيت بزوجته. إنّها تشتكي، وتقول الحياة أضحت صعبة. وفي بيت تيميريازيف حصبة. وشينبرغ عـاد إلى امرأته الهستيريّة مرّةً أخـرى، بل ويقـال أنّها أطلقت النـار على نفسهـا في شقّة. هذا هو الرّبيع! ومـا أجمل الطّقس اليوم! جميع الناس يتجوّلون في الشوارع كالسّكارى. عندي خبرٌ آخر. التقيت بأكوندين، وهو يؤكّد بأنّ الثورة ستندلـع عندنـا في القريب العاجـل. الهيجان في المصانـع، والقرى، وفي كلّ مكان. ليتها تقـع في أقرب وقت. فرح نيقولاي إيفانوفيتش فرحـاً شديداً حتى أنّه أخذني إلى مطعم "بيفاتو"، فشربنا هناك زجاجة شمبانيا، نخب الثّورة المُقبلة، هكذا، رأساً".

كانت دائماً تستمع إلى أختهـا صامتة، وهي ترفع وتنزل غطاءات القوارير البلّوريّة. ثم قالت فجأة:

– كاتيا لا حاجة لأحدٍ بي كما أنا خُلقت.

فالتفتت يكاترينا دميتريفنا وجوربها الحريريّ في يدها، وتفرّست في أختها. فتابعت هذه قولها:

– والشـــيء المُهـــمّ أنني أنا أيضـــاً، لست بحاجة لنفســـي وأنا على طبيعتـــي هذه. أنا كمن قـــرّر أن يعيش على الجَزر النَّـــيء، واعتبر نفسه أرفع بكثيرٍ من الآخرين.

قالت يكاترينا دميتريفنا:

– أنا لا أفهمك.

نظرت داشا إلى ظهرها، وتنهّدت.

– جميع الناس، حسب رأيي، سيّئون. وأنا أدينهم. بعضهم حمقى، وبعضهم مُقرفون، والبعض الآخر قذرون. وأنا وحدي الفاضلة. أنا هنا غريبة، وذلك يُرهقني كثيراً. أنا أدينك أنت أيضاً، يا كاتيا.

فسألته يكاترينا دميتريفنا بهدوء، دون أن تلتفت إليها:

– لأيّ شيء؟

– أرجو أن تفهميني. أنا أسير شامخة الأنف، وهذا كلّ ما لديّ. إنّ ذلـــك حماقةٌ صرف. وقد ضجرت من غربتي بين الناس. وباختصار، أنا مُعجبةٌ كثيراً برجلٍ ما.

كانت داشا تتحـــدّث بذلك مُنكّسةً الرأس، فقد دسّت إصبعها في فم قارورةٍ بلّوريّة، و لم تستطع أن تخرجها منه.

– حمداً لله، يا فتاتـــي، على أنّك مُعجبةٌ برجل. ستكونين سعيدة، فإن لم يُسعدك الله فمن يُسعد؟

وأرسلت يكاترينا دميتريفنا تنهيدةً خفيفة.

– ولكنّ ذلك ليس بهذه البساطة. أظنّ أنني لا أحبّه.

– إذا كان يُعجبك فسوف تحبّينه.

– تلك هي المسألة. أنّه لا يُعجبني.

عنـد ذاك سدّت يكاترينا دميتريفنا بـاب الدولاب، وتوقّفت عند داشا.

– قبل لحظةٍ قلت أنّك مُعجبة...يا للغرابة...

– أرجوك، يا كاتيا، ألا تتسرّعي في لومي. أنت تذكرين الإنجليزيّ الـذي كان في سيسترورتسـك. لقد أعجبت به، بـل أحببته. ولكنني كنت آنذاك علـى طبيعتي. حنقت، وتواريت، وبكيت في الليالي. أمّا هذا الرّجل...أنا لا أعرف هل هو الذي...نعم، هو، هو...هزّ سكينة نفسي...وأنا الآن فتاةٌ أخرى كليّة. كأنّني شممتُ مبخّرة...لو دخل إلى غرفتـي الآن لاستطـاع أن يفعل كلّ ما شـاء دون أيّ اعتراضٍ من جانبي...

– ما هذا الذي تقولينه، يا داشا؟

وجلسـت يكاترينـا دميتريفنـا علـى مقعـد إلى جانـب أختهـا، وجذبتها نحوها، وأمسكـت يدها الحارّة، وقبّلت باطن كفّها، إلا أنّ داشـا تحرّرت من طوقها ببطء، وزفـرت، وأسندت رأسها على يدها، وحدّقت طويلاً في النافذة، المُصطبغة بالزّرقة، وإلى النّجوم.

– داشا، ما اسمه؟

– ألكسي ألكسيفيتش بيسونوف

عندئـذ انتقلـت كاتيـا إلى مقعـد مُجـاور، ووضّعـت يدهـا على حنجرتها، وجمدت في جلستها. لم تَر داشا وجهها، فقد كان كلّه في الظّلّ، ولكنّها شعرت بأنّها قامت لها بشيءٍ مُريع.

"هذا أفضل" فكّرت داشا مع نفسها، وهي تستدير بجسمها. وشعرت بعد هذه الجُملة بخفّةٍ وخواء.

– قـولي لي أرجـوك، لمـاذا يستطيع الآخـرون كلّ شـيء، وأنا لا

أستطيع؟ منذ عامين وأنا أسمع عن ألف إغراء وإغراء وطوال حياتي لم أذق طعم القُبل إلا مرّةً واحدة، قبّلني فيها تلميذٌ في المدرسة الثانويّة في حلبة التّزحلق.

وتنهّدت بقوّة، وصمّمت. وكانت يكاترينا دميتريفنا في تلك اللحظة تجلس مُنحنية الظّهر، ويداها على ركبتيها. قالت:

– بيسونوف شخصٌ سيّئٌ جداً. إنّه فظيع، يا داشا. هل تسمعينني؟

– نعم.

– إنّه سيحطّمك كلياً.

– وما العمل الآن؟

– أنا لا أريد ذلك. دعي الأخريات... لا أنت، لا أنت، يا عزيزتي.

قالت داشا:

– يقولون أنّ الغُراب الصّغير سيّئٌ لأنّه أسود جسداً وروحاً. قولي لي: بم بيسونوف سيّئ؟

– لا أستطيع أن أقول... لا أعرف... ولكن الرّجفة تسري في جسدي، حين أفكر فيه.

– ولكنّك، أنت أيضاً كنتِ معجبةً به بعض الشيء؟

– أبداً... أنا أكرهه!.. فليحفظك الله منه.

– إذن سأقع في شراكه لا محالة. سأقع في حبائله.

– ما هذا الحديث؟.. لقد جنا، كلتانا.

إلا أنّ داشا راق لها هذا الحديث بالذات، وكأنّها كانت تسير على لوحة ضيّقة على أطراف أصابعها، التذّت بانفعال أختها. ولم تفكر في بيسونوف تقريباً، إلا أنّها تعمّدت إظهار عواطفها نحوه،

ووصفت لقاءاتهما، ووجهه. وضخّمت كلّ ذلك، وبدا وكأنّها تقضي الليالي بطولها مؤرقةً تُفكّر فيه، وهي الآن مُستعدّةٌ للارتماء في أحضانه. وأخيراً بدا الأمر مُضحكاً لها نفسها، ووِدّت أن تُمسك كاتيا من كتفيها، وتقبّلها قُبلاً كثيرةً قائلةً لها: "إذا كانت ثمّة حمقاء، فهي أنتِ، يا كاتيا". إلا أنّ يكاترينا دميتريفنا انزلقت فجأةً من المقعد إلى البساط، وطوّقت داشا، ووضعت وجهها على ركبتيها، وصرخت بصوتٍ مُفزعٍ، وجسمها كلّه يرتعش:

– اعذريني، اعذريني... داشا اعذريني!

وهلعت داشا. انحنت نحو أختها، ومن الفزع والشّفقة أخذت تبكي هي أيضاً مُجهشةً بالبُكاء، وراحت تتساءل: عمّ تتحدّث، وعلى أيّ شيءٍ أعذرها؟ إلا أنّ يكاترينا دميتريفنا كزّت على أسنانها، واكتفت بملاطفة أختها، وتقبيل يديها.

أثناء الغداء نقّل نيقولاي إيفانوفيتش بصره من واحدةٍ إلى أخرى، وقال:

– طيّب. وأنا أيضاً ألا يجوزُ أن أعرف سبب تلك الدُّموع؟ ردّت داشا في الحال:

– سبب الدُّموع هو مِزاجي المُتعكّر. فاطمئن، أرجوك، فأنا أعرف بنفسي، دون معونتك، أنني لا أساوي خنصر زوجتك.

وجاء ضيوفٌ في وقت احتساء القهوة، بعد الغداء. فقرّر نيقولاي إيفانوفيتش أنّ من الضّروريّ الذّهاب إلى أحد المطاعم بسبب حالة العائلة النّفسيّة. وأخذ كوليتشيك يتلفّن إلى الكراج، وطلبوا من كاتيا وداشا الذّهاب لتتهيّأ للخُروج. وجاء تشيرفا، ولمّا عرف أنّهم ينوون الذهاب إلى مطعم اعتراه غضبٌ مُفاجئ.

– مَـن المُتضـرّر في نهايـة الأمر بنتيجـة المُنادمات التـي لا تنتهي؟ الأدب الروسيّ، بالطّبع..

إلا أنهم أخذوه هو أيضاً في السيارة مع الآخرين. كان مطعم "بلميرا الشماليّـة" غاصاً بالناس وصاخباً. وكانت قاعتـه الهائلة في الطابق الأرضيّ مترعـةً بالضّوء الساطع المشعّ من الثّريـات البلوريّة. وكانت المرايا–الجُـدران تُضاعـف بانعكاستهـا الثّريات، ودخـان السكائر، المُتصاعد من الأسفل، والموائد المصفوفة بعضها قرب بعض، والرجال في بـذلات الفراك، وأكتاف النّساء العاريـة، والباروكات الملوّنة على رؤوسهنّ–خضراء، وليقيّـة، وشائبة، والزركشة الناصعة البياض على قبعاتهنّ، والأحجار الكريمـة، المُتلألئة على نحورهنّ وآذانهن، بلألاء برتقـاليّ، وأزرق، وياقوتـيّ، والنّـدل المارقين في الظـلام، وشخصاً مهزولاً رافعاً ذراعيه، وعصاه السّحريّة تشقّ الهواء أمام ستارة المخمل القرمزيّ، والتماع أدوات الموسيقـى النّحاسيّة، كلّ ذلك قد ضاعفته المرايـا أضعافـاً مُضاعفة، حتى بدأ وكأنّ البشريّـة كلّها، والعالم أجمع يجلس في منظوراتٍ لا نهائيّة.

كانـت داشا تُراقب الموائد وهي تمتصّ الشمبانيا من خلال قصبة. ها هو رجـلٌ حليقٌ مبودرُ الخدّين يجلس أمام جـردل شامبانيا مُثلّج، وقشـور سراطين البحر. عيناه نصف مُغمضتين، وفمه مزمومٌ بازدراء. والظاهر أنّه في جلسته هذه يفكّر بأنّ الكهرباء ستنطفئ آخر المطاف، ويموت جميع الناس، ولا يستحقّ أن يفرح الإنسان بشيء.

وهـا هي السّتـارة قد اهتـزّت، وانفرجت إلى الجانبـين. وقفز إلى المسـرح يابـانيٌّ صغـير ذو غُضونٍ مفزعـة، ولاحت في الهـواء حوله كراتٌ زاهية الألوان، وصحونٌ، ومشاعل. وفكّرت داشا مع نفسها: "لمـاذا قالت كاتيا: اعذريني، اعذريني؟" وفجأةً شعرتْ وكأنَّ رأسها

يضغـط، وقلبها يتوقّف عن الخفقان. "معقول؟" غير أنّها هزّت رأسها طـاردة الأفكار، وتنهّدت بعمق، وأجبرت نفسها على ألا تفكر بهذه الـ"معقـول". ونظرت إلى أختها. كانـت يكاترينا دميتريفنا تجلس في الطّرف الآخر مـن المائدة، مُتعبة، حزينة، وجميلـة إلى درجة جعلت عينـي داشا تمتلئان بالدّموع. رفعت إصبعـاً إلى شفتيها، ونفخت فيها خلسـة. وكانت هذه إشـارةً متّفقٍ عليها. وقد رأتهـا كاتيا وفهمتها، فابتسمت ببطء ابتسامةً عذبة.

وحـوالي الساعة الثانية بـدأ الجدل حول المكان الـذي سيذهبون إليـه. طلبت يكاترينـا دميتريفنا أنْ تستأذن بالعـودة إلى البيت. وقال نيقولاي إيفانوفيتش أنّه يلتزم بقرار الجميع. وقرّر "الجميع" الاستمرار في السّهرة.

وعندئـذ وقع بصـر داشا علـى بيسونوف من خلال جمـع النّاس المُتضائل. كان يجلس إلى مائدة وقد وضع كوعه عليها في بقعة بعيدة، وهو يُصغي باهتمام إلى أكوندين الذي كان يحدّثه عن شيءٍ ماً بحدّة، مُخطّطـاً بظفره على غطـاء المائدة، وفي فمه سيـكارةٌ نصفُ ممضوغة. وكان بيسونـوف ينظر إلى ذلـك الظّفر المُتحـرّك. كان وجههُ شاحباً بادئ الاستغراق. وبدا لداشا أنّها سمعت من خلال الصّخب: "نهاية، نهايـةٌ لكلّ شيء". ولكنّ نادلاً تتريّاً عظيم البطن حجبهما كليهما عن بصرهـا في اللحظة التالية. نهضت كاتيا ونيقولاي إيفانوفيتش، ونادَيا على داشا، والفُضول والانفعال ما برحا يعذّبانها.

خرجـوا إلى الشارع فـإذا بالقرس يباغتهم برائحـة منعشة حلوة. كانـت النّجوم تتـلألأ في السّماء السّوداء الليلقيّـة. وسمعت داشا من ورائها شخصاً يقول بضحكة مُقتضبة: "يا لها من ليلةٍ فاخرة على نحوٍ شيطـانيّ!" وتقدّمت السيارةُ من الرصيف. وطلع من وراء، من غمامةٍ

البنزين المحروق رجلٌ رثّ الثياب، واختطف طاقيّته، وبحركة راقصة فتح باب السيّارة أمام داشا. ألقت داشا نظرةً عليه، وهي تدخلُ، فرأته رجـلاً نحيلاً، ووجهه غير حليق، وفمه معوج، وجسمه كلّه يرتعش، وكوعاه مضغوطان على جبينه.

– تهانيّ على الأمسية السّعيدة في معبد التّرف وملذات الحواسّ!

هتف الرّجــل بصوتٍ أجشّ وبحيويّة، ولقــف بحذق قطعة نُقود صغــيرة ألقيت له، وأدّى التحيّة بطاقيتــه المُمزّقة. وشعرتْ داشا وكأنّ عينيــه السّوداوين الغاضبتين تخدشانهــا بنظراتهما. وصلوا إلى البيت في ساعــةٍ متأخّــرة. استلقت داشا في السّرير علــى ظهرها، ولكنها لم تنــم، بل هومت ما بين اليقظــة والنّوم، وكان جسمهــا كلّه قد تخدّر تعباً شديداً.

وفجأةً أزاحت الدّثار عن صدرها بأنة، وقعدت، وفتحت عينيها. كانــت الشمس تسطع من النافــذة على أرضــ الغُرفة..."يا إلهي أيّ رعــبٍ كان منذ لحظة؟!" وكادت تبكي مــن شدّة الفزع، ولكن حين استجمعت شتات نفسها كانت قد نسيت كلّ شيء. و لم يبق إلا ألمٌ في القلب من حلمٍ رهيبٍ كريه.

خرجت داشا، بعد الفُطــور، إلى الدراسة، وسجّلت اسمها لتقدّم امتحانان واشــترت بعض الكُتب، وانغمرت في حيــاة عمليّة صارمةً حقاً حتى وقت الغداء. ولكنها في المساء اضطرّت مرّةً أُخرى أن تلبس جورباً حريرياً (في الصباح كانــت قد قرّرت أن تلبس جوارب قطنيّة فقــط)، وتبــودر يديها وكتفيهــا، وتعيد تصفيف شعرهــا. "جميلٌ لو أستطيع أن أرتّب عقدةً من الشّعر في قفاي ذلك لأنّ الجميع يصيحون: اعملــي تصفيفة شعرٍ عصريّة، وكيف أعملها والشّعر يتهافت تلقائياً".

وباختصـــار عذابٌ في عذاب. والتقطت عيناها بقعة من أثر الشامبانيا في مقدّمة ثوبها الحريريّ الأزرق الجديد.

وفجـــأةً شعرت بأســـفٍ شديد على هذا الثّوب، بـــل وعلى حياتها الضائعـــة، حتى أنهـــا جلســـت وفي يدهـــا تنّورتها التالفـــة، وراحت تنتحـــب. مدّ نيقولاي إيفانوفيتش رأسه مـــن الباب، غير أنّه رأى داشا في قميصهـــا الداخليّ تجلسُ باكيـــةً، فاستدعى زوجتـــه. جاءت كاتيا راكضـــة، واختطفت الثّـــوب وقالت "لاتفزعي، ستـــزول اللطخة في الحـــال". ونـــادت المغوليّ العظيم، فجـــاءت هذه ببنزينٍ ومـــاءٍ ساخن. ونظّفت الثّوب، وارتدته داشا. وزعق نيقولاي إيفانوفيتش من الرّواق غاضبـــاً: "إنّه العرض الأوّل، ولا يجـــوز التّأخّر". ولكنّهم تأخّروا عن بداية المسرحيّة، بالطّبع.

جلست داشا في المقصورة إلى جانب يكاترينا دميتريفنا. فشاهدت على المسرح رجلاً ضخماً ذا لحيةٍ مُستعارة، وعينين مُتّسعتين على نحوٍ غير طبيعيّ يقف تحت شجرةٍ مُسطّحة يقول لفتاةٍ في رداءٍ ورديٍّ زاهٍ:

"أحبّك، أحبّك" وأمسك الرّجل يدها، ورغم أنّ المسرحيّة لم تكن شجيّـــة، إلا أنّ داشا كانت تغالبها العبرة طـــوال العرض، مشفقةً على الفتـــاة ذات الرداء الـــورديّ الزاهي، وكان يؤلمهـــا أنّ سير المسرحيّة لا يجـــري هذا المجرى. فقد اتّضح من سياقها أنّ الفتاة قد تحبّه ولا تحبّه. كانت تجابه عناقه بضحكة حوريّة الماء، وتهرب إلى وغد كان بنطلونه الأبيض يلوح في آخر المسرح. أمسك الرّجل برأسه، وقال أنّه سيحرق مخطوطةً ما، عمل العُمر كلّه، وينتهي الفصل الأوّل من المسرحيّة.

جاء معارف إلى المقصورة، وبدأ حديثٌ مألوف، سريعٌ، ومُنشّط.

وصـــف شينبرغ المسرحيّـــة بأنّهـــا مشوّقة. وشينبرغ رجـــلٌ ضئيل

الجسم أصلع الجمجمة، ذو وجه حليق متغضّن يبدو وكأنّه يوشك طوال الوقت أن ينطّ من ياقته المُنشاة.

– مشكلة الجنس مرّةً أخرى، ولكنها مطروحةٌ بحدّة. والبشريّة يجب أن تتخلّص من هذه المسألة اللعينة في نهاية الأمر. فردّ عليه بوروف، المُحقق في القضايا الهامّة جداً، وهو رجلٌ ضخمٌ جهم، ليبراليّ النّزعة، هربت زوجته في عيد الميلاد مع صاحب اسطبلٍ لخيول السّباق:

– ذلك يتوقّف على الأشخاص. فالمسألة بالنّسبة لي محلولة. المرأة تكذب بجوهر وُجودها ذاته، والرّجل يكذب بمعونة الفنّ. المسألة الجنسيّة حقارةٌ محض، والفنّ هو أحد أنواع الجُرم الجنائيّ.

قهقه نيقولاي إيفانوفيتش، وهو ينظر إلى زوجته. فتابع بوروف حديثه بكآبة:

– حين يحين الوقت يصنع الطائر بيضةً ويزدهي الذّكر بذيل زاه. وهذا كذب، لأنّ ذيله الطّبيعيّ رماديّ وليس زاهياً. وعلى الشُّجرة تتفتّح زهرة، وهذا كذبٌ أيضاً، خداع، والحقيقةُ هناك، في الجُذور الشّوهاء تحت الأرض. والإنسان أكثر المخلوقات كذباً. فالزّهور لا تنمو عليه، وليس له ذيلٌ يزدهي به، فيضطر إلى أن يستخدم لسانه: ما يسمّى بالحبّ كذبٌ مُضاعفٌ ومُقرف، وكذلك كلّ ما لفّ حوله. إنّها أشياءٌ مُحاطةٌ بالغموضِ فقط للفتيات في سنٍّ غضّة–ورمق داشا بطرف عينه–وفي زماننا المُثقل بالحماقة ينشغل الجديّون من الناس بهذه السّخافة. أجل، إنّ الدولة الروسيّة تُعاني من فساد المعدة.

وانكبّ على علبة الحلويات بتقطيبة مرضية، وحشر بإصبعه فيها، ولم يقع اختياره على قطعة، ورفع إلى عينيه منظاراً بحرياً كان مُتعلّقاً بسيرٍ من رقبته.

وتحوّل الحديث إلى الرّكود في السّياسة والرّجعيّة. وقصّ كوليتشيك بهمس منفعلٍ آخر فضيحةٍ في البلاط.

فقال شينبرغ بسرعة:

– فظاعة، فظاعة.

ولطم نيقولاي إيفانوفيتش ركبته، وقال:

– نحن بحاجة إلى ثورة، أيها السادة، إلى ثورة فوراً. وإلا فسنختنق كلياً. وعندي معلومات–وخفض هنا صوتـه–في المصانع اضطرابٌ شديد.

طارت أصابع شينبرغ العشر كلّها في الهواء من شدّة الانفعال.

– ولكن متى، متى؟ من المُستحيل أن ينتظر الإنسان إلى ما لا نهاية.

فقال نيقولاي إيفانوفيتش بمرح:

– سنرى حتماً، يعقوب ألكسندروفيتش، وستعهد لك وزارة العدل يا صاحب المعالي.

سئمتْ داشا من الاستماع إلى هذه القضايا، والثّورات، والمناصب الوزاريّة. وضعت كوعاً على مخمل المقصورة، وطوّقت باليد الأخرى خصر كاتيا، وحدّقت في قاعة المسرح، هازّةً رأسها لمعارفها بابتسامة بين الحين والآخر. كانت داشا تعرف وترى أنّها وأختها موضعٌ إعجاب الناس، فكانت تلك النّظرات المُندهشة بين جمع الناس– نظرات الرّجال الرّقيقة، ونظرات النّساء الحانقة–ونتف العبارات، والابتسامات تُخلّف في نفسها ما يخلّفه هواء الرّبيع من أحاسيس بالسّكر. وزايلها مزاجها الباكي. ودغدغت خصلةٌ من شعر كاتيًا خدّها قرب أذنها.

همست داشا:

– كاتيا، أنا أحبّك.

– وأنا أيضاً.

– هل أنتِ مسرورةٌ لأنّني أعيش معك؟

– جداً.

وفكّرت داشا بشيءٍ آخر لطيف تقوله لكاتيا. وفجأةً وقع بصرها على تليغين في الأسفل. كان واقفاً يرتدي سترةً سوداء، ويحمل في يديه قبّعته، وبرنامج الحفلة، وكان من وقتٍ طويل يختلس النّظر إلى مقصورة آل سموكوفنيكوف، دون أن يرفع رأسه مخافة أن يلحظ. وكان وجهه الملوح القويّ يبرز واضحاً بين الوجوه الأخرى إما لشدّة بياضها، أو هزالها. وكان شعره أكثر شقرةً مما كانت تتصوّره، فقد كان بلون الشّوفان.

التقت عيناه بعيني داشا فانحنى فحيّةً لها في الحال، ثمّ استدار، إلا أنّ قبّعته سقطت منه. ولما انحنى ليرفعها، اصطدم بسيّدة بدينة جالسة في مقعدٍ وثير، فأخذ يعتذر، وصعد الدّم إلى وجهه، وتراجع وداس على قدم محرّر المجلّة الجماليّة "جوقة الموزيات". قالت داشا لأختها:

– هذا هو تليغين.

– أراه، إنّه لطيفٌ جداً.

– من لُطفه وددتُ لو أقبّله. ليتك تعرفين أيّ ذكاءٍ له، يا كاتيا.

– داشا، هذا...

– ماذا؟

إلا أنّ أختها صمتت. وفهمت داشا فصمتت أيضاً. وعاد قلبها إلى انقباضه، وسرى الاضطراب داخل قوقعتها. سرّحت هنيهة، وبعد أن نظرت من جديد إلى تلك الأعماق، رأت الظّلام والرّهبة هُناك.

وحين انطفأت الأنوار، وانفرجت السّتارة على الجانبين، تنهّدت داشا، وكسرت كسرةً من شوكولاته، ووضعتها في فمها، وأخذت تُصغي بانتباه.

مازال الرّجل ذو اللحية المُستعارة يُهدد بحرق المخطوطة، والفتاة تسخر منه، وهي جالسةٌ إلى البيانو. وكان واضحاً أنّ من الضّروريّ أن تتزوّج هذه الفتاة بأقصى سرعةٍ مُمكنة، لكي لا يجرجر الحبل خلال ثلاثة فُصول.

رفعت داشا عينيها إلى سقف القاعة، فرأت عليه صورة امرأةٍ حسناء نصف عارية تطير بين السُّحب، وعلى ثغرها ابتسامةٌ صافية. وقالت لنفسها: "يا إلهي، ما أشبهها بي!" وفي الحال رأت نفسها بعينٍ أخرى: مخلوقةٌ في مقصورةٍ تأكل الشوكولاته، وتكذب، وتتورّط، وتنتظر ذلك الشيء غير المألوف يحدث من تلقاء نفسه. ولكن لا شيء يحدث "ولا حياة لي حتى أذهب إليه، وأسمع صوته، وأحسّ بكلّ كيانه. أما سائر الأشياء فكذب. المُهمّ أن يكون المرء نزيهاً".

ومنذُ ذلك المساء كفّت داشا عن التردّد. لقد عرفت الآن أنّها لا بُدّ ذاهبةٌ إلى بيسونوف، وخشيت تلك الساعة. عزمت مرّةً أن تُسافر إلى أبيها في سامارا، إلى أنْ فكّرت بأنّ الألف والخمسمائة كيلومتر، لا تحميها من الغواية، فهزّت يدها، وكأنّها تقول وليكن ما يكون.

وحنقت أنوثتها العذراء الناضجة بالعافية. ولكن ما كان في وسعها أن تفعل شيئاً إزاء "الشخص الثاني" في داخلها إذا كان العالم كلّه يعينه عليها. وأخيراً كان مُهيناً على نحوٍ لا يُطاق، أن تتعذّب وتُفكّر طويلاً جداً ببيسونوف هذا، الذي لا يُريد حتى أن يعرفها، ويعيش خالي البال مُستمتعاً بحياته في مكانٍ قُرب جادّة كامينواوستروفسكي،

وينظم الأشعار عن فنانــة ترتدي تنورات مدنتلة، بينما هي، داشا، قد امتلأت به إلى آخر قطرةً، وذابت فيه.

وأخذت داشا، الآن، تتعمّد تصفيف شعرها مُبسّطاً، وتلفه كالعقدة على عليائها، وتلبس ثوباً قديماً–مدرسياً–جلبته من ساماراا، وتستظهر القانــون الرومانيّ حزينةً جهماء، ولا تخرج إلى الضّيوف، وتتمنّع عن التّسليات. ولكنّ التّمسّك بالنّزاهة لم يكن بالأمر الهيّن كما تبيّن. فقد جبنتْ داشا في الواقع.

في مســاء مُنعش الــبرودة في بداية نيسان، ســارت داشا من الجُزر إلى البيــت ماشيــة، وكان الغُروب قد خفُتَ، وشعّــت السماء الليلقيّة الضاربــة إلى الخُضرة، بنورٍ فسفــوريّ، دون أن تلقي ظلالاً. في البيت قالــت داشا أنّهــا ذاهبةٌ للدراســة، وفي الحقيقة أنّها ركبــت الترام إلى جســر يلاغين، وقضــت المساء كلّه تجوب الممرّات الجــرداء الأشجار، وتعــبر القناطر، وتنظر في المــاء، وفي الأغصان اللّيلقيّــة المُتسطّحة في وهج الغُروب البُرتقاليّ، وإلى وُجوه المارّة، وإلى أضواء العربات، وراء جُذوع الأشجار المُطحلبة. وكان فكرها خالياً، وخُطواتها مُتّئدة.

كانــت السّكينة ترين على نفسها، وهواء البحر الربيعيّ المالح قليلاً يتغلغل في كلّ كيانها. تعبت قدماها، ولكنها لم ترد أن تعود إلى البيت. كانت العربات تنطلــق عدواً في جــادّة كامينواوستروفسكي، وتمرق السيــارات مُروقــاً، ويتمشى المتنزّهــون جماعات متبادلــين النّكات والضحكات. انعطفت داشا في شارعٍ جانبيّ.

كان الشــارع هادئــاً تماماً وخاليــاً. وكانت السماء فــوق سُقوف البيوت خضراء. وكانت الموسيقى تتســرّب من خلال الستائر المُسدلة في كلّ بيــت. في هذا البيت يتعلّم أحــدٌ عزف سوناتة، ومن ذاك تأتي

موسيقــى فالس مألوفة أليفة، ومن تلك النافذة للعليّة المُصطبغة بحمرة الغُروب الكامدة يصدح كمان.

وشعرت داشــا، وقد أفعمت الأصوات قلبها، بأنّ كيانها كلّه يترنّم أيضاً، ويحنّ. وبدا وكأنّ جسدها قد أمسى خفيفاً نقياً. استدارت في مُنعطف، وقرأت رقم دارٍ علــى الحائط، وتبسّمت. وتقدّمت من بابه الأمامــيّ الــذي دقّت عليه تحت رأس أسد برونــزيّ بطاقة زيارةٍ كُتب عليها "أ. بيسوفنوف". وقرعت الجرس بقُوّة.

٧

كان الحاجب في مطعم "فينا" يساعد بيسونوف على خلع معطفه، فقال له بلهجةٍ ذات معنى:

– يا ألكسي ألكسييفتش، أنّ شخصاً ينتظرك.

– من؟

– أنثى.

– من هي؟

– لا تعرفها.

ســار بيسونــوف إلى الرّكن القصيّ مــن قاعة المطعــم، وهو ينظر فــوق الرّؤوس بعينين فارغتين. انحنى لسكوتكين رئيس النّدل سبلتيه الجانبتــين الشيباوين على كتفي بيســووف، وقال أنّ طبق اليوم المُمتاز هو من لحم الضّأن. فقال له بيسونوف:

– لا أريد أن آكل. قدّم لي نبيذي الأبيض المُفضّل.

وجلس بــادي الوقار، مرفوع الصّدر، واضعــاً يديه على الخوان.

في هذه الساعــة، وفي هذا المكان كانت تنتابه في العادة حالةٌ متكرّرة مــن الإلهام الكئيــب. كانت جميع انطباعات اليــوم تندمج في شكل منسّــقٍ مُــدرك، وفي داخله، في الأعماق المُتأجّجــة بعزف الكمانات الرّومانيّة، وروائح العُطور النّسائيّــة، واحتباس الهواء في قاعة المطعم المُكتظّــة بالناس كان يظهر ظلٌّ لهذا الشّــكل الآتي من الخارج، وهذا الظّــل هو الإلهام. وكان يشعــر بأنّه يتوصّل إلى المعنــى الخفيّ للأشياء والكلمات بحماسةٍ تلمس داخليّةً عمياء.

رفــع بيسونوف قدح النّبيذ ورشــف منه دون أن يُباعد بين أسنانه. كان قلبه يخفق ببطء. وكان يُخامره شعورٌ بالراحة لا يوصف مُتغلغلاً في كامل كيانه المُتشبّع بأصوات الموسيقى والناس.

وعلى مائدة مُقابلة قرب المرآة كان يتعشّى سابوجكوف، وأنتوشكا أرنولــدوف، ويلزفيتا كيفنا. وكانت هذه قــد أرسلت إلى بيسونوف بالأمس رسالةً طويلة، وحدّدت له موعداً للقاء هنا، وهي الآن جالسةٌ محمرّةٌ مُنفعلة. كانت ترتدي ثوباً من قُماشٍ مُخطّط بالأسود والأصفر، وتضــع في شعرها عقدةً بهذا اللون. وحــين دخلَ بيسونوف أحسّت بضيقٍ في نفسها.

– كــوني على حــذر، أنّه هجر الفنانــة، وهو الآن من غــير امرأة، خطر، كالنّمر، –همس لها أرنولدوف كاشفاً رأساً عن أسنانه الذهبيّة والمسوّسة.

وضحكت يلزافيتــا كيفنا، واهتزّت عقدتهــا المُخطّطة، وسارت بين الموائد إلى بيسونوف، تحت نظرات الناس وتكشيراتهم.

أضحت حياة يلزافيتا كيفا في المُدّة الأخيرة مُضجرةً للغاية، كانت الأيام تُتابع دون ما عمل تنغمر به، ودون أملٍ في حالٍ أفضل. وبكلمة واحــدة سأمٌ محضٍ. وكان واضحاً أنّ تليغين ينفر منهــا. كان يُعاملها

بلُطــف، ولكنه كان يتجنّب أنْ يتحدّث إليها أو يلتقي بها على انفراد. بينمــا كانت هي تشعر بأنهــا بحاجة إليه بالــذات. فكانت، إذا تردد صوتــه في الرّواق، تحدّق في الباب تحديقةً نافذة. وكان يسير في الممرّ علــى أطرف أصابعه دائمــاً. بينما كانت هي تنتظــر، واجمة القلب، والبــاب يتراءى ذائباً أمــام بصرها، إلا أنّه كان يمرّ بهــا، شأنه كلّ مرة، دون أن يتوقّف ليطرق الباب على الأقلّ ويطلب عود ثقاب.

قبل بضعــة أيام اشترت أحــد كُتب بيسونــوف، مناكدة جيروف الــذي كان يعيب كُلّ شــيءٍ في هذه الدّنيا بحذرٍ قــط، قطعت أوراق الكتاب بمكواة الشّعر وقرأته عدّة مرات مُتتابعة، ودلقت عليه القهوة، وجعدته وهي تقرأ في السّرير، وأخيراً أعلنت، عند الغداء أنه عبقريّ.. انفعل نُزلاء شقّة تليغين. ووصف سابوجكوف بيسونوف بأنّه دملةٌ في جســم البرجوازيّة المُتفسّخ. ونضــخ عرق على جبين جيروف. وكسر الرّسام فاليت صحناً. وبقي تليغين وحده غير ميد اهتماماً. وعند ذاك حــدث في نفسها ما يُسمى بـ"لحظة استفزاز النّفس". فراحت تقهقه، وذهبــت إلى غرفتهــا، وهناك كتبــت إلى بيسونوف رسالــةً متحمّسةً سخيفــة، تطلب فيهــا أن تلتقي به، وعادت إلى غرفــة الطّعام، وألقت الرّسالة على المائدة، صامتة. قرأ النّزلاء الرسالة بصوتٍ عالٍ، وتناقشوا طويلاً، وقال تليغين:

– رسالةٌ جريئة جداً.

عندئــذ سلّمــت يلزفيتا كييفنــا الرسالــة إلى الطباخــة، لترميها في صُندوق البريد في الحال. وشعرت بأنها تندفع في هاوية. والآن، وهي تتقدّم من بيسونوف، بادرته قائلةً بخفّة:

– كتبت لك، فجئت، شكراً.

وجلســت قبالته في الحــال، مُديرةٌ جنبها إلى المائــدة، واضعةً ساقاً

على ساق، مركّزةً كوعها على الخوان، مُسندةً ذقنها على راحة يدها، وأنشأت تنظر إلى بيسونوف بعينيها المرسومتين على ما تبدوان. لزم بيسونوف الصّمت. جلب النادل قدحاً ثانياً، وصبّ فيه النّبيذ ليلزافيتا كييفنا. قالت الفتاة:

– ستسأل، طبعاً، لماذا أردت أن أراك.

– لا، لن أطرح هذا السُّؤال. اشربي نبيذك.

– أنت مُحقّ، فليس عندي ما أقوله. أنت تحيا، يا بيسونوف، وأنا لا. مجرّد أنّني ضجرة.

– ماذا تُمارسين؟

– لاشيء. –وضحكت، وصعد الدّم إلى وجهها في الحال.

–يُضجرني أن أصبح محظيّة. أنا لا أعمل شيئاً. أنا في انتظار أن تصدح الأبواق، ويندلع الوهج... أيبدو ذلك غريباً لك؟

– ومن أنت؟

لم تجب، وأطرقت برأسها، وازداد احمرار وجهها، ثمّ همست:

– أنا طيف.

ابتسم بيسونوف ابتسامةً مُتكلّفة، وفكّر مع نفسه: "بلهاء إنّها بلهاء". إلا أنّ لشعرها الذهبي مفرقاً محبّباً للنفس، مفرق آنسة، وبدت كتفاها المُمتلئتان المكشوفتان بشدّة نقيّتين حتى أنّ بيسونوف ابتسم مرّةً أخرى أكثر طيبة، ومصّ قدح النّبيذ من خلال أسنانه، وتولّدت في نفسه رغبةً مفاجأة في أنْ ينفث على هذه الفتاة الساذجة دخان خياله. فذكر لها أنّ ليل العقاب الرّهيب في سبيله إلى أنْ يخيّم على روسيا، وأنّه يتحسّس ذلك، بإماراتٍ خفيّة منحوسة.

– لا بُدّ أنّك قد شاهدت في المدينة إعلاناً مُلصقاً على الجُدران

يُصوّر شيطاناً مُقهقهاً يندفع هابطاً سلّماً هائلاً على إطار سيارة... أتفهمين ما يعني هذا؟

نظرت يلزفيتا كييفنا إلى عينيه الثّلجيتين وفمه الأنثويّ. وحاجبيه النّحيلين المرفوعين، وإلى ارتجاف اصابعه الخفيف وهي تحمل القدح، وإلى احتسائه النّبيذ بنهم وبطء. ودار رأسها دورانا مُمتعاً. وعلى مسافة بعيدة بدا سابوجكوف يرسل الايماءات لها. وفجأةً التفت بيسونوف، وسأل عبوساك

– من هؤلاء الناس؟

– إنهم أصدقائي.

– لم تُعجبني إيماءاتهم.

عندئذ قالت يلزفيتا كييفنا دون تروٍّ:

– لنذهب إلى مكانٍ آخر، ألا ترغب؟

تفرّس بيسونوف فيها. كانت عيناها محولّتين قليلاً، وفمها يفتر عن بسمة خفيفة، وقد ظهرت حبات عرقٍ صغيرة على صدغيها. وفجأةً أحسّ بلهفةٍ إلى هذه الفتاة القويّة والمُعافاة القَصيرة النّظر، فأمسك بيدها الكبيرةً الحارّة التي كانت مُستقرّةً على المائدة، وقال:

– أمّا أن تنصرفي الآن... وأما أن تلزمي الصّمت. تعالي–من الضّروريّ التّصرّف على هذا النّحو.

اكتفت يلزفيتا كييفنا بأن أرسلت زفرةً قصيرة، وغاض الدّم من وجنتيها. ولم تشعر كيف نهضت، وأمسكت بيسونوف بيدها، وسار الاثنان بين الموائد. وحين جلسا في العربة لم تستطع الريح نفسها أن تبرد جلدها المُلتهب. قرقعت العربة على بلاط الشارع. استند بيسونوف على مقبض عصاه بكلتا يديه، ووضع حنكه عليهما، وقال:

– عُمري خمسة وثلاثون عاماً، ولكن الحياة انتهت ولن يخدعني الحبّ بعد الآن. أيّ شيءٍ أكأبُ من أن يكتشف المرء فجأةً بأنّ جواد الفارس ما هو إلا حصانٌ من خشب؟ وما يزال إلى الأمام وقتٌ طويلٌ جداً–أجرجر نفسي في هذه الحياة كالجنّة–والتفت وانفرجت شفتاه عن بسمة هازئة–يبدو أنّ عليّ أيضاً أن أنتظر مثلك حتى تصدح أبواق أريحا. حسناً، جميلٌ لو يرتفع فجأةً من هذه المقبرة صداح الأبواق! وينتشر الوهج في أرجاء السّماء... نعم، يبدو أنّك على حقّ...

وصلا إلى فندقٍ خارج المدينة. قادهما النادل النّاعس عبر دهليزٍ طويل إلى الغُرفة الوحيدة التي بقيت شاغرة. وهي غرفةٌ واطئة السّقف أوراق جدرانها حمراء، مشقّقة، مبقّعة. وكان ثمّة سريرٌ كبير قد وُضع عند الجدار تحت ظليّلة حائلة اللون، وعند قدمي السّرير مغسلةً قصديريّة. وكانت الحُجرة تفوحُ برُطوبة محبوسة، وعطن تبغ. سألت يلزفيتا كييفنا، وهي عند الباب، بصوتٍ لا يكاد يُسمع:

– لماذا جئت بي إلى هنا؟

سارع بيسونوف يجيب:

– لا، لا، سنرتاح هنا.

خلع معطفها وقبّعتها، ووضعهما على مقعدٍ مخلوع. جلب النادل زجاجة شمبانيا، وتفّاحات صغيرة، وعنقودَ عنبٍ معفّرٍ بالنّشارة الفلينية، ونظر إلى المغسلة، واختفى عبوساً كما كان. أزاحت يلزفيتا كييفنا الستارة عن النافذة، فرأت مصباحاً غازياً يضيء وسط العراء الرّطب، وصهاريج ضخمة يسوقها أناسٌ متكوّرون تحت ظليلات الخيش. ابتسمت بكآبة وأقبلت على المرآة، وأخذت تسوّي شعرها بحركاتٍ جديدة غير مألوفة إليها نفسها. وفكّرت مع نفسها هادئة:

"غداً حين أثوبُ إلى رشدي، أجنّ" وعدّلت العُقدة المُخطّطة. سأل بيسونوف:

– أتريدين نبيذاً؟

– نعم، أريد.

جلست على الأريكة، وأقعى هو عند قدميها على البساط، وقال في تأمّل:

– إنّ لك عينين مُخيفتين: وحشتين وبديعتين. عينان روسيتان. أتحبينني؟

وعاودها الذّهول مرّةً أخرى، إلا أنها حدّثت نفسها في اللحظة التالية: "لا، ذلك هو الجُنون بعينه". تناولت القدح من يديه، مترعاً بالنّبيذ، وشربت، وفي الحال دار رأسها ببطء، وكأنّها تنهار. قالت وهي تتسمّع كلماتها وكأنّها ليست كلماتها وكأنّها تتردّد من بعيد:

– إنني أخاف منك، وسأكرهك لا بدّ لا تنظر إليّ هكذا، تخجلني.

– أنتِ فتاةٌ غريبة.

– بيسونوف، أنت رجلٌ خطيرٌ جداً. أنا من عائلة على المذهب الدينيّ القديم، وأنا أؤمن بوجود الشّيطان...أوه، يا إلٰهي، لا تحدّق بي هكذا. أنا أعرف، لماذا أردتني...أنا أخشاك. وضحكت بصوت عالٍ، وارتجّ كلّ جسدها من ضحكها. وطرطش النّبيذ من القدح فيً يدها. وأنزل بيسونوف وجهه على ركبتها. وقال بصوتٍ يائس، وكان خلاصة كلّه الآن في يدها:

– أحبّيني...أتوسّل إليك أن تحبّيني...أنا مُرهق...وأحسّ بالرّهبة...رهبةُ الوحدة...أحبّيني...أحبيني...وضعت يلزفيتا كييفنا يدها على رأسها، وأغمضت عينيها. قال إنّه في كلّ ليلةٍ تتملّكه رهبة

المــوت. ويجب أن يستشعر وجود إنسان قريبــاً منه، إلى جانبه، يأسو لــه، ويدفؤه، ويهب نفســه له. ذلك عقــاب، عذابات... "نعم، نعم، أعرف... ولكنّنــي قد فقــدتُ الحسّ بسبب الــبرد. وقلبي قد توقّف. ادفئيني. أنا بحاجــة إلى القليل. وأشفقي عليّ، فأنا أموت. لا تتركيني وحيداً، أيّتها الفتاة الطيّبة، الطيّبة..."

صمتت يلزفيتا كييفنا رُعبــاً واضطراباً. بينما راح بيسونوف يقبّل راحتيها بقبلات تزداد طــولاً. وصار يقبّل ساقيها الكبيرتين القويّتين. شدّت الفتاة على نفسها أقوى، وبدا وكان قلبها قد توقّف من الخجل الشّديد.

وفجأةً لفّت نــارٌ صغيرة كلّ كيانا. فقد صار بيسونوف يبدو قريباً إلى النّفســ، بائساً... رفعت رأسه قليلاً، وقبّلــت شفتيها بقوّةٍ وبنهم. وبعد ذلك وقد زايلها الخجل خلعت ثيابها بعجالةٍ، واضطجعت على السّرير.

وحــين غفــا بيسونوف، واضعــاً رأسه على كتفهــا العارية، ظلّت تحــدّق طويلاً بعينيها قصيرتي النّظــر في وجهه الشاحب المُصفرّ الذي انتشرت تجاعيد التّعب عليه كلّه، على الصّدغين، وتحت الجفنين، وعند الفــم المُطبق. وجهٌ غريب، ولكنه الآن حبيبٌ إلى الأبد. كان النّظر إلى النائم مُتعباً جداً حتى أنّ يلزافيتا كييفنا أخذت تبكي.

تصــوّرت أنّ بيسونوف، إذا ما استيقــظ، ورآها في السّرير، ممتلئة، غير جميلة، ذات عينين منتفختين من البُكاء، فإنه سيسعى إلى التّخلّص منهــا في الحال، ولا يمكن أن يحبّها شخص بعد الآن، وسيتقن الجميع مــن أنّها امــرأةٌ متحلّلة، بلهــاء، رخيصة، وأنّها ستتعمّــد أن تفعل كلّ مــا من شأنــه أن يحملهــم إلى التّفكير بأنّها تحبّ رجــلاً واحداً، بينما منحت نفسها لرجلٍ آخر، وهكذا ستكون حياتها دائماً مملوءةً بالكدر

والقذارة والإهانـات الموجعة. أخذت يلزفيتـا كيفنا تنتحب بحذر، وتمسح عينيهـا بطرف المفرش. حتى غلبها النّـوم، على هذها الحالٍ، والدموع في عينيها.

استنشق بيسونوف الهواء من أنفه بعمق، واستدار إلى ظهره، وفتح عينيـه. كان جسمه كلّه يئنّ تحت وطـأة انقباض لا يوصف من خمار البارحـة. وكان من المُقرف التّفكير بضرورة الشّـروع في يوم جديد. أمعـن النّظـر طويلاً في كـرة السّرير المعدنيّـة، ثمّ تجرّأ علـى النظر إلى يساره. كانت امرأةٌ تنبطح إلى جانبه، على ظهرها أيضاً مغطيّةً وجهها بكوعها العاري.

"مـن هي؟" وشحـذ ذاكرته المُضطربـة، غير أنّـه لم يتذكّر شيئاً. سحب علبة سكائره من تحـت الوسادة بحذر، وأشعل سيكارة "أوه، يا للشيطان! نسيت، نسيت، فو، فظاعة".

قال بصوتٍ مُتلطّف:

– يبدو أنّك قد استيقظت. صباح الخير.

لزمت المرأة الصّمت، ولم ترفع كوعها. فتابع يقول:

– بالأمس كنـا غريبين. ونحن اليوم مربوطان بالعرى الخفيّة لهذه اللّيلة.

وتعبس. كان كلّ ذلـك نوعاً من الابتذال. والشيء الرئيسيّ أنّه لا يعـرف ماذا ستفعل الفتاة الآن. أتبـدي ندماً وتبكي، أم يستولي عليها فيضٌ من مشاعر القربى؟ مسّ كوعها بحذر. وتنحّى. يبدو أنّ اسمها مارغريت. قال مهموماً:

– هل أنت غاضبة، يا مارغريت؟

عندئـذٍ جلست مستنـدةً على الوسائـد، وأخذت ترمقـه بعينيها

الجاحظتين القصيرتي النّظر، وهي تمسك على صدرها قميصها الليلي الساقـط. كان جفناها منتفخـين، وفمها الممتلئ معوجـاً في ابتسامةٍ هازئة. وتذكّر كلّ شيءٍ وأحسّ برقّةٍ كرقّة أخ. قالت:

– لست مارغريت، بل يلزافيتا كييفنا. أنا أمقتك. انزل من السّرير.

انسلّ بيسونوف من تحت الغطاء فوراً، وأخذ يرتدي ملابسه، على نحـو ما، وراء سدل السّرير، قرب المغسلة العفنة، ثمّ أزاح السّتارة عن النافذةً، وأطفأ المصباح الكهربائيّ. وتمتم:

– هناك لحظاتٌ لا تُنسى.

ظلّـت يلزفيتا كييفنا تتابعـه بعينيها الداكنتـين . وحين جلس على الأريكة يدخّن سيكارة، قالت ببطء:

– سأذهب إلى البيت، وسأسمم نفسي.

– أنا لا أفهم مزاجك، يا يلزافيتا كييفنا.

– لا أحتـاج إلى أن تفهمني. اخرج من الغرفة، فأنا أريد أن أرتدي ثيابي.

خرج بيسونوف إلى الدهليز حيث كان يسري تيّارٌ قويّ من الهواء، وتفـوح رائحة غاز الكاربـون. واضطرّ إلى الانتظـار طويلاً. فجلس علـى إفريز النافذة يدخّن. ثمّ سار إلى نهاية الدّهليز، حيث تناهت إليه من مطبـخ صغير أصوات واطئة لنادلٍ وخادمتـين يتبادلون الحديث، وهم يحتسون الشاي؛ قال النادل:

– مـلأت أسماعنا بقريتـك. إنها ليست روسيـا. أنت لا تفهمين شيئاً! تجـوّلي ليلاً في الغُرف، وسترين روسيـا أمامك. الجميع أوغاد. أوغادٌ وأوباش.

– كُن أرقّ في تعابيرك، يا كوزما إيفانيتش.

– إذا كنتُ أعمل في هذه الغرف ثمانية عشر عاماً، فمعنى ذلك أنّ لي حقاً في أن أتكلّم هكذا.

قفل بيسونوف عائداً، فرأى باب غرفته مفتوحاً، والغرفة فارغة وكانت قبّعته ملقاةً على الأرض.

وفكّر: "وليكن. هذا أفضل"، وتثاءب، وتمطّى معدلاً عظامه.

وهكذا بدا يومٌ جديد. وكان يختلف عن اليوم الفائت بأنّ ريحاً قويّةً منذ الصباح بدّدت السّحب المُمطرة، وساقتها نحو الشمال، فتلبّدت هناك كتلاً بيضاء واسعة. كانت المدينة المُبلّلة تغمر بسيولٍ باكرة من نور الشّمس وكانت الغيلان الهلاميّة الخفيّة عن العين– نزلات البرد والسّعال، والعلل الخبيثة، وعصيات السّلّ السوداويّة تتكوّر على نفسها، وتشوى، وتغيب عن الوعي، وحتى الميكروبات شبه الغامضة للنيورستنيا السوداء لاذت وراء الستائر، في ظلام الغرف والأقبية الرّطبة. وكانت ريحٌ خفيفة تهبّ على الشوارع. وفي البيوت كانت النّوافذ تنظف وتُفتح. وكان البوابون في قمصانهم الزرق يكنسون الأرصفة. وفي جادة نيفسكي كانت فتيات الشوارع ذوات الوجوه المُخضرة يعرضن للسابلة باقات من زهور الثلجيّة المُعطرة بأنواع رخيصة من ماء الكولونيا. وفي المخازن كان يرفع ما هو شتويّ على عَجل، وتظهر في الواجهات الأشياء الربيعية البهيجة مثل الأزهار الأولى.

طلعت صحف ما بعد الظهر كلّها تحمل العناوين: "مرحباً بالربيع الروسيّ". وكانت بعض القصائد ازدواجيّة المعنى بشكلٍ بالغ. وباختصار أستُهبلت الرقابة.

وفي آخر الأمر سار في شوارع المدينة المُستقبلون من جماعة "المجمع المركزي" وسط صفير الأولاد وصيحاتهم. وكانوا ثلاثة:

جيروف، والرسام فاليت، وأركادي سيميسفيتوف الذي لم يكن معروفاً لأحدٍ آنذاك، وهو شابٌ طويل القامة له وجه حصان.

كان هؤلاء المُستقبليون يرتدون بلوزات قصيرة بلا أحزمة من المخمل البرتقاليّ اللون المُخطط بخطوط ملتويةٍ سوداء، وقد حمل كلّ واحدٍ منهم منظاراً أحاديّ العدسة، ورسم على خدّه سمكة، وسهماً، وحرف "ر". وفي حوالي الساعة الخامسة اعتقلهم مفتّش الشرطة في منطقة ليتينايا، وحملهم في عربةٍ إلى مركز الشرطة للتحقيق في هوياتهم.

كانت المدينة كلّها قد خرجت إلى الشوارع. سارت العربات اللامعة وسيول الناس في شارع مورساكيا، والكورنيش، وجادة كامينواوستروفسكي. وكانت كثرةٌ كاثرة من الناس تتصوّر أنّ شيئاً غير اعتياديّ لا بدّ سيحصل اليوم: أما أن يوقّع على بيان في قصر الشتاء، أو ينسف مجلس الوزراء بقنبلة، أو عموماً "سيبدأ" في مكانٍ ما...

إلا أنّ الغسق قد خيّم على المدينة، وأضيئت الأنوار على طول الشوارع والقنوات عاكسةً على الماء الأسود إبراً متعرّجة من الضوء، ولاح غروبٌ هائل، داخنٌ غائم، من على جسور النيفا وراء مداخن مصانع إنشاء السّفن. و لم يحصل شيء. وومضت آخر لمعة على إشبيل قلعة بطرس وبولس، وانتهى النهار.

عمل بيسونوف في هذا النهار كثيراً وبشكل طيّب. أنعشته الإغفاءة بعد الفطور، فأخذ يُطالع جوته طويلاً، وقد أثارته المطالعة وأقلقته.

سار بين رفوف الكتب، وفكّر بصوت مسموع، وجلس بين الحين والآخر إلى مكتبه يسجّل الكلمات والأبيات. جلبت مدبّرة

البيت العجوز التي كانت تعيش معه في شقّة العزوبة إبريقاً من الصينيّ يتصاعد منه بخار قهوة الموكا.

كان بيسونوف في لحظات من التجلي. فقد كتب أنّ الليل يخيّم على روسيا، وتنفرج ستارة المأساة، والشعب الذي يعبد الله يتحوّل بمعجزة شأن القوزاقي في قصة غوغول "الانتقام الرهيب" إلى متمرّد على الله، ويرتدي قناعاً رهيباً. ويجري الإعداد للاحتفال بالقداس الأسود على نطاق الشعب كلّه وتنفتح الهاوية. وما من خلاص.

أغمض عينيه وتصوّر حقولاً مقفرة، وصلباناً على المدافن، وسقوفاً بدّدتها الريح، وفي المدى البعيد، وراء التلال، هالة نيران الحرائق. أمسك رأسه بكلتا يديه، وفكّر بأنّه على هذه الصورة بالذات يحبّ تلك البلاد التي عرفها عن طريق الكتب والصور فقط. تغطي جبينه بالغضون العميقة، وامتلأ قلبه برعب التنبؤ. وبعد ذلك وضع السيكارة المُشتعلة بين إصبعيه وكتب ورقاتٍ مخشخشة بخطّه الكبير.

وعند هبوط الظلام استلقى بيسونوف على الأريكة دون أن يشعل الضوء، والقلق ما يزال يستولي على كيانه، ورأسه مُلتهب، ويداه نديتان. وبهذا انتهى عمله اليوميّ.

انتظمت دقات قلبه شيئاً فشيئاً، وصارت أكثر هدوءاً. والآن كان عليه أن يفكّر كيف يمضي هذا المساء والليلة. أوف... لا أحد تلفّن له، ولا زاره. يتعيّن عليه أنْ يصارع شيطان السأم وحده. ومن الطابق العلويّ، حيث كانت تعيش عائلةٌ انجليزيّة، كان يتناهى إلى سمعه عزف بيانو، وقد بعثت هذه الموسيقى في نفسه رغائب غامضة مستحيلة.

وفجأةً رنّ جرس الباب الخارجيّ في صمت البيت. وسمع بيسونوف خفق خطوات نعال مدبّرة البيت على الأرض وصوتاً نسائياً معقداً:

– أودّ أن أراه.

ثـمّ توقّفت خطواتق خفيفةٌ دؤوب عنـد الباب. ابتسم بيسونوف هازئـاً، ودون أن يتحرّك. انفتح الباب قبل أن يطرق، ودخلت الغرفة فتاةٌ هيفـاء نحيلة أضاءها من الخلف ضـوء الدهليز، كانت تضع على رأسها قبّعةً كبيرة غرزت فيها زهورٌ بيضاء ناتئة.

توقّفـت وسـط الغرفة، وهي لا تميّز شيئاً مـن الضوء، وحين نهض بيسونـوف من الأريكة صامتاً، تراجعت قليـلاً، إلا أنها هزّت رأسها بعزيمة، وقالت بنفس النبرة العالية:

– أتيت إليك في أمرٍ مهمٍّ جداً.

تقـدّم بيسونـوف من المكتـب، وأضـاء المصباح. تنـوّرت ظليلة المصباح الزرقاء بين الكتب والمخطوطات، وملأت الغرفة كلّها بضوءٍ خافتٍ هادئ.

– ما الذي أستطيع أن أفعله لك؟

قال ألكسي ألكييفيتش ذلك، وهو يشير للقادمة إلى مقعد، وجلس هـو على كرسي مكتبه بهدوء، واضعاً يديه على مرفقي الكرسيّ. كان وجهـه شديد الشحوب، وتحت جفنيه ازرقـاق. رفع عينيه إلى زائرته على مهل، وجفل، وارتجفت أصابعه. وقال بخافت الصوت:

– داريا دميترييفنا، لم أعرفك في اللحظة الأولى.

جلست داشا على المقعـد بنفس الحزم الذي دخلت به، ووضعت على ركبتيها يديها المقفزتين من جلد الحمل، وقطّبت حاجبيها؛

– أنا سعيـدٌ في زيارتك، يا داريا دميترييفنا. إنها هديةٌ كبيرةٌ جداً.
قالت داشا دون أن تسمعه:

– لا تتصـوّر، أرجوك، أنني من المعجبات بك. إنّ بعض قصائدك

تعجبني، وبعضها الآخر لا يعجبني، أنا لا أفهمها، ولا أحبّها أبداً. وأنا لم أجئ مطلقاً لأتحدّث عن الأشعار... بل جئت لأنّك قد عذّبتني.

وخفضت رأسها كثيراً، فلاحظ بيسونوف إنّ عنقها قد احمرّ، وكذلك معصماها ما بين نهاية القفازين وكميّ الثوب الأسود. لزم بيسونوف الصمت، ولم يبد حراكاً.

– وبالطبع أنّ ذلك الأمر لا يعنيك. وكم أودّ أنا أيضاً أن لا يعنيني. ولكنني اضطرّ إلى أن أعاني، كما ترى، لحظاتٌ مؤلمة جداً...

ورفعت رأسها بسرعة، وحدّقت في عينيه بعينيها الصارمتين الصافيتين. فأسبل بيسونوف جفنيه ببطء.

– لقد ولجت عليّ كالمرض. أنا دائماً أجد نفسي أفكّر فيك وذلك، في آخر الأمر، فوق مستوى طاقتي. كان دائماً أجد نفسي أفكر فيك وذلك، في آخر الأمر، فوق مستوى طاقتي. كان من الأفضل أن أجيء، وأقول لك بصراحة. واليوم قد وطدت عزمي على ذلك. وها أنا قد جئت لأعلن لك عن حبي...

وارتعشت شفتاها، وأسرعت فأشاحت بوجهها، وراحت تنظر إلى الجدار، حيث علّق قناع بطرس الأول مضاء من الأسفل بجفنيه المطبقين وبابتسامة ترفّ على فمه المطبق، وكان محبوباً لدى جميع الشعراء في ذلك الحين. وفي الطابق العلويّ كانت عائلة الكاهن الانجليزيّ تغني رباعية: "نموت". "لا، نطير". "في السماء البلوريّة". "في الفرح الخالد المخلّد".

وتكلّمت داشا بسرعةٍ وحرارة:

– وإن أخذت تؤكّد لي بأنك تحمل مشاعر ما نحوي فإنني سأغادر على التو. إنك لا تستطيع حتى أن تضمر لي الاحترام، هذا شيءٌ واضح. فإنّ النساء لا يتصرفن تصرفي هذا. ولكنني لا أريد شيئاً،

ولا أطلب شيئاً. كنت أريد فقط أن أقول أنني لا أريد شيئاً، ولا أطلب شيئاً. كنت أريد فقط أن أقــول أنني أحبّك حباً مبرحاً وعتيقاً جداً... وقد هدّ هذا الحب كياني... ولم يُبق حتى على كبريائي...

وقالت لنفسها: "والآن جميلٌ لو أنهض وأحيي بهزّة أبية من رأسي، وأخــرج". إلا أنهــا ظلت جالسةً تحــدّق في القناع الباســم. وتملّكها تعــبٌ طاغٍ يشلّها حتى عن رفع يدها، وأحسّت في تلك اللحظة بكلّ جسمهــا، وبوقره ودفئه. وقالــت في سرّها، وكأنها في حلم: "أجب، أجــب الآن". غطى بيسونوف وجهه بكفّــه، وأخذ يتحدّث بصوتٍ خافتٍ مكتوم كما يتحدّثون في الكنيسة.

– لا أستطيع إلا أن أشكرك بكلّ روحي على هذا الشعور. أن مثل هذه اللحظات، مثل هذا الشذى الذي غمرتني به، لا ينسى أبداً...

قالت داشا من خلال أسنانها:

– لا يراد منك أن تتذكرها.

صمــت بيسونــوف، ونهضــ، وابتعد سائــداً ظهره علــى خزانة الكتب.

– لا يسعنــي إلا أن أنحنــي لك إجلالاً، يا داريــا دميتريفنا. أنا لا أستتحــقّ أن أصغي إليك. ولعلي لم ألعن نفسـي من قبل، مثلما ألعنها في هذه اللحظة. لقد بددتها، وبذرتها، واعتصرت نفسي كلها. بم أردّ عليــك؟ أدعوك إلى فندق خــارج المدينة؟ سأكون نزيهاً معك، يا داريا دميتريفنــا. ليس لي ما أُحبّ به. قبــل بضعة أعوام كنت واثقاً من أنني ما أزال قادراً على أن أنهل من الشباب الأبدي، وما كنت لأسمح لك بأن تغادريني. أحسّت داشا، وكأنه يغرز فيها إبراً. فقد كان في كلماته عذابٌ مُستطيل...

– الآن أبدّد الشراب الغالي ليس إلا. ولا بدّ أنك تدركين ما يكلفني ذلك. أن أمدّ يدي وأتناوله...

همست داشا على عجل:

– لا، لا.

– بلى. وأنتِ تعرفين ذلك. ليس هناك أحلى من إثم التبذير. والتبديد حتميّ. وهذا ما جئت إليّ من أجله. من أجل تبديد كأس العفاف...وقد قدّمتها لي...

وقلّص عينيه ببطء. نظرت داشا إلى وجهه مرعوبةً مكتومة الأنفاس.

– اسمحي لي بأن أكون صريحاً معك، يا داريا دميتريفنا. أنت شديدة الشبه بأختك، حتى من الوهلة الأولى...

صرخت داشا:

– ماذا؟ ماذا قلت؟

ووثبت من المقعد، وتوقّفت أمامه. لم يدرك بيسونوف انفعالها، ولم يحسن تأويله. شعر بأنه فاقدٌ صوابه لا محالة. استنشق منخراه طيب عطرها، وتلك الرائحة غير المحسوسة تقريباً، والقاهرة في الوقت ذاته، رائحة بشرة أنثى تختلف من شخصٍ لآخر.

– هذا جُنون...أنا أعرف..لا أستطيع صبراً...همس بذلك باحثاً عن يديها. إلا أنّ داشا انتزعت نفسها، وركضت. وعند العتبة نظرت بعينين وحشيتين، واختفت. وصفقت الباب الخارجيّ بقوّة. تقدّم بيسونوف من مكتبه بخطوات بطيئة، ونقر بأظافره على علبة بلوريّة، وتناول سيكارة. وبعد ذلك ضغط كفّه على عينيه وأحسّ بكلّ قوّة

خياله المخيفة بأنّ الراهب الأبيض المهيئ للمعركة الحاسمة قد بعث له هذه الفتاة العاطفية، الرقيقة، المُغرية، ليجذبه، ويحوّله، وينقذه. إلا أنه واقـعٌ في قبضة الراهب الأسود علـى نحوٍ ميئوس منه، ولا خلاص له الآن. فقد كان الجشع الذي لا يشبع والندمُ يحرقانه ببطء كسمٍّ يجري في دمه.

٨

– أهذا أنت، يا داشا؟ ممكن، ادخلي.

كانـت يكاترينـا دميترييفنا واقفةً أمـام مرآة الصـوان، تشدّ عليها المشدّ. ابتسمت لداشا بسهـوم، وتابعت الدوران بجدّ واطئة البساط بنعليهـا الضيقـين. كانـت في ملابسها الداخليّـة الرشيقـة بالشرائط والمخرمات، وذراعاهـا الجميلتان وكتفاها مبودرة، وشعرها مصففٌ علـى شكل تاج فاخر. وعلى منضدة واطئة إلى جانبها وضع قدح ماء حـار؛ وهنا وهناك مقصـات للأظافرِ ومبارد، وأصابـع أحمر الشفاه وكحـل الجُفـون، وحقـق البـودرة. واليـوم كان المساء بـلا منهاج، ويكاترينـا دميترييفنا انشغلت في "في تنظيـف ريشها" كما تعوّد أهل البيت أن يسمّوا ذلك.

قال وهي تشدّ جوربها:

– تصـوّري أنّ المشـدات ذات الصفيحة المعدنيّـة المُستقيمة يبطل استعمالها الآن. انظري إلى هذا المشدّ الجديد من مدام ديوكليه. البطن أكثر تحرراً بمقدارٍ كبير، بل وبارز بعض الشيء. أيعجبك هذا؟

أجابـت داشا: "لا، لا يُعجبنـي". وتوقّفت عند الجوار، ووضعت يديها وراء ظهرها. رفعت يكاترينا دميترييفنا حاجبيها مُندهشة.

– أحقاً لا يعجبك؟ يا للأسف. إنّ لبسه مريح.

– ما هو المريح، يا كاتيا؟

– لعلّ المخرّمات لا تعجبك؟ يمكن استبدالها بأخرى. عجيب، على أيّة حال. لماذا لا يعجبك؟

وأدارت مرّةً أخرى جنبها الأيمن ثم الأيسر إلى المرآة. قالت داشا:

– أرجوك، اسألي غيري هل تعجبه مشداتك.

– ولكن نيقولاي إيفانوفيتش لا يفهم شيئاً في هذا الأمر.

– لا يخصّ الأمر نيقولاي إيفانوفيتش أيضاً.

– ما الخبر، يا داشا؟

بل وفغرت يكاترينا دميتريفنا فاها اندهاشاً. لاحظت الآن فقط أنّ داشا لا تكاد تتمالك نفسها، وتتكلّم من خلال أسنانها، وعلى خديها بقعٌ ملتهبة.

– يبدو لي، يا كاتيا، أنّ من الأحرى بك أن تكفّي عن الدوران أمام المرآة.

– ولكن ينبغي عليّ أن أكون في مظهرٍ لائق.

– لمن؟

– ما هذا الذي تقولينه!..

– تكذبين.

وبعد ذلك لزمت كلتا الشقيقتين الصمت وقتاً طويلاً. رفعت يكاترينا دميتريفنا من المقعد مبذلاً من وبر الجمل له بطانةٌ حريريّةٌ زرقاء، وارتدته، وربطت حزامه ببطء. راقبت داشا حركاتها باهتمام، ثم قالت:

– اذهبي إلى نيقولاي إيفانوفيتش، وأخبريه بكلّ شيءٍ في صدق.

ظلّت يكاترينا دميتريفنا واقفة تتحسس حزامها. وكان واضحاً أنّ غصصاً قد تصاعدت إلى حلقومها عدّة مرات، فكانت تبلع ريقها وكأنها تبتلع طعاماً. وسأل بخفوت:

– داشا، هل عرفت شيئاً؟

– كنت لتوي عند بيسونوف (وهنا نظرت يكاترينا دميتريفنا بعينين غير مُبصرتين، وشحبت فجأةً شحوباً فجأةً شحوباً مرعباً، وهزّت كتيفيها) يمكنك أن تطمئني. لم يحصل معي شيء. لقد أعلن لي في اللحظة المُناسبة...

رفعت داشا قدماً، ووضعت أخرى.

– منذ وقت طويل حدست أنك...معه بالذات...إلا أنّ ذلك كلّه مقرفٌ جداً بحَيث لا يصدق...لقد جبنت وكذبت. وأنا لا أستطيع أن أعيش في هذه الوضاعة...اذهبي إلى زوجك، وأخبريه بكلّ شيء.

ولم تستطع داشا أن تواصل كلامها، فقد كانت شقيقتها تقف أمامها مطأطأة الرأس. وكانت داشا تنتظر كلّ شيءٍ إلا طأطأة الرأس المُستغفرة الطائعة هذه.

سألت كاتيا:

– هل أذهب الآن إليه؟

– نعم، هذه اللحظة...يجب أن تفهمي بنفسك...أرسلت يكاترينا دميتريفنا تنهيدةً قصيرة، وسارت نحو الباب، وهناك أبطأت خطاها، وقالت:

– لا أستطيع، يا داشا. -إلا أنّ داشا لزمت الصمت- حسناً، سأخبره.

كان نيقولاي إيفانوفيتش يجلس في غرفة الاستقبال يطالع، وهو يحكّ لحيته بسكينٍ عاجيّ، مقالة أكوندين المنشورة في العدد الجديد لمجلّة "روسكيه زابسكي" ("المذكرات الروسيّة"). كانت المقالة مُخصّصةً لذكرى وفاة باكونين. وكان نيقولاي إيفانوفيتش يستمتع بها. وحين دخلت زوجة هتف:

– كاتيوشا، اجلسي. واسمعي ماذا يكتب. هذه هي الفقرة..."إنّ سحر هذا الرجل (يقصد باكونين)(٥) لا يمكن في طراز تفكيره ولا في إخلاصه لقضيّته في النهاية، بل في الحماس الذي طبّق أفكاره في الحياة العمليّة، والذي تشبّعت به كلّ حركة من حركاته، والمُناقشات المساهرة مع برودون(٦)، والشجاعة الذي تقحم بها لهيب النضال، وحتى هذا العمل الجميل الذي صوب به، وهو الرجل الخارجيّ، مدافع المنتفضين النمساويين، قبل أن يعرف جيداً ضدّ من ولأجل أيّ شيء يناضلون. إنّ حماس باكونين هو رمزٌ لتلك القوة الجبارة التي تنزلُ بها الطبقات الجديدة إلى حلبة النضال. ومهمّة العصر الطالع هي تجسيد الأفكار، لا انتزاعها من تحت أكوام الحقائق الخاضعة لزخم الحياة الأعمى، ولا سحبها إلى عالم مثاليّ، بل عمليّة عكسيّة هي امتلاك العالم الماديّ بعالم الأفكار. إنّ الواقع هو كومةٌ من الوقود، والأفكار شرارات. وهذان العالمان المُنفصلان والمتعاديان يجب أن يتّحدا في لهب الانقلاب العالميّ..." فكّري بذلك، يا كاتيوشا... إنّه واضحٌ كبياض على سواد: عاشت الثورة. مرحى، يا أكوندين! إنه الواقع الذي نعيشه، بلا افكارٍ كبيرة ولا عواطف كبيرة. الحكومة

٥– باكونين ميخائيل ألكسندروفيتش (١٨١٤–١٨٧٦) منظر الفوضويّة وعدوٌّ لدود للماركسيّة. (المترجم).

٦– برودون بيير جوزيف (١٨٠٩–١٨٦٥). اشتراكيّ فوضويّ فرنسيّ من البرجوازيّة الصغيرة (المترجم).

مُنساقةٌ بشيءٍ واحد فقط: الخوف الجنونيّ على المُستقبل. المُثقّفون مُتهالكون على الطَّعام والشراب. ونحنُ نقضي أوقاتنا بالثّرثرة، ولا شيء غير الثرثرة، يا كاتيوشا، بينما نحن غائصون بالحمأة إلى آذاننا. والشعب يتعفّنُ حياً، وروسيا جمعاء قد تآكلها السفلس والفودكا. روسيا مُهترئة، ستتحوّل إلى ركامٍ من نفخةٍ واحدة. والعيش على هذا النحو غير ممكن... نحن نحتاجُ إلى نوعٍ من حرق النّفس، التّطهير بالنار...

كان نيقولاي إيفانوفيتش يتكلّم بصوت مُنفعلٍ رخيم، شاقاً الهواء بالسكين، وعيناه قد استدارتا. وقفت يكّاترينا دميتريفنا على مقربةٍ ممسكة بظهر مقعد. وحين فرغ من كلامه، وعاد يشقّ صفحات المجلّة بالسكين تقدّمت منه زوجته ووضعت يدها على شعره:

– نيقولاي، سيؤلمك كثيراً ما سأخبرك به الآن. أردت أن أخفيه، ولكن اقتضى الأمر أن أخبرك به...

أطلق نيقولاي إيفانوفيتش رأسه من يدها، وأمعن النظر فيها.

– نعم، أنا مصغ، يا كاتيا.

– أنت تذكر أنني قلت لك في ساعة غضب حين تخاصمنا ذات مرّةٍ بأنك يجب ألا تثق بي كثيراً... ولكني عدت فنفيت ذلك.

– نعم، أتذكّر.

ووضع الملجة، واستدار في مقعده استدارةً كاملة. وتقلّبت عيناه ذعراً وهي تلتقيان بنظرة كاتيا البسيطة المُطمئنّة.

– حسناً... لقد كذبت عليك آنذاك.. لم أكن مخلصةً معك آنئذ...

غضّن وجهه بشكلٍ يُثير الرّثاء، محاولاً أن يبتسم. وشعر بجفافٍ في حلقه. وحين لم يعد المُضيّ في الصّمت ممكناً، قال بصوتٍ لا رنّةً فيه:

– حسنـاً فعلت حين قلت لي... شكراً، يا كاتيا... عندئذ أمسكت يده، مستهـا بشفتيها، وضغطتهـا على صدرهـا، إلا أنّ اليد انسلّت منهـا، و لم تعمـد هي إلى الاحتفـاظ بها. وبعد ذلك قعـدت يكاترينا دميتريفنـا علـى البساط بهـدوء، ووضعت رأسها علـى ذراع المقعد الجلديّة وقالت:

– ألا تريد أن أفضي إليك بأكثر من ذلك؟

– لا، اذهبي، يا كاتيا.

نهضت، وخرجــت، وعند باب غرفة الطعـام اندفعت داشا إليها على غرّة، وتشبّثت بها، وعصرتها، وهمست مقبّلةً شعرها، وجيدها، وأذنيها:

– اعذرينــي، اعذريني... أنــت رائعــة، مدهشة!.. سمعــت كلّ شيء... أتصفحين عني، يا كاتيا، تعذرينني؟ كاتيا؟

تحــررت يكاترينـا دميتريفنا منها بحــذر، وتقدّمت مــن المائدة، وعدّلت ثنيةً كانت على المفرش، وقالت:

– نفّذت أمرك، يا داشا.

– كاتيا، أتصفحين عني يوماً ما؟

– كنت على حقّ، يا داشا. فإنّ ذلك أفضل.

– لم أكــن على حقٍّ في شيء! فعلت ذلك عن حقد... عن حقد... والآن أدرك أنّ مــا مــن أحــد يجرؤ علــى إدانتك. لا يهــمّ إنّنا جميعاً نتعــذّب، وإنّنا سنتألّم، لكنّكِ على حــقّ، وأنا أشعر بأنّك على حقٍّ في كلّ شيء... اعذريني، يا كاتيا.

وسالــت على خدّي داشــا دموعٌ كبيرة كحبــات الحمّص. كانت تقف إلى الخلف، على بعد خطوةٍ من شقيقتها، وتتكلّم بصوتٍ عالٍ:

– إذا لم تصفحي عني، فإنني لا أريد أن أواصل الحياة.

التفت يكاترينا دميترييفنا إليها بسرعة.

– ماذا تريدين مني أيضــاً؟ سأقول لك إذن... لقد كذبت وكتمت لأنّــه بذلك فقط كان من المُمكن إطالة حياتي مع نيقولاي إيفانوفيتش قليلاً... أمــا الآن، فقد انتهى كلّ شيء. هل فهمت؟ مضى زمنٌ طويل وأنــا لا أحبّ نيقــولاي إيفانوفيتشــ، ولا أخلص له. وأنــا لا أعرف إن كان يحبّنــي أو لا يحبّنــي، ولكــن لا قرابة بيننا، هــل فهمت؟ أما أنــا فكالشرشر تخفــين رأسك تحت إبطــك دائماً لكيلا تــرى الأشياء الفظيعــة. بينما رأيتها وعرفتها، ولكننــي عشت في هذا القذر، لأنني امــرأةٌ ضعيفة. ورأيت كيف تبتلعك هذه الحيــاة، أنت الأخرى. وقد حاولت أن أصونك، ومنعت بيسونوف من زيارتنا... كان ذلك حتى قبل أنه... ولكن لا أهميّة لذلك... الآن انتهى كلّ شيء...

ورفعــت يكاترينا دميترييفنا رأسها فجــأة، مرهفة السّمع. شعرت داشــا بالــبرودة تســري في ظهرهــا مــن الذعــر. فقد ظهــر نيقولاي إيفانوفيتشــ عند الباب خارجاً بجنبه وراء الستــارة. كان يخفي يديه وراء ظهره.

– بيسونوف؟

سأل ذلك هازاً رأسه بابتسام. ودخل غرفة الطعام.

لم تجــب يكاترينا دميترييفنا. تبقّع خدّاها، ويبست عيناها، وانطبق فمها.

– يبدو أنّك تظنين، يا كاتيا، إنّ حديثنا قد انتهى. إنّه ظنٌّ خاطئ.

وتابع يقول مُبتسماً:

– داشا، اتركينا وحدنا، أرجوك.

– لا، لا اخرج.

وبقيت داشا إلى جانب أختها.

– لا، ستخرجين، إذا طلبت منك ذلك.

– لا، لن أخرج.

– في هذه الحال، سيتعيّن عليّ أن أغادر البيت.

أجابت داشا ناظرةً إليه نظرةً ضارية:

– غادر.

احمـرَّ نيقولاي إيفانوفيتش، ولكن في اللحظة التالية عاد إلى عينيه التعبير السابق–الجُنون المرح.

– هذا أفضل، ابقي. المسألـة على هذا النحو، يا كاتيا...قبل برهة كنـت جالسـاً في المكان الذي تركتنـي فيـه، وإذا أردت الحقّ، فإنني خـلال بضع دقائق عانيت ما تصعـب معاناته...وانتهيت إلى استنتاج وهو أنّ عليّ أن أقتلك...نعم، نعم.

حين سمعـت داشا هذه الكلمـات أسرعت فالتصقـت بشقيقتها مطوّقةً إياها بذراعيها، بينما راحت شفتا يكاترينا دميترييفنا. ترتجفان ازدراء.

– أنت في هستيريا ...أنت بحاجةٍ إلى أن تتناول قطرات الناردين، يا نيقولاي إيفانوفيتش،..

– لا، يا كاتيا، في هذه المرّة ليست هستيريا...

صرخـت يكاترينـا دميترييفنا ودفعـت داشا عنهـا، واقتربت من نيقولاي إيفانوفيتش تماماً صائحة:

– إذن، افعـل ما جئت مـن أجله. هيا، افعل. هـا أنا أقول لك في وجهك: أنا لا أحبّك.

تراجع خطـوة، وأخرج من وراء ظهره مسدّسـاً "نسائياً" صغيراً، ووضعه على الخوان، ودسّ أطراف أصابعه في فمه، وعضّها، واستدار وسار نحو الباب. راقبته كاتيا ببصرها، وسمعته يقول دون أن يلتفت:

– أنا متألّم... متألّم...

عند ذاك اندفعت نحوه، وأمسكت كتفيه، وأدارت وجهه إليها:

– أنت تكذب... تكذب.. وتكذب الآن أيضاً... غير أنّه هزّ رأسه، وخرج. جلست يكاترينا دميترييفنا عند المائدة.

– ذلـك، يا داشا، مشهدٌ من الفصل الثالـث، وفيه طلقة مسدّس. سأتركه.

– الله معك... كاتيوشا.

– اتركـه، لا أريـد أن أعيشـ بهـذا الشـكل. بعد خمسـة أعوام سيدركني الكِبَر، ويفوت الأوان. لا أريد أن أعيش هكذا... قذارة!

وغطّـت وجهها بيديهـا، وأنزلته من بـين مرفقيهـا المُستندين إلى المائدة. جلست داشا على مقربة منها، وقبّلتها من كتفها قبلاتٍ سريعةٍ حذرة. رفعت يكاترينا دميترييفنا رأسها:

– أتظنين أنّني لا أشفق عليه؟ أنا أشفق عليه دائماً. ولكن تصوّري، إذا ذهبـت إليه الآن، فسيجري بيننا حديثٌ طويل، زائفٌ كلياً... كأنَّ شيطاناً يتدخّـل بيننا، ويزيّف. الحديث مع نيقـولاي إيفانوفيتش مثل العزف على بيانو مختلّ... لا، سأترك البيت... آه، يا داشا، داشا، ليتك تعرفين أيّ شقاءٍ أعاني!..

ومع ذلك في آخر المساء ذهبـت يكاترينا دميترييفنا إلى زوجها في مكتبه.

كان الحديث مع زوجها طويلاً، وقد تحدّث كلاهما بصوت خافت، وبشجى، وحاولا أن يكونا نزيهين، و لم يرحم أحدهما الآخر، ومع ذلك فقد شعر كلاهما بأنهما بهذا الحديث لم يتوصّلا إلى شيء، و لم يتفاهما على شيء، و لم يقترب أحدها من الآخر. وبعد أن ترك نيقولاي إيفانوفيتش وحده لبث جالساً إلى مكتبه حتى الفجر متأوّهاً. وقد عرفت كاتيا فيما بعد أنّه في خلال هذه الساعات فكّر واستعرض كلّ حياته. وكانت نتيجة هذا رسالةٌ مطوّلة إلى زوجته ختمها بالآتي: "أجل، يا كاتيا، كلّنا في زقاقٍ خلفيٍّ مسدود. في الأعوام الخمسة الماضية لم أشعر بشعورٍ قويٍّ واحد، و لم أقم بخطوةٍ كبيرةٍ واحدة. وحتى حبي لك وزواجنا مرّا وكأنّما في عُجالة عاجلة. كيانٌ تافه نصف هستيريّ، تحت فعل مخدّرٍ مُستمرّ. وهناك مَخرجان: أما قتل نفسي، وأما تمزيق هذا الغشاء الروحيّ المُثقل على أفكاري، وعلى مشاعري، وعلى وعي. ولست أنا في وضعٍ أقوى فيه على أن أفعل هذا أو ذاك..."

وقد حدثت الكارثة العائليّة بمباغتة شديدة، وانهار العالم البيتيّ بسهولة يسيرة وبشكل كليّ انصعقت داشا به، و لم يخطر ببالها أن تفكّر في نفسها، وأهواؤها كفتاة بدت لها تفاهة، شبحاً رهيباً على الحائط، كذلك الذي كانت المربّية تخيفها وكاتيا به في الزمن البعيد.

كانت داشا تقترب عدّة مراتٍ في اليوم من باب حجرة كاتيا، وتنقر عليها بإصبعها نقراً خفيفاً فتجيبها كاتيا:

– عزيزتي داشا، لو سمحت أن تتركيني وحدي، أرجوك. وفي تلك الأيام كان على نيقولاي إيفانوفيتش أن يترافع في المحكمة. فكان يخرج في الصباح الباكر، ويتناول فطوره وغداءه في المطعم، ويعود إلى البيت ليلاً. وقد هزّت مُرافعته القضاة وقاعة المحكمة كلّها.

كان يترافع مُدافعاً عن زويا إيفانوفنا زوجة موظّف مصلحة الضّرائب لادينكوف التي ذبحت عشيقها الطالب شليبه ابن صاحب عقارات في بطرسبورغ، وقد جرى الحادث ليلاً في السرير في بيت في شارعٍ غوروخوفايا. بكت النّساء، وضرب المُتهمة زويا إيفانوفنا متّكأً المقعد برأسها، وأفرج عنها.

أحاط جمعٌ من النساء بنيقولاي إيفانوفيتش لدى خروجه من المحكمة شاحب الوجه غائر العينين، وألقين الزهور عليه، وهتفن، وقبّلن يديه. اتّجه نيقولاي إيفانوفيتش من المحكمة إلى البيت، وتحدّث مع كاتيا في ارتخاءٍ نفسيٍّ تامّ.

وكانت يكاترينا دميترييفنا قد هيّأت الحقائب للسفر، فنصحها مخلصاً بأن تسافر إلى جنوب فرنسا، وأعطاها اثني عشر ألف روبل لسدّ نفقات الرحلة. وكان هو قد قرر أثناء الحديث معها أيضاً، أن يسلّم القضايا إلى مساعده، ويُسافر إلى القرم للاستراحة والتّروي.

وفي واقع الأمر لم يكن واضحاً ولا محدّداً ما إذا كان فراقهما لفترةٍ من الزمن أم إلى الأبد، ومن منهما يهجر الآخر؟ فإنّ هذين الأمرين الحادّين قد حجبهما لغب السفر بعناية.

ونسيا داشا. وقد خطرت على بال يكاترينا دميترييفنا في اللحظة الأخيرة فقط، وكانت قد ارتدّت بدلة السفر الرماديّة، وقبّعةً أنيقةً مبرتعة، وبدت نحيلة، حزينة، رقيقة. وقع بصرها على داشا وهي جالسة على صندوقٍ في الرواق. كانت داشا تؤرجح ساقيها، وتأكل خبزاً ومربّى لأنهم نسوا أن يوصوا على غداء اليوم. قالت يكاترينا دميترييفنا، وهي تقبلها من خلال البرقع:

– داشا، يا حبيبتي، ماذا سيكون الأمر معك؟ أترغبين في السفر معي؟

غير أنّ داشا قالت أنّها ستظلّ وحدها في الشّقة مع "المغولي العظيم"، وأنها ستؤدي الامتحانات، وتسافر في نهاية أيار إلى أبيها لتقضي الصيف كلّه هناك.

٩

بقيت داشا وحدها في البيت. الآن بدت لها الغرف الكبيرة غير مُريحة، والأشياء فيها زائدة. وحتى اللوحات التكعيبيّة في غرفة الجلوس فقدت برحيلِ سيّد البيت وسيّدته قدرتها على إثارة الرّعب، وبهت رواؤها. وتدلّت الستائر بثنيات ميتة. ورغم أنّ "المغولي العظيم" كانت تطوف الحجرات كلّ صباح صامتةً كالشبح، نافضة الغبار بمنفضة من ريش الديك فقد كان يبدو وكأنَّ غباراً آخر غير منظورٍ يُغطي البَيت متزايداً في كثافته.

كان من المُمكن أن تقرأ في غرفة شقيقتها، وكأنما في كتاب، كلّ ما عاشت به يكاترينا دميتريفنا. في أحد الأركان حمّالةٌ عليها مشروع لوحة—فتاة تضع إكليلاً أبيض على رأسها، وعيناها تملآن نصف وجهها. كانت يكاترينا دميتريفنا تتشبّث بهذه الحمّالة كطريقة لتخلّص نفسها بأيّة وسيلة من الهرج المجنون حولها، إلا أنها لم تصمدْ بالطبع. وهذه منضدةٌ قديمة مملوءةٌ بالأشياء غير الكاملة وقطع قماشيّة زاهية مبعثرة على غير نظام، وكلّها غير كاملة ومهملة، وهي محاولةٌ أخرى للهروب. ومثل هذه الفوضى تشيع في خزانة الكتب أيضاً، الظاهر أنَّ يداً قد بدأت في ترتيبها ثـمّ أهملتها. وفي كلّ مكان كتبٌ مرميّة، ومحشورة، ومقطوعة نصف أوراقها. كتب عن رياضة اليوغا، ومحاضرات مبسّطة عن التّصوف، وقصائد وروايات. إلا كم من

المُحــاولات والجهود الضائعة للبــدء في حياة طيّبة! وجدت داشا على منضدة الزينة مفكــرةً فضيّة الغلاف سجّل فيها: "٢٤ قميصاً داخلياً، ٨ حمــالات صدر، ٦ حمالات صدر مدنتلة... تذاكر لآل كرينسكي إلى مسرحيّــة "العمّ فانيا"..." ثمّ بخــطٍ كبير كخطّ طفل: "شراء كعكة تفاح لداشا".

وتذكّــرت داشــا أنّ كعكة التّفــاح هذه لم يكتب لهــا أن تشترى. ورثت لشقيقتها رثاءً أسال دموعهــا. إنّ هذه الشقيقة العاطفيّة الطّيبة الرهيفة الحسّ لتتحمّل حياةً كهذه كانت تتشبّــث بالأشياء والتوافه، محاولةً أن تثبت، وتقي نفسها من التّشتت والتحطّم، ولكن لم يسعفها شيء ولم يساعدها أحد.

استيقظــت داشا في الصباح الباكر، وجلســت إلى الكتب، وأدّت الامتحانات، فكانت متفوّقةً في كلّ مادة تقريباً. كانت ترسل "المغوليّ العظيــم" لتردّ على التلفــون الذي كان يدقّ في المكتــب بلا انقطاع، فكانــت هذه تجيــب جواباً واحــداً لا يتغــيّر "سافر السيــد والسيدة، والآنسة لا تستطيع أن تأتي لتردّ".

كانت داشــا تقضي أماســي بكاملها تضرب علــى البيانو. ولم تثر الموسيقى مشاعرها كما كانت تفعل من قبل، ولم تجعلها تريد شيئاً غير مُحــدّد، ولم تجمد قلبها الحالم. الآن، حين كانــت تجلس وادعةً رصينة أمــام دفتر النوتات مضاءةً من الجانبــين بشمعتين، كانت وكأنها تطهّر نفسهــا بالأصوات المهيبــة القويّة التي كانت تملأ جنبــات هذا البيت الخالي حتى آخر زاويةٍ فيه.مكتبة سُر مَن قرأ

وأحيانــاً كان يظهــر وسط الموسيقى أعــداءٌ صغار—الذكريات غير مدعــوّة. فكانت داشا ترخــي يديها، وتتعبّســس. وعندئذ كان يرين علــى البيت سكونٌ مطبــق حتى ليسمع هسيــس الشمعة. وبعد ذلك

ترسل داشا زفرةً صاخبة، ومن جديد تمسّ يداها المفاتيح الباردة بقوّة، فيتطاير الأعداء الصغار من الغرفة الكبيرة إلى الدّهليز المُظلم، وراء الدواليب والعلب الكارتونيّة، مثل الغبار والأوراق اليابسة المتطايرة بالريح.. لقد اختفت إلى الأبد داشا التي دقّت الجرس على باب بيسونوف، وقالت لكاتيا المجرّدة من الحماية كلمات حانقة. إنّ تلك الفتاة الهوجاء كادت تجلب الكوارث. يا له من أمرٍ عجيب! وكأن الحبّ كلّ شيءٍ في هذه الدّنيا، رغم أنّه لم يكن هناك أيّ حبّ.

وفي حوالي الساعة الحادية عشرة كانت داشا تغلق البيانو، وتطفئ الشمعتين، وتأوي إلى فراشها. وكان كلّ ذلك يجري دون تردّد، وبجديّة. وخلال تلك الفترة وطّدت العزم على أن تبدأ بأقصى سرعة ممكنة حياةً مستقلّة—أن تكسب رزقها بنفسها، وتضمّ كاتيا إليها.

ما كادت داشا تفرغ من الامتحانات في أواخر أيار حتى سافرت إلى أبيها عن طريق الفولغا عبر مدينة ريبينسك. في المساء خرجت من القطار لتستقلّ على التوّ سفينةً بيضاء ساطعة الإضاءة وسط الليل والماء الداكن، وفكّت أمتعتها في المقصورة النظيفة، وضفرت شعرها، وفكّرت في أنّ الحياة المُستقلّة تبدأ بدايةً طيّبة، وابتسمت سعادة وقد وسّدت رأسها كوعها، وغفت على هدهدة السفينة الوادعة.

وأيقظتها خطواتٌ ثقيلة وركض على ظهر السفينة. كان ضوء الشمس ينسكب عبر مضلّع النافذة، متماوجاً على خشب المغسلة الماهوغاني شعاعات ضعيفة. وكانت الريح التي تلاعب الستارة الحريريّة تفوح بشذى زهر العسل. فتحت داشا المُضلّع قليلاً. كانت السفينة راسيةً على شاطئٍ قفر وقفت تحت جرفه الواطئ المُنهار عربات محمّلة بصناديق من خشب الصنوبر. وكان مهرٌ أصهب يرد عند حافّة الماء وقد أفرج قوائمه النحيلة ذات الركب السميكة. وعلى

الجرف صورة منارة تبرّز على شكل صليب أحمر. قفزت داشا من السرير، ووضعت حوض الاستحمام على الأَرض، أشبعت الاسفنجة بالماء، ثم عصرتها على نفسها، وشعرت بانتعاش ورهبة عظيمين حتى أخذت تضغط ركبتيها على بطنها ضاحكةً. ثمّ ارتدت جوربين أبيضين وفستاناً أبيض، وقبّعةً بيضاء، وكانت قد أعدّت ذلك كلّه منذ المساء. وقد انسجم عليها كلّ شيء، وإذ شعرت داشا باستقلالها، خرجت إلى ظهر السفينة رصينة، ولكنها طافحةٌ بالسعادة.

كان اللألاء الخفيف لانعكاس أشعّة الشمس يلمع على السفينة البيضاء كلّها، وكان النّظر إلى الماء يزغلل البصر، فقد كان النهر يتلألأ ويومض. وعلى الشاطئ الآخر المُرتفع يلوح برج جرسٍ أبيض قديمٍ مختفٍ إلى النّصف بين أشجار البتولا.

وحين غادرت السفينة الشاطئ، استدارت نصف استدارة، وسارت نازلةً مع مجرى النّهر، وبدت الضّفتان وكأنّهما تندفعان نحوها. وكانت أسقف الأكواخ القشيّة المُعتمة تلوح هنا وهناك منّ وراء الأكمات، وكأنها تتداعى. وكانت السحب تتراكم في السماء مزرقة في أسافلها، تلقى ظلالا بيضاء في أعماق النهر الزرقاء المصفرّة.

جلست داشا في مقعدٍ من الخوص المضفور، واضعة ساقاً على ساق، مطوّقةً ركبتها، وشعرت بأنّ منعطفات النهر اللامعة، والسحب وظلالها البيضاء، والتلال بأشجار البتولا، والمروج، وتيارات الهواء الفواحة تارةً بعشب المُستنقعات، وتارةً بجفاف الأرض المحروثة والبرسيم العسليّ، والإفسنتين تنفذ خلال كيانها، ويمتلئ قلبها ببهجةٍ هادئة.

اقترب رجلٌ بطيء الخطى، وتوقّف عند الحاجز مُديراً له جنبه، وراح يتطلّع إليها، كما يبدو. نسيته داشا عدّة مرات، إلا أنه بقي واقفاً

في مكانــه لا يــريم. عندئذ عزمت عزماً ثابتاً علــى ألا تلتفت إليه، غلا أنّ مــا جُبلت عليه من طبعٍ ملتهــبٍ جداً جعلها لا تتحمّل هذه المُعاينة بهدوء أعصاب. تورّد وجهُهــا، والتفتت بسرعة وغيظ. فإذا بها ترى تليغــين يقف أمامها، ممسكاً بعمودٍ متردداً بــين التقدّم والحديث وبين الاختفاء. وجدت داشا نفسها تضحك فجأة، فقد ذكرها بشيءٍ مرحٍ طيّــب على نحوٍ غير مُحدّد. كما أنّ إيفان إيليتش (تليغين) كلّه العريضَ المنكبين، القويَّ، الخجول، في سترته البيضاء بدا وكأنّه نتيجةٌ ضروريّة لكلّ هذه السكينة النّهريّة. مدّت يدها له، فقال تليغين:

– رأيتــك وأنت تستقلين السفينة. في الواقع نحن سافرنا سويّةً من بطرسبــورغ في عربة قطارٍ واحــدة. ولكنني ترددت في التقدّم منك، فقد كنت غارقةً في أفكاركِ كثيراً...ألا أضايقك؟

– اجلس – وقدّمت منه مقعداً من الخوص المضفور قائلة:

أنا مُسافرة إلى أبي، وأنت إلى أين؟

– أنــا، إذا أردت الصراحة، حتــى الآن لا أعرف إلى أين. سأذهب في المرحلة الأولى إلى أقربائي في كينيشما.

جلس تليغين إلى جوارها، وخلــع قبّعته. انعقد حاجباه، وظهرت غُضــونٌ على جبهته. وراح ينظر بعينــين مُتقلّصتين إلى الماء الذي كان يخــرج من تحت السفينة مثل دربٍ مقعــرٍ مزبد. كانت طيور النّورس بأجنحتهــا الحادّة تطير فوقه في مؤخّر السفينــة، وتسقط عليه، وتقلع مرسلــةً صيحــات جشــاء شاكيــة، وبعــد أن تتخلّف بعيــداً، تدور، وتتخاصم على كِسرة خبزٍ طائفة.

– إنه يومٌ جميل، يا داريا دميتريفنا.

– إنه يومٌ رائع، يا إيفان إيليتش، يومٌ رائع! في جلستي هذه فكّرت

بأنني قد انتزعت نفسي مــن الجحيم إلى الحريّة! أنت تذكر حديثنا في الشارع؟

– أتذكره إلى آخر كلمة، يا داريا دميترييفنا.

– بعد ذلك الحديث حصلت أشياء أعاذنا الله منها! سأحدّثك عنها ذات يوم. –وهزّت رأسها مُستغرقــةً الفكر. –كنتَ الإنسان الوحيد الــذي لم يفقــد صوابــه في بطرسبورغ، حســب ما أتصــوّر. –وهنا ابتسمــت، ووضعت يدها علــى كلّ سترته. رفّ جفنــا إيفان إيليتش رهبــة. وانطبقت شفتاه. وتابعت داشــا قولها: أنا شديدة الثّقة بك، يا إيفان إيليتش. أنت قويٌّ جداً؟ صحيح؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

– هذا ظنّك.

– وإنسانٌ موثوق.

وأحسّــت داشا بــأنّ كلّ أفكارها طيّبة واضحــة أريحيّة، مثلما أنّ أفــكار إيفان إيليتش طيّبة، صادقة، وقويّة. وكان يسرّها بشكلٍ خاص أن تقــول كلامها ليعبّر بالذات عن هذه الدفقــات المشرقة من المشاعر القريبــة إلى فؤادها، وقالت: أتصوّر، يــا إيفان إيليتش، لو أنّك أحببت فإنك ستحبّ برجولة وثقة، وإنّك إذا أردت شيئاً، فلن تحيد عنه.

أدخل إيفان إيليتش يده في جيبه بحركة بطيئة، دون أن يردّ عليها، وأخــرج قطعة خبــز، وأخذ يلقيها إلى الطيــور. اندفع سربٌ من طيور النورس البيضاء يلتقط فتات الخبز وهي تتصايح مُستثارة. نهضت داشا وإيفان إيليتش، واتجها نحو حاجز السفينة. قالت داشا:

– ارم لهذا الطائر، فإنه يبدو شديد الجوع. قذف تليغين بقيّة قطعة الخبز بعيــداً في الهواء. انزلق نورسٌ شحيم كبــير الرأس على جناحين ساكنين مُسطّحين كسكينين، وانقضّ، ولكنه أخطأ هدفه، وفي الحال

انطلق زهاء عشرةٍ من الطّيور على قطعة الخبز الساقطة حتى سطح الماء المطرطش بزبدٍ دافئٍ من أسفل السفينة. قالت داشا:

– أتعرف أيّة امـرأة أودّ أن أكون؟ سأنهي الدراسة في العام المُقبل، وابدأ بكسب فلوسٍ كثيرة، وآخذ كاتيا لتعيش معي. سترى، يا إيفان إيليتش.

غضّـن تليغـين وجهه حين كانـت تتكلّـم مُجاهداً ليضبـط نفسه، وأخـيراً فتح فمه، عن صفٍّ قويٍّ نظيف من الأسنان الكبيرة وضحك ضحـكاً مرحاً حتى تنـدّت رموش عينيـه. احمرّ وجه داشـا، إلا أنّ حنكهـا ارتعش، وضحكت، دون إرادتها، كما ضحك تليغين، دون أن تدري سبباً لذلك.

وأخيراً قال تليغين:

– أنـت رائعة، يـا داريـا دميتريفنا... كنت أخـاف منك خوف الموت... ولكنك رائعةٌ تماماً!

فقالت داشا غاضبة:

– هكذا إذن... تعال نتناول فطورنا.

– بكلّ سرور.

طلب إيفان إيليتش إخـراج طاولةٍ إلى سطح السفينة، وأخذ يحكّ بسهوم ذقنه الحليق حلاقةً ممتازة، وهو ينظر في قائمة الطعام.

– مـا رأيكـن يا داريـا دميتريفنـا، في زجاجةٍ من النبيـذ الأبيض الخفيف؟

– سأشرب قليلاً بسرور.

– أبيض أم أحمر؟

أجابت داشا محاكيةً لهجته الجديّة:

- هذا أو ذاك.

- في هذه الحال لنشرب نبيذاً فوراً.

مرّت السفينة بضفّة تلاليّة فيها شرائط خضراء لامعة من القمح، وزرقاء خضراء من الجودار، ووردية من الحنطة السوداء المُزهرة. وراء منعطف النهر، كانت الشمس تنعكس على زجاج نوافذ بيوت منخفضة ذات سقوف من القشّ قائمة على أكوام من الرّوث فوق مرتفع صلصاليّ. وأبعد من ذلك لاح عددٌ من صلبان مقبرة القرية، وطاحونة صغيرة كاللعبة ذات ستّة أذرع مُهدّمة الجانب. وكان جمعٌ من الأطفال يركض على طول الضفة المُرتفعة من وراء السفينة، قاذفاً بحجارةٍ لم تكن تصل حتى إلى الماء. واستدارت السفينة، وظهرت على الضفةِ الخالية أجمةٌ منخفضة تحوم الغربان فوقها.

هبّت نسمةٌ دافئة تحت مفرش المائدة، وفستان داشا. وبدا النّبيذ الذهبيّ في القدحين الكبيرين المُضلّعين هبةً آلهية. قالت داشا أنها تغبّط إيفان إيليتش لأنّ عمله، ووثوقه في الحياة، بينما سيكون عليها أنْ تقضي عاماً ونصف عام مُنكبّةً على الكتب، فضلاً عن تعاسة أخرى تقع من نصيبها، وهي كونها خُلقت امرأة. ضحك تليغين، وأجاب:

- ولكنني طُردت من العمل في المصنع.

- أحقاً؟

- طلبوا مني أن أتخلى عن العمل خلال أربع وعشرين ساعة، ولولا ذاك لما كنت على هذه السفينة الآن. أحقاً لم تسمعي أيّ أحداثٍ حدثت عندنا؟

- لا، لا.

– لقد انفصلت ببساطة، نعم... –وصمت واضعاً كوعيه على الخوان. –انظري إلى أيّ حد من الحماقة والهرجلة تجري الأمور عندنا. شيءٌ لا يصدّقه العقل. والشيطان يعلم أيّ صيت سيكون لنا، نحن الروس. شيءٌ مُعيب ومُخز. فكري في الأمر: شعبٌ موهوب، وبلادٌ في غاية الثراء. ولكن ماذا ترى العين مقابل ذلك؟ ترى مجموعةً من الكتّاب المتغطرسين. استعضنا عن الحياة بورق وحبر. لا يمكنك أن تتصوري كم نستهلك من الورق والحبر. منذ أن بدأنا هذه البروقراطية في عهد بطرس الأوّل ونحن لا نستطيع أن نتوقّف حتى الآن. ولكن الحبر قد يكون شيئاً مُميتاً. فتصوّري ذلك.

أبعد إيفان إيليتش قدح النبيذ، وأشعل سيكارة. وكان من الواضح أنّه لم يكن مريحاً له الاستمرار في مثل هذا الحديث.

– لا داعي إلى إثارة الذكرى. يجب أن نفترض بأنّ الأمور عندنا أيضاً ستكون حسنةً يوماً ما، ليس أسوأ مما لدى الآخرين. قضت داشا وإيفان إيليتش هذا النهار كلّه على سطح السّفينة. كان من الممكن أن يبدو حديثهما إلى المُستمع الغريب ضرباً من الهراء، ولكن ذلك راجعٌ إلى أنّهما كانا يتحدّثان حديث شفرة. فقد كانت الكلمات، وأكثرها اعتياديّة، تتخذ ملولاً مزدوجاً بشكل غامض غير مفهوم، فإذا اشارت داشا بعينيها إلى فتاة ممتلئة الجسم قليلاً ينتفخ وراء ظهرها لفاعها الليلقي، وإلى مُساعد القبطان الثاني الذي كان يسير إلى جانبها مركّزاً كل انتباهه وقالت: "انظر، يا إيفان إيليتش يبدو أنّ أمورهما ماشية". فمن الضّروريّ أن يفهم من ذلك: "لو حصل بيننا شيءٌ ما، فلن يكون بهذا الشكل". وما كان في مقدور أحد منهما أن يتذكّر بإخلاص ما قاله، إلا أنه بدا لإيفان إيليتش أنّ داشا أذكى منه بكثير، وأرقّ وأدقّ في ملاحظتها، بينما بدا لداشا أنّ إيفان إيليتش أطيبُ قلباً منها، وأفضل، وأذكى بألف مرّة.

جمعت داشا شجاعتها أكثر من مرّة لتحدّثه عن بيسونوف، إلا أنها كانت تُحجم عن ذلك. كانت الشمس تدفئ ركبتيها، والنّسيم يمسّ وجنتها، وكتفيها، وجيديها، مثل إصبع حنون مدوّرة. وفكرت داشا مع نفسها: "لا، سأحدّثه غداً، سيسقطً مطر، وسأحدّثه".

وفي آخر النهار عرفت داشا—وكانت تهوى مراقبة الناس، ولها عينٌ مدقّقة مثل سائر النساء—كلّ شيءٍ تقريباً عن جميع المُسافرين على السفينة، الأمر الذي بدا لإيفان إيليتش أعجوبةً تقريباً.

ولسببٍ ما قرّرت داشا أنّ مُدير جامعة بطرسبورغ—وهو وجلٌ عبوس يضع نظارةً شمسيّة ويرتدي لباس "الانفرناسيّة"—غشاشٌ كبير في الورق على ظهور السّفن. ورغم أنّ إيفان إيليتش كان يعرف أنّ هذا الرّجل هو عميد الجامعة بالفعل، إلا أنّ الشك أخذ يُساوره الآن في أن يكون غشاشاً في الورق فعلاً. وبشكلٍ عامّ لقد اهتزّ تصوّر إيفان إيليتش للواقع خلال هذا اليوم. أحسّ بما يُشبه دوار الرأس، أو حلم اليقظة، وكان عاجزاً تقريباً عن أن يتحمّل من حينٍ لآخر موجةً عارمة من الحُب لكلّ ما يرى ويسمع، ففكّر بأنّ من الممتع حقاً لو يلقي نفسه في الماء، مثلاً، لينقذ تلك الفتاة المقصوصة الشعر، لو أنها سقطت من فوق الحاجز. فليتها تسقط!

وفي مُنتصف الليل داهم داشا نُعاسٌ مُفاجئ لذيذ ما كادت تصل معه إلى مقصورتها، وعند الباب قالت مودّعة، وهي تتثاءب:

– ليلة سعيدة. عاين وراقب غشاش الورق داك.

اتّجه إيفان إيليتش إلى الدرجة الأولى من ظهر السّفينة في الحال، حيث كان عميد الجامعة المؤرق يقرأ مؤلفات ديماس الأبّ. نظر إيفان إيليتش إليه بعض الوقت، وفكّر مع نفسه بأنه رجلٌ رائع، رغم أنّه غشاش، ثم عاد إلى الممرّ الساطع الإضاءة، الذي كان يفوح بزيت

المحـرّكات، والخشب المطلـيّ باللاك، وبعطر داشــا، ومرّ ببابها على أطـراف أصابعه، ودخل مقصورته، واستلقــى في سريره على ظهره، وأغمضـ عينيــه، وأحسّ بــأنّ كيانه كلّـه مُنصعق، وبأنه مفعــمٌ كليّةً بالأصــوات والروائــح، وحرارة الشمســ، وبفرحٍ حــادّ، كالألم في القلب.

أيقظه صفير السفينة بعد الساعــة السادسة صباحاً. كانوا يقتربون مــن كينيشما. ارتدى إيفان إيليتش ملابسه بسرعة، ونظر في الممشى. كانت الأبواب كلّها مغلقة، والجميع ما زالوا نياماً. وداشا نائمةٌ أيضاً. وفكّــر إيفــان إيليتشــ: "يجب أن أنــزل هنا، وإلا فسيكــون سلوكي غريبــاً"، وخرج إلى ظهر السفينة، ناظراً إلى كينيشما هذه التي لاحت إلى الأنظــار في وقت غير مُناسبٍ كلياً، قابعــة على ضفّة عالية شديدة الانحــدار، بسلالمها الخشبيّة، وبيوتها الخشبيّــة المُتراكمةً كيفما اتّفق، وأشجــار الزّيزفون الخضــراء الصفراء الساطعــة في شمس الصباح في منتزه البلديّة، وبغمامة الغبار الساكنة المُعلّقة فوق العربات الجارية على مُنحــدر المدينة. ظهر ملاّحٌ يحمل حقيبة تليغــين، وهو يطأ بقوّةٍ ظهر السفينة بكعبي قدميه الحافيتين. قال له إيفان إيليتش بلهجةٍ مُنفعلَة:

– لا، لا. غــيّرت فكري. ارجعها إلى مكانها. قررت أن أسافر إلى نيجنــي. ليس لي حاجةٌ للنزول في كينيشما. ضعها هنا، تحت السرير، شكراً لك، يا عزيزي.

لبث إيفان إيليتش جالساً في المقصورة زهاء ثلاث ساعات، مفكّراً بالطريقة التي سيفسّر فيها لداشا تصرّفه المُبتذل والمُتطفّل، حسب رأيه، وبــدا واضحاً أنّ التفسير غير مُمكن: ليس بوسعه أن يلجأ إلى الكذب، أو يقول الحقيقة.

وبعــد الساعة العاشرة خرج إلى ظهر السفينــة نادماً، كارهاً لنفسه

مُزدريــاً لها، وقد وضع يديه وراء ظهره، وسار في مشية غائصة، وعلا وجهــه تعبيرٌ زائف، وباختصــار، صورةٌ للابتــذال. إلاّ أنّ القلق أخذ يساوره بعد أن دار دورةً في السفينة، ولم يقع بصره على داشا. لم تكن داشــا موجودةً في أيّ مكان. وأحسّ إيفان إيليتش بجفاف في حلقه. الظاهــر أنّ شيئاً ما قد حدث. وفجأةً وقع عليها وُقوعاً. كأنت جالسةً علــى الكرسيّ المضفور في المكان الذي جلست فيه أمس، باديةً الحزن ساكنــة. وكانت تضع على ركبتيها كتابــاً وكمثرى. أدارت رأسها إلى إيفــان إيليتش ببطء، واتّسعت عيناهــا، وكأنما ذلك عن فزع، وامتلأتا بهجة، وعلا خدّيها تــورّد، وتدحرجت الكمثرى من ركبتيها. قالت خافضةً الصوت:

– أنت هنا؟ لم تنزل؟

ابتلع إيفــان إيليتش غصّته، وجلــس إلى جوارها، وقال بصوتٍ لا رنّة فيه:

– لا أعرف كيف ستنظرين إلى تصرّفي، ولكنني لم أنزل في كينيشما عن عمد.

– كيف سأنظر إلى تصرّفك؟ لن أقول ذلك.

وضحكــت داشا، وفجأةً وضعت يدها في كفّــه ببساطةٍ وحنان، حتى إنّ رأسه عاد يدور طوال اليوم أشدّ مما دار يوم أمس.

١٠

وفي حقيقــة الأمر حدث في المصنع الميكانيكيّ مــا يلي: في مساء ماطــر ســرت في سمائه الفسفوريّــة غيومٌ تسوقها الريــح، ظهر رجلٌ غريــب يرتدي ممطــراً مطاطياً مرفــوع القلنسوة يسير بــين جمعٍ من

العُمال العائدين إلى بيوتهم بعد العمل، في زقاقٍ ضيّقٍ نتنٍ موحلٍ بوحل الفحم والحديد الخاص الذي يكثر عادةً في الشوارع الُملتصقة بالمصانع الكبيرة.

سار بعض الوقت في إثر الجميع، ثمّ توقّف وراح يوزّع المنشورات ذات اليمين وذات الشمال، قائلاً بصوتٍ خفيض:

– من اللجنة المركزيّة...، اقرأوه، يا رفاق.

تناول العُمال المنشورات أثناء سيرهم، وأخفوها في جيوبهم، وتحت قبّعاتهم.

وحين وزّع الرّجل ذو الممطر المطاطيّ جميع المنشورات تقريباً ظَهر أحد الحراس بالقرب منه شاقاً طريقه بكتفه خلال حشد العُمال بقوّة، وقال على عجل "انتظر" وأمسك ممطره من الخلف. إلا أنّ الرجل، وهو المبلل الزلقّ الممسك، خلص نفسه، وركض. وصدرت صفارةٌ حادّة، ردّت عليها صفارةٌ أخرى من بعيد. وسرت دمدمةٌ خافتة بين الجمع الُمتضائل. إلا أنّ المهمّة قد تمّت، واختفى الرّجل.

وبعد يوم أو يومين من الحادث، لم تبدأ ورشة البرادة العمل منذ الصباح، مفاجِئةً بذلك إدارة المصنع الميكانيكيّ، وقدّمت مطاليب ليست خطيرةً جداً، ولكنها حازمة.

وسرت عباراتٌ غير محدّدة، وملاحظاتٌ وكلماتٌ غاضبة متطايرة كالشرر في مباني المصنع الطويلة المتسرّب إليها ضوءٌ ضعيف من خلال النوافذ السقوف الزجاجيّة المسخمة. وراح العُمال الواقفون عند المخارط ينظرون نظرات غريبة إلى رؤسائهم وهم يمرّون بهم، وينتظرون بتأثّرٍ مكظوم التّعليمات اللاحقة.

وبينما كان الأوسطة الأقدم بافلوف، وهو واشٍ، يدور قرب مكبسٍ يشتغل على القوّة المائيّة، سقطت مصادفةً سبيكةٌ حمراء مُتّقدة

على قدمه وسحقتها سحقاً، فأرسل صرخات وحشيّة. وعندئذ شاع في المصنع أنّ شخصاً قد قُتل. وفي الساعة التاسعة اندفعت سيارة الليموزين الهائلة العائدة لكبير المهندسين داخلةً قناة المصنع كالصاعقة.

وصل إيفان إيليتش تليغين في الساعة المُعتادة إلى ورشة الصّهر، وهي عبارةٌ عن مبنىً هائل دائريّ أرضها طينيّة، وأفرانها مبنيّةٌ عند الجدران، وقد تحطّم الزجاج في بعض نوافذها، وتدلّت سلاسلٌ من أذرع الرافعات. وتوقّف تليغين عند الباب، وحرّك كتفيه من برودة الصباح، وصافح الأوسطة بونكو بمرح، وكان قد تقدّم منه.

كانت ورشة الصهر قد تلقّت طلباً مستعجلاً لصنع قواعد متحرّكة للآلات، فأخذ إيفان إيليتش يتحدّث مع بونكو عن العمل القادم مُتشاوراً معه باستغراق وبطريقة جديّة حول أشياء ليست موضع شكٍ عند أيّ واحد منهما. وقد أدّت هذه الحيلة الصغيرة إلى أن يخرج بونكو مطمئناً من المحاورة تماماً، وقد أرخى اعتزازه بنفسه لأنّه قد بدأ العمل في ورشة الصهر منذ خمسة عشر عاماً كعاملٍ بسيط، وهو الآن أوسطةٌ أقدم يعتزّ بمعارفه وخبرته اعتزازاً كبيراً جدّاً، بينما كان تليغين موقناً بأنّ بونكو إذا اطمأنّ إلى عمل فإنّ هذا العمل سيسير سيراً سريعاً وجيّداً.

تجوّل إيفان إيليتش في ورشة الصّهر مُتحدّثاً إلى عُمال الصهر والقولبة بلهجة رفاقيّة شبه مازحة كانت تُفصح أكبر الإفصاح عن العلاقات المُتبادلة بينه وبين كلّ واحد منهم. وكأنّه يقول له: أنا وأنت نقومُ بعملٍ واحد، فمعنى ذلك أننا رفيقان. إلا أنني مُهندس، وأنت عامل، إذنْ، فنحن في الواقع عدوّان، ولكن ما دام أحدنا يحترم الآخر فلن يبقى أمامنا إلا أن ينكث الواحد على الآخر.

اتّجهت رافعةٌ إلى أحد المصاهر مُخفّفةً سلسلتها المُصلصلة. واستقبلها

عامـلان ضليعان ضخمـان هما فيليب شوبـين ذو الشعر الذي خطه الشيب، والنظـارة المُدوّرة، وإيفان أوريشنيكـوف القويّ ذو الجسم الرّياضـيّ واللحيـة الجعـداء والشعـر الفـاتح اللون المشـدود بنطاق، والعينـين الزّرقاوين. وأخـذ الأوّل يزيح بالعتلة الغطـاء الحجريّ عن واجهة الفرن، بينما شدّ الثاني كلابّة الرافعة إلى البوتقة الطويلة المبيضة من الحرارة. قرقعت السلسلة، وتأرجحت البوتقة، وطافت في الهواء إلى وسط الورشة موشوشة، مُتوهّجة، ثائرةً قشرةً من الخبث.

قال أوريشنكوف:

– قف، اخفض.

ومـرّةً أخـرى قعقعت الرافعـة، ونزلـت البوتقـة، وانصبّ على الأرضـ سيلٌ باهر اللـون من البرنز، قاذفاً بنجيمـات خضر متفجّرة، مُضيئاً سقف الورشة المُقوّس بوهجٍ برتقاليّ. وفاحتْ رائحة النّحاس الحلوة المُقزّزة، ورائحة احتراقه.

وفي أثنـاء ذلك انفتـح مصراعا البـاب المُزدوج المُـؤدي إلى المبنى المُجـاور، ودخـل إلى ورشة الصهر عاملٌ شـابّ بخطىً سريعة حازمة وقد ارتسم الشّحوب والغيظ على وجهه. وصاح بصوتٍ حادٍّ خشن:

– أوقفوا العمل...اخرجوا!

وحدّق تليغين بنظرةٍ جانبيّةٍ، وقال:

– هل سمعتموني، أم لا؟

أجاب أوريشنيكوف بهدوء:

– سمعنـا، سمعنـا. لا تصـرخ –ورفع رأسـه إلى الرافعـة، وقال: دميتري، لا تنم، تحرّك.

وقال العامل حاشراً يديه في جيبيه:

- حسناً، إذا سمعتموني فافعلوا ما ترونه صائباً. لن نطلب إليكم مرّةً أخرى.

استدار بحركةٍ شديدة، وخرج.

كان إيفان إيليتش قد جلس إلى قطعة مصبوبة حديثاً وراح يكشط في عناية التراب بقطعة سلك. أما بونكو الجالس على مقعد عال إلى منضدة عالية عند الباب فقد أخذ يحكّ بسرعة لحيته الشّيباءَ الصغيرة الشبيهةً بلحية العنز. وقال مُديراً عينيه:

- اترك العمل سواءً أردت أم لم ترد. ولكن هل يفكّر هؤلاء بم ستطعم الأطفال إذا طردوك من المصنع، أم تراهم لا يفكرون؟

أجاب أوريشنيكوف بصوتٍ كثيف:

- الأفضل ألا تمسّ هذه الأمور، يا فاسيلي ستيبانوفيتش.

- وكيف لا أمسها؟

- لأنّ ذلك أمرٌ يخصنا. فأنت ستلجأ إلى الرؤساء وتحابيهم. فما عليك إلا أن تصمت.

سأل تليغين أخيراً، ونظر إلى أريشنيكوف:

- ما سبب الإضراب؟ ما هي المطاليب؟

أشاح أوريشنيكوف بصره. فأجاب بونكو:

- أضرب عُمال ورشة البرادة. في الأسبوع الماضي حوّل ستون من مخارطهم إلى العمل بالقطعة على سبيل التجربة. وفي النتيجة يظهر أنّهم لا يكسبون ما كانوا يكسبونه من قبل، ويتعيّن عليهم أن يشتغلوا أوقاتاً إضافيّة. وها هم قد علّقوا قائمةً كاملة عند الباب في المبنى السادس بمطاليب مُختلفة، وليس كبيرة.

وغمس الريشة في الدّواة غاضباً، وشرع في تسجيل القائمة. وضع تليغين يديه وراء ظهره، وسار خلال الأفران، ثمّ قال، وهو يُعاين من خلال فتحة مُستديرة يتراقص وراءها البرنز المُذاب مُتدوياً كالأفاعي في النار البيضاء التي لا تُحتمل:

– يا أوريشنيكوف، أظنّ أنّ هذه القطعة ظلّت هناك وقتاً أطول مما يجب، أليس كذلك؟

خلع أوريشنيكوف مئزره الجلديّ دون أن يُجيب، وعلّقه على مسمار، ولبس قبّعةً من جلد الخروف، وسترةً طويلةً حسنة النّوع، وقال بصوتٍ عميقٍ كثيف تردّد في الورشة كلّها:

– أوقفوا العمل، يا رفاق. وتعالوا إلى المبنى السادس، الباب الأوسط.

وسار نحو باب الخُروج. ألقى العُمال الأدوات صامتين. بعضهم نزل من الرافعة، والبعض الآخر طلع من حفرةٍ في الأرض، وسار الجميع في حشدٍ وراء أوريشنيوف. وفجأةً حدثَ شيء عند الباب. ارتفع صوتٌ جنونيّ مُتحوّل إلى زعيق:

– تكتب؟... تكتب، يا ابن الكلبة؟ سجّل اسمي، وأخبر الرّؤساء!...

وكان ذلك صوت عامل القولبة ألكسي نوسوف يصرخ ببونكو. وكان وجهه المُتعب غير المحلوق منذ فترةٍ طويلة بعينيه الكدرتين الغائرتين يختلج ويتلوى، وقد انتفخ ودجٌ في رقبته النّحيلة، وكان، يضرب حافّة المنضدة بجمع يده الأسود صارخاً:

– مصاصو دماء!.. معذبون!.. سنجد لكم ما يسكتكم أيضاً!..

عند ذاك مسك أوريشنيكوف بنوسوف من جذعه، وأبعده من

المنضدة العالية بيسر، وسار به إلى الباب. فهذا حالاً، وفرغ الورشة.

وعند الظهر كان المصنع كلّه مضرباً. وسرت شائعاتٌ بأنّ ثمة قلاقل في مصنعي أوبوخوفسكي ونيفسكي للآلات. وكان العُمال يقفون في باحة المصنع بجماعاتٍ كبيرة مُنتظرين نتيجة مُفاوضات الإدارة مع لجنة الإضراب.

وكان الاجتماع معقوداً في دائرة المصنع. وقد فزعت الإدارة، وقامت بتنازلات، ولم تبق إلا عقبةٌ واحدة، هي مطلب العُمال في فتح الباب الموجود في السياج المصنوع من الألواح الخشبيّة لئلا يضطروا إلى الدوران وشقّ طريقهم خلال الوحل مسافة ربع فرسخ. ولم يكن هذا الباب يهمّ أحداً في الحقيقة، إلا أنّ الأمر تحوّل إلى نوع من الاعتداد لكلٍّ من الطرفين، وأصرّت الإدارة فجأةً على رأيها، وبدأت نقاشاتٌ طويلة. وفي تلك الأثناء جاء في التلفون أمرٌ من وزارة الداخليّة: رفض جميع مطاليب لجنة الإضراب، والامتناع عن إجراء أيّة مُفاوضاتٍ معها حتى إشعارٍ آخر.

وقد أفسد هذا الأمر القضيّة كلّها إفساداً كبيراً حتى أن كبير المُهندسين انطلق إلى المدينة على الفور لتوضيح الأمر. وذُهل العُمال، وكان الشُّعور السائد مُسالماً بالأحرى. دخل بعض المُهندسين في الحشد شارحين باسطين أذرعهم. بل وصدر ضحكٌ في مكان ما. وأخيراً ظهر على مدخل الدائرة المُهندس بولبين الضخم الرّكين الأشيب، وصرخ بصوتٍ تردّد في الفناء كلّه بأنّ المفاوضات أرجأت إلى الغدّ.

بقي إيفان إيليتش في ورشة الصّهر حتى المساء، ولما رأى الأفران ستنطفئ على أيّة حال، حكّ علباءه، وذهب إلى بيته. كان المُستقبليون جالسين في غرفة الطعام، وقد أبدوا جميعاً اهتماماً شديداً بما يحدث

في المصنع. إلا أنّ إيفان إيليتش لم يحدّثهم بشيء، وراح وهو مُستغرقٌ في أفكاره يمضغ الشطائر التي قدّمتها له يلزافيتا كييفنا، ثم انصرف إلى غرفته، وأغلقها عليه بالمفتاح، واستلقى لينام.

لدى اقترابه من المصنع في اليوم التالي رأى وهو ما يزال على مسافة بعيدة، إنّ في الأمر سوءاً. كانت جماعات العُمال تقف في كلّ الزّقاق تتشاور. وقد احتشد قرب بوابة المصنع جمهورٌ غفير يقدر بعدّة مئات، يطنّ طنين خليّة نحلٍ مُستثارة.

كان إيفان إيليتش يرتدي قبّعةً ناعمة ومعطفاً مدنياً فلم يسترع انتباه أحد. تسمع إلى جماعات من المُتجادلين فعرف أنّ أعضاء لجنة الإضراب جميعاً قد اعتقلوا ليلاً، وأنّ الاعتقال ما يزال جارياً بين العُمال، وأنّ لجنةً جديدةً قد انتخبت، والمطاليب التي أعلنوها الآن مطاليب سياسيّة، وأنّ فناء المصنع الآن مملوءٌ بالقوزاق، ويقال أنّ أمراً قد صدر بتفريق الجُمهور، إلا أنّ القوزاق قد رفضوا كما زُعم، وأخيراً إنّ عمال مصنع أوبوخفسكي، ومصنع نيفسكي لبناء السفن وبعض المصانع الصغيرة قد انضمّوا إلى الإضراب.

عزم إيفان إيليتش على أن يشقّ طريقه إلى الدائرة ليطلع على الأخبار، إلا أنّه بعد جهدٍ جهيد لم يستطع إلا أن ينفذ حتى البوابة. وهناك كان قوزاقيان جسيمان انزلقت قبعاتهما على جانب وانفرجت لحيتاهما إلى الجانبين يقفان إلى جانب الحارس بابكين المعروف المُتعبّس في فروته الضّخمة. وكانا ينتظران بمرح ووقاحة إلى وجوه العُمال المؤرقة السقيمة، وكلاهما متورّد الوجنتين، مشبعاً غذاءً ذا مظهرٍ مشاكسٍ وهازئ.

فكّر إيفان إيليتش "أجل، إنّ هذين القوزاقيين لن يرعويا عن

شــيء" وهمّ بالدخول إلى الفناء، إلا أنّ أقرب القوزاقيين إليه سدّ طريق الدّخول عليه، وتفرّس فيه بعينين وقحتين، وقال:

– إلى أين؟ ابتعد!

– عليّ أن أذهب إلى الدائرة. أنا مهندس.

– قل لك: ابتعد!

عندئذٍ ترددت أصواتٌ من المُحتشدين:

– كفرة! جلاوزة!

– لم يكفكم ما سفكتم من دمائنا!

– شياطين متخمون! محتكرو أطيان!

وفي تلك البرهة شقّ شابٌ قصير أبثر الوجه ذو أنف كبير معكوف طريقه إلى الصفــوف الأماميّة. كان يرتدي معطفــاً ضَخماً لا يُناسب حجمــه، ويضع على شعره الأجعــد قبّعةً عالية في وضعٍ أهوج وتكلّم وتعتعاً هازاً ذراعه الواهنة:

– أيهــا الرفــاق القوقاز! ألسنــا روسا جميعاً؟ علــى من تشهرون الســلاح؟ علــى أخوتكم. وهل نحــن أعداؤكم لتطلقــوا النار علينا؟ ماذا نحن نريد؟ نحن نريد السعادة للروس جميعاً. نريد أن يكون كلّ إنسان حراً. نريد أن نقضي على التعسّف...

زمّ أحد القوقازيين شفتيه، وتفحّص الشاب بازدراءٍ من رأسه حتى قدميــه، واستدار، وأخذ يخطو على طول البوابــة. بينما أجاب الثاني بصوتٍ رسميٍّ مهيب:

– لن نستطيع السماح بأيّة تمــرّدات، لأننا أقسمنا اليمين. وعندئذ صــاح الأوّل بالشــاب الأجعد الشّعر، بعد أن فكّــر بالجواب على ما يبدو:

– إخوان، إخوان... شدّ بنطلونك، فقد تفقده.

وضحك القوزاقيان كلاهما.

ابتعد إيفان إيليتش عند البوابة، فإنّ موجة الحشد كانت تدفعه جانباً، نحو السياج، حيث تكرّمت كومة حدائد صدئة. وبينما كان يحاول أن يصعد كومة الحدائد، وقع بصره على أوريشنيكوف الذي كان يمضغ قطعة خبز بهدوء، وقد سرّح قبّعته من فراء الخروف على مؤخّرة رأسه. غمز أوريشنيكوف لتليغين بحاجبيه، وقال بصوتٍ عميق:

– نعم الأحوال، يا إيفان إيليتش.

– مرحباً، يا أوريشنيكوف. بم سينتهي كلّ هذا؟

– ونحن نهتف قليلاً، ثمّ نخلع قبّعاتنا طائعين. وهذا كلّ ما تبقّى من التّمرّدات. إنّهم أرسلوا القوازق إلينا. فبم سنحاربهم؟ أأقذفهم بهذه البصلة فأقتل إثنين منهم؟

وفي تلك الأثناء حدثت دمدمةٌ في الجمع ثمّ تلاشت. وفي السّكون صدر عند البوابة صوتٌ آمرٌ حادّ:

– يا سادة، أرجوا أن تتفرقوا إلى بيوتكم. وسينظرون في رجاواتكم. أرجوكم أن تتفرّقوا بهدوء.

اضطرب الجمع، واندفع إلى الوراء ثمّ إلى ناحية. ابتعد فريق، وتقدّم آخر. واشتدّ لغط الكلام. وقال أوريشنيكوف:

– للمرّة الثالثة يرجون دون تهديد.

– من يقول هذا؟

– ضابطٌ قوزاقيّ.

– يا رفاق، يا رفاق، لا تتفرّقوا.

تـردّد صوتٌ منفعل، وقفز على كومة الحدائد إلى الخلف من إيفان إيليتشـ رجلٌ شاحبٌ مُنفعل ذو قبّعة كبيرة، ولحيةٍ سوداء شعثاء كانت سترته الأنيقة مزرّرةٌ تحتها بدبوسٍ انجْليزيّ.

وقال الرّجل بصوتٍ جهير بعد أنْ مدّ يدين ضمّ قبضتيها:

– يـا رفاق، لا تتفرقوا مهمـا كلّف الأمر. لقـد عرفنا من مصدرٍ موثـوق أنّ القـوازق رفضـوا إطـلاق النـار علينـا. والإدارة تجـري مفاوضـات مـع لجنة الإضراب عـن طريق وسيط. وفضـلاً عن ذلك يُناقش عمالُ السّـكك الحديد الآن إعلان إضرابٍ عام. والحُكومة في ذُعر.

زُعق صوتٌ جنونيّ:

– برافو!

وسري طنينٌ في الحشد، وغاص الخطيب فيه، وغاب. وكان الناس يتوافدون وكضاً إلى الزقاق.

بحث إيفان إيليتش ببصـره عن أوريشنيكوف، إلا أنّ هذا كان في تلـك اللحظة واقفاً بعيـداً عنه وقرب البوابة. وتـردّدت كلمة "ثورة، ثورة" غير مرّة.

شعـر إيفـان إيليتش بأنّ انفعـالاً بالخوف والفرح يمـلأ كيانه كلّه. ارتقى كومة الحدائد وأجـال بصره في الحشد الذي صار اليه صخماً، وفجـأةً رأى أكوندين على بُعـد خطوتين منه. كان يضـع على عينيه نظـارة، وعلى رأسـه كيبيه لها طرفٌ كبير، ويلبس عبـاءةً سوداء. شقّ طريقـه إليه رجلٌ في قبّعةٍ مستديرة وشفتـاه ترتجفان. وسمع تليغين ما قال الرّجل لأكوندين:

– اذهب، يا إيفان إفاكوموفيتش، إنهم ينتظرونك.

ردّ أكوندين باقتضابٍ وغيظ:

– لا اذهب.

– اجتمعت اللجنة كلّها. وهم لا يريدون أن يتّخذوا قراراً بدونك، يا إيفان إفاكوموفيتش.

– أنا باقٍ على رأيي، وهذا معروف.

– لقد فقدت صوابك...ها أنت ترى ماذا يجري. وأنا أقول لك أنّ إطلاق النار سيبدأ بين لحظةٍ وأخرى...وأخذت شفتا الرجل ذي القبّعة المُستديرة ترتعشان.

قال أكوندين:

– قبل كلّ شيء لا ترفع صوتك. اذهب واتّخذ قراراً مُساوماً. أنا لا أشترك في استفزاز...

– اللعنة، اللعنة. جُنونٌ محض!

قال الرجل ذو القبعة المُستديرة، وشقّ طريقه في الحشد. وتقدّم جنباً من أكوندين العامل الذي دعا بالأمس عمّال ورشة تليغين إلى الإضراب، فقال له أكوندين شيئاً. أومأ له العامل برأسه، واختفى. ثمّ حصل الشيء نفسه—عبارةٌ قصيرة وهزّة رأس—مع عاملٍ آخر.

ولكن صيحات تحذيريّة تردّدت بين الحشد في تلك اللحظة. وفجأةً صدرت ثلاثُ طلقات جافّة قصيرة. وخيّم سكونٌ على الفور. وسُمع صوتٌ مكتوم ممطوّط وكأنه عن قصد "آ–آ–آ–". وتحرّك الحشد، وتراجع عن البوابة. كان أحد القوازق يرقد في الوحل الذي عجنته الأقدام، ووجهه إلى الأرض، وركبتاه معكوفتان على بطنه. وفي الحال سرت صيحةٌ في كتلة الناس كلها: "لا حاجة، لا حاجة".

فقد فتحت البوابة. إلا أنّ طلقةً رابعة من مُسدّس صدرت من جانب، وتطايرت بعض الحجارة، فارتطمت في الحديد. وفي تلك اللحظة رأى تليغين أوريشنيكوف واقفاً حاسر الرّأس، فاغر الفم، وحيداً أمام الحشد المتراكض في فوضى. بدا وكأنّه قد انغرس في الأرض من الرّعب بحذائيه الطويلين. وفي ذات الوقت رنّت كضربات سوط طلقات طويلة من بندقيّة—واحدة وثانية وأخرى، وإذا باوريشنيكوف يركع على ركبتيه برفق، وينطرح على الأرض.

بعد أسبوع انتهى التّحقيق فيما حدث في المصنع. فكان إيفان إيليتش في قائمة الأشخاص الذين اشتبه في عطفهم على العُمال. وعندما استدعي إلى الدائرة تحدّث مع الإدارة بحدّة، على غير توقّعٍ من الجميع، وقدّم استقالته.

١١

كان الدُّكتور دميتري ستيبانوفيتش بولافين والد داشا، جالساً في غرفة الطعام قرب سماور كبير مُتصاعد البخار يطالع الصّحيفة المحليّة "نشرة سامارا" وكان كلّما احترقت سيكارته حتى عقبها القطنيّ يتناول سيكارةً أخرى من علبة سكائر سميكة مملوءة، ويشعلها من عقب السيكارة. سعل، وصعد الدّم إلى وجهه، وحكّ صدره المُشعر تحت قميصه المفتوح. كان يُطالع ويرشف الشاي الخفيف من صحن الفنجان ناثراً الرّماد على الصحيفة، والقميص، ومفرش المائدة.

ترامى صريف سرير من وراء الباب، ووقع أقدام، ودخلت داشا الغرفة وقد ألقت روبها على قميص النوم، وهي ما تزال متورّدةً ناعسة. نظر ديميتري ستيبانوفيتش إلى ابنته من فوق نظارته الأنيقة المصدوعة بعينين ساخرتين باردتين كعيني داشا، وقرب خدّه لتقبّله.

قبلته داشا وجلست قبالته مقربة منها الخبز والزبدة. وقالت:

– الريح مرّةً أخرى.

والواقـع أنّ ريحـاً قويّـةً حارة ما تـزال تهبّ لليـوم الثاني. كانت سحابـةٌ من الغبار الكلسيّ تجثم على المدينة، وتبرقع الشمس. وكانت سحبٌ كثيفة واخزة تجري دفقات عبر الشارع، وكان السابلة القلائل يديرون لها ظهورهم. وكان الغبار ينفذ في كلّ شقّ، وفي أطر النوافذ، ويستقرّ بطبقة رقيقة على أفاريز النوافذ، ويهص بين الأسنان. وكانت الريح تهزّ زجـاج الشّبابيك، وتقعقع بالسّقف الحديديّ. وفي الوقت ذاته كان الجوّ حاراً وغراً، بل وإنّ رائحة الشارع نفذت إلى الغرف.

قال ديمتري ستيبانوفيتش:

– وباءٌ من أمراض العيون. شيءٌ لطيف.

وتنهّدت داشا.

قبـل أسبوعين توادعت مع تليغين على سلّم السفينة وقد رافقها في آخـر الامر حتى سامارا، ومنذ ذلـك الحين وهي تعيش مع أبيها بدون عمـلٍ في شقّـة جديدة فارغة غـير مألوفة لها، حيـث كانت صناديق الكتبِ المُغلقة تقِف في الصالة، ولم تكن السّتائر قد علقت بعد، وكان من المُتعذّر العثور على شيءٍ فيها، كما لم يكن فيها مكانٌ يستريح المرء فيه، إنّ العيش فيها يشبه العيش في حانة. راحت داشا تقلّب الشاي في القـدح، وتنظر مكتئبةً إلى سحائب الغُبار الرماديّ تتطاير وراء النافذة مـن تحت إلى فوق. كان يخيّل إليهـا أنّ عامين قد انقضيا كالحلم، وها هـي قد عـادت إلى البيت ثانية، ولم يبق مـن كلّ الأماني والانفعالات وضـروب الناس، من بطرسبـورغ الصاخبة غير هـذه السحائب من الغبار. قال دميتري ستيبانوفيتش، وهو يقلب الصحيفة:

– قتلوا الأرشيدوق.

– أيّهم؟

– كيف أيّهم؟ أرشيدوق النمسا اغتيل في ساريفو.

– هل كان شاباً؟

– لا أعرف. صبّي لي قدحاً آخر.

ألقى دميتري ستيبانوفيتش قطعة سُكر صغيرة في فمه–وكان يحتسي الشاي دائماً خلال قطعة سكّرٍ في الفَم–ونظر إلى داشا نظرةً هازئة. وسأل وهو يرفع صحن الفنجان.

– خبريني أرجوك، هل انفصلت يكاترينا عن زوجها نهائياً.

– لقد أخبرتك، يا بابا.

– حسناً، حسناً...

وتناول الصحيفة من جديد. مشت داشا إلى النافذة. يا للسّأم! وتذكّرت السفينة البيضاء، والشيء الرئيسيّ أنّ الشمس كانت تملأ الرّحب: السماء الزرقاء، والنهر، وسطح السفينة النظيف، وكلّ شيء، كلّ شيءٍ مغمورٌ بالشّمس، والنداوة، والطراوة. عندئذ بدا أنّ ذلك الطريق المُتلألئ، أي النهر العريض المُلتوي ببطء، والسفينة "فيودور دوستويفسكي" وعليها داشا وتليغين، كلّ ذلك ينصبّ ويتداخل في خضمٍّ من الضياء والبهجة أزرق بلا ساحل ويتحوّل إلى نعيم.

آنذاك لم تتعجّل داشا، رغم أنها كانت تدرك أنّ تليغين كان يُعاني، ولم تكن هي تعترض على هذه المُعاناة. ولكن لم العجلة، وكلّ لحظة من لحظات تلك السّفرة كانت طيّبة رغم ذلك، وهما سيصلان إلى السعادة على أيّة حال.

أصبح إيفان إيليتش لدى اقترابها من سامارا شاحب الوجه، وكفّ عن المُزاح. حدثت داشا نفسها: نحن مُبحران نحو السّعادة، وشعرت

بنظرتــه إليها، وكأنها نظرة رجــلٍ قويٍّ مرح مرّت عليه عجلة. كانت مُشفقــةً عليه، ولكن ماذا كان بوسعهــا أن تفعل، وكيف تدعه يقترب منهــا، ولو قليلاً، وقد كانت تدرك أنّ ذلك لو حدث لبدأ في الحال ما كان يجــب أن يحدث في آخــر الرحلة. إنهما، عندئــذ، لن يصلا إلى السعادة، بل ستسرق منها بجــزع في مُنتصف الطّريق. ولهذا السبب اكتفــت بأن تكون حنونةً معه فقطّ. أما هو، فقــد خيّل إليه أنه سيهين داشــا إذا لمــح، ولم بكلمةٍ واحدة، إلى ما كان السبــب في سُهاده أربع ليالي، أحسّ بنفسه في ذلك العالم الفريد نصف الشفاف، حيث جميع المظاهــر قد انزلقــت عنه مثل ظلالٍ في ضبــابٍ أزرق، وحيث كانت عينا داشا الرّماديتان تشعان وعيداً وقلقاً، وحيث لا واقع غير الروائح، وضوء الشمس، وألم في القلب لا يفتر. في سامارا استقل إيفان إيليتش سفينةً أخرى، وعاد بها. واختفى بحر داشا المُتلألئ الذي كانت تبحر عليه بهدوءٍ غامر وتشتت، وارتفعــت سحائبٌ من الغبار وراء زجاج النافذة المُرتجّ.

قال دميتري ستيبانوفيتش:

– سيجــرّ النساويون آذان الصربيين هؤلاء–ثم خلع نظارته من أنفه ووضعها على الصحيفة، وأكمل: –أما أنت، فما هو رأيك في المسألة السلافيّة، يا قطيطة؟

هزّت دشا كتفيها، وهي واقفةٌ عند النافذة، وسألت مغمومة:

– هل ستأتي للغداء؟

– لا، علــى الإطــلاق. عنــدي حالــة حُمــى قرمزيّــة في بيــت بوستنيكوف.

تناول دميتري ستيبانوفيتش صدر قميصه الشّكلي من على المنضدة بحركةٍ بطيئــة، وارتداه، وزرر سترته من قماشــ الشنتوتغ، وتفحّص

جيوبـه ليطمئنّ إلى أنّ كلّ شيءٍ في مكانه، وشرع يمشّط شعره الأشيب الأجعد على جبينه بمشطٍ مثلوم.

– على كلّ حال، ماذا بخصوص المسألة السلافيّة؟

– أوه، يا إلهي. لا أعرف، يا بابا. لماذا تلحّ عليّ؟

– أما أنا فلي رأيي الشخصيّ، يا داريا دميترييفنا.

كان يكره كثيراً، كما يبـدو، أن يذهب إلى بيت بوستنيكوف كما أنّـه، بوجه عامّ، يهـوى الـكلام في السياسة في الصبـاح، وهو وراء السماور. تابع قوله:

– المسألـة السلافيّة–هل أنت مصغية؟–مسمـار السياسة العالميّة. وكثيرٌ مـن الناس يفشلون في هذه المسألة. ولهـذا السبب فإنّ البلقان موطن السلاف الأصليّ إنما هو الزائدة الدوديّة لأوربا، ربما تريدين أن تسأليني: لمـاذا؟ فأجيبك. –وهنا أخذ يطوي أصابعه السميكة: أوّلاً، إنّ السلاف أكثر من مائتيّ مليون، وهم يتوالدون كالأرانب، ثانياً أنّهم استطاعـوا أن يخلقوا دولةً عسكريّةً جبـارة كالإمبراطوريّة الروسيّة، وثالثـاً أنّ الجماعات السلافيّة الصغيرة، رغـم الاندماج، تنظّم نفسها في كيانـات مُستقلّة، وتطمح إلى ما يُسمـى بالتحالف السلافيّ العامّ، رابعاً–وهذا الأهمّ–أنّ السلاف يكوّنون طرازاً من "الباحث عن الله" جديـداً كليّاً من الناحية الخلقيّة، وخطـراً للغاية في بعض الوُجوه على الحضـارة الأوروبيّـة. إنّ "البحث عـن الله" –هل أنـت تسمعيني" يا قطيطة؟ هو رفضٌ وتهديمٌ للحضارة الحديثة كلّها. وأنا أبحث عن الله، أي عن الحقيقة في نفسي أنا. ولأجل ذلك يجب أن أكون حُراً بشكلٍ مُطلـق، وأنا أهدّم الأُسس الخلقيّة التـي دُفنت تحتها، أهدم الدولة التي تصفدني بالأغلال.

قالت داشا جزعةً:

– اذهب إلى بيت بوستنيكوف، يا بابا.

– لا، ابحثي عن الحقيقة هناك.

ونقـر بإصبعه، وكأنّه يُشير إلى باطن الأرض، إلا أنه صمت فجأة، واستدار نحو الباب. كان الجرس يرنّ في الرواق.

– داشا، اذهبي لفتح الباب.

– لا أستطيع، فأنا لم أرتد ثيابي.

صاح دميتري ستيبانوفيتش:

– ماتريونا! آه، امرأةٌ لعينة. –وذهب بنفسه ليفتح الباب، وعاد في الحال يحمل في يده رسالة. وقال:

– إنّهـا من كاتيا. انتظري، ولا تلتقطيها من يدي، سأكمل حديثي أولاً... إذن، فـ"البحث عن الله" يبدأ، قبل كلّ شيء، من التهديم، وهذه المرحلة خطرةٌ جـداً، ومُعدية. وروسيا الآن مصابـةٌ بهذه المرحلة من المرض بالذات... اخرجي مسـاءً إلى الشارعِ الرئيسـيّ وستسمعين الناسـ يزعقون: "النجـدة". في الشارع يتسكع قطـاع الطريق. إنها شقـاوةٌ فاحشـة وقد عجـز البوليس عـن السيطرة عليهـا. إنّ أولئك الفتيـان الذيـن لا خلاق لهم هـم "باحثون عن الله". هـل فهمت، يا قطيطة؟ وهـم اليـوم يستهترون في الشارع الرئيسـيّ، وغداً سيبدأون بالاستهتـار في أرجاء الدولة الروسيّة كلّهـا. والشعب قاطبةً يعاني من المرحلة الأولى من "البحث عن الله" مرحلة هدم الأسس.

وتنشّق دميتري ستيبانوفيتش، وأشعل سيكارة. اختطفت داشا من أصابعه رسالة كاتيا، وذهبت إلى غرفتها. بينما مضى في إثبات شيءٍ ما بعضـ الوقت، وسار صافقاً الأبواب في الشقة الواسعة نصف الفارغة المُغبرة بأرضيتها المطليّة، ثم ذهب إلى وجهته.

كتبت كاتيا في رسالتها:

"عزيزتي داشا. أنا لا أعرف حتى الآن شيئاً عنك ولا عن نيقولاي. أنا الآن في باريس. والموسم هنا في ذروته. والنساء يلبسن فساتين ضيقةً جداً في الأسفل. والشيفون في الموضة. باريس جميلةٌ جداً. ليتك ترين ذلك: وكلّ الناس في باريس بلا استثناء يرقصون التانغو. وفي الإفطار في الفترة بين تقديم صحن وصحن ينهض الناس، ويرقصون، وفي الساعة الخامسة أيضاً، وأثناء الغداء وهكذا دواليك حتى الصباح. ولا مكان لي أتحاشى فيه الموسيقى. وفيها شيءٌ من الحزن والعذاب والحلاوة. ويخيّل إليّ دائماً أنني أشيع بشبابي، وشيئاً لا يُمكن أن يرد حين أنظر إلى تلك النّسوة بفساتينهنّ ذات الفتحات الواطئة، وعيونهنّ المؤطرة بالأزرق، وإلى فرسانهنّ. وبشكل عامّ أنا أحسّ بضجر. وأتصوّر دائماً أنّ شخصاً ما لا بُدّ أن يموت. الرّوس هنا يملأون كلّ مكان، وجميعهم من معارفنا. وفي كلّ يوم نجتمع في مكانٍ ما، وكأنّما لم نُغادر بطرسبورغ. وبالمُناسبة حدّثوني هنا عن نيقولاي، وزعموا أنّه كان على علاقة قريبة جداً من امرأةٍ هي أرملة ولها ولدان وثالث طفلٌ صغير. هل تفهمين؟ وقد تألّمت كثيراً جداً في بادئ الأمر. وفيما شعرت، لسبب ما، بالشّفقة على ذلك الطفل الصغير... آه يا عزيزتي داشا، أودّ أحياناً لو يكون لي طفل. ولكنّ ذلك ممكنٌ فقط إذا كان من رجلٍ أحبّه. إذا تزوّجت أنجبي طفلاً. ليكن ذلك في بالك".

أعادت داشا قراءة الرسالة عدّة مرات، ودمعت عيناه لا سيّما على ذلك الطفل البريء من كلّ ذنب، وجلست تكتب جواباً، وفرغت منه قبل الغداء، وتغدّت وحدها– لم تمسّ من الطعام إلّا قليلاً–ثمّ ذهبت إلى غرفة المكتب وأخذت تنبش في المجلات القديمة، ووجدت روايةً طويلةً جداً، واستقلّت على الأريكة وسط الكتب المُبعثرة، وطالعت حتى المساء. وجاء والدها أخيراً مُغبراً تعباً، وجلس الإثنان للعشاء،

وكان الوالـد يردّ على جميع أسئلتهـا بـ"أها". إلا أنّ داشا استخلصت منـه أنّ الطفل في ربيعه الثالث، والمُصـاب بالحمى القرمزيّة قد مات. وتنشّـق ديميتري ستيبانوفيتش، بعـد أن نطق بهذا النبأ، ووضع نظارته الأنفيّة في محفظتها، وذهب لينـام. استلقت داشا في السرير، وتغطّت بالمفرش حتى رأسها. وأفرغت ما في صدرها باكية على مُختلف الأنباء الحزينة.

انقضى يومان. وانتهت زوبعة الغُبار برعود ومطر مدرار ظلّ يقرع السّقف طوال الليل، وطلع صباح الأحد هادئاً رطباً مغسولاً.

مـا كادت داشا تنهض في الصباح حتـى جاء لزيارتهـا صاحبٌ للعائلة قـديمٌ هو سيمـين سيمينوفيتش غفيادين موظّـف الإحصاء في البلديّـة، وهو رجـلٌ نحيل محدودب، بادي الشّحـوب دائماً ذو لحية شقـراء، وشعرٍ مصفوف وراء أذنيـه. وكانت تفوح منه رائحة قشدة. ولم يكن يُعاقر الخمرة، ولا يُدخّن، ولا يأكل اللحم، وكان تحت رقابة البوليـس. سلّم على داشا، وقال دون أيّة مُناسبة بصوتٍ هازئ: —لقد جئت إليك لنذهب إلى الفولغا، يا امرأة.

قالت داشـا لنفسها: "وهكـذا انتهى كلّ شـيء.بموظّف الإحصاء غفيادين". وتناولت مظلّةً بيضـاء، وسارت وراء سيمين سيمينوفيتش هُبوطاً إلى الفولغا، إلى الرصيف الذي كانت الزوارق تقف عنده.

كان الحمالـون والعتالـون، وهم رجـالٌ وشبانٌ عراض المناكب واسعـوا الصدور حفاة حاسرو الرؤوس، عـراة الرقاب، يطوفون بين عنابـر الحُبوب الخشبيّة الطويلة، وأكـوام الأخشاب وبالات الصوف والقطـن. كان بعضهـم يلعب لعبة قذف النّقـود، والبعض الآخر ينام على الأكيـاس والألواح. وعلى مسافة بعيـدة كان زهاء ثلاثين رجلاً يركضون على سلّـم المركب المهتزّة حاملين الصّناديق على أكتافهم.

وكان ثمّة رجلٌ سكران يقف بين العربات وقد كساه الوحل والغُبار، وتضرّجت وجنته بالدّم وكان يشتمّ بتكاسلٍ وفحشٍ رافعاً بنطلونه بكلتا يديه.

قال سيمين سيمينوفيتش بلهجة تهذيبيّة: -إنّ هذا الصنف من الناس لا يعرف أعياداً ولا استراحةً، أما أنا وأنت فذاهيان إلى الاستمتاع بالطبيعة في وقت الفراغ كإنسانين ذكيين مُثقفين.

وظفر رجلين حافيتين ضخمتين تعودان لشاب واسع الصدر ضخم الشفتين كان مبطوحاً على الأرض، بينما جلَس شخصٌ آخر على جذع، وراح يمضغ خبزاً. وسمعت داشا قول الشاب المبطوح في أثرها:

- فيليب ليت لنا مثلها.

فأجاب الآخر من فمٍ مُمتلئ:

- مفرطة النظافة. تتطلّب متاعب كثيرة.

كانت أشباح القوارب الصغيرة تتحرّك في النهر المُصفرّ العريض على انعكاسات الشمس الرّجراحة مُتّجهة الشاطئ الرمليّ البعيد. وقد استأجر غفيادين واحداً من مثل هذه القَوارب، وطلب إلى داشا أن تهتمّ بتدوير الدفّة، بينما جلس هو إلى المجدافين، وأخذ يجدّف بعكس التيار. وسرعان ما تفصد العرق على وجهه الشاحب.

- الرياضة شيءٌ عظيم.

قال سيمين سيمينوفيتش ذلك، وأخذ يخلع عنه سترته، وحلّ حمالة البنطلون بشيء من الحياء، وحشرها بعيداً في مُقدّمة القارب.

كانت لـه ذراعان نحيلتان ضعيفتان عليهما شعـرٌ طويل، وكان طرفا ردنيـه مصنوعين من السيليولويد. فتحـت داشا مظلّتها، وحدّقت في الماء مُقلّصةً عينيها.

– اعذرينـي على سؤالٍ غير مُتواضـع، يا داريا دميتريفنا. يُقال في المدينة أنّك موشكةٌ على الزواج، أهذا صحيح؟

– لا، غير صحيح.

عندئذ رسـمَ تكشيرةً عريضـة كانت غير مُلائمـة لأسارير وجهه المفكّـرة الساهمـة، وحـاول بصـوت ضعيـف أن يُغنـي "آه، نحـن مُنحـدرون مع الفولغا الأمّ" إلا أنّ الخجـل ركبه، وراح يُجدّف بكلّ قوّته.

قابلهـا من الاتجاه الآخر قاربٌ مملوءٌ بالناس. كانت ثلاث نساءٍ من طبقـة مُتوسّطة في فساتين خضراء وقرمزيّة من الكشمير يقضمن حبَّ عبـادَ الشمس، ويلفظن القشـور في أحضانهنّ. وقـد جلس قبالتهنّ رجلٌ له وجه سفـاح، في غاية السُّكر، أجعد الشعر، أسود الشاربين، يقلب عينيـه، وكأنّه يحتضر، ويعـزف "البولكا" علـى الأكورديون. وكان شخصٌ آخر يجدّف بجنـون، مرنحا القارب، بينما لوحٌ ثالث بمجدافٍ احتياطيّ، وصاح على سيمين سيمينوفيتش:

– تنحّ عن الطّريق، يا رمّة.

ومرّوا على قربٍ شديد صائحين لاعنين.

وأخـيراً انزلق القـارب على القـاع الرّمليّ قـرب شاطئ. قفزت داشا إلى الشاطـئ. أعاد سيمين سيمينوفيتش ارتـداء حمّالة البنطلون والسّترة. وقال مقلّصاً عينيه:

– رغم أنّي من سُكّان المُدن، إلا أنني أعشق الطّبيعة جائماً، لاسيّما

إذا انضاف إليها قوامُ فتاة، وفي ذلك أجدُ شيئاً من تورغنيف. لنذهب إلى الغابة.

وسارا على الرّمل الحارّ، غائصين فيه حتى الكاحل. وكان غفيادين يتوقّف بين لحظةٍ وأخرى ويمسح وجهه بمنديله، ويقول:

– انظري، أيّة بقعةٍ فاتنة.

وأخيراً انتهى الرّمل، وكان يجب ارتقاء عدوةٍ قليلة الارتفاع تبدأ بعدها مروج قطع العشب في بعض أماكنها، وتفشّى الذبول في صُفوفه. كانت زُهور العسل تعبق برائحةٍ حارّة هناك، وكانت شجيرة جوزٍ كثيفة الأوراق تحنو فوق الماء على شفا خندقٍ ضيّق. وكان جدول ماءٍ يترقرق في منخفض ريّان العشب ليصبّ في بركةٍ أخرى مُستديرة. وقد نمت على ضفّتيها أشجار زيزفون معمّرة، وشجرة صنوبرٍ وعرة انبسط فرعها الوحيد كاليد. وعلى مسافةٍ أبعد نما حرش من الزّهور البريّة البيضاء على تلةٍ ضيقة من الأرض. كان هذا المكان بقعة مفضّلة لطيور الشنقب أثناء هجراتها. جلست داشا وسيمين سيمينوفيتش على العشب. كان الماء في وهادٍ ملتويةٍ صغيرة، تحت أقدامها، يعكس زرقة السماء، وخضرة الشجر. وكان طائران رماديان صغيران يقفزان في أجمةٍ غير بعيدٍ عن داشا ويسقسقان سقسقةً رتيبة. وكان حمامٌ بريّ يهدل في شجرةٍ بوحشة هديلٍ من فارقته أليفته. جلست داشا مادّةً ساقيها، مُلقيةً يديها على ركبتيها تصغي إلى الحمام العاشق المهجور يناغيها من الأغصان بصوتٍ رقيق:

"داريا دميتريفنا، آه ما الذي دهاك– لم أنت حزينةٌ هذا الحزن، تريدين أن تبكي؟ لم يحصل شيءٌ بعد، بينما أنتِ كئيبة، وكان الحياة قد انقضت، توارت. مجرّد أنّك متذمّرةٌ بطبعك".

قال غفيادين:

– أريد أن أكون صريحاً معك، يا داريا دميتريفنا، فهل تسمحين لي أن ألقي جانباً بما يُسمى بالمُتعارف عليه؟

– تكلّم، فسيّان عندي.

أجابت داشا، وقد استلقت على ظهرها موسدةً رأسها على يديها لتنظر إلى السماء، لا إلى عيني مُحدّثها الصغيرتين الزائغتيّ النظر. وكان سيمين سيمينوفيتش يختلس النظر إلى جوربيها الأبيضين.

– أنت فتاةٌ أبيّةٌ جريئة. وأنت شابةٌ جميلةٌ تفور الحياة في أعماق نفسك...

قالت داشا: ولنفرض ذلك.

– أمعقولٌ أنك لم ترغبي مرّةً في تحطيم هذه الأخلاق الموروثة من تربيتك ومحيطك؟ أمن المعقول أنّك بإسم هذه الأخلاق المرفوضة من جميع ذوي المكانة مُضطرّةً إلى كبت غرائزك الجميلة؟

– ولنفرض أنّني لا أريد أن أكبت غرائزي الجميلة، فماذا يكون؟

سألت داشا، وانتظرت جوابه بفضولٍ كسول. كانت الشمس تدفؤها، وتجد متعةً في النظر إلى السماء، وإلى الغبار المُشمس، الذي كان يملأ كلّ تلك الزّرقة المُترامية الأطراف، حتى أنّها لم تجد رغبةً في التفكير أو في الحركة.

صمت سيمين سيمينوفيتش حافراً الأرض بإصبعه. كانت داشا تعرف أنّه مُتزوّجٌ من المولدة ماريا دافيدوفنا. وكانت زوجته تأخذ أطفالها الثلاثة أكثر من مرّةٍ في كلّ عام، وتهجره إلى أمّها التي كانت تعيش في بيتٍ مقابل داره. وكان سيمين سيمينوفيتش يعزي في

البلديّـة هذه الهجرانات إلى طبع زوجتـه الحسّاس والمُضطرب. بينما عزتها هي في مُستشفى المدينة إلى استعداد زوجها في كلّ دقيقة إلى أن يخونها مع كلّ امرأة، وهو لا يُفكر بغير ذلك. إلا أنه لا يخونها بسبب جبنهِ وخوره، وذلك شيءٌ مُخجلٌ تماماً. وهي لم تعد تحتمل رؤية وجهه الطويـل، الشّبيه بوجـوه النّباتيين. وكان سيمـين سيمينوفيتش خلال هـذه الخصامات يعبر الشـارع عدّة مراتٍ في اليوم حاسـر الرّأس. ثم يتصافى الزّوجان، وتنتقل الزوجة إلى بيته مع الأولاد والوسائد.

– إذا اختلّـت امـرأةٌ ورجل فإنّ رغبةً طبيعيّـةً تتولّد لدى المرأة في أن تكـون لـه، ولدى الرّجـل في أن يتملّـك جسدها–وسعل سيمين سيمينوفيتـش، ثـم أردف قائلاً–وأنـا أدعـوك لأن تكـوني صادقـةً وصريحـة. انظـري في أعمـاق نفسـك فستجديـن الرّغبـة الطّبيعية لإحساسٍ سليم تضطرم فيها وسط الأهواء والأكاذيب.

– لا تضطرم أيّة رغبةٍ في نفسي الآن، فما يعني ذلك؟

سألـت داشا، وكانت تحسّ بتسليةٍ وارتخـاء. رأت نحلةً تطوف فـوق رأسها، في الاصفرار الشاحب لزهـرةٍ بريّة، في الغُبار الأصفر. بينمـا مضى الحمـام العاشق المهجور يهدل في شجـيرة الحور: "داريا دميترييفنـا، داريا دميترييفنـا، ألعلّكِ عاشقة؟ عاشقـة، عاشقة، كلمة شـرف. ولذلك أنت حزينـة". وشرعت داشا تضحـك لدى سماعها ذلك.

– يـدو أنّ الرّمـل تسـرّب إلى حذائك. اسمحـي لي بنفضه. قال سيمـين سيمينوفيتـش بصـوتٍ خافـتٍ غريب، وسحبهـا من كعب حذائهـا. عندئذ جلست داشا بسرعـةٍ، وانتزعت منه الحذاء، وضربته به على خدّه. وقالت:

– يـا سفيـه، لم أتصـوّر قـط أنّك رجلٌ بهـذه الوضاعـة. لبست

حذاءهــا، ونهضت، والتقطــت المظلّة، وسارت نحــو النّهر، دون أن تنظر إلى غفيادين.

وفكّرت داشا وهــي تهبط من العدوة: "حمقاء، حمقاء. لم تسأليه حتــى عــن عنوانــه لتكتبي له.إمــا هــو في كينيشما وإمــا في نيجني، والآن، اجلســي مــع غفيادين. آه يا ربّي". التفتــتْ، ولمحت غفيادين يســير على المُنحدر المُعشوشب، رافعاً رجليه كاللّقلق، مُديراً بصره إلى ناحيــة. "سأكتبُ لكاتيــا: "تصوّري: يبدو أنني مُغرمــة، هذا ما يبدو لي"". وردّدت داشا بصــوتٍ خافض، مُستمعةً إلى صوتها: "عزيزي، عزيزي، عزيزي إيفان إيليتش".

وفي تلــك اللّحظة سمعتْ على مقربة منها صوتاً يقول "لا أدخل، لا أدخل، اتركني، ستمزّق التّنورة". ورأت رجلاً مسناً عارياً يخوض في المــاء إلى ركبتيه. له لحيةٌ قصيرة، وأضلاعٌ مُصفرّة، وقد تدلّى شريط الصّليــب الأسود على صدره الغائر. كان مظهره وقحاً وكان يسحب نحــو الماء امرأةً كئيبــةً حانقاً صامتــاً. وكانت المرأة تُــردّد: "اتركني، ستمزّق التّنورة".

عندئــذ ركضت داشا بــكلّ قواها بحذاء الشاطــئ نحو القارب، وقــد شعــرت بتقلّص في حنجرتها مــن التّقزز والعــار. وبينما كانت تدفع القــارب إلى المّاء جاء غفيادين راكضاً مُتقطّع الأنفاس. ودون أن تــردّ عليه، وتنظر إليه جلست علــى مقدّمة القارب، وتظلّلت بالمظلّة، ولزمت الصّمت طوال طريق العودة.

بعــد هــذه النّزهة أخــذت داشا بطريقــة غريبة غــير مفهومة حتى لنفسهــا تشعــر باستيــاء من تليغــين، وكأنما هو الملوم علــى كسل هذا الضيــق من هــذه البلدة النائيــة المُغــبرة المُتوهّجة بالشمــس بأسيجتها المُنتنــة، وبوّاباتها الكريهة وبُيوتها الصغــيرة الآجريّة الشبيهة بالعُلب،

وبأعمــدة للتلفونات وللترام بــدلاً من الأشجار، والقيــظ الثّقيل عند الظّهيرة، حين تتجــوّل في الشارع الرّماديّ الأبيضـ الخالي من الظّلّ امــرأةً كادت تُصاب بدوار الشمس، تعلق حزم السمك المُجفف على كتفيهــا، وتصرخ ناظرةً في الشبابيك المتربــة "سمكٌ مجفف، سمك"، إلا أنّ كلبــاً مُصاباً بدوار الشمس مثلها، نصف معتوه يتوقّف بالقرب منهــا، ويتشمّــم السمك، بينما يترامــى من فناءٍ بعيــد أرغن الشوارع يعزف لحن الفالس القديم المشحون بالسأم.

كان تليغين ملوماً على أنّ داشا تتلقى الآن بحساسيّةٍ شديدة كلّ ما يحيــط بها من هذا الركود الباطنيّ لحيــاة البرجوازيّة الصّغيرة، والذي لا ينــوي، كما يبدو، أن يتزحــزح من مكانه أبداً، وحتى ولو خرجت إلى الشارع وصرخت بصوتٍ وحشيّ: "أريد أن أعيش، أن أعيش!".

وكان تليغــين ملوماً على أنّــه كان مُبالغاً في تواضعــه واستحيائه. فليس هي، أي داشا، من كان عليه أن يقول "اعلم أنني أحبّك". وكان ملومــاً على أنه لم يترك خبراً عنه، وكأنما غاص تحت الأرض، بل ولعلّه نسي التفكير فيها.

وبالإضافــة إلى كلّ هذا السّأم، رأت داشــا في أحد الليالي الحالكة اللاهبــة كالفرن الحلم الذي رأته في بطرسبورغ، حين هبّت من نومها والدمــوع في مآقيها، وقد غاب عن ذاكرتها أيضــاً مثلما غاب آنذاك كبُخارٍ تصاعد من زُجاج رطب. إلا أنه تصورت أنّ هذا الحلم المعذِّب الرهيــب يُنــذر بمصيبة. نصــح دميــتري ستيبانوفيتش ابنتــه بأن تحقن بالزرنيخ. وفيما بعد جاءت رسالةٌ ثانية من كاتيا. كتبت:

"عزيزتــي داشــا! بي حنــينٌ شديــد إليــك، وإلى أصحابي، وإلى روسيــا. وأنا أشعــر أكثر فأكثر بأنّ الذنب يقع علــيّ في الانفصال عن نيقــولاي أيضــاً. استيقــظ، وأقضي اليوم كلّــه يُلازمني هــذ الشّعور

بالذّنب، ونوعٌ من التّعفن الروحيّ. ثم—ولا أدري هل كتبت لك عن ذلك—أنّ شخصاً يُلاحقني منذ بعض الوقت. أخرج من البيت فأراه قادماً من الجهة المُقابلة. أصعد في المصعد إلى مخزنٍ عامّ، فأراه يقفز أثناء صُعوده. بالأمس كنت في اللوفر. وقد تعبت في المتحف، وجلست على مصطبة، وفجأةً أحسّ وكأنّ يداً تمرّ على ظهري. ألتفتُ فأجده يجلس غير بعيد عني. إنّه رجلٌ نحيل، تفشّى الشيب في شعره الأسود، ولحيته تبدو وكأنّها مُصمّغةٌ على خديه. كان يضع يديه على رأس عصاه، وينظر نظرةً كالحة، وعيناه غائرتان. وهو لا يتكلّم، ولا يُضايقني إلا أنني أخاف منه. وأشعر بأنه يحوم حولي...".

أطلعتْ داشا أباها على الرّسالة. وفي الصباح التالي قال دميتري ستيبانوفيتش عَرَضاً، وهو يُطالع صحيفته:

– سافري إلى القرم، يا قطيطة.

– لماذا؟

– ابحثي عن نيقولاي إيفانوفيتش هذا، وقولي له: إنّه مُغفّل. دعيه يُسافر إلى زوجته في باريس. وعلى العُموم... حسب ما يُريد.. تلك قضيّتهما الشخصيّة...

وظهر الغضب والانفعال على دميتري ستيبانوفيتش رغم أنّه كان يكره إظهار مشاعره. وفجأةً أحسّت داشا بالفرح. فقد كانت تتمثّل القرم رحاباً زرقاء ساحرة تزخر بالأمواج. وتصوّرت الظّلّ الطويل لشجرة حورٍ هرميّة، ومُسطبةٍ حجريّة، ولفاعاً يرفّ على رأسها، وعينين قلقتين تنظران إليها.

جمعت أمتعتها بسرعة، وسافرت إلى يفباتوريا، حيث كان نيقولاي إيفانوفيتش يستحمُّ في البحر.

١٢

في ذلك الصّيف كان سيلٌ غير اعتياديّ من المُصطافين قد جاء إلى القرم من الشمال. كان الساحل بأسره يغصّ بالمُتنزّهين المسلوخي الأنوف من أهالي بطرسبورغ اللاذعين الجالبين معهم نزلاتهم الصّدريّة والتهاب القصبات، ومن الموسكوفيين الضاجّين المُهملي الهندام بكلامهم المُتراخي الناغم، ومن أهالي كييف ذوي العُيون السّود غير عارفين الفرق بين الواو اللينة والواو المُضخّمة، ومن أغنياء سيبيريا المُزدرين لهذه الضوضاء الروسيّة. وكان الجميع يشوون ويلوحون جلودهم في الشمس حتى الاسوداد: نساءٌ شابات، فتيانٌ طويلو السيقان، ورهبان، وموظّفون، وأناسٌ مُبجّلون، وأزواجٌ مع زوجاتهم يعيشون كلّهم برخاوة، كما كان الجميع يعيشون في روسيا آنذاك، وكأنّ أسفل عمودهم الفقريّ قد انقصم.

وفي مُنتصف الصّيف، وبسبب الماء المالح، والحرّ وتلويح الشمس فقد هؤلاء الناس الشعور بالحياء. وبدأت ملابس على طراز ما يلبسه أهل المُدن تبدو ابتذالاً زائداً عن الحاجة، وظهرت على الساحل نساءٌ لا تسترهنّ غير المناشف التّرية، ورجالٌ يشبهون الصّور المرسومة على المزهريّات الأتروريّة.

وترنّحت أسس العائلة في هذا الجوّ غير الاعتياديّ من الأمواج الزرقاء والرمل الحارّ، والأجساد العارية المبثوثة في كلّ مكان. وبدا كلّ شيءٍ هنا سهلاً ومُمكناً. ولا حاجة إلى التفكير في تصفية الحساب. فيما بعد، في الشّقة الكئيبة في الشمال، حيث المطر يسحّ وراء النافذة، والتلفون يدقّ في الرواق، ولكلّ فردٍ التزاماته. ماء البحر ينزلق على الساحل بقرقرةٍ ناعمة، ويمسّ الأقدام، فيستشعر الجسم المُمدّد على

الرمل، والأذرع المبسوطة، والأجفان المُسبّلة بخفّة وحرارة ولذّة. إنّ كلّ الأشياء على الإطلاق، حتى أخطرها سهلةٌ ولذيذة.

في هــذا الصيف تخطّى نــزق المصطافين وتحلّلهــم جميع الأبعاد، وكأنّ كلفاً جباراً انفصل عن الشمس المُتوقّدة في صباح من صباحات حزيــران قد أصاب ذاكرةً وتعقّل سكان المدن هؤلاء بمئات ألوفهم. لم يكن في طول هذا الساحل بيتٌ واحد بخير، تقطّعت الروابط الوثيقة فجأة. وبــدا وكأنّ الهواء نفسه موقّرٌ بهمس الغرام والضحك الناعم، والهذر الــذي لا يوصف، والمعقول على هــذه الأرض الحارّة المبثوثة فيهــا أطلال المُدن القديمة. وعظام الشّعوب المُندثرة. وكان يبدو وكأنّ يوماً لتصفية الحساب وللدموع المرّة سيأتي مع أمطار الخريف.

وصلــت داشــا إلى يفباتوريا بعد الظّهر. وبينمــا كانت تقترب من البلــدة علــى الطريق المُترب الــذي كان يمتدّ كشريــط أبيض في سهب مستــوٍ مروراً بالبطائــح الملحيّة، وأكداس القشّ لمحــت سفينةً خشبيّةً كبــيرةً إزاء الشمــس كانت تسير ببــطء على بعد نصــف ميل، فتلوح وكأنّها تسير في السّهب، وسط الإفسنتين، وأشرعتها السوداء منحرفة وممتــدّة من فوق السفينة حتى أسفلها. كان منظراً مُذهلاً انتزع منها آه تعجّــب. قال الأرمنيّ الذي كان جالساً إلى جوارها في السيارة، وهو يضحك: "سترين البحر الآن".

استدارت السيارة مارّةً بملاحــات مربّعة الشكل، وارتقت مرتفعاً رملياً. انفتح البحر من عليه. وبدا وكأنّه أكثر ارتفاعاً من الأرض وكان ذا لونٍ أزرق داكن ومفروشاً بجدائل طويلة بيضاء من الزّبد. اصفرّت ريحٌ مرحة في الآذان. ضغطت داشا على الحقيبة الجلديّة على ركبتيها، وفكرت مع نفسها: "هذا هو يبدأ".

في هذا الوقت كان نيقولاي إيفانوفيتش سموكينيكوف جالساً في

سرادق أُقيم على أعمدة عند البحر. يحتسي القهوة مع الفنان العاشق. كان المُصطافون يأتون إلى هنا بعد أن استراحوا من الغداء، ويجلسون إلى موائد صغيرة، ويتنادون ويتحدّثون عن فائدة العلاج باليود، وعن السباحة في البحر وعن النساء. وكان الجوُّ داخل السرادق طرياً، وكانت الريح تحرّك حوافي المفارش البيضاء. ولفاحات النّساء. مرّ يختٌ بشراع واحدٍ وتناهت من عليه أصواتٌ مرحة. وجاء الموسكوفيون في جمعٍ، واحتلّوا مائدةً كبيرة، وجميعهم من ذوي الصيت العالمي. تجهّم الفنان العاشق لدى رؤيته لهم، وتابع حكاية محتوى مسرحيّةٍ فكّر في كتابتها.

– موضوع المسرحيّة كلّه مدروسٌ بعمق، ولكنني لم أكتب غير الفصل الأوّل–قال ونظر في وجه نيقولاي إيفانوفيتش متأمّلاً ميهباً– أنّ لك رأساً رائقاً، وأنت تفهم فكرتي يا نيقولاي. امرأةٌ شابّةٌ جميلة ولكنها ضجرة تتهافت خُمولاً، ومحاطةً بالتفاهة. إنّ هؤلاء أناسٌ طيّبون، ولكنّ الحياة قد امتصّتهم امتصاصاً، مشاعر متعفّنة، وسكر. وباختصار، أنت تفهمني...وفجأةً تقول هذه المرأة: "يجب أن أرحل، أتخلّص من هذه الحياة، أرحل إلى النور...بينما لها زوجٌ وصديق... وكلاهما يُعاني...افهمني يا نيقولاي...إنّ الحياة قد امتصّت...وهي ترحل ولا أشير إلى مَنْ...لا عشيق لها، مُجرّد مزاج...ثم ترى الرّجلين جالسين في حانة يحتسيان الخمرة صامتين...يبتلعان الدّموع مع الكونياك. والريح تصفر في مدخنة الموقد، تنعيهما...جوٌّ حزين... خاوٍ...مُظلم..."

سأل نيقولاي إيفانوفيتش:

– هل تُريد أن تعرف رأيي؟

– نعم، قل لي فقط: "ميشا، اترك الكتابة" وسأتركها.

– مسرحيّتك رائعة. إنهـا الحياة بعينها–قال نيقولاي إيفانوفيتش، وقد أغمض عينيه، وراح يهزّ رأسه–أجل، يا ميشا، إننا لم نعرف كيف نقدّر سعادتنا، وقد رحلت عنا. وها نحن بلا أمل، ولا عزيمة جالسون نشرب. والريح تعول فوق مقبرتنا...إنّ مسرحيّتك تؤثّر فيّ للغاية...

ارتعشـ الانتفاخان تحت عينيّ الفنـان العاشق، رقع جسمه، وقبّل نيقولاي إيفانوفيتش بقوّة، ثمّ ملأ قدحيهما. قرع الصديقان القدحين، ووضعا كوعيهما على المائدة، ومضيا في حديثهما الحميم.

قال الفنان العاشق مُلقياً إلى مُحدّثه نظرةً ثقيلة:

– نيقولاي، أتعرف أنني أحببت زوجتك، كإلهة.

– نعم، هذا ما بدا لي.

– لقد تعذّبـت، نيقولاي ولكن كنتَ صديقي...وكم مرّةً هربت مـن بيتك، مقسماً علـى ألا أتخطـى عتبة دارك مـرّةً أخرى..ولكن كنتُ أعـاود الزّيارة، وأمثّل دور المُهرّج...ولكـن إياك، يا نيقولاي، أن تلومها.

ومطّ شفتيه بضراوة.

– إنها تصرّفت معي تصرّفاً فظاً، يا ميشا.

– ربما...ولكننا جميعاً مذنبون إزاءها. آه، يا نيقولاي، شيءٌ واحد لا أستطيـع أن أفهمـه فيك، كيـف وأنت تعيش مع مثل هـذه المرأة–وأرجو المعذرة–كنت على علاقةٍ قريبة في الوقت ذاته مع تلك الأرملة صوفيا إيفانوفنا؟ لماذا؟

– تلك مسألةٌ مُعقّدة.

– تكذب. لقد رأيتها. إنها امرأةٌ بسيطة.

– اسمـع، يا ميشا. الآن صار الأمر في حكم الماضي، بالطّبع. لقد

كانـت صوفيا إيفانوفنا مجـرّد إنسان طيّب. وقـد وهبتني لحظات من الفرح، و لم تطلب منـي شيئاً قط. بينما كان كلّ شيءٍ في البيت مُعقداً للغاية، عسيراً، مُعمّقـاً...و لم تكن لي القوّة الروحية الكافية لأؤثّر بها على يكاترينا دميترييفنا...

– غير معقول، يـا نيقولاي. ها نحن سنعود إلى بطرسبورغ وتقام أمسيـة الثلاثاء، وأزوركم بعـد العرض...وأجد البيت فارغاً...كيف أتحمّل ذلك؟..اسمع...أين زوجتك الآن؟

– في باريس

– وهل تتراسل؟

– لا.

– سافر إلى باريس. لنُسافر سويّة.

– بلا فائدة...

– نيقولاي، لنشرب نخب صحّتها.

– لنشرب.

ظهرت المُمثّلة تشارو ديفا في السّرادق، بين الموائد. كانت ترتدي ثوبـاً أخضـر شفافاً، وقُبعـةً كبيرة. كانـت نحيلةً كالأفعـى يرتمي ظلٌّ أزرق تحـت عينيها. ولربّما كان عمودها الفقـريّ معطوباً، فقد كانت تتأوّد وتنحني. نهض للقائها مُحـرّر المجلّة الجماليّة "جوقة الموزيات"، وأمسك يدها، ولثم ببطءٍ ثنية المرفق.

قال نيقولاي إيفانوفيتش من خلال أسنانه:

– امرأةٌ مُدهشة.

– لا، يـا نيقـولاي، لا، إنّ تشارو ديفـا فطيسةٌ لا غـير. هل تريد

أن تعـرف سبباً؟..مجرّد أنّها عاشت مـع بيسونوف ثلاثة أشهر، وتقرأ الأشعـار المُنحلّة في الحفلات بصـوت كالمُواء...انظر، انظر. إنّ فمها يصل إلى أذنيها، والعُروق بارزةٌ في رقبتها. إنها ليست امرأة، بل ضبع.

ومع ذلك فحين اقتربت تشارو ديفا من المائدة، هازّةً قبّعتها شمالاً ويميناً، مُبتسمةً من فم كبيرٍ وشفتين ورديّتين نهض الفنان العاشق ببطء، وكأنّه قد صعق وحرَّك يديه مدهوشاً ووضعهما تحت حنكه.

– نينا...عزيزتي...يـا للزينة!..لا أتحمّـل، لا أتحمّل...نصحوني بالهُدوء التام، يا حبيبتي...

ربّتت تشارو ديفا على خدّه بيدها العظميّة، وغضّنت أنفها.

– وماذا هذرت عنّي يوم أمسٍ في المطعم؟

– هل أغلظت القول عليك، يوم أمس، في المطعم؟ أوه يا نينا.

– نعم، وبشدّة.

– كلمة شرف، أنا المفترى عليه.

وضعت تشارو ديفا خنصرها علـى شفتيه ضاحكةً: "أنت تعرف أنّنـي لا أستطيـع أن أغضب عليـك طويلاً". ثمّ التفتـت إلى نيقولاي إيفانوفيتش وقالت بصوتٍ مُختلفٍ تماماً، كأنّما تُمثّل تمثيليّةً دارجة.

– لقـد مـررتُ من تـوّي بغرفتك. يبـدو أنّ إحـدى قريباتك قد وصلت. فتاةٌ ساحرة.

ألقى نيقولاي إيفانوفيتـش نظرةً سريعةً على صديقه، ثمّ تناول من صحـن الفنجان السيغار، وأخذ يمتصّ الدّخان منه مصاتٍ قويّة، حتى انتشر الدّخان على لحيته كلّها. قال:

– هذه مُفاجأة. ماذا يمكن أن يعني ذلك؟..أنا ذاهب.

وألقــى السغار في البحــر، وأخذ يهبط السلّــم إلى الساحل، مُديراً عصــاه الفضيّة الرأس. وقد دفع قبّعتــه إلى مؤخّر رأسه، وعندما وصل إلى الفندق كان لاهث الأنفاس...

– داشا، لماذا جئت؟ ما الذي حصل؟

ســأل، وهو يغلق البــاب وراءه. كانــت داشا جالســةً إلى الأرض قــرب حقيبة مفتوحة، تخيط جورباً. عندما دخل زوج أختها نهضت مُتثاقلة، وعرضت له خدّها ليقبّلها، وقالت مُشتّتة الفكر:

– يُسعــدني جــداً أن أراك. قررنا، أبي وأنــا، أن نسافر إلى باريس. جلبت معي رسالتين من كاتيا. خذهما واقرأهما أرجوك.

اختطــف نيقولاي إيفانوفيتشــ الرّسالتين من داشــا، وجلس عند النافذة. ذهبت داشا، إلى غرفة المغسلة، وأخذت تغيّر ملابسها وكانت تسمــع زوج أختها يتصفّح ورق الرّسالتين، ويزفر. ثمّ سكن. تنصّتت داشا حتى سمعته يسألُ فجأةً:

– هل تناولت فطورك؟ إذا كنت جائعة فلنذهب إلى السرادق.

عندئــذ فكّرت مع نفسها: "لم يعد يحبّها تماماً". سوّت قبّعتها على رأسهــا بكلتــا يديها، وعزمت على أن ترجئ الحديــث عن باريس إلى الغد.

في الطريق إلى الســرادق لزم نيقولاي إيفانوفيتش الصمت ونكس بصره إلى الأرض، ولكن حين سألته داشا "هل أنت تسبح؟" رفع بصره بادي المرح، وقال أنّهم ألفوا هنا "جمعية مناهضة ثياب السباحة" التي ترمي بالدرجة الأولى إلى أغراضٍ صحيّة.

– تصوّري أنّ الجسم يتلقى من اليود خلال شهرٍ من السباحة على هذا البلاج أكثر مما يمكن أن يتناوله باطنياً بطريقةٍ اصطناعيّة خلال هذه

المــدّة نفسهــا. وفضلاً عن ذلك فإنك تمتصين أشعّــةً شمسيّة ودفئاً من الرمــل المحمي. ونحن الرجال يمكن أن نحتمل، فنحن لا نغطي إلا ما تحت الخصر. أما النساء فيغطين ثلثي الجسم تقريباً. وقد أخذنا نناهض ذلك بحزم... يوم الأحد سألقي محاضرةً في هذا الموضوع.

سارا بمحاذاة الماء على الرمل الأصفر الناعم كالمخمل والمُكوّن من الأصداف الصغيرة المُسطّحة التي صقلتها أمواج المدّ والجزر. وهناك، غــير بعيدٍ عنهما، حيــث كانت الأمواج الصغيرة تجــري وتنحسر عن الجرف مزبــدة، كانت فتاتــان في طاقتي سباحــة حمراوين تتمايلان كالطوافتين.

قال نيقولاي إيفانوفيتش بلهجةٍ جادّة:

– من أتباعنا.

كان ينمو في نفس داشا إحساسٌ يزداد قوةً بين الإثارة والقلق. وقد بدا حين رأت السفينة ذات الأشرعة السوداء في السّهب.

توقّفــت داشا لتنظر إلى الماء يسيح على الرّمــل كالغشاء الرّقيق، ثم يعــود فيتراجع، تــاركاً مسارب صغيرة، وكان في تماس الماء بالأرض هذا شــيءٌ بهيجٌ أزليّ، حتى أنّ داشا قرفصت، ومدّت يدها إليه. رأت سرطاناً صغيراً مُسطّحــاً يعدو جانباً، مخلفاً غُميمةً من الرمل، واختفى في الأعماق. وجاءت موجةٌ وبلّلت ذراعي داشا إلى المرفقين.

قال نيقولاي إيفانوفيتش مُقلّصاً عينيه:

– أرى فيــك تغيّراً. إما أنّك قد ازددت حسناً، أو نحفت قليلاً، أو أنّ أوان زواجك قد حان.

التفتت داشا، ونظرت إليه بغرابة، ونهضت، وسارت نحو السرادق دون أن تمسح يديها، ومن هناك كان الفنان العاشق يلوّح بقبّعته القشيّة.

أكلت داشا فطائر اللّحم واللبن الخاثر، وشربت الشمبانيا، وانشغل الفنان العاشق محتفياً بها، وبين الحين والآخر كان يركس في حالة جُمود، هامساً وكأنما لنفسه: "يا إلهي، ما ألطفها!"، ثم جاء ببعض الشّبان ليتعرّفوا عليها، وهم طلابٌ في الاستوديو المسرحيّ تحدّثوا بأصوات مكتومة، وكأنّهم في اعتراف أمام كاهن. وكان نيقولاي إيفانوفيتش مُغتبطاً بهذا النجاح لقريبته داشا.

احتست داشا النّبيذ، وضحكت، وكانت تمدّ يدها لهذا أو ذاك ليقبّلها، و لم تصرف بصرها عن البحر المائج المُتألّق بزرقته.

كانت تقول لنفسها: "إنها لسعادة".

بعد الاستحمام والنّزهة ذهبوا لتناول عشائهم في الفندق. حيث كان الصّخب والوضاءة والأناقة. تحدث الفنان العاشق عن الحبّ طويلاً وبحرارة. وسكرَ نيقولاي إيفانوفيتش قليلاً، وهو يتفرّس في داشا، وغرق في حزن. بينما كانت داشا تُراقب طوال الوقت ومن خلال فتحة في ستارة النافذة ومضات ضعيفة تظهر وتختفي غير بعيد عنها، وتختفِي، وتعود ثانية. وأخيراً نهضت، وخرجت إلى الساحل. كان البدر المُستدير الصافي، القريب تماماً كما في حكايات شهرزاد يطلّ على دربٍ حرشفيٍّ متلألئ عبر البحر كلّه. شبكت داشا أصابع يدها، وقرقعتها.

تناهى إليها صوت نيقولاي إيفانوفيتش فأسرعت مبتعدةً بمحاذاة الماء الذي كان يلعق الساحل وسنان. رأت داشا شبح امرأة جالسة على الرمل، وبقربها شبحٌ آخر لرجلٍ يوسّد رأسه ركبتيها. وكأن رأس

إنسـانٍ يعوم سابحاً بين الومضـات الرّجراجة في الماء الليلقي الداكن. نظـرتً إلى داشـا عينان انعكسـ فيهما نـور القمر، وظلّتـا تراقبانها طويـلاً. ثمّ أبصرت داشـا شخصين مُتلاصقين، وبعـد أن مرّت بهما سمعت تنهيدةً وقُبلة.

"داشا، داشا!" –سمعت هذا النداء من بعيد. فجلست على الرمل، وركّـزت كوعيها على ركبتيهـا، وأسندت حنكها على يديها. لو جاء تليغين الآن وجلس إلى جانبها، وطوّق بذراعه ظهرها، وسألها بصوتٍ صارمٍ وخافت "هل أنت لي" فستجيبه "لك".

تحـرّك شبحٌ رماديّ كان راقداً وراء تلّة رمـل، وقعد متدلي الرّأس، ونظر طويـلاً إلى الدرب المُتلألئ الذي رسمـه القمر على الماء، وكأنما لتسلية الأطفـال، ونهض، ومرّ بداشا مُتهافتـاً كالميّت. وعرفت داشا بقلبٍ واجف هالع أنه بيسونوف.

وهكذا بدأت بالنّسبة لداشـا هذه الأيام الأخيرة للعالم القديم. و لم تكـن كثيرة وهي مُشبعةٌ بقيظ صيف آخـذ بالهُمود، بهيجة وسعيدة. ولكن الذين تعودوا على أن يفكّروا بأنّ يومً الغد واضحٌ كمعالم الجيال البعيـدة المزرقّة، وحتـى الأذكياء منهم وذوو البصائـر لم يستطيعوا أن يـروا، ولا أن يعرفـوا ما وراء اللحظة التي يعيشونهـا. ولقد كان وراء هـذه اللحظة الملوّنـة، المضمخة بالروائح، والمفعمـة بدفق نسغ الحياة بـكلّ ألوانـه يرقد ظـلامٌ دامس... ما من نظـرة، ولا شعور، ولا فكر نفـذ قيد شعرة إلى هنـاك، لم يكن هناك غير نفر تحسّـس ما هو قادم، ربمـا بشعورٍ مبهم فقط كشعور الحيـوان عند دنوّ العاصفة. وكان هذا الشعور شبيهاً بقلقٍ غير معروف الهويّة. بينما كانت تنزل على الأرض في ذلـك الوقت سحابـةٌ غير مرئيّة، تدور دورانـاً مجنوناً، لها خطوطٌ منتصـرة ضاريـة هابطة و لم يكن الرمز الوحيـد إلى ذلك إلا شريطاً من

ظلّ الشمس ممتداً من الجنوب الشرقيّ إلى الشمال الغربيّ ماسحاً كل الحياة القديمة المرحة الخاطئة على الأرض.

١٣

كان بيسونوف يقضي اياماً بكاملها منطرحاً عند البحر. وكان وهو يتطلّع إلى الوجوه: النسائيّة الضاحكة الملوّحة قليلاً بالشمس والرجاليّة النحاسيّة الحمراء المُنفعلة، يحسّ في جزع بأن قلبه ليس إلا قطعةً من الثلج ترقد في صدره. وكان يُفكر، وهوَ ينظر إلى البحر، بأنه باقٍ كما هو منذ آلاف السنين يضرب الساحل بأمواجه. وكان الساحلُ، آنذاك، مقفراً، بينما هو اليوم مأهولٌ بالناس، وسيموت الناس، ويقفر الساحل ثانية، ويظلّ البحر يترامى على الرّمل كديدنه. وكان بيسونوف، وهو يفكّر، يقطّب ويُجمّع بأصابعه الأصداف في كومة، ويحشي فيها عقب سيكارته المُنطفئة. ثمّ يذهب للسباحة. وبعد ذلك يتناول غداءه بتوانٍ، ثم يذهب لينام.

يوم أمسٍ جلست فتاةٌ على الرمل عجلى، غير بعيد عنه وراحت تحدّق طويلاً في ضوء القمر، وكانت تفوح منها رائحةٌ خفيفة لعطر البنفسج. فرفّت ذكرى في ذهنه الراكد. وتململ بيسونوف، وقال لنفسه "لا، لا تلق بشصّك عليها... إلى الشيطان... أنا ذاهبٌ لأنام"، ونهض وذهب إلى الفندق.

وتهيّبت داشا بعد هذا اللقاء. خُيّل إليها أنّ حياة بطرسبورغ–كلّ تلك الليالي المُضطربة–قد انقضت إلى الأبد وبيسونوف الذي فتنها ذات مرّة بشيءٍ غير مفهوم قد صار في طيّ النّسيان.

إلا أنّ كلّ شيءٍ قد استيقظ فيها بقوّةٍ جديدة من نظرةٍ واحدة،

من تلــك اللحظة التي مرّ فيها شبحاً أســود إزاء ضوء القمر، و لم يكن ذلك على شكل مشاعر مضطربة مبهمة، بل هو الآن رغبةٌ أكيدة حارة حــرارة الظهيرة. إنها متعطّشة لتحسّ هذا الرجل. لا أن تحبّ، ولا أن تتعــذّب، ولا أن تتردد، بل أنْ تحسّه فقط. كررت بصوتٍ واهنٍ وهي جالسةٌ في فراشٍ أبيض في غرفةٍ بيضاء مغمورة بضوءٍ قمريّ:

– آه، يا إلهي، آه، يا إلهي، أيّ شيءٍ هذا ؟

وفي الساعــة السادســة صباحــاً خرجت داشــا إلى ساحل البحر، وخلعــت ملابسها، ودخلــت في الماء إلى ركبتيهــا، وارسلت بصرها. كان البحــر شاحــب الزّرقة، ناحل اللون، وهنــاك في البعيد في بعض الأمكنــة فقط كان يغطّي سطحه تموّجٌ خفيف كامد. كان الماء يتماوج مُتماهلاً فيرتفع إلى ما فوق الرّكبة تارة، ويهبط إلى أسفلها تارةً أخرى، مــدّت داشا ذراعيها، وارتمت على هذه الطّــراوة السماويّة، وأخذت تسبــح. ثمّ لفّت جسمهــا في روبها الموبّر، وقــد انتعشت وكسا ملح البحر جسدها، واستلقت على الرمل وقد سرى دفءٌ فيه.

وفكّــرت مــع نفسها. وقــد أسندت خدّهــا على مرفقهــا الفوّاح بالطّراوة: "لا أحبّ غير إيفان إيليتش. أحبّه، أحبّه. وأنا معه أشعر بالنقاء والنضارة والفرح. حمداً لله أنني أحبّ إيفان إيليتش. وسأتزوّجه".

وأغمضــت عينيهــا، وغفت، شاعــرةً بالماء يخفق بالقــرب منها، وكأنه يتنفّس منتظماً مع أنفاسها.

وكانت الغفوة هذه لذيــذة. وقد لازمها الإحساس بجسمها دافئاً خفيفــاً في رقدته على الرّمل. وأغرمت بنفسها في نومها. في الغُروب حين كانت الشمس تنزل مثل قرص مسطّح في الوهج البرتقاليّ الخالي من كلّ غيمــة، التقت داشا ببيسونوف جالساً على صخرةٍ عند درب يتعــرّج عبر حقلٍ مسطّحٍ من الإفسنتــين. وكانت داشا قد وصلت إلى

هناك أثناء نزهتها وتوقّفت في الحال لدى رؤيتها لبيسونوف، وأرادت أن تستدير وتركض إلا أنّ الخفّة السابقة قد زايلتها مرّةً أخرى، ونقلت رجلاهـا، وكأنهمـا غاصتـا في الأرض، فراحت تنظـر إليه من تحت حاجبيهـا وهو يتقدّم نحوهـا لا تكاد تظهر عليه الدهشـة من اللقاء، ويخلع قبّعة القشّ، وينحني لها بخشوع انحناءة راهب.

– لم تخطئنـي عيناي بالأمس، يـا داريا دميتريفنا، أنت التي كنت على ساحل البحر؟

– نعم، أنا...

وصمـت منكساً بصره، ثم نظر إلى قلب السهب ساحباً بصره على داشا.

– في هـذا الحقـل يحسّ المـرء عند الغـروب وكأنّـه في صحراء. نـادراً ما يتجوّل الناسـ هنا. فليس حولك غـير الإسفنتين والصخور وفي الغســق يُخيّل إليك أنّ الأرض أقفرت مـن كلّ إنسان. وضحك بيسونـوف كاشفاً ببطء عن أسنان بيض، نظـرت داشا إليه نظرة طائرٍ بـريّ. ثمّ سـارت إلى جانبه على الـدّرب. كانت أجمـاتٌ عالية من الإسفنتـين قد نمت على الجانبين وفي جنبات الحقل كلّه فوّاحةٌ برائحة مُـرّة، وكان القمر يلقـي على الأرض الجافّة عنـد كلّ أجمة منها ظلاً شاحباً لما يزل. وكان خفاشان يطيران فوق رأسيهما مُحلّقين هابطين في خط غـير مُستقيم ومصطفقين بأجنحتهما ظاهرين بوضوحٍ في شريط الغُروب.

قال بيسونوف:

– إغـراءات، إغراءاتٌ لا منجى لـك منها. تغري وتُغوي وإذا بك مرّةً أخرى واقعةٌ في وهـم. انظري بأيّ دهاء قد نظم كلّ ذلك–وأشار بعصـاه إلى قرص البـدر المُتدلّي على انخفاضٍ–طـوال الليل سيحوك

الشبــاك، وسيدعي الـدّرب بأنه جدول، وستبـدو كلّ أجمة مأهولة، وحتــى الجُثة ستبدو جميلة، والوجه النّسائيّ غامضاً، ولكن قد يكون هذا ما يجب أن يكون حقاً: كلّ الحكمة في هذا الوهم...ما أسعدك، يا داريا دميتريفنا، ما أسعد حظّك...

قالت داشا بإصرار:

– و لم تحسبـه وهماً؟ أظنّ أنّ ذلك ليس بوهمٍ إطلاقاً. مجرّد أنّه بدرٌ يُنير.

– بالطّبـع، يـا داريـا دميتريفنـا، بالطبع... "كـوني كالأطفال". إنّ الوهـم في أننـي لا أصدّق بـأيّ شيءٍ من هذا. ولكـن "كوني أيضاً كالأفاعـي". ولكن كيـف التّوفيق بين الإثنين؟ مـاذا يحتاج ذلك؟.. يقولون أنّ الحُبّ هو الموفّق؟ وأنت ماذا تظنين؟

– لا أعرف، لا أظنّ شيئاً.

– من أيّ أصقاع يأتي الحُبّ؟ وكيف إغواءه؟ بأيّة كلمة يسحر؟ أن يستلقي المرء في التراب ويناديه: أوه يا إلهي، يسّر لي حباً!..

وضحك ضحكةً غير عاليةٍ مبدياً أسنانه.

قالت داشا:

– لا أسـير أبعـد من ذلك. أريـد أن أذهب إلى البحـر. واستدارا، وراحا يسيران على الإسفنتين نحو مُرتفعٍ رمليّ. وفجأةً قال بيسونوف بصوتٍ ناعم حذر:

– أتذكّـر إلى آخـر كلمـة كلّ مـا قلتـه عندمـا كنـت في بيتي في بطرسبورغ. لقد أفزعتك (سارت داشا بسرعةٍ شديدةٍ ناظرةٍ أمامها). آنئـذ كان يهزّني شعـورٌ واحد..ليس جمالكً الفريـدً، لا...بل الذي أذهلنـي ونفـذ إلى أعماق نفســي موسيقى صوتك التــي لا توصف.

عندئذ نظـرت إليك وفكّرت مع نفسي: ذلك هـو خلاصي كلّه–أن أهبكِ قلبي، وأصير شحاذاً خنوعاً، أذوبُ في ضيائك... لربّما أكسب قلبـك؟ أن أصير غنياً غنىً لا حـدّ له؟ فكري يا داريا دميتريفنا، ها قد جئـت، وعليّ أن أفكّ اللغز. سبقته داشـا، وطلعت على كثيب رمل. كان الـدّرب العريض الذي يلقيه البدر مُتـلألأً كالحراشف على صدر الماء الثّقيل يمتدّ حتى نهاية البحر مقطوعاً بشريطٍ وضّاءٍ طويل، وهناك، فوق هذا الضوء ينهض ألقٌ داكن. وكان قلب داشا يخفق بشدّة، حتى أنهـا أغمضت عينيها، وفكرت في سرّهـا "يا إلهي، أنقذني منه". غرز بيسونوف عصاه في الرمل عدّة مرّات.

– لقد حان الوقـت لأنْ تتّخذي قرارك، يا داريا دميتريفنا. يجب أن يحترق أحدنا في هذه النار، إما أنت وإما أنا... فكّري، أجيبي...

قالت داشا بحدّةٍ واقتضاب:

– أنا لا أفهم.

– عندما تصيرين مُتسوّلةً فارغة النّفس محروقةً عندئذ فقط تبدأ لك حيـاةٌ حقيقيّة، يا داريـا دميتريفنا... بدون نور القمـر هذا وهو إغراءٌ رخيص. وستكون لـك حكمة. وهذا لا يحتـاج إلا أن خلعي عنك طوق العذرة.

تنـاول بيسونوف يد داشـا بيده المُتثلّجة، وحـدّق في عينيها. فلم تستطع داشـا إلا أن تقلّص عينيها ببطء. وبعد بضع لحظاتٍ طويلةٍ من الصّمت قال:

– علـى كلٍّ، من الأفضل أن نأوي إلى بيوتنا لننام، تحدّثنا، وناقشنا المسألة من جميع الجوانب، ثمّ إنّ الوقت متأخّرٌ أيضاً...

صحب داشـا إلى الفندق، وودّعها باحترام، ودفع قبّعته إلى مُؤخر

رأسه، وسار بمحاذاة الماء، ناظراً إلى أشباح المُتنزّهين المُغبشة. ثمّ توقّف فجأةً واستدار، وتقدّم من امرأةٍ فارهة كانت واقفةً بلا حراك، وقد لفّت جسمها بشالٍ أبيض. ألقى بيسونوف عصاه عبر كتفه، وأمسك طرفيها، وقال:

– نينا، مرحبا.

– مرحبا.

– ماذا تفعلين وحدك على الساحل؟

– أقف.

– لماذا وحدك؟

– وحدي، لأنّي وحدي. -أجابت تشاروديفا بخفوتٍ وغضب.

– أما زلت غاضبة؟

– لا، يا عزيزتي، هدأت منذ زمان.

– نينا، تعالي إليّ.

ألقت رأسها إلى الخلف. وصمتت طويلاً، ثمّ أجابت بصوتٍ مُتهدّجٍ غير واضح:

– هل جُننت؟

– وأنت، ألم تعرفي هذا؟

أمسك يدها، إلا أنها سحبتها بحدّة، وسارت ببطءٍ إلى جانبه، على طول انعكاسات ضوء القمر المُنزلقة على الماء الأسود الزيتيّ اللون، مع خطواتها.

في صبــاح اليوم التالي أيقظ نيقولاي إيفانوفيتش داشا بطَرقٍ حذرٍ على بابها:

– عزيزتي داشــا، استيقظي. لنذهب لشرب القهــوة. أنزلت داشا ساقيها من السرير، ونظرت إلى جوربها وحذائها. كان جميعها مغطىً بطبقة من الغبار الرمــاديّ. إنّ شيئاً ما قد حصل. أم لعلّها حلمت مرّةً أخــرى بذلك الحلم المُرعب؟ لا لم يكن حلماً بل شيئاً أسوأ منه بكثير. لبست داشا ثيابها على نحوٍ ما، وأسرعت لتستحمّ في البحر.

إلا أنّ المــاء قد أتعبهــا، والشمس أرمضتها. فكّــرت وهي جالسةٌ وروبها الموبر على كتفيهــا، حاضنةً ركبتيها العاريتين، إنّ ما من شيءٍ طيّبٍ يمكن أن يحصل هنا.

"لستُ ذكيّةً بل جبانةً وعاطلة. وخيالي مُبالغ. وأنا لا أعرف ماذا أريــد. في الصباح أريد شيئاً، وفي المســاء شيئاً آخر. وهذا هو بالذات الإنسان الذي أمقته".

أحنت داشا رأسها، وحدّقت في البحر. إنّ غموضاً وحزناً شديدين أسالا الدّموع من عينيها.

"يا لهذا الكنز العظيم الذي أحرز عليه. ومَنْ له حاجةٌ به؟ لا أحد في هــذه الدّنيا. أنا لا أحبّ أحــداً حباً حقيقياً. يعني أنه على حقّ. من الأفضــل حرق كلّ شيء، وإحراق نفسي فيه لأكون شخصاً في صحوٍ مــن أمره. دعاني إليه، ويجب أن أذهب إليه اليوم، في المساء و...أوه، لا!"

أنزلــت داشا وجههــا إلى ركبتيها، وهي تحسّ بحــرٌ شديد. وكان واضحــاً أنّ مــن المُستحيــل الاستمرار أطــول في العيش هــذه الحياة المُزدوجــة. لا بُــدّ أن يأتي أخــيراً الخلاص من العذرة التــي لا تُطاق. ولتكن مُصيبة.

وهكذا راحت تتأمّل وهي في جزعٍ من أمرها:

"لنفرض أنّني سافرت من هنا، إلى أبي. إلى الغُبار والآلام. وابقي هناك حتى مجيء الخريف. وتبدأ الدراسة. وأصير أشتغل اثنتيّ عشرة ساعة في اليوم. وتجفّ نضارتي، وأصبح حولة. وأحفظ القانون الدّولي عن ظهر قلب. وأصير أرتدي التنورات من الفانيلة: المُحامية المُحترمة العانس بولافينا. إنّه لمخرجٌ محترمٌ جداً بالطبع".

نفضت داشا الرّمل الذي علق في جلدها، وذهبت إلى الفندق. كان نيقولاي إيفانوفيتش مُستلقياً في الشرفة في بيجامةٍ حريريّة يُطالع روايةً ممنوعةً لأناطول فرانس. جلست داشا على ذراعٍ المقعد الهزاز الذي كان يستلقي فيه، وقالت في استغراق وهي تهزّ نعلها في قدمها.

– أردنا أن نتكلّم حول كاتيا.

– نعم، نعم.

– ترى، يا نيقولاي، إنّ حياة المرأة صعبةٌ بشكلٍ عام. حتى في سنّ التاسعة عشرة لا أعرف ماذا أفعل بنفسي.

– في سنّك، يا عزيزتي داشا، يجب أن يحيا الإنسان حياته بكلّ ما فيه من طاقة، ودون أن يتردّد في شيء. التّفكير الطويل لا يوصلك إلى شيء. أفكّر مع نفسي وأنا ناظرٌ إليك، إنّك فائقة الجمال.

– هذا ما عرفته! لا فائدة من الحديث معك يا نيقولاي. أنت دائماً غير لبق ولا تقول الشيء الذي يجب أن يُقال، ولهذا السبب تركتك كاتيا.

ضحك نيقولاي إيفانوفيتش، ووضع رواية أناطول فرانس على بطنه، وألقى يديه المُمتلئتين وراء رأسه.

– ستبدأ الأمطار، ويعود الطائر بنفسه إلى البيت. هل تذكرين

كيـف كانت تنظّـف ريشها؟..ومع ذلك أحبّ فأنـا كاتيا كثيراً. فقد صفّى كلّ واحدٍ منا ديونه للآخر.

– أهـا، إذن فأنت تتحدّث بهذا الشـكل الآن! ولكن لو كنت في مكان كاتيا لسلكت نفس السلوك معك...

وسارت إلى سياج الشرفة غاضبة.

– ستكبرين أكثر وسترين أنّ أخذ أمور العيش بجديّة مفرطة حماقة ومجلبةً للأذى. تعقدون حماقـةً ومجلبةً للأذى. تلك هيً خاصيّة أفراد آل بولافـين. تعتقـدون كلّ شيء...يجب أن يكـون الإنسان أبسط، وأقـرب إلى الطبيعة...وتنهّد، وصمت ناظـراً في أظافره. مرّ بالشّرفة طالبٌ عرقٌ يركب دراجة. وقد جلب البريد من البلدة.

قالت داشا باكتئاب:

– سأذهب للاشتغال مُعلّمةً ريفيّة.

فاستفهمها نيقولاي إيفانوفيتش في الحال:

– إلى أين؟

غـير أنّها لم تجب، وذهبـت إلى غرفتها، حمل البريـد رسالتين إلى داشا، أحدهما من كاتيا، والثانية من دميتري ستيبانوفيتش. وقد كتب الأخير في رسالته:

"أبعـث إليـك رسالةً من كاتيا. وقد قرأتهـا، و لم تعجبني. ولكن افعلـوا ما يحلوا لكم... كلّ شـيءٍ عندنا كما هو من قبل. الحرّ شديد. وبالإضافـة إلى ذلـك يـوم أمسٍ اعتـدى أحـد الشّقاة علـى سيمين سيمينوفيتشـ غفيادين بالضّربً المُـبرح في مُنتزه المدينة، ولكنّه يخفي الأمـر. تلك هي كلّ أخبارنا. ثـمّ وصلتك بطاقـةٌ بريديّة من شخص يُدعى تليغين، ولكنني أضعتها. يبدو لي أنّه في القرم أيضاً، أو في مكانٍ آخر".

أعادت داشا قـراءة السطرين الأخيرين بإمعـان، وبدأ قلبها يخفق فجأةً خفقاناً شديداً. بل وضربت الأرض بقدمها بعد ذلك في حسرة. يـا للفرحة "يبـدو لي أنّه في القـرم أو في مكان آخـر". إنّ أباها رجلٌ مُزعـجٌ حقاً، غير مُبـال، وأنانيّ. دعكت رسالتـه في يدها، وجلست طويـلاً إلى منضدة الكتّابة مُسندةً حنكهـا على راحة يدها وبعد ذلك أخذت تقرأ رسالة كاتيا.

"أنـت تذكرين، يا عزيزتي داشا أنّنـي كتبتُ لك عن الرّجل الذي يتعقّبني. يـوم أمس مساء جلس إلى جانبـي في حديقة لوكسمبورغ. تهيّبت في بـادئ الأمر، ولكنّني بقيت جالسة. عندئذ قال لي: "كنت أتعقّبـك، وقد عرفـت اسمك، ومن أنت. ولكن فيمـا بعد حلّت بي محنـةٌ كبيرة: لقد وقعت في غرامك". نظـرت إليه. إنّه يجلس بعظمة، ووجهـه صارم، داكنٌ وشاحـب. "لا داعي إلى أن تخـافي مني. فأنا رجـلٌ عجوز، وحيد، ومُصابٌ بالذبحـة الصّدريّة، وقد أموت في أيّة لحظة. وفجأةً تحدث هذه المحنة". وسالت الدّموع على خدّه. ثم قال وهو يهزّ رأسه:

"آوه، ما أحلى وجهك، ما أحلاه". قلت: "كفّ عن ملاحقتي". وأردت أن أنصـرف، إلا أنني أحسست بالشّفقة عليه، وبقيت أتحدّث معه... أصغي هو هازاً رأسه مُغمضاً عينيه. تصوّري، يا عزيزتي داشا، اليـوم تلقّيت رسالةً من امرأة، يبدو أنهـا بوّابة البيت الذي كان يعيش فيه... إنهـا تبلغنـي "بنـاءً على طلبه" بأنـه قد تـوفّي ليلاً... ما أرعب ذلك... والآن أيضاً. أتقدّم من النافذة، وأرى في الشارع آلاف وآلاف الأنـوار والعربات تعـدو، والناس يسيرون بـين الأشجار. وبعد المطر يُخيّـم الضباب. ويبدو لي كلّ ذلك يعود إلى الماضي، وأنّ كلّ شيء قد مـات، وأنّ هؤلاء الناس أموات، وأنني أرى ما فات وانقضى، وأنّ ما يحـدث الآن، وأنا واقفةٌ أنظر إليـه لا أراه ولكنني أعرف أنّ كلّ شيءٍ

قد انتهى، ربما أنا متوعّكة المزاج تماماً. أحياناً أستلقي وأنخرط بالبُكاء مُتأسّفةً على أنّ الحيــاة قد ولّت. لقد كانت هناك سعادة، مهما كانت لونهــا وأناسٌ أحبّهم و لم يبق لذلــك أيّ أثر... جفّ قلبي في صدري، وذبــل. وأنا أعــرف أنّ المُستقبل يُضمر محنةً كبــيرةً أخرى، وكلّ ذلك جزاءٌ على الحياة السيئة التي عشناها".

أطلعــتْ داشا نيقولاي إيفانوفيتش على هذه الرّسالة. أخذ يقرؤها مُتنهداً، ثم قال أنّه كان دائماً يشعر بذنبه نحو كاتيا.

– كنت أعرف أنّ حياتنا سيّئة، وأنّ تلك الملذّات المُستمرّة ستنتهي يوماً مــا بانفجار اليأس. ولكن ما كان في وسعــي أن أعمل إذا كانت التّسليــة هي كلّ الشغل الشاغل لحياتي وحيــاة كاتيا وكلّ الذين كانوا يحيطون بنا. أحياناً أتطلّع إلى البحر هنا وأقول لنفسي أنّ هناك روسيا تحــرث الأرض وترعى الماشيــة وتستخرج الفحــم، وتنسج، وتطرق المعادن، وتبني، وأنّ هناك أناساً يحملونها على أن تفعل كلّ ذلك. أما نحن أرستقراطيّة البلاد الفكريّة، المُثقّفين، جماعةٌ ما ثالثة،...فلا نمتّ بصلــة لأيٍّ من طرفي روسيــا هذه. إنها تعيلنا. ونحــن فراشات. إنها لمأســاة. لو حاولت مثلاً ن أزرع خضروات أو أقوم بشيءٍ آخر نافعٍ لما أجديت فتيلاً. لقد كتــب لي حتى آخر أيام أن أرفّ كالفراشة. بالطبع نحــن نكتب كتباً، ونلقي خطبــاً، ونصنع السياسة. ولكن كلّ ذلك لا يخــرج عن نطاق تزجية الوقت، حتى حــين نحسّ بوخز الضمير. إنّ تلــك الملــذات المُستمرّة انتهــت عند كاتيا بخراب روحــي، وما كان مــن المُمكن أن يحدث غير ذلــك...آه، لو كنت روحي، وما كان من المُمكن أن يحدث غير ذلك...آه، لو كنت تعرفين أيّة امرأة فاتنة رقيقة حنون كانت كاتيا! وأنا الذي أفسدها، حطّمها...نعم أنتً على حقّ، يجب أن أسافر إليها...

واستقـرّ رأيهمـا على أن يُسافـرا إلى باريس فـور حصولهما على جوازي السفر. وبعد الغداء نزل نيقولاي إيفانوفيتش إلى البلدة، بينما شرعـت داشا في تحويـل قبّعتها القشيّة لتكون صالحـةً للسّفر، إلا أنها أتلفتها فقط وأهدتها إلى مرتبة الغرفة. ثم كتبت رسالةً إلى أبيها، وعند حُلـول الظّـلام استلقت في الفراش، بعد أن شعـرت بإعياء مفاجئ، ووسّدت خدّها راحة يدها، وأصغت إلى هدير البحر يبدو أبعد فأبعد، وأحلى فأحلى.

ثـمّ خُيّل إليها أنّ شخصاً ينحني عليها، ويزيح خصلة شعرٍ من على وجههـا. ويُقبّلها في عينيها، ووجنتيها، وطـرفي شفتيها، يلثمها لثماً خفيفـاً كالنّفس. وسرت حلاوة هذا اللّثم في كيانها كلّه. راحت داشا تستيقـظ ببطء. رأت في النافذة المفتوحة نجوماً قليلة، وقد أطار النّسيم أوراق الرّسالة، وراح يخفق فيها. ثمّ ظهر من وراء الجدار شبح إنسان. وركّز كوعيه على إفريز النافذة الخارجيّ وصار يحدّق في داشا...

عندئذ استيقظت داشا تماماً، وجلست، وضمّت يديها إلى صدرها، في الموضع الذي كان فستانها فيه غير مُزرّر.

وسألت في صوتٍ لا يكاد يُسمع:

– ماذا تُريد؟

فقال الرّجل عند النافذة بصوت بيسونوف:

– كنت أنتظرك على الساحل. فلماذا لم تأتي؟ أتخافين؟

تريّثت داشا قليلاً ثمّ قالت:

– نعم.

عندئذٍ تسلّق الرّجل فوق إفريز النافذة، وأزاح المنضدة، وسار نحو السرير.

– قضيت ليلةً فظيعة. أردتُ أن أشنق نفسي. أليست فيك ولو ذرّةٌ من الشعور نحوي؟

هزّت داشا رأسها، و لم تحرّك شفتيها.

– اسمعي، يا داريا دميفرييفنا، إنّ هذا يجب أن يحدث، إنْ لم يكن اليوم، فغداً، أو بعد عام. لن أستطيع أنْ أعيش بدونك. لا تجعليني أفقد صورتـي الإنسانيّـة. –وكان يتحدّث بخفوت وبحّـة، ودنا من داشا تماماً، فندت منهـا فجأةً زفرةٌ عميعةٌ مُقتضبـةً، وواصلت تحديقها في وجهـه. –كلّ ما قلته البارحة كذب...أنا في عذابٍ مُبرح...وليست لي القوّة على محو ذكراك...كوني زوجتي.

وانحنـى على داشـا مُستنشقاً عبيرهـا، واضعاً يـده وراء رقبتها، وضغـط شفتيه على شفتيها. صدّت داشا صـدره بيدها. إلا أنّ يديها انطوتـا. عندئذ مـرّت فكرةٌ هادئةٌ في وعيها المشـدوه! "هذا ما كنت أخافـه وأشتهيـه، ولكنّ ذلـك صنو القتـل..." وأشاحـت وجهها، وسمعت بيسونوف يتمتم شيئـاً في أذنها مع أنفاس الخمرة. وفكّرت داشـا مع نفسها! "هذا ما حصل له تماماً مـع كاتيا". وعندئذ انكمش جسمهـا كلّه من بُرودة صافيـةٍ مفيقة، وصارت رائحـة الخَمرة أكثر حدّة، والتّمتمة أشدّ قرفاً.

– اتركني.

همسـت بذلك، وأزاحت بيسونوف بالقـوّة وهرعت إلى الباب، وزرّرت أخيراً فتحة فستانها.

عندئذ استولت علـى بيسونوف نوبةٌ من الجُنون. أمسك داشا من يدها، وضَغطها على جسمه، وصار يُقبّلها في عنقها. صارعته صامتةً مُطبقـةً شفتيهـا. وحين استطـاع أن يرفعها، ويحملهـا قالت بهمسٍ سريع:

– لن يكون ذلك، ولو تموت...

ودفعته بقوّة، وحرّرت نفسها، ووقفت عند الحائط. انهدّ بيسونوف على مقعد، وهو ما يزال يتنفّس بصعوبة، وجلس دون حراك. مسّدت داشا يديها في المواضع التي انطبقت فيها آثار الأصابع.

قال بيسونوف:

– لم تكن هناك حاجةٌ للتّسرّع.

أجابت:

– أنت تشعرني بالغثيان.

عندئذٍ القى رأسه جنباً على مُتّكأ المقعد. قالت داشا:

– أنت مجنون... اخرج حالاً...

وكرّرت ذلك عدّة مرات. ففهم أخيراً، ونهض، وتسلّق خارج النافذة ثقيلاً أهوج الحركة. سدّت داشا صفاقة النافذة، وراحت تذرع الغرفة المُظلمة. لقد كانت تلك ليلةً مؤرقة. قرب الصباح تقدّم نيقولاي إيفانوفيتش من بابها خافقاً بقدميه الحفيتين، وسأل بصوتٍ ناعس:

– هل توجعك أسنانك، يا داشا؟

– لا.

– ولكن ما سبب تلك الحركة في الليل؟

– لا أعرف.

تمتم "أمرٌ غريب" وانصرف. لم تستطع داشا أن تجلس، ولا أن تستلقي، بل قضت اللّيلة تذرع الغُرفة من النافذة إلى الباب جيئةً وذُهوباً لتخنق من نفسها ذلك القرف الحاد كوجع الأسنان. لو أنّ

بيسونوف أخذها أخذاً لكان ذلك أفضل، على ما يبدو. وتذكّرت بألم ممض السفينة البيضاء الغارقة بنور الشمس، وذلك الحمام العاشق المهجّور في حرش الحور يهدل هديله الطويل يناغيها ليزعم لها كذباً أنّها عاشقة. نظرت داشا إلى الفراش الذي ابيضّ في الغبش، والذي كان مكاناً رهيباً تحوّل فيه وجه إنسان قبل حين إلى بوز شيطان، وأحسّت أنّ من المُستحيل عليها أنْ تعيش وهذا الإحساس يُلازمها. إنّها مُستعدّةٌ لتحمّل أيّ عذاب ما عدا الإحساس بهذا القرف. كان رأسها يلتهب، وكانت تودّ لو ترفع عن وجهها ورقبتها وجسمها كلّه شيئاً كانت تحسّه كنسيج العنكبوت.

وأخيراً لاح الضوء المُتسرّب من خلال صفاقة النافذة ساطعاً. وبدأت الأبواب تصفق في الدار، ونادى صوتٌ رنان "ماتريوشا، اجلبي ماء..." استيقظ نيقولاي إيفانوفيتش، وسمعته وهو يُنظّف أسنانه خلف الجدار. بلّلت داشا وجهها بالماء، وأنزلت قبّعتها على حاجبيها، وخرجت إلى الساحل. كان البحر ساخناً كالحليب الطازج، والرّمل رطباً. وفي الجو رائحة نباتات بحريّة. انعطفت داشا إلى الحقل، وسارت في الطريق. كانت عربةٌ من الأغصان المضفورة يجرّها حصانٌ واحدٌ قادمةٌ للقائها من الجانب الآخر من الطريق تثير عجلاتها سحابةٌ صغيرة من الغُبار، وقد جلس تترى في مقعد السائق، وخلفه رجلٌ عريض الكتفين في ثيابٍ بيض. نظرت داشا إليه، وقالت لنفسها كالنائمة (انطبقت عيناها من الشمس، ومن التعب) "هذا رجلٌ لطيف سعيدٌ آخر، وليكن كذلك، لطيفاً سعيداً" وانحرفت عن الطّريق. وفجأةً صدر من العربة صوتٌ مرهوب:

– داريا دميترييفنا!

وقفز شخصٌ إلى الأرض، وركض نحوها وجمد قلب داشا،

وارتخــت رجلاها من ذلــك الصوت. التفتت. فـرأت تليغين يجري نحوهــا ملوح الوجه، منفعــل الأسارير أزرق العينــين مُحبّباً إلى القلب علــى نحوٍ مُفاجئ حتــى أنّ داشا وضعت يديهــا على صدره بسرعة، وضغطتْ وجهها عليه، وأجهشت تبكــي بكاءً طفولياً عالياً. أمسك تليغــين كتفيها بقوّة. وحــين حاولت داشا أن تقــول ببعض التّوضيح بصوتٍ مُتقطّعٍ قال:

– أرجوك، يا داريا دميتريفنا، أرجوك، فيما بعد. هذا غير مُهمّ...

تبلّل صــدر سترته الكتانيّة بدموع داشــا. وخففت الدموع عنها. سألت:

– هل أنت قادمٌ إلينا؟

– نعم جئــت لأودّعك، يا داريا دميتريفنــا. بالأمس فقط عرفت أنّك هنا، فأردتُ أن أودّعك.

– تودّعني؟

– أستدعوني للخدمة، ولا مفرّ من ذلك.

– أستدعوك للخدمة؟

– ألم تسمعي حقاً؟

– لا.

– إنها الحرب.

نظرت داشا إليه ورمشت، و لم تكن فاهمةً شيئاً في تلك اللحظة.

١٤

كان اجتماعٌ استثنائيّ لهيئة التّحرير يُعقد في مكتب رئيس تحرير الصّحيفة الليبراليّة الكبيرة "كلمة الشعب". ولما كانت المشروبات الكُحوليّة قد مُنعت يوم أمس بموجب قانون، فقد قدّم الكونياك والروم مع شاي هيئة التّحرير على خلاف العادة.

كان الليبراليّون المُحنّكون المُلتحون يجلسون في مقاعد عميقة وثيرة، يُدخّنون التّبغ، ويشعرون بأنّهم في حيص بيص. وكان المُحرّرون الشّبان يجلسون على أفاريز النّوافذ، وعلى أريكةٍ جلديّة شهيرة، هي قلعة المُعارضة، وصفها أحد الكُتاب المَشهورينَ وصفاً غير حذر، فقال إنها مباءةٌ للبقّ.

كان رئيس التّحرير، وهو رجلٌ أشيب مورّد الوجنتين، انجليزيّ المنحى يقول بصوت مُتشدّق-كلمةً بكلمة-إحدى خطبه الشّهيرة التي كان عليها أن ترسم-ورسمت بالفعل-خطّ مملوك الصحافة الليبراليّة كلّها.

- "... التّعقيد في مُهمّتنا يرجع إلى أنّنا يجب ونحن أمام الخطر الذي يُهدّد سلامة الدّولة الروسيّة، أنْ نمدّ يدنا إلى السُّلطة القيصريّة، دون أن نتراجع عن مُعارضتها خطوةً واحدة. ويجب أن يكون عملنا نزيهاً وصريحاً. إنّ مسألة لوم الحُكومة القيصريّة على جرّ روسيا للحرب، هي في اللّحظة الراهنة مسألةٌ ثانويّة. يجب أنْ ننتصر أوّلاً، ومن بعد نُحاكم المُذنبين. أيّها السادة، بينما نتحدّث هنا. تجري معركةٌ دمويّة قرب كراسنوستاف وقد أرسل حرسنا لسدّ الجبهة المصدوعة. ومصير هذه المعركة غير معروف الآن، ولكن يجب ألا يغيب عن الأذهان أنّ كييف مُهدّدة. وليس من شكٍّ في أنّ الحرب لا يُمكن أن تستمرّ أكثر من ثلاثة أو أربعة أشهر، ومهما تكن نتيجتها فإننا سنقول للحكومة

القيصريّة مرفوعي الرّؤوس: إنّنا كنا معكم في الساعة الحرجة، ونحن الآن نُطالبكم كشفاً بالحساب...

لم يتمالك نفسه أحد قدامى المُحرّرين. واسمه بيلوسفيتوف، وكان يكتب في شؤون الإدارة الذاتيّة فصاح مُحتداً:

– الحُكومة القيصريّة هي التي تُحارب، فلماذا نمدّ يدنا لها؟ أنا لا أفهم، ولم حطّمت رأسي. المنطق البسيط يحتّم علينا أنْ نُبعد أنفسنا عن هذه المُغامرة. ومن ورائنا جميع المُثقّفين. دعوا القياصرة يضرب أحدهم عُنق الآخر، فإنّ ذلك لن يكون إلا لفائدتنا.

– نعم، إنّ مدّ اليد إلى نيقولاي الثاني شيءٌ مُقرف، مهما قلتم فيه يا سادة–تمتم بذلك "ألفاً" أحد كُتاب المقالات الافتتاحيّة، واختار لنفسه قطعة كعكةٍ من الصّحن–إنّ ذلك يجعل المرء يتصبّب عرقاً بارداً في نومه...

وفي الحال تحدّث عدّة أصوات:

– لا توجد، ولا يُمكن أن توجد ظروفٌ تُجبرنا على الاتّفاق...

– ما هذا؟ استسلام؟ أريد أنْ أسأل.

– أهذه نهايةٌ مُخزيةٌ للحركة التّقدّمية كلّها؟

– أما أنا أيها السادة، فأريد على كلّ حال أن يشرح أحدٌ لي الغرض من هذه الحرب.

– ستعرف حين يقطع الألمان الرّقاب.

– أنت، يا أخ، تبدو قومياً مُتعصباً!

– مُجرّد أنني لا أريد أن أُضرب.

– ولكنهم لا يضربونك، بل يضربون نيقولاي الثاني.

– المعذرة...وبولونيا؟ وفولينيا؟ وكييف؟

– كلّما ضربونا أكثر دنت الثّورة أكثر.

– أما أنا فلا أرغب في أن أتخلى عن كييف في سبيل أيّة ثورة.

– اخجل، يا بيتر بيتروفيتش، اخجل يا أخ...

شرح رئيس التّحرير بعد أنْ أعاد النّظام بصعوبة، أنّ الرّقابة العسكريّة ستغلق الجريدة، وفق أحكام قانون الطوارئ، على أقلّ هُجوم على الحُكومة، وستسحق براعم حريّة الكلمة التي بُذلت جُهودٌ كُبيرةٌ في النضال في سبيلها.

– ...ولهذا اقترح على الاجتماع الموقر التوصيل إلى وجهة نظرٍ مقبولة. ومن جهتي فأنا أجرؤ على أن أعلن رأياً قد يكون غريباً، وهوَ أنّنا يجب أنْ نقبل هذه الحرب بكلّيتها، وبكلّ عواقبها. ولا تنسوا أنّ هذه الحرب تحظى بشعبيّة بالغة بين المُجتمع. وقد اعتبرت في موسكو الحرب الوطنيّة الثانية. –وهنا ابتسم ابتسامةً خفيفة، وغضّ بصره– وقد استقبل القيصر في موسكو استقبالاً حاراً تقريباً. والتّعبئة بين السّكان البُسطاء تجري بطريقةٍ لم يتوقّعوها، ولم يجرأوا على ذلك...

فهتف بيلوسفيتوف بصوتٍ انقلب حزيناً مُتشكياً:

– هل أنت تمزح، يا فاسيلي فاسيليفيتش أم كيف؟ ذلك لأنّك تهدم فلسفةً بكاملها...نذهب لمُساعدة الحكومة؟ وماذا عن عشرة آلاف روسيٍّ من أفضل أبناء روسيا، أولئك الذين يذوون في سيبيريا منذ زمان؟..والعُمال الذين قتلوا رمياً بالرّصاص؟..والدّم بعد لم يجفّ.

كلّ هذه الأحاديث كانت بالغة الرّوعة والنُّبل، إلا أنّه صار واضحاً لكلّ إنسان أنّ لا مفرّ من الاتّفاق مع الحُكومة، ولهذا فحين جلبت من المطبعة مسوّدة تصحيح المقال الافتتاحيّ الذي كان يبدأ بهذه

الكلمـات: "يجـب أنْ نرصّ صفوفنا في جبهةٍ مُوحّـدة أمام الزّحف الألمـانيّ" نظـر المُجتمعـون إلى مسـودّة التصحيح صامتـين، وأرسل أحدهـم زفرةً كظيمة، بينما قال آخر بكثير من الدّلالة "عشنا وشفنا". وزرّر بيلوسفيتوف بعصبيّة جميع أزرار سترته السّوداء المذرورة برماد التّبغ، إلا أنّـه لم يخرجْ، وجلس في المقعد ثانيـة، وصدر العدد التالي بالعنـوان التالي "الوطن في خطـر، إلى السّلاح!". ومع ذلك فقد كان قلب كلّ واحد منهم مُفعماً بالاضطراب والهلع. فكيف تطاير السّلم الأوروبـيّ الوطيد هباءً في الهواء خلال أربـع وعشرين ساعة، وكيف انقلبت الحضـارة الأوروبيّة الإنسانيّة التي كانت "كلمة الشعب" تعير الحُكومة بها كلّ يوم، وتدعو عامّة الشّعب إليها، كيف انقلبت إلى بيتٍ من ورق (لقـد اخترعت طباعة الكتب والكهربـاء، وحتى الراديومَ، وإذا بين عشيّة وضحاها يظهر من تحت القميص المنشي ذلك المخلوق البدائـيّ المُشعرً الشّبيـه بالحيوان وفي يده هـراوة) لا، إنّ هذا يصعب على هيئة التّحرير هضمه والاعتراف به، فإنّ مرارته لا تُكاق.

وانتهـى الاجتماع بصمتٍ وكآبة. ذهـب الكُتّاب الأجلاء لتناول الفطـور في مطعـم كوبا، واجتمـع الشّبـان في مكتـب رئيس قسم الأخبـار. وتقـرّر القيام بتحقيـق مُفصّل عـن أمزجة أكـثر الأوساط والفئات تنوّعاً وعهد إلى أنتوشكاً أرنولدوف قسم الرّقابة العسكريّة. وخلال الهرج والمرج حصل على سلفة، وانطلق، لا يلوي على شيء، على عربةٍ سريعة الخيول إلى مقرّ هيئة الأركان في جادّة نيفسكي.

استقبـل سولنتسيـف رئيس قسـم الصّحافة وعقيـد هيئة الأركان أرنولـدوف في مكتبـه، واستمـع إليه بـأدب، مُحدّقـاً في عينيه بعينين صافيتـين مرحتين جاحظتين. وكان أرنولدوف قـد أعدّ نفسه ليلتقي بأحد العمالقة–بجنرال مورّد الوجه أسديّ التّقاطيع–سوط الصحافة الحُـرة، ولكنه وجـد أمامه رجلاً أنيقاً مُهذّباً لم يبـح صوته، ولم يجأر

عليــه، و لم يبد ميلاً إلى تعنّت أو ضغط أو مُعارضة شيءٍ ما. وكلّ ذلك لم يكن يُلائم الصورة المألوفة عن المأجورين للقيصر.

– آمـل، يا حضرة العقيد، ألا ترفض أن تنير الأسئلة التي سأطرحها برأيك الموثوق.

قـال أرنولدوف، ورمق بطرف عنه صورة نيقولاي الأوّل الداكنة التـي تُمثّلـه واقفاً بطول قامتـه ينظر بعين بـلا رحمة وشفقـة إلى مُمثّل الصّحافـة، وكأنّه يُريـد أن يقول له: "السّترة قصـيرةٌ، والحذاء أصفر، والأنـف عرق، إنـه لمنظرٌ مشين. أنـت خائفٌ يا إبـن الكلبة". وتابع أرنولدوف قوله:

– أنا لا أشكّ، يا حضرة العقيد، في أنّ القوات الروسيّة ستكون في العام القادم في برلين، إلا أنّ هيئة التّحرير مُهتمّةٌ بشكلٍ خاص ببعض التّفاصيل...

قاطعه العقيد سولنتسيف بأدب:

– يبـدو لي أنّ الرّأي العام الروسـيّ لا يتصوّر بالقدر الكافي نطاق الحرب الحاليّة. وأنا ، بالطّبع، لا يسعني إلا أنْ أحيي أمنيتك الجميلة في أنْ يصـل جيشنا إلى برلين. ولكننـي أخشى أن يكون ذلك أصعب مما تتصـوّر. وأنا من ناحيتي أرى أنّ المهمّة الأساسيّة للصحافة في اللحظة الراهنـة إعـداد الرّأي العـام إلى فكرة وجود خطرٍ جـديٍّ جداً مُحدقٍ بدولتنا، والتّضحيات البالغة التي يجب أن نتحمّلها جميعاً.

أنـزل أرنولـدوف دفـتر مُلاحظاتـه، ونظـر العقيد بحـيرة. تابع سولنتسيف كلامه:

– نحن لم نبحث عن هذه الحرب، ونحن في اللحظة الراهنة نُدافع عن وطننا فقط. والألمان يتفوّقون علينا في عدد المدافع، وكثافة شبكات الخُطـوط الحديديّة في منطقة الحُدود. ومع ذلك فنحن نفعل كلّ ما في

وسعنا لمنع العدوّ من تخطّي حدودنا. والقوات الروسيّة تنفّذ الواجب المُلقى على عاتقها. ولكن من المُستحسن كلياً أن يتشرّب المُجتمع، من جانبه أيضاً، بشعور الواجب تجاه الوطن. -وهنا رفع سولنتسيف حاجبيه. -أنا أدرك أنّ شعور الوطنيّة. -وهنا رفع سولنتسيف حاجبيه. -أنا أدرك شعور الوطنيّة بين بعض الفئات يشوبه بعض التّعقيد. إلا أنّ الخطر على درجة من الجديّة تتيح-وأنا واثقٌ من ذلك-تأجيل جميع المُجادلات والمُحَاسبات إلى وقتٍ أفضل. إنّ الامبراطوريّة الرّوسيّة لم تمر بمثل هذه اللحظة الحرجة حتى في عام [٧] ١٨١٢. ذلك كلّ ما أودّ أن تأخذه بعين الاعتبار. ثمّ يجب أن يُذاع بين الناس أنّ المُستشفيات العسكريّة التي تملكها الحكومة لا تستطيع أن تستوعب كلّ الجرحى. لهذا ومن هذه الناحية أيضاً، يجب أن يكون المُجتمع مُستعداً لتقديم مُساعدةٍ كبيرة...

– اعذرني، يا حضرة العقيد، أنا لا أفهم أيّ عددٍ من الجرحى يمكن أن يكون؟

ومرّةً أخرى رفع سولنتسيف حاجبيه عالياً.

– يبدو لي أنّ من المُحتمل توقّع ما بين مائتين وخمسين وثلثمائة ألف جريح في الأسابيع القريبة.

بلع أنتوشكا أرنولدوف ريقه، وسجّل الرّقم، وسأل بمزيدٍ من الاحترام:

– وفي هذه الحال بكم تقدر عدد القتلى؟

– في العادة نقدر ما بين خمسة إلى عشرة بالمائة من عدد الجرحى.

٧- المقصود هنا الحرب الوطنيّة التي خاضتها شعوب روسيا ضدّ الغزاة الفرنسيين تحت قيادة نابليون الأوّل. وانتهت بانتصار روسيا. (المترجم).

– أها، شكراً لك.

ونهض سولنتسيف. فصافحه أرنولدوف بسرعة، وحين فتح الباب البلوطيّ اصطدم بأتلانت الذي كان داخلاً. إنّه صحفيٌّ مسلول أشعث الشّعر كان يرتدي سترةً مدعوكة، و لم يذق طعم الفودكا منذ يوم أمس.

قال هذا، وهو يُحاول أن يغطي صدر قميصه القذر بكفّه:

– يا حضرة العقيد، جئت إليك بخصوص الحرب. ما رأيك، هل سنستولي على برلين قريباً؟

خرج أرنولدوف من مقرّ هيئة الأركان إلى ساحة القصر، ولبس قبّعته، ووقف برهةً مُقلّصاً عينيه.

وتمتم من خلال أسنانٍ مضمومة:

– الحرب حتى النصر. حذار أيّها الهرمون سنصفي حسابنا معكم على روحكم الانهزاميّة.

كانت أرهاطٌ من الفلاحين المُلتحين الهوج تملأ بالحركة أرجاء الساحة الهائلة المكنوسة جيّداً، بعمود ألكسندر الغارنيتيّ الثقيل. وكانت تسمع صيحات أوامر قويّة. كان الفلاحون يصطفون ويركضون من مكانٍ إلى آخر ويستلقون على الأرض. وفي أحد الأماكن صاح زهاء خمسين رجلاً بصوت مُتنافر، وهم يصعدون على الرصيف "هورا" وانطلقوا في عدوٍ متعثّرٍ... وصاح بهم صوتٌ أجشّ غطى على صيحاتهم: "قف، استعدادياً أوغاد يا أولاد الكلاب!.." وكان يتناهى من مكانٍ آخر: "الحق به، واطعنه بالحربة في جسمه، فإذا انكسرت الحربة فاضرب بالعقب".

إنّ هؤلاء هم نفس الفلاحين المخشوشنين بالعقب".

إنّ هؤلاء هم نفس الفلاحين المخشوشنين ذوي القمصان العريضة والأحذية الليفيّة وذوي اللحى المُستديرة وآثار العرق الجاف الظاهر على دفاتهم، أولئك الذين جاءوا قبل مائتي عام إلى هذه الشّطئان المُستنقعيّة ليشيدوا المدينة. والآن قد دعوا مرّةً أخرى ليسندوا بأكتافهم عمود الامبراطوريّة المُتزعزع.

انعطف أرنولدوف إلى جادة نيفسكي. وهو لا يكفّ عن التّفكير في المقال الذي سيكتبه. كانت سريّتان في كامل عدّة المسيرة. بالحقائب الظّهريّة والقصعات والأرفاش تسيران في وسط الشارع على أنغام المزامير مثل عواء ريح الخريف. كان التعب والغبار يبدوان على هؤلاء الجنود العراض الوجنات. وكان ضابطهم الصّغير ذو القميص الأخضر والأحزمة الجديدة المُتصالبة على صدره يرفع جسمه على أطراف اصبعه بين لحظة وأخرى. ويلتفت جاحظ العينين ويصيح: "يمين! يمين!". ويسمع المرء وكأنّه يحلم بضجيج جادة نيفسكي ويراها جميلةً مُتألّقةً بالعربات والزّجاج. "يمين! يمين! يمين!". وسار الفلاحون المُنقادون الثقال الأرجل وراء الضابط الصغير في ترنّح رتيب. لحق بهم حصانٌ عداء أسود فاحم يتطاير الزّبد منه. وقد كبحهُ سائقٌ عريض العجز ليوقف العربة التي يجرّها. ونهضت في العربة سيّدةٌ حسناء ونظرت إلى الجُنود المارّين. وبيدها المُقفّزة بقفّازٍ أبيض رسمت لهم علامة الصّليب. مرّ الجنود، وحجبهم سيل العربات. وكانت الأرصفة حارّة ومُزدحمة، وكان الجميع وكأنّهم ينتظرون شيئاً. كان المارّة يتوقّفون، ويصغون إلى أحاديث هنا وصيحات هناك، ويشقون طريقهم وسط الزّحام ويلقون أسئلةً، ثمّ ينصرفون مُنفعلون إلى تجمّعاتٍ أخرى.

وبالتّدريج تحدّدت وجهة حركة السير الفالتة، وتحوّلت الجُموع من جادّة نيفسكي إلى شارع مورسكايا. وهناك راحت تسير وسط

الشـارع مُباشـرة. وتراكض شُبانٌ قصـار صامتـين مهمومين. وعند مُفـترق الشارع قذف بعض الناس قبعاتهـم في الهواء، ولوّح أخرون بالمظـلات، وطنّت في أرجاء الشارع "هورا! هورا!". وصفر الأولاد الصغـار صفـيراً حـاداً. وأينمـا وجّهتَ بصـرك رأيت عربـاتٌ غير مُتحرّكة وقفـت فيها نساءٌ زاهيات الثياب. وتدفّقت الجماهير الغفيرة نحـو ساحة كاتدرائيّـة إسحاق، وانتشـرت فيها، وتسلّـل الناس من خلال قضبـان الحديقة. وكانت جميع النّوافـذ والسّطوح ودرجات الكاتدرائيّـة الغرانيتيّة غاصّةً بالناس. وكان كلّ هؤلاء الناس، بعشرات ألوفهـم، ينظرون إلى أعمـدة الدّخان تتصاعد مـن النّوافذ العُليا لمبنى السفارة الألمانيّة الثقيـل الداكن الحُمرة. وكان بعض الناس يتراكضون وراء الزّجاج المُهشّم، ويلقون على الجموع حزماً من الورق، فتتطاير، وتسقـط ببطء. مـع كلّ عمود دُخـان، وكلّ شيءٍ جديـد يُقذف من النّوافـذ كانـت موجـةٌ من الهدير تسـري في الحشد. وهـا هم هؤلاء الشّبان المهمومون يظهرون على واجهة المبنى حيث يقف على الجانبين عملاقان من البرنز يمسكان بمقودي حصانين برونزيين. وهدأ الحشد، وارتفعت ضربات مطارق على معدن، وترنّح أحد العملاقين، وانهبد على الرّصيف. وهدر الحشد واندفع نحوه، وبدأ الازدحام، وتراكض الناس من كلّ ناحية. "إلى نهر مويكا، خذوها إلى مويكا.. الملاعين!" وسقـط التمثـال الثاني. أمسكت بكتـف أنتوشكا ارنولـدوف سيّدةٌ ممتلئـة تضع على أنفها نظارةً أنفيّة، وهتفت به: "سنغرقها جميعاً، أيها الشاب". وتحرّك الحشد إلى مويكا. وسمعت أبواق المطافئ، ومن بعيد لمعت خـوذةٌ نحاسيّة. وظهرت الشّرطة الخياليّـة من وراء المُنعطفات. وفجـأةً رأى أرنولـدوف، وسـط المُتراكضين والمُتصايحـين، شخصاً شديد الإمتقاع حاسر الرّأس لـه عينان جامدتان زجاجيّتان مُتّسعتان. وعرف أنّه بيسونوف، فتقدّم منه. قال بيسونوف:

– هل كنت هناك؟ سمعتهم يقتلون.

– أحقاً كان هناك قتل؟ ومن قتلوا؟

– لا أعرف.

واستدار بيسونوف، وسار في الساحة في مشية مُتخلخلة كمشية الأعمى. والآن كانت فُلول الحشد تتراكض جماعاتٍ نحو جادّة نيفسكي، حيث بدأ تحطيم مقهى "ريتر".

في ذلك المساء وقف أنتوشكا أرنولدوف إلى منضدة عالية، في إحدى حُجرات التّحرير الغاصّة بدخان التّبغ، وراح يكتب بسرعة وعلى قطع ورقٍ ضيّق:

"...اليوم شهدنا الغضب الشّعبيّ بكلّ نطاقه وجماله. وتجدر الإشارة إلى أنّ ما من زجاجة نبيذ من تلك التي كانت في أقبية السفارة الألمانيّة قد شربت، بل كُسّر كلّ شيء، وصبّ في نهر مويكا. إنّ المساومة مُستحيلة. وسنحارب حتى النّصر، مهما سنقدّم من تضحيات. لقد ظنّ الألمان أنّهم سيجدون روسيا تغطّ في النّوم، ولكنّ الشعب هبّ على الكلمات الراعدة "الوطن في خطر" هبّة رجل واحد. وسيكون غضبه رهيباً. إنّ الوطن كلمةٌ جبارة ولكننا نسيناها. ومع الطلقة الأولى من مدفع الألمان عادت إلى الحياة بكلّ جمالها الطاهر، وشرعت تتألّق بحروفٍ من نارٍ في قلب كلٍّ منا..."

وقلّص أنتوشكا عينيه، وأحسّ بقشعريرة خفيفة تسري في ظهره. يا لهذه الكلمات التي وجد نفسه مُنساقاً لكتابتها! ولكنها ليست كتلك التي كتبتها قبل أسبوعين، حين عهد إليه أن يكتب استعراضاً للتسليات الصيفيّة. وتذكّر ذلك الرجل الذي خرج إلى خشبة المسرح الهزليّ، على هيئة خنزير وغنّى "أنا خنزيرٌ صغير، ولا أخجل. أنا خنزيرٌ صغير وأفتخر. أمي كانت خنزيرة، وأنا أشبهها جداً..."

وكتب أنتوشكا والحبر يتناثر من ريشته:

"...نحـن ندخل في عهدٍ بطوليّ. قـد تعفّنا طويلاً ونحن أحياء. والحرب تطهيرٌ لنا".

وطُبعـت مقالـة أرنولدوف رغـم معارضـة الانهزاميـين بزعامة بيلوسفيتـوف. ولكنها قـد نُشرت في الصّفحة الثالثـة، وتحت عُنوان غـير مُثير هو "في أيام الحـرب"، وذلك هو التنـازل الوحيد عن عادة الصحيفة. وأخذت ترد على هيئة التحرير رسائلٌ من القراء فريقٌ يعبّر عـن الارتياح الحار بالمقالـة، وفريقٌ يُعرب عن السّخريـة المُرة. إلا أنّ رسائـل الفريق الأوّل كانت أكثر بكثير. وزيـدت أجرة أنتوشكا على السطر، وبعـد أسبوع استدعاه فاسيلي فاسيليفيتش رئيس التّحرير إلى مكتبه، حيـث استقبله الرئيس الأشيب مورّد الوجنتين مُعطراً كولونيا انجليزيّ، ودعاه ليجلس في مقعد، وقال مهموماً:

– عليك أن تُسافر إلى الريفز

– سمعاً.

– ينبغـي علينا أن نعرف مـاذا يُفكّر الفلاحون وعـمّ يتحدثون– وضـرب حزمةً كبيرةً من الرسائل بباطـن كفّه وقال–ظهر بين المُثقفين اهتمـامٌ هائل في الريـف. ويجب أن تقدّم فكرةً حيـة مُباشرةً عن أبي الهول هذا.

– تـدلّ نتائـج التّعبئـة علـى نُهوضٍ وطنـيٍّ هائـل، يـا فاسيلي فاسيليفيتش.

– اعرف، ولكن يا للغرابـة! من أين جائهم ذلك؟ سافر إلى حيث تُريد، وتسمّع، واسأل. وحتى يوم السبت أنتظر منك خمسمائة سطرٍ عـن انطباعاتك حـول الريف. وخرج أنتوشكا من هيئـة التّحرير إلى جـادة نيفسكي، حيث اشترى بدلـة سفرٍ عسكريّـة الفصال وطاقين

أصفرين، وقبّعة سدارة، وارتدى كلّ ذلك، وذهب ليتناول فطوره في مطعم دونون، حيث احتسى لوحده زجاجة شمبانيا فرنسيّة، وانتهى إلى قرارٍ هو أنّ أبسط شيءٍ أن يُسافر إلى قرية خليبي، حيث كانت يلزافيتا كيفنا تنزل عند أخيها كي كيفيتش. وفي المساء شغل مقعداً في مقصورةٍ في عربة قطارٍ دوليّة وأشعل سيغاراً، ونظر إلى طماقيه الأصفرين الصافرين بشجاعةٍ وقال لنفسه: "يا لها من حياةٍ رائعة!"

كانت قرية خليبي تقع في مُنخفض بين مُستنقع والنهير سفينوخا، وهي تتألّف من أكثر من ستين بيتاً مُحاطةً بحدائق ينمو فيها عنب الثعلب بكثرة، وشارعها تتوسّطه أشجار زيزفون مُعمّرة، ومبنى مدرستها الكبير على رابية هو بيتٌ سابقٌ لأحد أصحاب الأطيان. كانت القرية الزّراعية صغيرةً وفقيرة، فكان جميع الفلاحين تقريباً يُسافرون إلى موسكو للبحثِ عن عمل.

دخل أنتوشكا القرية عند المساء على عربة فأذهله سُكونٌ فيها لم يُعكّره غلا قأقأةُ دجاجةٍ حمقاء هربت من تحت أظلاف فرس، ونباح كلب عجوز تحت شونة، وصوت مخباط يُضرب على غسيلٍ يُغسل في النُّهيْر. وكان هناك كبشان يتناطحانً وسط الشارع مُتشابكين بقرونهما.

أعطى أنتوشكا الأجرة للعجوز الأصمّ الذي جلبه من المحطّة، وسار في دربٍ إلى مكان لاحت فيه واجهة المدرسة القديمة المصنوعة من جُذوع الشجر من خلال خضرة أشجار البتولا. وعلى درجات المدخل نصف المُتآكلة كان يجلس كي كيفيتش المُعلّم ويلزافيتا كيفنا يتبادلان الحديث ببطء. وفي الأسفل كانت أشجار الصّفصاف الضّخمة تُلقي ظلالاً طويلةً على المرج. وكانت الزرازير تطير كسحابة داكنةٍ مُتلألئة. ومن بعيدٍ ترامى صوت زمارةٍ لجمع القطيع. وخرجت

بعض الأبقار الحمراء من دغل للقصب، وخارت واحدةٌ منها بعد أنْ رفعت رأسها. كان كي كيفيتش الذي كان شديد الشّبه بأخته وذا عينين تبدوان مرسومتين مثل عينيها يقول وهو يقضم قشّة:

– وفضلاً عن ذلك، فأنت يا ليزا غير مُنظّمة مُطلقاً في الحياة الجنسيّة. وأشخاصٌ من مثلك هم في الحقيقة فضلاتٍ كريهة للحضارة البرجوازيّة.

كانت يلزفيتا كيفنا تنظر في ابتسامة مُتراخية إلى بقعةٍ في المرج كانت الأعشاب والظلال فيها تكتسي صُفرةً دافئة في ضوءِ الشمس الغاربة.

– حديثك مُضجرٌ للغاية، يا كي، إنّك قد استظهرت كلّ شيء، وكلّ شيءٍ عندك صار واضح وكأنه مكتوبٌ في كتاب.

– إنّ كلّ شخص، يا ليزا، ملزمٌ بالاهتمام في ترتيب أفكاره كلّها في نظام مُنسّق، لا في كون هذا الحديث أو ذاك مُضجراً أو غير مُضجر.

– اهتمّ أنت، كما يحلو لك.

كان المساء هادئاً. كانت الأغصان الشفافة لإشجار البتولا المُتهدّلة ساكنةً بلا حراك أمام مدخل المدرسة. وكان طائر صفرد يُصرصر عند أسفل التّل. نظرت يلزافيتا كيفنا حالمةً إلى الأشجار الذائبة في النّسق الأزرق. وظهر بين الأشجار رجلٌ صغير خفيف الحركة يحمل حقيبة. هتف أنتوشكا:

– هذه هي ليزا، مرحباً، يا ستّ الحُسن...

بشّت يلزافيتا كيفنا به بشاشةً هائلة، فنهضت بحماس، وعانقته.

سلّم كي كيفيتش بجفاف، ومضى يقضم القشّة. استلقى أنتوشكا على الدرجات، وأشعل سيغاراً.

– جئت إليك طلباً للمعلومات. يا كي كييفيتش، حدّثني بالتفصيل اذا يُفكـر الناس في قريتكم عـن الحرب ومـاذا يقولون...ابتسم كي كييفيتش ابتسامةً هازئة.

– الشيطان يعرف ماذا يُفكّرون...هـم يصمتون...الذئاب أيضاً تصمت حين تجتمع في قطيع.

– يعني لم تكن هناك مُقاومةٌ للتعبئة؟

– لا، لم تكن هناك مُقاومة.

– وهل يعرفون أنّ العدوّ ألمان؟

– لا، لا مسألة ألمان هُنا.

– فما هي المسألة إذن؟

ابتسم كي كييفيتش مرّةً أخرى ابتسامةً هازئة.

– ليست المسألة مسألة ألمان، بل بُندقيّة...الحُصول على بُندقيّة في أيديهم...الإنسـان ومعه بُندقيّة تتغـيّرُ نفسيّته. سنعيش، ونرى إلىً أيّ اتّجاهٍ ينوون تصويب بنادقهم...هذا هو الأمر...

– وهم، على أيّة حال، يتحدّثون عن الحر.

– اذهب إلى القرية، واستمع...

عند حُلول الظلام ذهب أنتوشكا ويلزافيتا كييفنا إلى القرية. كانت نُجـوم آب تتناثر في أرجاء السّماء الآخذة بالبُرود. وفي مُنخفض القرية كان الجـوّ ميالاً إلى الرّطوبـة عابقاً برائحة بقيّة الغُبـار التي تتطاير من إقـدام القطيـع ورائحة حليبٍ طـازج. وإلى جانـب البوابات وقفت عربتان بلا خيول. وتحت أشجـار الزّيزفون التي احلولك فيها الظلام صـرف دولاب بئر، وزفر حصـان، وكان يترامـى إلى الآذان صوت نخـيره، وهو يعب المـاء. وفي مكانٍ مكشوف عند شونـةٍ خشبيّةٍ لها

سقـف من القشّ جلست ثلاث فتيـات على جُـذوع يغنين بصوت خفيض. تقدّمت يلزافيتا كييفنـا وأنتوشكا وجلسـا أيضاً في ناحية. كانت الفتيات يُغنين:

خليبي القرية
جميلةٌ في كلّ شيء
بمقاعدها وأزاهيرها
وفتيانها الجميلات...

التفتت إحداهنّ إلى القادمين، وقالت بخفوت:

– ما رأيكما، يا صاحبتيّ، ألم يحن وقت النّوم؟

ولكنهـنّ بقين على جلستهنّ ولم يتحرّكن. كان شخصٌ ينشغل في الشونـة، ثمّ صرّ باب، وخرج فلاحٌ أصلـع في سُترةٍ من فراء الخروف غير مُـزرّرة، وصلصـل طويلاً ليغلق القفـل، ثم أقبلَ علـى الفتيات، واضعاً يديه على أسفل ظهره وأبرز لحيته العنزيّة.

– ماضياتٌ في غنائكنّ، يا شحرورات؟

– نُغني، لكننا لا نُغني عنك، يا عم فيودور.

– سأطركنّ من هنا بالمقرعة...إنّها عادةٌ سيّئة أن تُغنين في الليل.

– وأنت تغار؟

بينما قالت الأخرى مُتنهّدة:

– لم يبق لنا إلا أن نُغني عن قريتنا، يا عمّ فيودور.

– نعم، أحوالكنّ سيّئة. يتموكن.

قرفص العمّ فيودور قرب الفتيات. قالت أقربهنّ إليه:

– سمعنا نساء قرية كوزموديا نسكويه يقلن أنّ رجالاً كثيرين أخذوهم للحرب، نصف العالم تقريباً.

– قريباً سيصلون إليكن أيضاً، يا فتيات.

– سيأخذوننا إلى الحرب؟

وتضاحكن، وسألت الأخيرة أيضاً:

– مع من يتحارب قيصرنا، يا عم فيودور؟

– مع قيصرٍ آخر.

وتبادلت الفتيات النّظرات. تنهّدت واحدة، وعدّلت الأخرى المنديل على رأسها بينما قالت الأخيرة:

– وهذا ما قالته نساء قرية كوزمودميا نسكويه لنا. مع قيصرٍ آخر.

في تلك اللّحظة برز رأسٌ أجعد من وراء الجُذوع وقال صاحبه بصوتٍ مبحوح، وهو يلبس فروته:

– كفاك كذباً، يا هذا. ليس مع قيصرٍ آخر، بل الحرب مع الألمان.

أجاب فيودور:

– كلّ شيءٍ جائز.

واختفى الرّأس ثانية. أخرج أنتوشكا أرنولدوف علبة السكائر، وقدّم لفيودور سيكارة، وسأل بحذر:

– ما رأيك، هل خرج الرّجال من قريتكم إلى الحرب راضين؟

– كثيرون خرجوا راضين، يا سيّد.

– إذن، كان هناك نُهوض؟

– نعم، نهضوا، ولماذا لا ينهضون؟ على الأقلّ ليروا كيف تسير

الأمــور هناك. أما إذا قتلوا، فالأمر سيّــان، لأنهم يموتون هنا أيضاً. إنّ الأرض في قريتنا شحيحة. ونحن لا نجد ما تأكله غير الخُبز وماء الخبز. بينما هناك يأكلون اللحم مرّتين في اليوم، حسب الأقوال، كما يوجد سُكّرٌ وشايٌ وتبغ، فدخّن حسب ما تُريد.

– ولكن أليس القتال مُخيفاً؟

– وكيف لا؟ مُخيفٌ بالطّبع.

١٥

في الطّريــق الواسعــة المُغطاة بوحــل سائل كانت تتحــرّك عرباتٌ مكســوّةٌ بالمشمّعــات، وعجــلاتٌ تحمــل القشّ والتّــبن، وعربات إسعــاف، وأحواض طوافات ضخمــة مُترنّحة صارفــة. وكان المطر ينهمــر بلا انقطاع، دقيقاً مائلاً. وكانتً الأخاديد المحروثة والسواقي علــى جانبي الطريق مملوءةً بالماء. وكانت الأشجار والأدغال تلوح من بعيد مُغبشةً المعالم.

كانــت قوافل الجيش الروســي المُهاجم تتحــرّك كالسيل العرم في الوحل والمطر وتحت الصيحات والشتائم، وجلجلة السياط واصطدام محورٍ بآخــر. وعلى جانبيّ الطريق تناثرت خيــولٌ فاطسة ومُتحضّرة، وعربــاتٌ مقلوبــة وعجلاتها بــارزةٌ إلى الأعلى. وبــين الحين والآخر كانــت سيارةٌ عسكريّــة تشقّ طريقها في هــذا السّيل، فيبــدأ تصاعد الصيــاح والتّأوهات، وتقــف الخيول على قوائمهــا الخلفيّة، وتسقط عربةٌ مُحمّلةٌ على المُنحدر، وفي أثرها سواقها.

وحــين كان ينقطع سيــل العربات كان الجُنود يأتــون بعده سائرين على الأقدام في خطٍّ طويل مُنزلقين في الوحل، حاملين على ظهورهم

الأكياس والمُشمعات. وكانت تشقّ حشدهم غير النظامي عربات الأمتعة وعربات أخرى مُحمّلةٌ بالبنادق تظهر بارزةً من كلّ الجهات. وقد جلس فوقها الجنود المُرافقون للضباط. وبين الحين والآخر كان يخرج رجلٌ من الطّريق راكضاً في الحقل، ويضع بندقيّته على العشب، ويجلس القرفصاء. ثـمّ كان يتبع ذلك مزيدٌ من العربات والطوافات، والعجلات، وعرباتٌ مدنيّة يجلس فيها أناسٌ مُبللون بمعاطف مطرٍ للضباط. وكان هذا السيل الهادر تارةً يسقط في مُنخفض، ويتزاحم، ويزعق ويتعارك رجاله على الأماكن، وتارةً يمتدّ صاعداً مرتفعاً ببطء، ويختفي وراء القمّة. وكانت تصبّ فيه ممن الجانبين صفوفٌ جديدة من العربات تحمل القمح والعلف والقذائف. وكانت وحداتٌ صغيرةٌ من الخيالة تأتي مُتسابقةً في الحقل.

وأحياناً كانت تدخل المدافع في صفوف العربات مُقعقعةً قعقعةً حديديّة. وكانت خيولٌ ضخمة عريضة الصدور يمتطيها نتريون ذوو وجوهٍ مُلتحية ضاربة التقاطيع يسوطون الخيول والناس لتشقّ هذه الخيول الطريق كالمحراث ساحبةً وراءها مدافع فطساء مُتقافزة. وكان هناك أناسٌ يتراكضون من كلّ الجهات، وآخرون واقفون على العربات يلوّحون بأيديهم. ومرّةً أخرى كان السّيل يتّصل، وينصبّ في غابة فواحة برائحةٍ قويّة للفطر والأوراق المُتّسخة يسري ضجيج المطر في أرجائها.

ثـمّ تبرز أمام البصر مداخن مواقد من بين أكوام القاذورات والأخشاب المحروقة على جانبيّ الطريق ويتأرجح فانوسٌ مُهشّم، وتخفق في الريح ورقة إعلان سينمائيّ ألصقت على جدار آجريٍّ لبيت هدمته القنابل. وهنا أيضاً كان يرقد في عربة بلا عجلتين أماميّتين نمساويٌّ جريح بمعطفه الأزرق ووجهه مُمتقع، وعيناه كدرتان حزينتان.

وعلى بُعد حولي خمسة وعشرين فرسخاً من هذه الأماكن كان دويّ المدافع يترامى خافتاً في الأفق الداخن. لقد كانت هذه القوات وطوابير العربات تنصب إلى تلك المنطقة ليل نهار، كما تتجه إليها القطارات من جميع أنحاء روسيا محمّلةً بالقمح والناس والقنابل. كانت البلاد كلّها تهتزّ على دويّ المدافع. لقد انفجر أخيراً كلّ ما تراكم فيها تحت الكبت والقمع من شرّ جشعٍ لا يشبع.

وبدا وكأنّ سُكان المُدن المُتخين بحياة شائهة فاسدة قد استيقظوا من حلم خانق. لقد كان في دويّ المدافع صوت العاصفة العالميّة المُثير. وبدت الحياة السابقة غير مُحتملة بعد هذا. فحيا الناس الحرب بحماسٍ مشؤوم.

في الريف لم يسأل الناس كثيراً: من نُحارب ولأيّ شيء؟ فإنّ الأمر سيّانٌ لديهم. لأنّ الحقد والكراهية قد غشيا العُيون منذ زمان بغشاوة دمويّة، ونضج وقت الأعمال الرّهيبة. ترك الفتيان والفلاّحون الشّبان نساءهم وفتيانهم، وتزاحموا في عربات البضائع خفافاً مُتعطّشين، وانطلقوا عبر المُدن بصفير وأغان فاحشة. لقد انتهت الحياة القديمة، وبدا وكأنّ ملعقةً هائلةً أخذت تقلب روسيا وتعكّرها، وسرى الدبيب والحركة في كلّ شيء، وسكر سكرة الحرب.

كانت طوابير العربات والقوات العسكريّة تتدفّق وتذوب حين تصل إلى منطقة القتال التي يترامى دويها عشرات الفراسخ. هنا كان ينتهي كلّ شيءٍ حيّ وإنسانيّ، كان يُخصّص لكلّ فردٍ موضعٌ في التّراب، في الخندق، ينام فيه ويأكل، ويقصع القمل، ويطلق من بندقيّته على شريط الظلام الماطر إلى حدّ الذّهول. وفي الليل كان الأفق كلّه يلتهب ببطء بنيران الحرائق القرمزيّة، وتتخطط السماء بخطوط

الشّرر المُنبعثة من انطلاق الصواريخ وتتناثر كالنّجوم وتتلاحق القذائف بعويلٍ مُصمّ، وتنفجر أعمدةٌ من النار والدّخان والغُبار.

هنا كانت الأحشاء تتقلّص من الرّعب المُقزز، ويقشعر الجلد، وتتعكف الأصابع. وعند مُنتصف الليل كانت تُطلق الإشارات. فيتراكض الضُّباط وشفاههم مُلتوية، وينهضون الجنود المُنتفخين بالنعاس والرطوبة، شاتمين مُتصايحين مُتضاربين. وتركض مجموعاتٌ غير نظاميّة من الناس في العراء مُتعثرين مُتشائمين عاوين عواءً وحشياً، يستلقون تارة، ويثبون أخرى، ويقذفون أنفسهم في خنادق الأعداء مصعوقين مأخوذين فاقدين الذاكرة من الرّعب والغيظ.

وبعد ذلك لا يتذكّر أحدٌ قط ما حصل في تلك الخنادق، هناك. وكانوا يضطرون إلى التلفيق حين كانوا يريدون التباهي بمآثر بطوليّة من مثل كيف غرزت الحربة، وكيف تهشّم الرّأس تحت ضربة من كرنافة البُندقيّة. وكان الهُجوم الليليّ يُخلّف جُثثاً. وكان يحلّ نهارٌ جديد، وتأتي مطابخ الميدان، ويأكل الجُنود المُتهالكون المُتجمدون ويدخّنون. ومن بعد ذلك يبدأون.

الحديث عن السّناج والنّساء، ويلفّقون كثيراً أيضاً ويبحثون كثيراً أيضاً ويبحثون عن القمل، وينامون. وكانوا يقضون أياماً كاملةً نائمين في منطقة الرّعد والموت هذه، العارية المُلوّثة بالغائط والدّم.

في مثل هذا الوضع، في الوحل والرّطوبة، عاش تليغين أيضاً غير خالع ملابسه وحذاءه الطّويل أسابيع مُتتالية. كان الفوج الذي سجّل فيه مُلازماً ثانياً قد خاض معارك هُجوميّة، وفقد أكثر من نصف ضُباطه وجُنوده، ولم يعوّض عن خسائره، وكان الجميع ينتظرون شيئاً واحداً: ساعة تحويلهم إلى المؤخّرة، وهم أشباه الأموات من التّعب، والمُمزّقو الثياب.

إلا أنّ القيادة العُليا كانت تسعى إلى عُبور جبال الكربات قبل حُلول الشّتاء ومهما يكن الثّمن، والدّخول إلى المجر، وتدميرها. و لم يكونوا يبخلـون في الأرواح، فقد كانت هناك احتياطـاتٌ كبيرةٌ من النّفوس البشريّـة. وكانوا يتصوّرون أنّ مُقاومة الجُيوش النّمساويّة المُتراجعة بلا نظـام ستنهار تحت الضّغط الطّويل لقتـالٍ مُستمرّ دخل شهره الثالث، وستسقـط كراكوفيا وفينا، وسيتمكّـن الروس من الخروج من الجناح الأيسر إلى المؤخّرة الألمانيّة غير المحميّة.

وتطبيقاً لهذه الخُطة كانت القوات الروسيّة تزحف نحو الغرب بلا انقطاع آسرةً عشرات الألوف من الأسرى، واحتياطاتٌ هائلة من المواد الغذائيّة والغذائف والأسلحة والملابس. في الحُروب الماضية كان جزءٌ فقط من مثل هذه المغانم، ومعركةٌ واحدةٌ فقط من هذه المعارك الدّمويّة المُستمـرّة التي كانت تسحق فيالق كاملة يُمكن أن يقررا مصير الحملة. والآن، وحتـى رغم أنّ الجُيوش النّظاميّة قد تحطّمت في المعارك الأولى فإنّ حدّة القتال قد استشرت. لقد خرج الجميع إلى الحرب، من الأطفال حتـى الشّيوخ—الشعب بأسره. فقـد كان العدوّ على وشك أن يدّخر، وقـد استنزف دمه، وما هو إلا جهدٌ آخر، ويهلّ النّصر الحاسم. ويبذل الجهـد ولكن كانت تطلع مكان جيوش العـدوّ المُتفتّتة جيوشٌ جديدة كانـت تسير للقاء الموت في جُموح قانط، وتهلك، لم تكن لا جحافل التّتـار ولا كراديس الفرس تُقاتل بتلك القسوة، وتموتُ بالسهولة التي كان يموت فيها الأوروبيون الضّعاف الأجسام المُدلّلون، أو الفلاحون الروس الماكرون، الذين رأوا أنهـم ليسوا إلا ماشيةً عجماء—لُحوماً في هذه المجزرة التي دبّرها السادة.

تخندقت بقايا الفوج الذي يخدم تليغين فيه على شاطئ نُهيرٍ ضيقٍ عميـق. كان الموقع سيئاً، مكشوفاً كليـاً، والخنادق غير عميقة. وكانَ

الفوج ينتظر بين لحظة وأخرى أمراً بالهجوم، ولكنّ الجميع الآن كانوا مسرورين في أن تسنح لهم فرصةٌ للنوم، وتغيير الأحذية، ونيل شيءٍ من الراحة، رغم أنّ ناراً حاميةً كانت تنطلق من الضّفة الأخرى للنُّهير حيث كانت الوحدات النّمساويّة تتخندق.

وعند المساء، حين هدأ إطلاق النار حوالي ثلاث ساعات، كما هي العادة، ذهب إيفان إيليتش تليغين إلى مقرّ قيادة الفوج، التي كانت تحتلّ قلعةً مهجورة على بُعد زهاء فرسخين من موقع الفوج.

كان ضبابٌ أشعث يرقد على صدر النُّهير المُلتوي بين النباتات الكثيفة ويُخيّم على الأجمات عند الشاطئ. وكان الجوّ هادئاً رطباً فيه رائحة أوراق أشجارٍ رطبة. وبين الحين والآخر كانت إطلاقةً وحيدة تنهدُ في الماء مثل كُرةٍ جوفاء.

قفز إيفان إيليتش عبر الحُفرة إلى الطريق العامّة وتوقّف، وأشعل سيكارة. كانت الأشجار العالية الجرداء على جانبي الطريق تبدو في الضباب شاهقة الطول على نحوٍ مُفزع. وعلى أطرافها كان مُنخفض مُستنقعي يبدو وكأنّه مملوءٌ بالحليب. وصفرت رصاصةٌ في السّكون صفيراً شاكياً. زفر إيفان إيليتش زفرةً عميقة، وسار على حصىً مُصلصل، رافعاً رأسه إلى أشباح الأشجار. لقد استرخى كلّ ما في نفسه بسبب هذا الهُدوء المُحيط به، ومن كونه يسير ويُفكر لوحده. لقد ابتعد ضجيج النّهار الصاخب، إلا أنّ حزناً رقيقاً نافذاً تسلّل إلى قلبه. فتنهّد ثانيةً، وألقى السيكارة، ووضع يديه وراء رقبته، وسار على هذا الوضع، وكأنّه في عالم عجيب لم يكن فيه غير أشباح الأشجار، وقلبه الحيّ المُلتهب بالحبّ، وسحر داشا غير المرئيّ.

كانت داشا معه في ساعة الراحة والهُدوء هذه، وكان يحسّ بملامستها كلّما هدأ زئير القذائف الحديديّ، وأزيز البنادق،

والصيحات، والسباب-كلّ هـذه الأصوات الغريبة على خليقة الله- وكلّمـا كان من المُمكـن أن ينزوي في ركنٍ من المخبـأ، وعندئذٍ كان السحر يمسّ قلبه.

وكان يبـدو لإيفـان إيليتش أنّه، لو قُسم له أن يمـوت، فإنه سيشعر بسعـادة الاتّصال هـذه إلى آخر لحظـةٍ في حياته. ولم يكـن يُفكر في المـوت، ولم يهابه. لا شيء بقادرٍ الآنَ علـى أنْ ينتزعه من حالة الحياة المُدهشة ولو كان الموت بنفسه.

في الصيف، حين سافر إلى يفباتوريا ليرى داشا لآخر مرّة كما خُيّل لـه، غمرته موجةٌ من الحزن، وقلق، وفكّر في مُختلف الاعتذارات. إلا أنّ لقاءهما في الطريق، ودموع داشا المُباغتة، ورأسها الأشقر مضغوطاً على صدره، وشعرها، ويديها، وكتفيها الفواحة برائحة البحر، وفمها الطّفـوليّ حين نطق، وقد رفعت إليه وجههـا بالرّموش المُسبلة المُبلّلة: "إيفـان إيليتشـ، عزيزي، كم انتظرتـك"-كلّ هـذه الأشياء التي لا توصـف، والتي كأنها هبطت عليه من السّمـاء، في ذلك الطريق عند البحـر قد حوّلت حياة إيفان إيليتشـ كلّها في بضع دقائق. وقال وهو ينظر إلى الوجه الحبيب:

- سأظلّ أحبّك، طيلة حياتي.

وفيما بعد بلغ به الوهم إلى حدّ أن تصوّر أنّه لم ينطق بهذه الكلمات، بل دارت في ذهنه فقط، وأنها قد فهمت ما في ذهنه.

أنزلت داشا يديها من كتفيه، وقالت:

- عنـدي أشيـاءٌ كثيرةٌ ينبغي أن أخـبرك بها. فلنذهـب. وسارا، وجلسـا على الرمل عند الماء. مـلأت داشا كفّها بالحصبـاء الصّغيرة، وأخذت تلقيها في الماء على مهل.

- المسألة هي هل تستطيع أن تحسن مُعاملتي، حين تعلم بكلّ شيء.

رغــم أنّ ذلك في غيابك حياةٌ سيئة يا إيفان إيليتش. فاعذرني، إذا كان ذلك في إمكانك.

وحدّثتــه عن كلّ شيءٍ بصدقٍ وتفصيل. عــن سامارا، وعن مجيئها إلى هنــا، وعن لقائها ببيسونوفن وعن فقدانها الرّغبة في الحياة، وشدّة قرفهــا، من ذلك الجوّ البطرسبورغي الخانق الذي تصاعد مرّةً أخرى، وسمّم الدّم، وألهب الفُضول الفُضول...

– إلى متــى أشمخ بأنفي؟ وراودتنــي الرّغبة في أن أغرق نفسي في الحمأة–لا بأس. ولكنني جبنتُ في اللحظة الأخيرة...إيفان إيليتش، عزيزي–وبسطت ذراعيها وقالت–ساعدني، لا أريد، ولا أستطيع أن أمضــي في بغض نفسي، ولكــن لم يمت كلّ شيءٍ فيّ...أنــا أريد شيئاً مُختلفاً تماماً، مُختلفاً كلياً...

وبعــد هذا الحديث صمتت داشا طويلاً، وثبت إيفان إيليتش بصره في الماء الصقيل الضارب إلى الزّرقة، المتألئ بالشمس. وكانت روحه، رغم كلّ شيء، طافحةً بالسعادة.

و لم تُــدرك داشا أنّ الحرب قد بــدأت، وأنّ تليغين يجب أن يُسافر في الغــد للحاق بفوجه، إلا بعد فترةٍ من الوقــت، حين تبلّلت قدماها بموجةٍ أهاجتها الريح.

– إيفان إيليتش!

– نعم.

– هل ستُحسن مُعاملتي؟

– نعم.

– كثيراً؟

– نعم.

عندئذٍ زحفت على ركبتيها على الرمل لتقترب منه أكثر، ووضعت يدها في يده، كما فعلت عند ذاك على سطح السفينة.

– إيفان إيليتش، وأنا أيضاً سأحسن مُعاملتك.

وضغطت بشدّة على أصابعه المُرتعشة، وسألت بعد برهةٍ من الصمت:

– ماذا قلت لي إذ كنا في الطريق؟ –وغضّنت جبهتها– أيّ حرب؟

– مع من؟

– مع الألمان.

– وأنا؟

– سأسافر غداً.

تأوّهت داشا، وصمتت مرّةً أخرى. ومن بعيد كان نيقولاي إيفانوفيتش يجري على الساحل مُتجهاً نحوهما، في سُترته المُخطّطة، وكأنه قد غادر سريره من توّه على ما يبدو. كان يلوّح بجريدة، ويصرخ بشيءٍ ما.

ولم يلق التفاتاً إلى إيفان إيليتش. عندئذ قالت داشا: "نيقولاي، هذا أكبر صديقٍ لي". –أمسك نيقولاي إيفانوفيتش تليغين من سترته، وصرخ في وجهه:

– هذا ما توصّلنا إليه، أيّهما الشاب، ها؟ ها هي حضارتك، ها؟ هذه فظاعة! هل تفهم؟ هذا هذيان!

وقضت داشا النهار كلّه قرب تليغين لا تبارحه، وديعةٌ مستغرقة.

ولاح لـه هذا اليوم المملـوء بنور الشّمس المزرق قليـلاً، وهدير البحر واسعـاً لا تستوعبـه الظّنـون. وكلّ دقيقـةٍ فيـه تمطّـت حتـى لكأنّها استحالت حياةً كاملة.

تحوّل تليغـين وداشا على الساحل، واستلقيا علـى الرّمل، وجلسا في الشّرفة، وكانا في ذهول. وكان نيقولاي إيفانوفيتش يُلاحقها أينما ذهبا، ولا ينفكّ عنهما، ولا يفتأ يتحدّث بأحاديث مطوّلة عن الحرب وتسلّط الألمان.

وقبيل المسـاء استطاعا الانفلات من نيقولاي إيفانوفيتش. فخرجا وحيدين، وتوغّلا بعيداً بمحاذاة ساحل الخليج المُنحدر انحداراً خفيفاً. سـارا صامتين، في خطوٍ متسـاوق، وهنا بدأ إيفـان إيليتش يُفكّر بأنّ الواجب يقتضيه، على أية حال، أن يقول شيئاً ما لداشا. وبالطّبع، إنها تنتظر منـه بوحاً حاراً ومُحدّداً في الوقت ذاته. ولكن ماذا في وسعه أن يُتمتـم؟ وهل تستطيع الكلمات أن تفصـح عما يملأ جوانحه؟ لا، إنذ ذلك غير قابلٍ للإفصاح.

وفكّـر مع نفسه، وهو ينظر إلى قدميه: "لا، لا، لو بحت لها بتلك الكلمـات، فإنّ ذلك سيكـون مُعيباً. إنها لا يُمكـن أن تُحبّني، ولكنها كفتاة شريفة طيّبة ستقبل، إذا طلبت يدها. ولكنّ هذا سيكون إكراهاً. وفضـلاً عن ذلـك لا يحقّ لي أن أقـول لأننا نفترق لفـترةٍ غير مُحدّدة، فإنني، في أغلب الاحتمالات، لن أعود من الحرب..."

وكانت تلك نوبةٌ من نوبـات تعذيب النّفس. توقّفت داشا فجأة، وتعلّقـت بكتفه، وخلعت نعلهـا مُردّدةً "يا إلهي، يـا إلهي" وأخذت تفرغ الرّمل من النّعل ثمّ ارتدته ورفعت قامتها وتنهّدت:

– سأشعر بحبٍ شديدٍ لك، حين ترحل، يا إيفان إيليتش. ووضعت

يدهــا على رقبتــه، وتفرّست في عينيــه بعينيها الصافيتــين، الرماديتين الصارمتين تقريباً، الخاليتين مــن كلّ ظلٍ لبسمة، وزفرت زفرةً أخرى خفيفة.

– سنكون سويّةً، هناك أيضاً، ها؟

جذبها إيفان إيليتش جذبةً رقيقة، وقبّل شفتيها الناعمتين المُرتعشتين. فأغمضــت داشا عينيها. وفيما بعد حين بُهــرت منهما الأنفاس كليها تنحّت داشــا، وأمسكت يد إيفان إيليتش، وســار الإثنان بمحاذاة الماء الثّقيل الداكن اللاعق الساحل بألسنةٍ قرمزيّةٍ عند أقدامهما.

كان إيفــان إيليتــش يتذكّر كلّ ذلــك في لحظات الهــدوء بانفعالٍ مُتجــدّدٍ في كلّ مــرّة. والآن، وهو يســير في الضّبــاب، على الطريق العامّــة، بين الأشجار، ويــداه وراء رقبته عادت تــتراءى له نظرة داشا المُفترسة، وأحسّ بقبلتها الطّويلة.

– قف! من القادم!

مكتبة
t.me/soramnqraa

هتف صوتٌ غليظ في الضّباب.

– من جماعتكم.

أجــاب إيفــان إيليتش، وأنــزل يديه إلى جيبي معطفــه العسكريّ. وانعطــف عند أشجار بلّوطٍ نحو هيكل قلعةٍ غير واضح المعالم، حيث كان النّور يلــوح أصفر في بعض نوافذها المُضاءة. وعلى المدخل أبصر شخصــاً تليغين فرمــى سيكارته، ووقف في هيئة استعــداد. "هل جاء البريد؟" "لا، يا حضرة الضابط، نحن في انتظاره". دخل إيفان إيليتش إلى الــرّواق. كانت طنفسةٌ قديمةٌ معلّقة فــوق درج بلوطيٍّ عريض في آخــر الرواق تصــوّر آدم وحــواء واقفين وسط الأشجــار. كانت هي

تمسك في يدها تُفاحة، وهو غصناً مقطوعاً عليه زهور. وكانت شمعةٌ موضوعــةٌ في فم زجاجــةٍ في أسفل الدّرج تُضــيء بضوئها الشاحب وجهيهما الحائلين وجسميهما المزرقين.

وفتــح إيفان إيليتش باباً إلى اليمين، ودخل حجرةً فارغةً لها سقفٌ منحــوتٌ منهار في أحد الأركان من جراء قنبلة سقطت يوم أمس على الجدار. كان المُلازم الأمــير بيلسكي والملازم مارتينوف جالسينَ على سريرٍ قرب موقدٍ مُشتعل. سلّم إيفان إيليتش، وسأل متى من المتوقّع أن تصلَ السيارة من مقرّ الأركان، وجلس على كومةٍ من علب الخراطيش غير بعيدٍ عن الضابطين، وقلّص عينيه من الضوء.

سأل مارتينوف:

– أما زال إطلاق النار مُستمراً هناك، عندكم؟

لم يجب إيفان إيليتش، وهــزّ كتفيه. ومضى الأمير بيلسكي مُتابعاً حديثه بصوتٍ خافت:

– والأهــمّ هي هذه الرائحة النّتنة. لقد كتبــت لأهلي أنّ الموت لا يُخيفنــي. فأنــا مُستعدٌّ في سبيل الوطــن إلى التّضحية بحياتي، ولأجل هذا، إذا أردت الدّقــة، انتقلت إلى المُشاة، وها أنا جالسٌ في الخنادق، ولكن الرائحة النّتنة هي التي تقتلني.

أجاب مارتينوف، وهو يُعدل إحدى كتفيه:

– الرائحــة النتنة شيءٌ تافــه، إذا لا تعجبك فلا تشمها. ولكن خلوّ المكان مــن النساء هو الشــيء الجوهريّ. إنّ ذلك لا يــؤدي إلى خير. احكم بنفسك: قائد الجيش هرم، فأقاموا لنا هنا ديراً، لا خمرة، ولا نساء. أيمكن أن تدعو هذا اهتماماً بالجيش؟ أهذه حرب؟

نهض مارتينوف من السّرير، وأخذ يدفع برأس حذائه خشبةً محترقة. وراح الأمير يُدخّن مُستغرقاً ناظراً إلى النار. وقال:

– خمسة ملايين جنديٍّ يُرثون. وفضلاً عن ذلك تتفسّخ الجثث والخيول النافقة. ستظلّ الحرب طوال حياتي تذكّرني بشيءٍ كريه الرائحة. برررر...

سمع هدير محرّك سيارةٍ في الفناء. وصاح صوتٌ منفعل عند الباب:

– يا سادة، جاء البريد.

خرج الضباط إلى مدخل القلعة. كانت شخوصٌ داكنة تتحرّك عند السيارة، وبعض الرجال يتراكضون في الفناء. وكرّر الصوت المبحوح: "يا سادة، أرجو ألا تتخاطفوا من الأيدي". وجلبت أكياس البريد والطرود إلى الرواق، وأخذوا يفكونها على الدرج تحت آدم وحواء. وكانت تحتوي على بريد الشهر كلّه. وظهر أنّ تلك الأكياس الجنفاصيّة القذرة كانت تحتوي على عالمٍ كامل من الحب والحنين– حياةٌ كاملةٌ مهجورة، رقيقة، لا تستردّ.

– يا سادة، لا تتخاطفوا من الأيدي–بحّ النقيب بابكين، وهو رجلٌ ضخم أحمر الوجه–المُلازم الثاني تليغين ستّ رسائل وطرد... المُلازم الثاني نيشني رسالتان...

– نيشني قتل، يا سادة...

– متى؟

– اليوم صباحاً...

سار إيفان إيليتش إلى الموقد. كانت الرسائل السّت كلّها من داشا. وكان العنوان على الظّروف مكتوباً بخطٍ كبير. وغمر الحنان إيفان

إيليتش على تلك اليد الحبيبة التي خطّت هذه الحُروف الكبيرة. انحنى على النار، وفضّ الظّرف الأوّل بحذر. ففاحت منه ذكرى قويّة جعلت إيفان إيليتش يُغمض عينيه بُرهة. ثم قرأ:

"سافرنا–نيقولاي إيفانوفيتش وأنا–إلى سيمفروبول في اليوم الذي وعدناك فيه، وفي المساء ركبنا قطار بطرسبورغ. ونحن الآن في شقّتنا القديمة. نيقولاي إيفانوفيتش قلقٌ جداً بسبب عدم وُرود أيّ خبرٍ من كاتيا، ونحن لا نعرف أين هي الآن. إنّ ما وقع لنا، أنت وأنا، كان عظيماً جداً ومُفاجئاً جداً حتى أنني ما أزال غير مُتمالكة حواسّي. إنني أحبّك، وسيكون حبّي لك صادقاً وسيزداد قوّة. أمّا الآن فإنّ بلبلةً شديدة تجتاح النّفس. القوات تمرّ في الشوارع على أنغام الموسيقى فتشيع في الجوّ حزناً ممضاً حتى لكأنّ السعادة تمضي راحلةً مع الأبواق، مع هؤلاء الجُنود. أنا أعرف لا يجوز لي أن أكتب ذلك، ولكن يجب أن تكون حذراً في الحرب، على أيّة حال".

– يا حضرة الضابط، يا حضرة الضابط.

التفت تليغين بصعوبة فرأى جندياً مُراسلاً يقف عند الباب.

– برقيّةٌ تلفونيّة، يا حضرة الضابط...يطلبونك في الفوج.

– من؟

– المُقدّم روزانوف. طلب أن تأتي بأسرع ما يُمكن.

طوى تليغين الرّسالة التي لم يتمّ قراءتها وحشرها وراء قميصه مع الظّروف الأخرى، وأنزل قبّعته على عينيه، وخرج.

كان الضّباب قد ازداد كثافة، وحجب الأشجار، والسائر يحسّ وكأنّه يخوضُ في حليب، ولا يتعرّف على الطّريق إلا من صلصلة الحصباء. أعاد إيفان إيليتش مع نفسه "سيكون حبي لك صادقاً،

وسيــزداد قــوّة". وفجــأةً توقّــف مُرهفاً سمعــه. لم يكــن يصدر من الضّباب صوتٌ ما عدا الصوت الذي يُحدثه أحياناً سُقوط قطرةٍ ثقيلة من شجرة. ثمّ أخذ يُميز، على مسافة غير بعيدة عنه، قرقرة وخشخشة خفيفــة. وواصل سيره، فصــارت القرقرة أكثرَ وُضوحــاً. ارتدّ بقوّة، فانهبــدت كتلة الطــين التي انخلعت مــن تحت قدميه ساقطــةً في الماء بطرطشةٍ ثقيلة.

كان ذلــك، على ما يبدو، المكان الذي كانت الطريق العامة تقطعه فوق النّهر عنــد جسرٍ محروق. وعلى الضّفة الأخــرى من النّهر، على بعــد زهاء مائة خطوةٍ كانت الخنــادق النّمساويّة تصل إلى حافّة النّهر. وكان إيفــان إيليتش يعرف ذلك. وبالفعــل أزّت رصاصةٌ من الجانب الآخر كالسّوط على طرطشة الماء، ورجع النّهر صوتها، وأزّت أخرى وثالثة، ثمّ أعقبــت ذلك صليةٌ طويلة، مثل قعقعة حديد، فردّت عليها مــن كلّ جانبٍ طلقاتٌ عجلى خنــق الضباب أصواتها. وتوالى الأزيز والــدّويّ والزّئــير على النّهر كلّــه أقوى فأقوى، وفي ذلــك الضّجيج اللّعــين، لعلَعَ مدفــعٌ رشاش بعجلة، وسمع صــوت انفجارٍ في الغابة. وجثم الضّباب المُمزّق الهادر على الأرض ساتراً على هذا الأمر الكريه المُعتاد

ولعدّة مرات كانت إحدى الرصاصات ترتطم بشجرةٍ قرب إيفان إيليتشــ مُحدثةً صوت قضــم، ويسقط غصن. ترك الطريــق العامة إلى الحقــل، واتّخذ طريقه تلمّساً بــين الأجمات. هدأ التّراشق بغتة، مثلما بدأ، ثمّ انتهى. خلع إيفان إيليتش قبّعته، ومسح جبينه الرّطب. انسدل مــرّةً أخرى سكــونٌ أشبه بالسّكون تحــت الماء، ولم يبــق إلا أصوات القطــرات تقطر من الأشجار. حمــداً لله، اليوم سيقــرأ رسائل داشا. وضحــك إيفــان إيليتش وقفز عبر حُفــرة. وفجأةً سمــع، على مقربةٍ شديدةٍ منه، صوت رجلٍ يتثاءب ثمّ يقول:

– يا فاسيلي أيّ نومٍ في مثل هذه الأحوال؟ أيُّ نوم؟

ردّ صوتٌ مهتزّ:

– انتظر. هناك شخصٌ قادم.

– من القادم؟

– من جماعتكم، من جماعتكم.

أسرع تليغين يقول، وفي الحال رأى المتراس الترابيّ للخندق، ووجهين مُلتحين يتطلّعان من تحت الأرض. سأل:

– أيّة سريّةٍ هذه؟

– الثالثة يا حضرة الضابط، سريّتك. ولماذا تسير على الأرض المكشوفة، يا حضرة الضابط، سريّتك ولماذا تسير على الأرض المكشوفة، يا حضرة الضابط؟ قد يصيبونك.

قفز تليغين إلى الخندق، وسار فيه إلى خندق الاتّصال المُؤدّي إلى مخبأ الضّباط. كان الجُنود الذين أيقظهم إطلاق الرّصاص هذه يتحدّثون:

– في مثل هذا الضّباب من السّهل جداً أن يعبر العدوّ النّهر في مكانٍ ما.

– إنه شيءٌ بسيط.

فجأةً رمي ودوي كثيف.

– ترى أيريد أن يُخيفنا أم هو نفسه خائف؟

– وأنت، لست خائفاً؟

– أن، يا صاحبي؟ أنا جبانٌ جداً.

– يا أولاد، قطعت إصبع لغفريل.

– لو رأيتموه كيف يزعق رافعاً اصبعه إلى فوق.

– حُظوظ!..سيرسل إلى أهله.

– أبداً! لو كانت ذراعه كلّها قد قُطعت لكانت له إجازة! أما دون إصبع واحدة، فسيحشروه ليتعفّن في مكانٍ قريب ثمّ يعودونه إلى السريّةً ثانية.

– متى ستنتهي هذه الحرب؟

– أوه، كفى.

– ستنتهي، ولكن لن نرى نحن نهايتها.

– على الأقلّ لو استولينا على فينا.

– وما حاجتك إليها؟

– لا لشيء، ولكن أحسن.

– حتى إذا لم تنته الحرب في الربيع، فإنّ الجميع سيهربون على أيّة حال. فمن سيزرع الأرض؟ النّسوان؟ الشعب سحق سحقاً. كفى، تشبّعنا بالدّم بما فيه الكفاية وزيادة، وسنذهب إلى بيوتنا من تلقاء أنفسنا.

– ولكنّ الجنرالات لن يكفوا عن الحرب عن قريب.

– ما هذا الكلام؟..من يقول هذا؟

– كفى نباحاً، يا عريف...انصرف...

– لن يكفّ الجنرالات عن الحرب.

– إنّه على حقّ، يا أولاد. فهم أوّلاً يقبضون رواتب مُضاعفة، وأوسمةٍ ونياشين.

لقد قال لي أحد الأشخاص أنّ الإنجليز يعطون لجنرالاتنا ثمانية وثلاثين روبلاً ونصف على كلّ مُجنّد.

– أوه، الأوباش! كما يبيعون الماشية.

– لا بأس، سنصبر، ونرى.

عندما دخل تليغين المخبأ رأى آمر الكتيبة المُقدّم روزانوف–وهو رجلٌ بدين ذو نظارة، وخصل شعرٍ قليلة–جالساً على أغطية خيولٍ موضوعةٍ في أحد الأركان تحت أغصان الصّنوبر، وقد ابتدره قائلاً:

– جئت أخيراً يا صاحبي.

– أرجو المعذرة، يا فيودور كوزميتش، فقد أضعت طريقي. الضّباب كثيف.

– المسألة، يا صاحبي، أنّ هناك عملاً ينبغي إنجازه في الليل.

ووضع في فمه قطعة الخبز التي كان طيلة الوقت يمسكها بيده الوسخة. أطبق تليغين فكّيه ببطء.

– الخُلاصة، يا عزيزي إيفان إيليتش، أنّ الأمر قد صدر إلينا بالعُبور إلى الضّفة الأخرى. وسيكون لطيفاً لو ننجز ذلك بشيءٍ من اليُسر. اجلس بجانبي، أتريد شيئاً من الكونياك؟ لقد عنت لي هذه الخطّة... إقامة جسرٍ مقابل دغل الصفصاف الكبير تماماً، وتعبير فصيلتين على تلك الضّفة...

١٦

– سوسوف!

– نعم، يا حضرة الضابط.

– احفر..على مهلك، لا تلق التّراب في الماء. يا أولاد تقدّموا إلى الأمام...زوبتسوف!

– نعم، يا حضرة الضابط.

– انتظر..ثبّته هنا...احفر قليلاً..خفّض على مهل...

– على مهل، يا أولاد، ستخلعون كتفي...ادفع...

– هيا، ادفع...

– لا تصرخ، هُدوء، يا حيوان!

– اسند الطّرف الآخر...يا حضرة الضابط، هل نرفع؟

– هل ربطتم الطّرفين؟

– نعم.

– ارفع...

وارتفع في غيوم الضّباب المُشرّب بضوء القمر عمودان مُرتفعان تربط بينهما عوارض، وقد صدر صريفٌ من ذلك. إنها جسرٌ مُعلّق. كانت أشباح المُتطوّعين تتحرّك على الشاطئ وهي لا تكاد تبين. وكان الكلام والسباب يجريان بهمسٍ عجول.

– هل استقرّ؟ ها؟

– استقرّ بصورةٍ جيّدة.

– خفّض...بحذرٍ أكثر...

– برفق، برفقٍ يا أولاد...

بعد أن تثبت العمودان بطرفيهما في ضفّة النّهر، في أضيق موضعٍ فيه، أخذا يميلان ببطءٍ إلى الأمام، وتدلّيا فوق الماء في الضّباب.

– هل سينوش الضّفة الثانية؟

– خفّض على مهل.

– ثقيلٌ جداً.

– قف، قف...برفق!...

ومع ذلك فقد انطرح الطّرف الثاني من الجسر على الماء بطرطشةٍ عالية. أشار تليغين بذراعه قائلاً:

– استلقوا!

استلقت أشباح المُتطوّعين على عشب الشاطئ بصوت غير مسموع. شفّ الضّباب، إلا أنّ الظّلام صار أحلك، والهواء أثقلَ عند السّحر. وكان الهُدوء يسود الضّفة الأخرى. نادى تليغين:

– زوبتسوف!

– نعم!

– انزل إلى الماء وصفّ ألواحاً!

نزل المُتطوّع فاسيلي زوبتسوف بجسمه الرّكين الناشر رائحة عرقٍ نافذة من الشاطئ إلى الماء ماراً بتليغين. ورأى إيفان إيليتش يده الكبيرةَ تمسك بالعشب مُرتجفة، وتطلقه، وتختفي.

– عميق، –قال زوبتسوف بهمسٍ مُرتجف صدر من مكانٍ في الأسفل واستمرّ–ناولوني الألواح!

وراحت الألواح تتناقل بين الأيدي بسرعة وبلا صوت. وكان المُستحيل تسميرها خوفاً من حُدوث ضجّة. صفّ زوبتسوف الصّفوف الأولى، وخرج من الماء إلى الجسر، وراح يقول بصوتٍ خافت، وأسنانه تصطكّ:

– أسرع، ناول بسرعة...لا تبطئ...

كان الماء القارس البُرودة يُرسل خريره تحت الجسر، والعمودان يتمايلان. وكان تليغين يميّز معالم الأجمات الدّاكنة على الشاطئ

الآخــر، وبالرّغم مــن أنّها لم تكن تختلف عــن الأجمات في الجانب الرّوسيّ، إلا أنّ منظرها بدا مُخيفاً. عاد إيفان إيليتش إلى الشاطئ حيث كان المتطوّعون مُستلقين، وهتف بحدّة:

– انهضوا!

وفي الحال نهضت في الغمام المبيض شخوصٌ ممسوحة المعالم كبيرةٌ بشكلٍ بالغ.

– واحداً بعد واحد، اجرِ!..

استــدار تليغين نحــو الجسر. وفي تلــك اللحظة تنــوّرت الألواح الصُّفــر، ورأســ زوبتسوف ذو اللحيــة السّوداء المُلقــى إلى الوراء من الرّعب، وكأنّ شُعاع شمسٍ اصطدم بغمامة الضباب فجأة.

انحــرف شُعاع المصبــاح الكاشف جانبــاً إلى الأجمات، وانتزع مــن الظّلام غصناً معرجاً عليه عساليــج عارية، وعاد ثانيةً ليتمدّد على الألواح. ركضــ تليغين مُطبق الأسنان عبر الجســر، وفي تلك اللّحظة بــدا وكأنّ كلّ ذلك السّكون الأسود قــد انفجر وانعكس كالرّعد في رأسه. أخذت نيران البنادق والرشاشات تنهمر على الجسر من الجانب النّمســاويّ. قفز تليغــين على الشاطئ، وقعد علــى رجليه، واستدار. كان جنــديٌّ طويل القامة لم يتعرّف عليــه، يركض على الجسر حاضناً بُندقيّته على صدره، ثمّ أفلتت من يديه، ورفع يديه، وسقط إلى الجانب في المــاء. كان أحد الرشاشات يصبّ نــاره على الجسر والماء والشاطئ ركض جنديٌّ آخر هو سوسوف، واستلقى بالقرب من تليغين...

– سأمزّق هؤلاء الأوغاد بأسناني!

وركض ثــانٍ، وثالــث، ورابع، وترنّــح آخر، وزعــق مُتخبّطاً في الماء...

عبر الجميع الجسر راكضين، وانطرحوا مكوّمين بالأرفاش قليلاً من التّراب أمامهم. والآن صار الرصاص يرعد على نحو جنونيّ فوق النهر كلّـه. وكان من المُتعذّر على المرء أن يرفع رأسه. فقدٌ ظلّ الرّشاش يُمطر بوابـل رصاص هناك حيث استلقى المتطوعـون على الأرض. وفجأةً أزّ شـيءٌ على ارتفاعٍ واطئ مـرّةً ومرّتين...وستّ مرات، ودوّت إلى الأمام ستّة انفجاراتٍ خافتةٍ، إنهم الروس يقصفون وكر الرّشاشاتز

قفـز تليغـين وفاسيلـي زوبتسوف أمامـه وركضا حـوالي أربعين خطـوة، ثم استلقيـا. وعاد الرشاش إلى العمل مـن الظلام إلى اليسار. ولكـن كان واضحـاً أنّ النار من الجانـب الروسيّ كانـت أشدّ، وأنّ النمساويـين يبعـدون داخـل الأرضـ. استغـلّ المُتطوّعـون فـترات السّكـون وركضـوا نحو المكان، حيـث قد أحدثـت مدفعيّة الروس ثغـرةً في الأسـلاك الشائكة أمام الخنادق النّمساويّـة يوم أمس. وكان النمساويون قد بدأوا وصلها من جديد خلال الليل، فتركوا جثّةً تتدلى عليها. قطع زوبتسوف الأسلاك، وسقطت الجثة أمام تليغين كالزكيبة. وثب المتطوّع لابتيف إلى الأمام بدون سلاح زاحفاً على الأربع سابقاً الآخرين، واستلقى أمام المتراس تماماً، فصاح به زوبتسوف:

– انهض، وألق قُنبلة!

إلا أنّ لابتيـف صمـت ولم يتحـرّك، ولم يلتفـت، فلا بُـدّ أنّ قلبه جمـد من الرّعب. اشتدّ إطلاق النار، ولم يستطع المُتطوعون التّحرك، والتصقوا بالأرض، واندفنوا فيها.

صاح زوبتسوف:

– انهض، وألق قُنبلة، يا ابن الكلبة! اقذفها!

ومـدّ جسمه مُمسـكاً بندقيّته من كرنافتهـا، ووخز بحربته معطف لابتيف الذي برز كالحدبـة. أدار لابتيف وجهه الغاضب، وفكّ قُنبلةً

يدويّةً مـن حزامه، وقذفها فجأةً مُلقياً صدره علـى المتراس، وقفز إلى الخندق بعد انفجارها.

صاح زوبتسوف بصوتٍ غريبٍ عليه:

– اضرب، اضرب!

نهضـ زهاء عشـرةٍ من المتطوّعـين، وهرولوا، وغيّبتهـم الأرض. وكان لا يسمع غير أصوات الانفجارات الحادّة المُتقطّعة. تحرّك تليغين علـى المتراس جيئـةً وذهاباً كالأعمى و لم يستطـع أن يفكّ قُنبلة، فقفز أخيراً إلى الخندق، وركض ضارباً الطين اللزج بكتفيه، مُتعثّراً، صارخاً بملء فمه... ورأى وجهاً أبيض كالقناع لرجلٍ مُنضغط على تجويفٍ في جـدار الخندق، فأمسك الرّجل من كتفيـه، وكان الرّجل لا يفتأ يهذر وكأنّه في النّوم...

– اسكت، أيها الشيطان، لن أمسّك بسوء.

صـرخ تليغـين في الوجـه الأبيضـ كالقنـاع، وهو يـكاد يبكي، وركضـ، قافزاً فوق الجثـث. إلا أنّ المعركة كانت تقترب من نهايتها. وطلع حشدٌ من الناس الرماديين مُنسلين من الخنادق إلى الحقل بعد أن ألقوا بنادقهـم، فدفعوهم بكرنافات البنـادق. وكان الرّشاش ما يزال يُلعلع في وكره المسقوف على بعد زهاء أربعين خطوة، مصوّباً ناره إلى معبر النّهر. شقّ إيفان إيليتش طريقه بين المُتطوّعين والأسرى، وصاح:

– ماذا تنتظرون، ماذا تنتظرون؟ أين زوبتسوف؟

– أنا هنا...

– ماذا تنتظر، أيها الشيطان اللعين؟

– وكيف أستطيع أن أصل إليه؟

وركضا.

– قف!..هذا هو!..

كان ممرٌ ضيقٌ في الخندق يؤدي إلى وكر الرّشاش. ركض تليغين فيه طاوياً جذعه، وقفز إلى مخبأ كان كلّ شيءٍ فيه يرتجّ في الظّلمة من الذّبذبة التي لا تُطاق، وقبض على شخص من مرفقيه، وجرّه وإذا بالسّكون يسود، ولم يبق إلا فحيح الرّجلً الذي جرّه من وراء الرشاش، وهو يُقاوم.

– الوغد، إنّه يُمانع...اسمح لي.

تمتم زوبتسوف بذلك من الخلف، وأشفع ذلك في الحال بثلاث ضربات بكرفانة البُندقيّة على جُمجمة النّمساويّ فارتجف هذا، وتوجّعً، ثمّ همد...تركه تليغين وخرج من المخبأ. صاح زوبتسوف في أثره:

– يا حضرة الضابط، إنّه موثّق.

وبعد قليل انزاح الظّلام تماماً. وظهرت على الطين الأصفر بقعٌ وخطوط دمً، وتناثرت جُلودٌ مسلوخةٌ من عجل، وعلب تنك، ومقال، بينهما جُثثٌ آدميّةٌ متكوّرةٌ كالزّكائب. وكان المُتطوّعون المُنهكون الخاملون، منهم من انطرح أرضاً، ومنهم من كان يأكل من مُعلّبات، ومنهم من كان ينبش في الحقائب التي رماها النّمساويون.

وكان الأسرى قد سيقوا منذ وقت طويل إلى ما وراء النهر. وقد عبر الفوج النّهر، واحتلّ مواقعه، وكانت المدفعيّة تقصف خطوط النّمساويين الثانية، فكان هؤلاء يردّون عليها بنار ضعيفة. تساقط رذاذ، وانقشع الضّباب. وضع إيفان إيليتش مرفقه على حافّة الخندق، وحدّق في الحقل الذي ركضوا فيه ليلاً. إنّه حقلٌ كسائر الحُقول، بُنيّ التّربة، رطبٌ تناثرت فيه هنا وهناك قطعٌ من الأسلاك الشائكة، وآثارٌ سوداء لأرضٍ محفورة، وبعض جُثث المُتطوّعين، والنهر قريبٌ جداً،

ولا وُجود للأشجار التي تصوّرها بالأمس جبّارة، ولا لاجمات مُخيفة. ولكن ما أكثر الجُهود التي بذلت لقطع هذه الخطوات الثلاثمائة!

استمـرّ النمساويون في تراجعهم، ولاحقتهـم الوحدات الروسيّة حتـى الليل دون أن تنال قسطاً من الراحـة. وأُمر تليغين بأن يحتلّ مع متطوّعيـه غابةً صغيرة كانت تتراءى مُزرقّةً علـى قمّة تلّ، وقد احتلّها عند المساء بعد فترة قصيرة من التّراشق بالنيران. وتخندقوا على عجل، ونصبـوا نقاط حراسة، وأقاموا اتّصالاً تلفونياً مع وحدتهم، وأكلوا ما كان في حقائبهـم من طعام، وغفا الكثيرون تحـت الرّذاذ وفي الظلام حيـث تتصاعد رائحة تفسّخ أوراق الأشجار في الغابة، رغم أنّ الأمر قد صدر لهم بالاستمرار في إطلاق النار طول الليل.

اقتعد تليغـين قرمة، واتّكأ على جذع شجرة ناعمة مما علق بها من طحلـب. وكانـت بين الحين والآخـر تسقط قطْـرةٌ وراء ياقته، وكان ذلـك شيئاً طيبـاً، لأنه كان يمنعه من الغفـو. وكان اللغط الصباحيّ قد انقضى منذ وقت طويل، وزال حتى ذلك الإعياء الرهيب عندما أُمروا بالسـير زهاء عشرة فراسخ على الجذامات المُنتفخة من المطر، وتخطّى الأسيجـة والسواقـي، حين صارت الأقـدام المُتخشّبـة تتخبّط حيثما اتّفق، والرُّؤوس مُتورّمةٌ من الألم.

سمـع شخصٌ يسير علـى الأوراق المُتساقطة، وصوت زوبتسوف يقول بخفوت:

– أتريد بقسماطة؟

– شكراً.

– تنـاول إيفان إيليتش بقسماطةً منه، وأخذا يمضغها. كانت حلوة فذابت في فمه. قرفص زوبتسوف على مقربةٍ منه:

– أتسمح لي بالتّدخين؟

– شرط أن تكون حذراً.

– عندي غليون.

– زوبتسوف، ما كان لك أن تقتله، ها؟

– من؟ جنديّ الرشاش؟

– نعم.

– بالطبع.

– أتريد أن تنام؟

– لا يُهمّ. يمكن بدون ذلك.

– هزّني، إذا غفوت.

كانت القطرات تتساقط ببطء على الأوراق المُتفسّخة وعلى يده، وعلى سطح قبّعته. كانت هذه القَطرات بعد الضّجيج والصيحات، واللغط المُقرف، بعد قتل جنديّ الرشاش تتساقط مثل كرات زجاجيّة صغيرة. تتساقط في الظلام، في أعماق الغابة، حيث تتصاعد رائحة الأوراق المُتَفسّخة. وكان الحفيف يذود النوم عن عينيه المُنطبقتين... لا، لا يجوز... لا يجوز... وفتح إيفان إيليتش بقوّة عينيه المُنطبقتين، ورأى خطوط الأغصان غير الواضحة، وكأنّها خطوطٌ مرسومةٌ بفحم... ولكن من الحُمق أيضاً الاستمرار بإطلاق النار طوال الليل... دعوا المتطوّعين ينالون شيئاً من راحة... ثمانية قتلى، وأحد عشر جريحاً... طبعاً يجب أن يكون الإنسان حذراً في الحرب... آه، داشا، داشا. والقطرات الزّجاجيّة ستشيع السكينة في النّفس، وتواسي...

– إيفان إيليتش!..

– نعم، نعم، زوبتسوف، لست نائماً..

أليس من الخطأ قتل الإنسان؟.. أغلب الظّن أنّ له بيتاً، وعائلةً مهما تكن، بينما غرزت الحربة فيه، وكأنّما أغرزها في دمية إنسانٍ وقضي الأمر. عندما قضيت لأوّل مرّةٍ في حياتي على إنسان، لم أستطع أن أذوق الطّعام، فقد شعرت بالغثيان... أما الآن فأنا أقضي على العاشر أو التاسع... شيءٌ رهيب ها؟ فهل هناك شخصٌ يتحمّل الخطيئة؟

– أيّة خطيئة؟

– خطيئتي مثلاً. أقول، أنَّ شخصاً يتحمّل خطيئتي–جنرالاً أو شخصاً آخر في بطرسبورغ يتصرّف بكلّ هذه الأمور...

– وأيّة خطيئةٍ لك، إذا كنت تدافع عن وطنك؟

– وليكن... ولكن يبدو أنّ هناك من يتحمّل الذّنب.

فلنبحث عنه. إنّ من أطلق هذه الحرب، هو الذي سيتحمّل وزرها... وسيحاسب عن هذه الأمور بشدّة...

رنّ في الغابة صوت إطلاقة حاد. وجفل تليغين وصدرت عدّة إطلاقاتٍ أخرى من الجانب الآخر.

وكان الأمر يبدو أشدّ غرابة لأنّ العدوّ لم يكن على احتكاك معهم منذ المساء. هرع تليغين إلى التلفون. أخرج جنديُّ التلفون رأسه من الحفرة.

– الجهاز لا يعمل، يا حضرة الضابط.

والآن راحت الطّلقات تتردّد تترى في الغابة كلّها وترتطم الرّصاصات في الأغصان. تراجعت النّقاط الأماميّة وأخذت تردّ على النار وظهر المتطوّع كليموف قرب تليغين، وقال بصوتٍ وحشيٍّ غريب: "إنّهم يطوّقوننا، يا حضرة الضابط" وقبض على وجهه، وجلس على الأرض، ثم انطرح عليها. وصرخ شخصٌ آخر في الظلام:

– يا إخوان، أنا أموت.

لمح تليغين بين جذوع الأشجار قامات المتطوّعين الفارعة الساكنة. وكانوا جميعاً يتّجهون بأبصارهم إليه وقد أحسّ بذلك. أمر بأن ينسلّوا كلّ واحدٍ على حدة إلى شمال الغابة، الجهة التي لم تطوّق بعد، في أغلب الاحتمال وسيبقى هو يُقاوم هنا، في الخنادق مع من يريد أن يبقى، قدر ما تمكّن المُقاومة.

– المطلوب خمسة أشخاص، فمن يرغب؟

خرج من الأشجار زوبتسوف، وسوسوف، والشاب كولوف، واتّجهوا نحوه. التفت زوبتسوف وصاح:

– بقي إثنان! ريابكين، تعال.

– حسناً، يُمكنني...

– الخامس، الخامس.

نهض من الأرض جنديٌّ قصير القامة يرتدي فروة خروفٍ وقُبّعةً شعثاء:

– ربّما أنا أيضاً.

واستلقى الستّة وبين الواحد والآخر زهاء عشرين خطوة، وراحوا يُطلقون النار. واختفت الأشباح وراء الأشجار. أفرغ إيفان إيليتش بضع علبٍ من الخراطيش وفجأةً تراءى له بوضوح بالغ كيف أنّ الرّجال ذوي المعاطف الزّرق سيقلبون في صباح الغَد جثّته المُكشّرة على ظهرها، ويأخذون بتفتيشه، وتمتدّ يد قذرة وراء القميص.

وضع بندقيّته، وحفر في الأرض الرّطبة، وأخرج رسائل داشا، وقبلها، ووضعها في الحفرة التي حفرها، وطمرها، وفرش فوقها أوراقاً مُتفسّخة. وفجأةً سمع صوت سوسوف إلى يساره:

"أوي، أوي، يا إخوان!" لقد بقيت علبتان من الخراطيش. زحف إيفان إيليتش نحو سوسوف المطرق برأسه واستلقى إلى جانبه، وتناول علبتين من حقيبته. والآن لم يبق أحدٌ يُطلق النار غير تليغين وشخصٌ آخر إلى يمينه وأخيراً انتهت الخراطيش. انتظر إيفان إيليتش، ونظر فيما حوله، ونهض، وأخذ يُنادي على أسماء المُتطوّعين. و لم يرد على ندائه إلا إسمٌ واحد، وتقدّم كولوف منه مُعتمداً على بُندقيّته. سأل إيفان إيليتش:

– هل عندك خراطيش؟

– لا.

– والآخرون لا يردّون؟

– لا، لا.

– حسناً، لنذهب. أركض.

ألقى كولوف بندقيّته على ظهره، وركض مُتخفياً وراء الأشجار. أما تليغين، فما أن خطا عشر خطوات حتى أحسّ بوخزة إصبعٍ حديديّةٍ كليلة على كتفه من الخلف.

١٧

وتبيّن أنها عتيقةٌ بالية كلّ التصورات التي تصوّر الحرب هجوماً جريئاً للفرسان ومسيراتٌ غير عاديّة، ومآثر بطوليّة للجنود والضباط.

إنّ الهُجوم الشهير لحرس الفرسان، حين اجتازت ثلاث سرايا مُترجّلة، حواجز الأسلاك الشائكة دون أن تطلق رصاصةٌ واحدة، وعلى رأسها آمر الفوج الأمير دولغوروكوف الذي كان يتخطّى

تحت نيران الرّشاشات والسيغار في فمه، ولسانه يُرسل الشتائم باللغة الفرنسيّة كالعادة، إنّ هذا الهُجوم قد أدى إلى أن يفقد حرس الفُرسان نصف عدده ما بين قتيل وجريح، ليستولي على مدفعين ثقيلين تبيّن أنهما قد عطلا بسبب قدمهما، وأنّهما كانا محميين برشاشٍ واحدٍ فقط.

وقد قال ضابط سريّة قوزاقيّةٌ في هذا الصّدد: "لو وُكّل الأمر إليّ لاستوليت على هذه النفاية بعشرةٍ من القوازق". واتّضح من الشّهور الأولى أنّ لا فائدة من شجاعة الجنديّ السابق، أيّ الرجل البطوليّ الضخم ذي الشاربين الذي يُجيد العدو على الفرس وفلق الهام بالسّيف دون أن يُهاب الرّصاص. فقد صار التّكتيك وتنظيم المؤخّرة يحتلان الصدارة في الحرب. وطُلب من الجنود أن يموتوا بصلابةٍ وطاعة في الأماكن المُحدّدة على الخريطة. ونشأت الحاجة إلى عساكر مُقتدرين على الاختفاء، والتّخندق في الأرض، والتلاشي مع لون الغبار. ونُسخت كلياً القواعد العاطفيّة التي وضعها مؤتمر لاهاي حول ما يجوز وما لا يجوز في القتل. وتشتتت مع هذه الورقة المُمزّقة بقايا الأصول الخلقيّة التي لم تعد لأحدٍ حاجةٌ إليها.

وهكذا فإنّ الحرب قامت، خلال بضعة شهور، بعمل كامل. وحتى ذلك الحين كان الكثيرون ما يزالون يعتقدون بأنّ الحياة الإنسانيّة تحكمها قوانين الخير السامية. وأنّ الخير مُنتصرٌ على الشر في آخر المطاف لا محالة وستبلغ الإنسانيّة الكمال. ولكن لقد كان ذلك من بقايا القرون الوسطى التي أوهنت الإرادة، وأعاقت سير الحضارة. والآن، وأصبح واضحاً حتى للمثاليين الراسخين في المثاليّة أنّ الخير والشّر هما مفهومان فلسفيان محض، وأنّ العبقريّة الإنسانيّة قد دخلت في خدمة سيدٍ خبيث...

لقد كان ذلك زمناً أُوحي فيه حتى للأطفال الصغار أنّ القتل والتّدمير والقضاء على أمم بكاملها هي أفعالٌ شجاعةٌ مُقدّسة. وكانت الصحف بملايين النّسخ تردّد ذلك يومياً وتزعق به وتدعوا إليه. وكان خبراءٌ خصوصيون يتناوبون كلّ صباح بنتائج المعارك. وكانت الصّحف تنشر تنبّوات المتنبّئة الشهيرة مدام تيب. وظهر العديد من العرّافات والعرّافين والمُنجمين والعارفين بالغيب. ونقصت البضائع، وارتفعت الأسعار، وتوقّف تصدير الخامات من روسيا. وكانت ثلاثة موانئ في الشمال والشرق–وهي المنافذ الوحيدة الباقية للبلاد المُغلقة والمُنعزلة انعزالاً تاماً–لا تستقبل غير القذائف وأسلحة الحرب. وأهملت زراعة الحقول. وشاعت المليارات من العملة الورقيّة في الريف حتى صار الفلاحون يبيعون القمح بلا رغبة.

في المؤتمر السريّ المُنعقد في استوكهو لم لأعضاء العُصبة الصوفيّة السريّة لأنصار "الحكمة الإنسانيّة" قال مؤسّس هذه الجماعة أنّ الصراع الرّهيب الذي يجري في الأجواء العُليا قد انتقل إلى الأرض الآن، وستحدث كارثةٌ عالميّة، وستكون روسيا ضحيّةً للتكفير عن الأوزار. وبالفعل كانت جميع الأفكار العقلانيّة تغرق في أقيانوس من الدّم يغمر خطّ الجبهة الهائل الممتد ثلاثة آلاف فرسخ والذي يطوّق أوربّا. وما من عقلٍ كان قادراً على أن يوضح لماذا تُدمّر الإنسانيّة نفسها في عنادٍ بالحديد والدّيناميت والمجاعة. إنّ دمامل مُتقيّحة تعود إلى الزّمن الغابر كانت تنفجر. كان الجميع يُعاني تركة الماضي. ولكن حتى هذا لم يكن ليوضح شيئاً. وبدأت المجاعة في أقطار. وتوقّفت الحياة في كلّ مكان. وأخذت الحرب تبدو الفصل الأوّل فقط من تراجيديا.

وأمام هذا المشهد كان الفرد الذي اعتُبر إلى فترة وجيزة "عالماً صغيراً" وشخصاً مُتضخّماً، كان كلّ فردٍ يتضائل ويتحوّل إلى ذرّة

غبارٍ لا حول لها. وخرجت الجماهير البدائيّة إلى أضواء المسرح التراجيديّ لتحلّ محلّه.

وكان حظّ النساء أثقل الحُظوظ. لقد كانت كلّ واحدة منهنّ وفق ما خصّت به من جمال وسحر وذكاء، قد نسجت لنفسها شبكةً عنكبوتيّة من خيوط دقيقة متينة بما فيه الكفاية بالنسبة للحياة الاعتياديّة. وكان كلّ من كتب له أن يسقط فيها يطنّ طنيناً مُسلّياً على أيّة حال.

إلا أنّ هذه الحرب قد هتكت الشبكات أيضاً. وكان من المُستحيل حتى التفكير في نسجها من جديد في ذلك الزّمن القاسي. فلا بُدّ من انتظار أزمان أفضل، فظلّت النّساء ينتظرن بصبر، وكان الزمن ينقضي، وأعوام النّساء المعدودة تمضي قاحلةً حزينة. أصبح الأزواج والعُشاق والإخوان والأبناء–الذين صاروا الآن مُجرّد أرقام، وحداتٌ تجريديّةٌ محض–يرقدون تحت حدبات ترابيّة في الحقول على مشارف الغابات، وعند الطّرق. وكان من المُستحيلٍ على أيّة جُهود أن تزيل الغُضون الجديدة المُتزايدة من وُجوه النّساء الشائخة قبل الأوان.

١٨

– قلت لأخي: إنّك جامد العقيدة. أنا أكره الاشتراكيين الديموقراطيين، سيتعذّب الشخص في حكمكم، إذا زلّ في كلامه. أنت إنسانٌ نجميّ. عندئذ طردني من البيت. وها أنا في موسكو بلا نُقود. إنّها لقضيّةٌ مسليّةٌ جدّاً. أرجوك، يا داريا دميتريفنا أنْ تطلبي إلى نيقولاي إيفانوفيتش أنْ يجد لي عملاً. وسيان عندي أيّ عمل، وأفضل كلّ شيء، بالطبع، أن يكون في قطار الإسعاف.

– حسناً، سأقول له.

– ليس لي أحــدٌ من المعارف هنا. هل تذكريــن "مجمّعنا المركزيّ؟ يقولــون أنّ فاسيلي فنيامينوفيتش فاليت قد رحــل إلى مكانٍ ما، يبدو في الصين... سابوجوكــوف في مــكان ما في الجبهــة، وجيروف في القفقاســ يُحاضر عن المُستقبليّة. وأنــا لا أعرف أين تليغين. يبدو أنّك كنت من معارفه المُقربين؟

ســارت يلزافيتا كييفنا وداشا ببطء في شارع جانبيّ بين أكوام الثلج العاليــة. وكان الثلج يتساقط ندفاً صغيرة، ويهسّ تحت الأقدام. أخرج سائق زلاجة واطئة حــذاءه اللباديّ المُتصلّب من مقعده، ومرّ في عدوٍّ بطيء. وقالَ:

– أوانس، حذار من السحق!

في ذلك الشتاء تساقط الثلج بوفرة كبيرة. وكانت أغصان الزيزفون في ذلــك الشارع تتدلى وهــي مغطاةٌ بالثلج. وكانــت السماء البيضاء الثلجيّــة بكاملها حافلــةٌ بالطيور. وكانت غربــان الكنيسة تطير فوق المدينة ناعبة وبأســرابٍ مُتناثرة، وتحطّ على الأبــراج والقباب، وتحلّق في العلوّ الزمهريري.

توقّفت داشا عند مُنعطف، وعدّلت لفاعها الأبيض. وكان معطفها من جلــد عجل البحر وموفــة اليدين الفرائيّة قد تغطّيــا بالثلج. وكان وجهها قد أصابه نُحول، وعيناها قد اتّسعتا وازدادتا صرامة. قالت:

– إيفان إيليتش مفقود. وأنا لا أعرف شيئاً عنه.

ورفعــت داشا عينيها، ونظرت إلى الطّيور. لا بدّ أنّ الغربان كانت جائعةً في المدينة المكسوّة بالثّلج.

وقفــت يلزافيتــا كييفنــا وعلــى شفتيهــا الحمراوين جــداً ابتسامةٌ

متجمّـدة، وأطرقت برأسها المُعتمر بقبّعة أذنيّة. وكانت ترتدي معطفاً رجاليـاً ضيقاً عليها عنـد النهدين، ذا ياقة فرائيّـة مفرطة في عرضها، وكمّين قصيرين لا يُغطيان يديها المحمرّتين. وكانت بعض ندف الثّلج تذوب على رقبتها المُصفرّة قليلاً.

قالت داشا:

– سأتحدّث هذا اليوم مع نيقولاي إيفانوفيتش.

– أنا أقبـل بأيّ عمل–قالت يلزافيتا كييفنـا، ونظرت إلى قدميها، وهـزّت رأسها–لقد أحببـت إيفان إيليتشـ حُباً شديداً، حُبـاً شديداً جداً–وضحكت، واغرورقت بالدّموع عيناها القصيرتا النّظر–إذن، سآتي غداً. إلى اللقاء.

ودّعـت، وانصرفـت تخطو خطـوات عراضاً بحذائهـا اللبادي، حاشـرةً يديها المُتجمّدتين في جيبيها كما يفعـل الرّجال. نظرت داشا في أثرهـا، ثـمّ قطبت حاجبيهـا، واستـدارت في المُنعطف، ودخلت الفيـلا الذي تستخدم الآن مُستشفىً عسكرياً للمدينة. هنا، في غرف الفيلا العالية السّقوف، المُغطاة بخشب البلوط، الفواحة برائحة اليود كان الجرحـى الحليقوا الرّؤوس منطرحين علـى أسرّة أو قاعدين، وقد ارتدوا ثياب المُستشفى. وكان إثنـان يلعبان الداما عند النافذة. وكان شخصٌ آخر يذرع الغرفة من ركن إلى ركـن وهو يمسّ الأرض بنعليه مساً رقيقاً. وحـين ظهرت داشا ألقي عليها نظرةً سريعة وغضّن جبينه المُنخفض، واستلقى على سريره مُلقياً يديه وراء رأسه.

نادى صوتٌ واهن:

– يا مُمرّضة!

اقتربـت داشا من شابٍ ضخمٍ مُنتفـخٍ ذي شفتين سميكتين. فقال هذا متأوّهاً بعد كلّ كلمة:

– أديريني على الجنب الأيسر، بحقّ المسيح.

أمسكته داشا، ورفعته بكلّ قوّتها، وقلبته كالزكيبة.

– حان وقت قياس حرارتين يا مُمرّضة.

نفضت داشا محراراً، وحشرته تحت إبطه.

– أنا أتقيّأ، يا مُمرّضة. ما أن آكل كسرة خبزٍ حتى أفرغ كلّ شيء. كلّ هذا فوق طاقتي.

غطّته داشا ببطانيّة، وانصرفت عنه. لاحت ابتساماتٌ على وجوه المرضى في الأسرّة المُجاورة، وقال أحدهم:

– إنه يتظاهر من أجلك، وإلا فهو مُعافى كالثور.

وقال صوتٌ آخر:

– اتركوه يضطرب فهو لا يؤذي أحداً. إنه شغلٌ للممرّضة ومُتعةٌ له.

– يا مُمرضة، هذا سيمين يُريد أن يسألك عن شيءٍ ولكنه يستحي.

تقدّمت داشا من رجلٍ كان قاعداً على سريره له عينان مرحتان مُستديرتان كعيون الغربان، وفمٌ صغير كفم الدّب. وقد مشّط لحيته الضخمة المُستديرة كالمروحة. رفع لحيته، ومطّ شفتيه باتّجاه داشا.

– إنّهم يضحكون، يا مُمرّضة. أنا مُرتاحٌ من كلّ شيء، ممتنٌّ تماماً.

ابتسمت داشا. وزايل قلبها الثّقلُ الذي كان يجثم عليه قبل حين. جلست على حافّة سرير سيمين. طوت كُمّ الجريح، وأخذت تُعاين ضمادته. فراح هذا يصف لها مواضع الألم فيه بالتفصيل. كانت داشا قد وصلت إلى موسكو في تشرين الأوّل، حين دخل نيقولاي إيفانوفيتش في فرع موسكو من الاتحاد البلدي للدفاع محمولاً بدوافع

وطنيّة. وقد أعطى شقّته في بطرسبورغ إلى إنجليز من البعثة العسكريّة، وعاش مع داشا في موسكو حياةً بسيطة، فكان يرتدي سترةً من الشاموا، ويشتم المُثقفين الناعمين، ويعمل كالحصان، على حدّ تعبيره.

وكانت داشا تدرس القانون الجزائي، وتقوم بشؤون المنزل الصغير، وتكتب لإيفان إيليتش كلّ يوم. وكانت مُطمئنّة النفس مستورة. وبدا الماضي بعيداً وكأنّه يعود إلى حياة شخص آخر. كانت وكأنها تعيش بنصف وجودها مُفعمةً بالقلق وانتظار الأخبار، والحرص على أن تحفظ نفسها لإيفان إيليتش في طهارةٍ وصرامة.

في بداية تشرين الثاني، وبينما كانت داشا تقلب صحيفة "الكلمة الروسيّة" وهي تحتسي قهوتها رأت إسم تليغين في قائمة المفقودين. كانت القائمة تشغل عمودين ببنط صغير. مرّت داشا على أسماء الجرحى، وأسماء القتلى، ورأت إسم تليغين المُلازم الثاني في آخر قائمة المفقودين.

وهكذا كان النّبأ الذي سوّد كلّ حياتها لا يشغل إلا سطراً واحداً من البنط الصغير. وشعرت داشا بأنّ كلّ هذه الحروف الصّغيرة، والسطور الجافة، والأعمدة والعناوين تمتلئ بالدم. كانت هذه لحظةٌ من الرّعب لا توصف، فقد تحوّلت صفحة الجريدة إلى الشيء الذي كانت تكتب عنه، إلى كتلة شريرة دامية تفوح بالموت، وتزأر بأصوات خفيّة. هزّت القشعريرةً داشاً. وحتى يأسها غرق في هذا الرّعب الحيوانيّ والغثيان. انطرحت على الأريكة، وغطّت نفسها في معطفها. جاء نيقولاي إيفانوفيتش عند الغداء، وجلس عند قدمي داشا، ومسّد عليهما صامتاً، قائلاً:

– انتظري، يا داشا، المُهمّ أن تنتظري. إنّه مفقود، والظاهر إنّه وقع في الأسر. وأنا أعرف ألف حالةٍ مُشابهة.

وفي الليل رأت في حلمها رجلاً في قميص جنديٍّ جالساً على سريرٍ حديديّ في حجرة فارغة ضيقة يغطي نافذتها نسيج العنكبوت والغبار. وكان وجهه الرماديّ يتلوى من الألم. وكان يشدّ على جمجمته الصلعاء بكلتا يديه، ويقشّرها وكأنها بيضة، ويأخذ ما تحت القشرة ويأكله، داساً أصابعه في فمه.

صرخت داشا في الليل صرخةً جعلت نيقولاي إيفانوفيتش يجد نفسه عند سريرها مُغطىً ببطانيّة، وقضى وقتاً طويلاً قبل أن يُقنعها على أن تقول ما حصل. ثمّ وضع قطرات الناردين في قدح، وقدّمه لتشربها داشا، وشرب هو أيضاً.

كانت داشا، وهي جالسةٌ على سريرها، تدقّ صدرها بأصابعها المضمومة، وتقول بخفوتٍ ويأس:

– لا أستطيع أن أعيش بعد الآن. افهمني، يا نيقولاي، لا أستطيع، ولا أريد.

كان من الصّعب جداً أن تعيش بعد ما حدث، ومن المُستحيل أن تعيش كما كانت تعيش قبل هذا.

مسّت الحرب داشا بإصبعها الحديديّة لا غير، والآن صار كلّ الموت وكلّ الدّم من نصيبها. وحين مرّت الأيام الأولى من اليأس الحادّ اتّخذت داشا الشيء الوحيد الذي تستطيع أن تفعله: اجتازت الدورة المُستعجلة للمُمرضات، واشتغلت في مستشفىً عسكريّ. في بادئ الأمر واجهت صعوبةً كبيرة. فقد كان يأتي من الجبهة جرحى لم يغيّروا ضماداتهم أياماً عديدة. وكانت ضمادات الشاش ترسل رائحةً كريهة تبعث الدّوار في المُمرضات. وأثناء العمليات كان على داشا أن تُمسك بالأرجل والأيدي المُسودّة التي كان يتساقط من جراحها قطعٌ متخثّرة من الدّم والقيح، وعرفت كيف يكزّ الرّجال الأقوياء على

أسنانهـم، وترتعشـ أجسامهم عاجزةً عن تحمّـل الا لم. وكانت تلك العذابـات من الكثرة بحيث لم تكـن تكفيها كلّ الرحمة الموجودة في هـذه الدّنيا لتشفق عليها. بـدا لداشا أنّها قد ارتبطـت إلى الأبد بهذه الحيـاة المُشوّهة المُدماة، ولا حيـاة أخرى غيرها. كانت ظليلة المصباح الخضـراء تشتعل في حجرة الخفـارة الليليّة، وتترامى مـن وراء الجدار تمتمة شخص في هذيانه. وكانت القوارير تصطكّ على الرّف حين تمرّ سيارة في الشّارع. ويصبح هذا الانسحاق جزءاً من الحياة الحقيقيّة.

وكانت داشا تسترجع الماضي، وهي جالسةٌ إلى منضدة في حجرة الخفارة ليلاً، فيلوح لهـا كالحلم في وضوح مُتزايد. لقد عاشت، كما عاشـ الجميع، مفتونةً بنفسها، مُتعاليـة، وإذا بها تجد نفسها تهبط من السّحـب لتسقط في الدّم، في الوحـل، في هذا المُستشفى العسكريّ، حيـث رائحة الجسد العليـل وحيث يئنّ الناس في نومهـم أنيناً ثقيلاً، ويهـذرون ويتمتمـون. وها هو الجنـديّ التّتري يحتضـر، وبعد عشر دقائق سيتعيّن عليها أنْ تذهب إليه وتحقنه بالمورفين.

أقلق داشا لقاؤها اليوم مع يلزافيتا كييفنا. كان اليوم مُتعباً، فقد جلبوا ممـن غاليسيا جرحى مُتخنين، حتى اضطروا إلى قطع كفّ أحدهم من الرّسـغ وبـتر ذراع آخرٍ من الكتف، وكان اثنـان منهم يهذيان هذيان الاحتضار. وقد تعبت خلال اليوم، ومع ذلك فقد ظلّت يلزافيتا كييفنا عالقةً في ذهنهـا بيديها المحمرّتـين، ومعطفها الرّجـاليّ، والابتسامة البائسة، والعينين الوديعتين.

جلســت داشا في المسـاء لتستريح، وحدّقـت في الظّليلة الخضراء، وفكّـرت في أن تكـون تلك المقدرة على البـكاء في مُنعطف الطريق، وعلـيّ القول لشخصٍ غريب: "أحببت إيفان إيليتش حباً شديداً، حباً شديداً جداً..."

قعدت داشا على مقعد كبير مائلة إلى جنب تارة، وضامّة رجليها تارةً أخرى، وفتحت كتاباً–هو تقريرٌ عن "نشاط الاتّحاد البلديّ" خلال ثلاثة أشهر–أعمدةٌ من الأرقام والكلمات غير المفهومة كلياًن ولكنها لم تجد في الكتاب سلوى. نظرت إلى الساعة وتنهّدت ثمّ مضت إلى غرفة الجرحى.

كان الجرحى نائمين، والهواء خانقاً. وكان مصباحٌ شاحب الضوء موضوعٌ داخل طوق الثريا الحديديّن يشتعل على ارتفاع عالٍ تحت السّقف البلوطيّ. وكان الجنديّ التّتري الشاب الذي بتِرت ذراعه يهذي مقلباً رأسه الحليق على الوسادة. رفعت داشا قارورة الثّلج من الأرض، ووضعتها على جبينه المُلتهب، وعدّلت بطانيّته. ثمّ طافت على الأسرّة كلّها وجلست على مقعدٍ مُنخفض، طاويةً يديها على ركبتيها.

وقالت لنفسها "إنّ قلبي غير مُتمرّن. تعلّم فقط أن يحبّ الرّشيق والجميل. و لم يتعلّم أن يشفق ويحبّ ما لا يُحبّ". وسمعت صوتاً رقيقاً يقول: أتريدين أن تنامي يا مُمرّضة؟ فالتفتت. كان سيمين ذو اللحية ينظر إليها من سريره.

سألته داشا:

– لماذا غير نائم؟

– نمت في النهار.

– هل توجعك يدك.

– هدأت...يا مُمرضة.

– نعم؟

– إنّ وجهــك يبدو صغيراً. ألعلّكِ تريديــن النّوم؟ اذهبي لتأخذي غفوة! وسأراقب أنا، وأدعوك إذا دعت الحاجة.

– لا، لا أريد النوم.

– هل لديك أقاربٌ في الجبهة؟

– خطيبي.

– يحفظه الله.

– إنه مفقود.

– آي، آي–وهزّ سيمــين لحيته، وتأوّه–أخي الصغير كان مفقوداً، وبعد ذلك تلقينا رسالةً منه. إنّه أسير. وهل خطيبك رجلٌ طيّب؟

– طيّبٌ جداً جداً.

– ربما سمعت به. ما اسمه؟

– إيفان إيليتش تليغين.

– سمعــت. انتظري على مهلك. لقد سمعــت أنّه وقع في الأسر. في أيّ فوج؟

– فوج قازانسكي.

– إنــه بالذات أسـير، وحيٌّ يرزق. إنــه إنسانٌ طيّــب! لا بأس، يا مُمرّضــة، ما عليك إلا أن تنتظري. ستنتهــي الحرب مع اقتراب الرّبيع. سنتصالح. ستلدين له أبناء. ثقي بي.

استمعــت داشا إليه، والدّمــوع في حلقومها. وكانــت تعرف أنّ سيمين يلفّــق كلّ شيء، وهو لا يعرف إيفان إيليتش. ومع ذلك كانت مُمتنّةً له. قال سيمين بصوتٍ خفيض.

– آه، يا مسكينتي...

ولما عادت إلى حجرة الخفارة، وجلست على المقعد واضعةً وجهها على ظهره. أحسّت وكأنهم قد قبلوها معهم في ودّ وهي الغريبة، قائلين لها: ابقي معنا. وبدا لها أنها الآن تشمل بحنانها كل الجرحى والنائمين. ومع حنانه وتصوراتها تخيّلت فجأةً وبوضوح شديد أنّ إيليتش هو أيضاً ينام ويتنفّس مثل هؤلاء على سريرٍ ضيّقٍ في مكانٍ ما...

أخذت داشا تروح وتجيء في الحجرة. وفجأةً رنّ التلفون وبعث في جسمها رعدةً قويّة. فقد كان رنينه حاداً جداً وغليظاً في السّكون الغافي. لا بدّ أنهم جلبوا جرحى آخرين في القطار الليلي.

– نعم.

ردّت داشا، فسمعت في السماعة صوتاً نسائياً رقيقاً مُنفعلاً:

– أريد أن أُكلّم داريا دميترييفنا بولافيتا.

– هذه أنا–ردّت داشا، وخفق قلبها خفقاناً شديداً–من أنت؟.. كاتيا؟......كاتيوشا؟ أهذه انت؟...عزيزتي!..

١٩

– ها نحن سويّةً من جديد، يا فتيات–قال نيقولاي إيفانوفيتش، ساحباً سترته الشّموا على بطنه وأمسك حنك يكاترينا دميترييفنا، وقبّلها من خدّها قبلةً رنانة قائلاً: –صباح الخير، يا حلوة، كيف نمت؟

ومرّ بداشا جالسةً على مقعدها، فقبّلها من شعرها.

– أنا وهي الآن على أتمّ وفاق، يا كاتيوشا. إنها فتاةٌ رائعة، مُحبّةٌ للعمل.

وجلس إلى المائدة المُغطاة بمفرشٍ ناصع البياض، وقرّب منه كأس البيضة الصينية التي وضعت فيها بيضة، وأخذ يكسر رأسها.

– تصوّري، يا كاتيوشا، أنني أحببت البيض على الطريقة الانجليزيّة مع الخردل والزّبدة، فإنه لذيذٌ جداً. أنصحك بأن تجرّبيه. أما في ألمانيا فيعطون لكّ فردٍ بيضةً واحدةً مرتين في الشهر، فما رأيك في ذلك؟

وفتح فمه الواسع، وضحك.

– إنّ هذه البيضة ذاتها ستسبب الخراب لألمانيا. يقولون أنّ الأطفال أخذوا يلدون عندهم بلا جلود. كان بسمارك يقول لهؤلاء الحمقى يجب أن يعيشوا مع روسيا في سلام. و لم يصغوا. واحتقرونا. والآن تفضّلوا، بيضتان في الشّهر.

قالت يكاترينا دميتريفنا، وهي تخفض رأسها:

– إنه لشيءٌ مُريع أن يولد الأطفال بلا جُلود، مُريعٌ أينما وُلد هؤلاء الأطفال، سواءً عندنا أو عند الألمان.

– اعذريني، يا كاتيوشا، أنت تتكلّمين سخافة.

– أنا أعرف فقط أنّ من الفظاعة أن يُقتل الناس كلّ يوم، فظاعةٌ مريعة تسلبك الرغبة في أن تستمرّ في العيش.

– وما العمل، يا عزيزتي؟ إنّ المرء يضطرّ إلى أن يفهم من مُعاناته الخاصة ما هي الدولة. كنا نقرأ فقط عند أيلوفايسكي وأضرابه من المؤرخين كيف قاتل الفلاحون دفاعاً عن أراضيهم في معارك

كوليكوفو[٨] وبورودينو[٩]. وكنا ننظر إلى الخارطة، ونقول لأنفسنا: "آه، ما أكبر روسيا!". والآن علينا أن نُقدّم نسبةً معيّنة من الحيوات للحفاظ على سلامة تلك التي تلون في الخرائط باللون الأخضر، وتمتدّ عبر أوروبا كلّها وآسيا. إنّه لشيءٌ مُقبض. سأتّفق معك إذا قلب أنّ جهاز الدّولة عندنا سيء. والآن، حين أخرج لأموت في سبيل الدّولة فأنا قبل كلّ شيء أسأل أولئك الذين يرسلونني إلى الموت: هل أنتم ذوو القوّة القاهرة لحكمة الدّولة. وهل أستطيع أن أُريق دمي بارتياحٍ في سبيل الوطن؟ نعم، يا كاتيوشا، ما تزال الحكومة على عادتها القديمة في النّظر شزراً إلى المُنظمات الاجتماعيّة. ولكن أضحى واضحاً أنها لا تستطيع الآن الاستغناء عنا أبداً. نحن نتدخّل شيئاً فشيئاً في شؤون الدّولة. أنا مُتفائلٌ جداً.

ونهض نيقولاي إيفانوفيتش، وتناول علبة كبريت من رفّ قشرة البيضة، وتابع كلامه قائلاً: لن يذهب الدّم المُراق جزافاً. وأشعل سيكارته واقفاً، وألقى عود الثقاب المُنطفئ في الموقد، وستنتهي الحرب بأن يقف وراء دفّة الدولة أخونا، رجل المُجتمع. ستفعل الحرب ما أخفقت عن فعله جماعة "الأرض والإرادة"، والثوريون والماركسيون. مع السلامة، يا فتيات.

٨- معركة كوليكوفو (عام ١٣٨٠) معركةٌ تاريخيّة انتصرت فيها القوات الروسيّة بقيادة الأمير دميتري دولسكوي على جحافل التتار تحت قيادة خان ماماي انتصاراً عظيماً (المُترجم).

٩- معركة بورودينو (عام ١٨١٢) من أعظم معارك الحرب الوطنيّة الروسيّة بين القوات الروسية تحت قيادة ميخائيل كوتوزوف والقوات الفرنسية بقيادة نابوليون الأول. وقد وقعت في ضواحي موسكو وأصبحت انعطافاً في سير الحرب لصالح القوات الروسيّة وحددت حتميّة هزيمة جيش نابوليون؟ (المُترجم).

وعـدّل سترتـه، وخرج، وبدا من ظهـره مثل امرأةٍ بدينـة متنكّرةٍ بلباسٍ رجاليّ.

تنهّـدت يكاترينـا دميتريفنا، وجلست عند النافـذة مع حياكتها. وجلسـت داشا إلى جانبها على ذراع المقعـد، وطوّقت كتفي أختها. كانت كلتاهمـا في ثوب أسود عالي الرقبة، إنهمـا الآن في جلستهما الصامتـة الهادئة هـذه مُتشابهتان جـداً. كانت نـدف الثّلج الصغيرة تتساقط ببـطء وراء النافذة، وكان الضوء الثلجي الصافي ينعكسُ على جدران الغرفة. ضغطت داشا بخدها على شعر كاتيا المُعطّر قليلاً بعطرٍ غير مألوفٍ لها.

– كاتيوشا، كيف قضيت تلك المدّة؟ إنك لا تحدثينني بشيء.

– وعمّ أحدّثك، يا قطيطة؟ لقد كتبت لك.

– ومع ذلك، فأنا لا أفهم. إنك، يا كاتيوشا، جميلة ساحرة، طيّبة. أنـا لا أعـرف امرأةً أخرى على غرارك. ولكن لمـاذا لا تبدين سعيدة؟ وعيناك دائماً حزينتان؟

– أظنّ أنّ قلبي تعيس؟

– لا، انا أسألك جادّة.

– أنا نفسي دائمة التفكير في ذلك، يا أختي، من المرجّح أنّ الإنسان حين يمتلـك كلّ شيءٍ يشعر بتعاسة حقيقيّـة. إنّ لي زوجاً طيباً، وأختاً محبوبـة، وحريّة... بينما أعيش وكأنني في سـراب، وأسير كالشّبح... أتذكّـر أنني قلت لنفسي في باريس: ليتني أعيش في بلدةٍ صغيرة نائية، وأربـي الدواجـن، وأزرع الحديقـة بالخضـروات، وفي المسـاء ألتقي بصديقي العزيز وراء النهر... لا، يا داشا، إنّ حياتي قد انتهت.

– لا تتفوّهي حماقة، يا كاتيوشا.

نظرت كاتيا إلى أختها بعينين فارغتين شابتهُما دُكنة:

– أتعرفين أنني أتحسس ذلك اليوم نفسه. وأحياناً يتراءى لي بوضوح تلك الفرشة المُخطّطة، والمفرش المُنزلق، والحوض المملوء بالصفراءً التي تقيأتها... وأنا أرقد ميتة، صفراء، شائخة...

وأنزلت يكاترينا دميتريفنا طرّة الحياكة الصوفيّة، وحدّقت في ندف الثّلج المُتساقطة في السّكون الراكد. وفي البعيد، من تحت برج الكرملين المُستدقّ، من تحت النّسر الذهبيّ المقوّس الساقين كانت الغربان تحوم مثل سحابةٍ من الأوراق السوداء.

– أتذكّر، يا داشا، أنني استيقظتُ مرّةً في ساعة مبكّرة جداً من الصباح. وكانت باريس تبدو من الشرفة مُلفعةً كلّها بدخانٍ مزرقّ، ومن كلّ مكانٍ فيها كانت تتصاعد أدخنةٌ بيضاء ورماديّةٌ وزرقاء. وكان المطر قد هطل أثناء الليل، وفي الجوّ رائحة طراوةٍ وخضرة وفانيليا. وفي الشارع سار أطفالٌ يحملون كُتباً، ونساءً مع سلالهنّ، وقد فتحت حوانيت الأطعمة أبوابها. وبدا ذلك ثابتاً وسرمدياً. وراودتني الرغبة في أن أنزل إلى الأسفل، واختلط بالجمع، والتقى برجلٍ ذي عينين ودودتين، وأضع يدي على صدره. ولكن عندما نزلتً إلى الشوارع العريضة، كان الجُنون قد شمل المدينة كلّها. كان باعة الصّحف يركضون، وجماهير الناس المُضطربة في كلّ مكان. والصّحف كلّها تتشبّع برعبٍ وموتٍ وكراهية. لقد بدأت الحرب. ومنذ ذلك اليوم لم أسمع غير كلمةً..الموت، الموت...فعلام التّعويل بعد كلّ هذا؟..

صمتت داشا قليلاً، ونادت:

– كاتيوشا...

– ماذا، يا حبيبتي؟

– كيف أنت مع نيقولاي إيفانوفيتش؟

– لا أعرف. يبدو أنّ أحدنا صفح للآخر. انظري لقد مرّت ثلاثة أيام، وهو رقيقٌ جداً معي. لا مكان للحسابات النسائيّة. ومن يهتمّ بالمرأة حتى إذا فقدت عقلها ممّا تُعاني من عذاب؟ صوتي كطنين بعوضة ولا أكاد أسمعه. أنا أحسد العجائز، فهنّ يأخذن كلّ شيءٍ ببساطة: الموتُ قريبٌ منهن، لهذا فهنّ يتهيأن للقائه. غيّرت داشا جلستها على ذراع المقعد، وزفرت زفرات عميقة، وأنزلت ذراعها عن كتفي كاتيا، قالت يكاترينا دميرييفنا برقّةً:

– عزيزتي داشا، لقد أخبرني نيقولاي إيفانوفيتش بأنّك مخطوبة. صحيح؟ يا عزيزتي المسكينة! وتناولت يد داشا، وقبّلتها، ووضعتها على صدرها، وأخذت تمسّدها قائلة: أنا أعتقد بأنّ إيفان إيليتش حيّ. إذا كنت تحبينه جداً، فأنت في غير حاجةٍ إلى شيءٍ آخرٍ في الدنيا.

صمتت الشقيقتان مرّةً أخرى محدّقتين في الثّلج المتساقط وراء النافذة. مرّت في الشارع فصيلةٌ من طلاب المدارس العسكريّة تتزلّق أحذيتهم بين أكوام الثلج، وكان كلّ واحدٍ منهم يتأبّط ليفةً من أغصان البتولا وتبديلة ثياب داخليّة. كانوا ذاهبين إلى الحمام وكانوا يُنشدون نشيداً بحنجرة فقطٍ يتخلله الصفير:

حلقي، يا صقور، كالنسور

كفانا الحزن والكمد...

بعد غياب عدّة أيام عادت داشا مرّةً أخرى إلى العمل في المُستشفى العسكريّ. وبقيت يكاترينا دميتريفنا وحدها في الشقة التي كان كلّ شيءٍ فيها غريباً عليها: منظران طبيعيان مُملان معلقان على الحائط يصوران كومة دريس، وماءٍ متخلف من ثلجٍ ذائب يتجمّع بين أشجار

البتولا الجرداء. وفوق الأريكة في غرفة الطعام صورٌ فوتوغرافيّة لأناسٍ لا تعرفهم، وفي الزاوية حزمةٌ من عشب السهب المُغبر.

حاولت يكاترينا دميتريفنا أن تذهب إلى المسرح، حيث كان المُمثلون القدامى يمثلون مسرحيات لاوستروفسكي، وإلى معارض الصور والمتاحف، إلا أنّ كل ذلك بدا لها شاحباً ناصل الألوان، نصف ميّت، وبدت هي لعينيها شبحاً يطوف في عالمٍ هجره جميع الأحياء منذ زمان.

كانت يكاترينا دميتريفنا تقضي ساعات بكاملها جالسةً عند النافذة بالقرب من أنابيب التّدفئة المُشعة دفئاً، تنظر إلى موسكو الثّلجيّة الهادئة، حيث كان رنين أجاريس الكنائس الحزين يتردّد في الهواء الرقيق، ومن خلال الثلج المُتساقط ليعلن عن صلاةٍ تذكاريّة، أو عن جنازة لقتيل جلب من الجبهة. كان الكتاب يسقط من يديها. فعمَّ تقرأ الآن؟ وبم تحلم؟ وكم تبدو تافهةً الآن جميع الأحلام والأفكار السالفة!

وكان الوقت يمضي ما بين جريدة الصباح وجريدة المساء. وكانت يكاترينا دميتريفنا ترى جميع المحيطين بها يعيشون بالمستقبل وحده، بأيام تخيليّة من النصر والسلام. وكان كلّ ما يعزز هذه التوقعات يستقبَل بفرحٍ غامر، بينما كانت الإخفاقات تُسلّم الناس إلى الكآبة وتنكيس الرؤوس. وكان الناس كالمجانين في تسقطهم للإشاعات، ونتف العبارات، والأنباء غير المُحتملة، وفي التهابهم بما تنشره الصحف.

وأخيراً قرّرت يكاترينا دميتريفنا أن تتحدّث مع زوجها طالبةً إليه أن يجد لها عملاً. وفي بداية آذار بدأت العمل في نفس المُستشفى الذي كانت داشا تعمل فيه.

وفي الأيـام الأولى شعرت بما شعرت بـه داشا من نُفورٍ من القذارة والعـذاب. إلا أنها تغلّبت على نفسهـا، واستأنست بالعمل تدريجياً. وقد بـثّ هذا التغلّـب على نفسها الفـرح في أعطافهـا. ولأوّل مرّةٍ أحسّت بدنوها من الحيـاة المُحيطة بها. وأحبّت العمل القذر المُتعب، وأشفقت على الذين تعمل لهم. وذات مرّةٍ قالت لداشا:

– لماذا قالوا بوجوب أن نعيش حياةً مصفّاة غير اعتياديّة؟ نحن من حيث الجوهر، امرأتان كبقيّة النساء. وبحاجةٍ إلى زوجين أكثر بساطة، وأطفالٍ أكثر، وعيشةٍ أقرب إلى الطبيعة.

في أسبـوع الآلام زارت الشّقيقتـان كنيسـة نيقـولا بقـرب محطّة رجيفسكي. وأخذت يكاترينا دميترييفنا معها طعام عيد الفصح المُعدّ للمُستشفـى لتباركه في الكنيسـة، وفطرت مع داشـا في المُستشفى. وكان علـى نيقولاي إيفانوفيتش أن يحضـر اجتماعاً استثنائياً في تلك الليلـة فجـاء في سيارة بعـد الساعة الثانيـة ليلاً ليأخـذ الشقيقتين من المُستشفـى. قالت يكاترينـا دميترييفنا أنّها وداشـا لا تشعران بنعاس، وطلبـت أن يأخذهما في جولةٍ في السيـارة. وكان ذلك غير معقول، إلا أنهـم قدّموا للسائق قدح كونياك، وذهبوا إلى منطقة خودينسكويه بوليه، في أطراف موسكو.

كانـت في الجوّ لذعة من القرس بـرّدت الوجنات. والسماء خالية من الغيوم، فيها القليل مـن النّجوم المُتلألئة. وكان الجليد يتكسّر تحت عجـلات السيارة. وكانت كاتيا وداشا تضغط إحداهما على الأخرى في مقعـد السيارة العميق، كانت كلتاهمـا في منديلٍ أبيض، ومعطفٍ فرائي رمـاديّ. التفت نيقولاي إيفانوفيتش إليهما من مقعدٍ إلى دانبٍ السائق–كانت كلتاهما سوداء الحاجبين واسعة العينين.

فقال بصوتٍ خفيض:

– أوه، يا ربّي، لا أعرف أيكما زوجتي.

أجابت واحدةٌ منهما:

– لن تحزر.

وضحكت كلتاهما.

بدأت حوافي السماء تخضوضر قليلاً فوق الحقل الهائل المغبّش، وفي البعيد لاحت معالم سوداء للغابة "سيريبرياني بور". قالت داشا خافتة الصوت:

– كاتيوشا، كم أودّ أن أعشق!

فضغطت يكاترينا دميترييفنا على يدها ضغطةً خفيفة. لمعت نجمةٌ كبيرة فوق الغابة، في رطوبة الفجر الخضراء، وتماوج لمعانها، وكأنها تتنفّس.

– نسيت أن أقول لك، يا كاتيوشا–قال نيقولاي إيفانوفيتش، واستدار على المقعد بكلّ جسمه. –قبل حين وصل مندوبنا المفوّض تشوماكوف، وهو يقول أنّ الوضع في غاليسيا حرِجٌ جداً. الألمان يقذفوننا بنارٍ صاعقة، حتى أنهم يسحقون أفواجاً كاملة في ضربةٍ واحدة. ونحن نُعاني نقصاً في القذائف... اللعنة!..

لم تجب كاتيا، بل رفعت بصرها إلى النجوم. وضغطت داشا خدّها على كتفها بينما أطلق نيقولاي إيفانوفيتش لعناتٍ أخرى، وأمر السائق بالعودة إلى البيت.

في اليوم الثالث من عيد الفصح شعرت يكاترينا دميترييفنا بتوعّك ولم تخرج للخفارة، ولزمت الفراش. وتبيّن أنها مُصابةٌ بالتهاب الرّئتين، فلا بدّ أنّ برداً قد نفذ عميقاً في أوصالها.

٢٠

– تلك هي أوضاعنا، بالغة السوء.

– كفاك بحلقة في النار، اذهب لتنام.

– تلك هي الأوضاع...آه، يا إخواني، إنّ روسيا تضيع!

كانت ثلاثةٌ من الجنود يجلسون قرب نارٍ آخذة بالهمود عند حائط طينيّ لزريبةٍ مغطاة بسقفٍ من القشّ مرتفعٌ مثل كديسة تبن. كان أحدهم يُجفف لفافة ساقيه على أوتاد قرب النار، ويُراقبها لئلا تحترق. وكان الثاني يخيط رقعةً على بنطاله، ويسحب الخيط بحذر. أما الثالث، وهو مجدر الوجه، ذو أنف كبير ولحية سوداء هزيلة الشعر، فكان يُحدّق في النار بعينين غائرتين مأخوذتين، وقد طوى ساقيه وحشر يديه عميقاً في جيبي بنطاله. وقال بصوتٍ خفيض:

– الخيانة في كلّ مكان، تلك هي المسألة. ما إن تبدأ قواتنا بالتّفوّق حتى تؤمر بالانسحاب. نحن لا نعرف إلا أن نُعلّق اليهود على الأشجار، بينما الخيانة تعشّش في القمّة.

قال الجنديّ الذي كان يُجفّف لُفافة الساقين:

– قرفتُ من هذه الحرب تماماً، ولكن لا توجد جريدةٌ واحدة تكتب عن ذلك–ووضع عسلوجاً على الجمر بحذر وتابع قوله:

– نزلنا نُهاجم، ثم انسحبنا، وبعد ذلك عدنا إلى الهجوم، أوه، اللعنة عليهم جميعاً. وها نحن نعود إلى موقعنا السابق بنفس الوضع، بلا نفعٍ ولا جدوى!

وبصق في النار. وقال الجنديّ مُرقّع البنطال بضحكة هازئة دون أن يرفع رأسه من عمله:

– قبل حين جاء المُلازم الأوّل جادوف إليّ. لا بأس. ربما من الضّجر ضايقته الشياطين. فأخذ بدوره يُضايقني. ما سبب الثّقب في بنطالك؟ ولماذا تقف بهذا الشكل؟ فاعتصمت بالصّمت. وانتهى حديثنا بطريقةٍ بسيطةٍ جداً، بلطمةٍ على أسناني.

ردّ الجنديّ الذي كان يُجفّف لفافة الساقين:

– لا بنادق، ولا عتاد. وفي بطاريتنا لا توجد غير سبع قذائف لكلّ مدفع. فلا يبقى لهم إلا الضرب على الأسنان.

نظر مُرقّع البنطال إليه مُندهشاً، وهزّ رأسه بتأييد. وقال الجُنديّ ذو الشعر الأسود والعينين المُخيفتين:

– استدعوا جميع الرجال، وهم الآن يُجندون إلى سنّ الثالثة والأربعين. وبمثل هذه القوّة يُمكن اجتياح العالم كلّه. وهل نحن نرفض أن نُقاتل؟ شرط أن تؤدي واجبك، مثلما نؤدي واجبنا.

هزّ مرقّع البنطال رأسه:

– تماماً...

فقال أسود الشعر:

– لقد رأيت حقلاً قرب فارسوفيا كان يرقد على أرضه ما بين خمسة آلاف إلى ستّة آلاف مُقاتلٍ سيبيريّ. وجميعهم قتلى، مُرتمين مثل أحزمةٍ من القشّ. فلماذا؟ وما السّبب؟ سأقول لكم السبب... حين أخذ المجلس العسكريّ يُقرّر هذا وذاك من الأمور، خرج أحد الجنرالات من هناك في الحال وبعث برقيّةً سريّة إلى برلين، فهمت؟ وخرج الفيلقان السيبيريان من محطّة القطار واتّجها قدماً إلى

ذلــك الحقل، فــإذا بهما يقعان تحت نيران الرشاشــات المُباشرة. وأنت تحدّثنــي عن لطمــة أصابت أسنانك. عندما كنــت لا أركب النير على الحصــان بشــكلٍ جيّد، كان أبــي يأتي ويصفعني علــى وجهي، لكي يجعلني أتعلّم العمل أحسن وأشعر بالخوف. ولكن لأيّ شيء جندلوا المُقاتلــين السيبيريين كالخراف؟ لقد قلت لكم، يا أصحابي، إنّ روسيا قــد ضاعت. ونحن قــد غدر بنا جميعــاً. غدر بنا فلاحٌ هــو من أبناء قريتــي بوكروفسكويه، صعلوكٌ مُتشرّد. ولا أريد أن أذكر إسمه...إنه جاهل، مُشاكــس يتصنّع اللطافة، ترك العمــل، وأخذ يسرق الخيول، ويتردّد على الأديــرة، وتعلّق بالنساء وشــرب الخمور...وهو الآن في بطرسبورغ يعيشــ كالقيصر يرقص حوله الــوزراء والجنرالات، نحن نقتــل هنا بالآلاف، ونرقد على الأرض الرطبة، بينما هم يسحبون في الكهرباء في بطرسبورغ، ويشربون، ويأكلون، وينفجرون سمنة.

وسكــت فجأة. كان الصمت والرطوبــة يلفان الجو. ثم ترامى من الزريبــة صوت خيــول تقضــم بأسنانها، وارتطــام إحداها في الجدار ارتطامــاً خافتاً. هبط طائرٌ ليليّ مــن وراء السقف نحو النار، واختفى زاعقــاً زعيقاً شاكياً. وفي تلك اللحظة صــدر في السماء البعيدة، زئيرٌ هادرٌ مقترب، وكأنّ وحشاً كان ينطلق بسرعة لا تصدّق، شاقاً الظلام ببــوزه، وارتطم في مكان مــا، وفي البعيد، وراء الزريبة، اندلع انفجارٌ هزّ الأرض هزاً. ضربت الخيــول الأرض بحوافرها، ورنّت لجاماتها. قال الجنديّ مُرقّع البنطال مُرتاعاً:

– هذه هي الضربة!

– يا له من مدفع!

– انتظر!

رفع الثلاثة رؤوسهم. وصدر في السماء الخالية من النجوم صوتٌ

ثانٍ استمـرّ حوالي دقيقتين، ووقع الانفجار الثـاني في بقعة قريبة جداً وراء الزريبة، وبرزت أشباح الشوح المخروطيّة، واهتزّت الأرض مرّةً أخرى. وفي الحال سمعوا مسار القنبلـة الثالثة. وكان صوتها مُتقطّعاً ثقيلاً على السّمع يجلب الانتباه ويجعل القُلوب تتجمّد في الصّدور. نهض الجنديّ ذو الشعر الأسود مـن الأرض، وأخذ يتراجع. وانقضّ شيءٌ مـن الأعلى وانزلق كالـبرق الأسود، واندفـع إلى الأعلى عمودٌ ناريٌّ أسود بفرقعةٍ مدوّية.

وحين سقط العمود لم تبق إلا حفرةٌ عميقة في المكان الذي كان فيه الجنود والنار. وكان السقف القشـيّ يحترق مرسالاً الدخان الأصفر فـوق جـدار الزّريبة المُنهار. اندفـع حصانٌ طويل العـرف من اللهب شاخراً، مُنطلقاً نحو أشجار صنوبرٍ كانت بارزةٍ من الظلام.

وهنـاك، وراء حـوافي السهـل المُسنّنة أخذت تـبرق هالة النيران، والمدافع تهدر، وترتفـع الصواريخ مثل ديدان طويلة، فتضيء نيرانها، وهي تتساقط، الأرض الرّطبـة الداكنة. كانت القذائف تثقب السماء صافرةً، هادرة.

٢١

في ذلك المسـاء، وفي ملجأ للضباط يقع غير بعيد عن الزّريبة، كان ضبّـاط إحدى سرايا فـوج أوسولسكـي يقيمون حفلـةً بمناسبة تلقّي النقيب تيتكين خـبراً عن مولد طفلٍ له. كان قبو الملجأ الواطئ مُنغرزاً عميقـاً في الأرضـ يحميه سقفٌ ذو طبقات ثـلاث، وتضيؤه شموعٌ مغـروزةٌ بزجاجات، وقد جلس إلى مائدةٍ فيه ثمانية ضُباط، وطبيب، وثلاث مُمرّضاتٍ من مُستشفى الميدان.

شربوا كثيراً. وكان الأب السّعيد، النقيب تيتكين نائماً، وقد ألقى رأسه في صحن وضعت فيه فضلات الطّعام وتدلّت كفّه القذرة على رأسه الأصلع. وكانت المُمرّضات يبدون مليحات جداً بسبب انحباس الهواء، والخمرة، وضوء الشموع الناعم، وكنَّ يرتدين أثواباً رماديّة ومناديل رماديّة. كانت لإحداهنّ وتدّعي موشكا، عقصتان سوداوان من الشّعر عند صدغيها، وكانت تضحك دون كلل كاشفة عن حُنجرة بيضاء. كان جاراها وإثنان آخران يجلسانً قبالتها يُحدّقون فيها بنظرات ثقيلة. وكانت الثانية، ماريا إيفانوفنا، بدينةٌ تصل حُمرة خدّيها إلى حاجبيها، تجيد أداء الأغاني الغجريّة العاطفيّة بشكل مُدهش. فكان المُستمعون يخرجون عن أطوارهم، ويضربون على المائدة، مُردّدين: "آه، اللعنة، ما كان أبدعها من حياة!" أما ثالثة الجالسات إلى المائدة فهي يلزافيتا كييفنا. كانت أضواء الشموع تتفتّت في عينيها إلى ذرات ترابة صغيرة، وتشعّ فيهما فترى الوجوه بيضاء من خلال الدّخان، ووجّه جارها المُلازم الأوّل جادوف وحده كان يبدو مُخيفاً وجميلاً. كان رجلاً واسع المنكبين ضخماً، حليقاً وذا عينين شفافتين. وكان يجلس مُستقيم الجذع، ملفوفاً بحزامه لفاً قوايا، وقد أفرط في الشراب، ولم يسكر بل امتقع لونه فقط. وحين كانت موشكا السوداء الشعر تتهافت من الضحك، وماريا إيفانوفنا تتناول القيثار، وتمسح وجهها بمنديل مدعوك، وتُغنّي بصوت عميق حزين "ميلادي في سهوب مولدافيا" كان جادوف يبتسم بطرف فمه ابتسامةً بطيئة، ويصبّ لنفسه مزيداً من الخمرة.

كانت يلزافيتا كييفنا تُحدّق عن قربٍ في وجهه الصافي الخالي من كلّ تغضّن. وكان هو يُسليها بحديث لبق وغير جدّي. فقد روي لها، مثلاً، أنّ نقيباً يُدعى مارتينوف كانٍ يخدم في فوجهم اشتهر بأنّه كان جبرياً يؤمن بالقضاء والقدر، وبالفعل، عندما كان يحتسي شيئاً من

الكونياك كان يخرج ليلاً وراء الأسلاك الشائكة، ويقترب من خنادق العدوّ، ويشتم الألمان بأربع لُغات، وقبل أيام دفع ثمن غُروره بأن أصيب بجرحٍ في بطنه. تنهّدت يلزافيتا كييفنا، وقالت:

يعني أنّ النقيب مارتينوف بطل. فضحك جادوف بهزء:

– اعذريني، هناك مغرورون، وهناك حمقى، ولكن ليس هناك أبطال.

– ولكن أليست بطولةً أن تخرجوا في هُجوم؟

– أولاً، إنّهم لا يخرجون في هجوم، بل يُجبرون على الخروج، والذين يخرجون جُبناء. بالطبع، هناك أناسٌ يُجازفون بحياته دون إكراه، ولكن هؤلاء فيهم تعطّشٌ عضويّ إلى القتل–وهنا نقر جادوف الطاولة بأظافره الصلبة–هؤلاء الناس، على الأرجح، يقفون على أرفع درجةٍ من الوعي العصريّ.

ورفع جسمه قليلاً بخفّة، وتناول من طرف المنضدة البعيد علبةً كبيرة من حلوى الفواكه، وقدّمها إلى يلزافيتا كييفنا.

– لا، لا أريد–قالت وأحسّت بأنّ قلبها يخفق بشدّةٍ وجسمها يضعف–وأنت؟ حدّثني.

غضّن جادوف جلدة جبينه، وتغطى وجهه بغضونٍ صغيرةٍ مُباغتة جعلته يبدو عجوزاً. وكرّر بحدّة:

– وما هذا... وأنت؟ بالأمس رميت يهودياً وراء الزريبة. أتريدين أن تعرفي أهذا مُريحٌ أم لا؟ أيُّ هُراءٍ هذا؟

وأطبق أسنانه الحادّة على سيكارة، وأشعل عود ثقاب. كانت إصبعه المُسطّحة التي تمسك به قويّة إلا أنّ السيكارة لم تقع في لهب العود على أيّة حال، ولم تشتعل.

وقال، وألقى عود الثقاب الذي احترق حتى إظفره:

– نعم، أنا سكران. أرجو المعذرة. لنخرج إلى الهواء الطّلق. نهضت يلزافيتا كيفنا، وكأنما في نومها، وسارت خلفه في الفتحة الضيّقة المؤدّية إلى خارج الملجأ. لاحقتها صيحات السكارى المرحة. ضربت ماريا إيفانوفنا على القيثار، وغنّت بصوتٍ عميق: "كان الليل يعبق بنشوة اللذة..."

في الخارج كان الهواء مُشبّعاً برائحةٍ ربيعيّة قويّة للأوراق المُتفسّخة، وكان الظلام والسكون يلفان كلّ شيء. سار جادوف على العشب الرّطب بخطوات سريعة بعد أن دسّ يديه في جيبيه، وسارت يلزافيتا كيفنا مُتأخّرةً عنه قليلاً، والبسمة لا تُفارق ثغرها. وفجأةً توقّف جادوف، وسأل بنبرةٍ حادّة:

– ها، ما رأيك؟

كانت أذناها تلتهبان. سيطرت على انقباضٍ في حلقومها وأجابت بصوتٍ لا يكاد يُسمع:

– لا أدري.

– لنذهب.

وأومأ برأسه ناحية سقف الزريبة المسودّ. وبعد أن خطا عدّة خطوات توقّف ثانية، وشدّ بيده المُتثلّجة على ذراع يلزافيتا كيفنا بقوّة. وتحدّث بحرارةٍ مُباغتة:

– لي بنية الأرباب. أستطيع أن أشطر العُملة النّقديّة بيديّ إلى شطرين. وأنفذ ببصري خلال كلّ شخص، وكأنّه من زُجاج شفاف. ...أنا أكرههم! –وتلعثم وكأنّه تذكّر شيئاً، وضرب الأرضَ بقدمه– كلّ هذه القهقهات والأغاني، والأحاديث الجبانة وضاعة. إنهم جميعاً

مثـل ديـدانٍ في روثٍ دافئ... أسحقهـم... اسمعي.. أنا لا أحبّك: لا أستطيع! ولنً أحبّك... فلا تخدعي نفسك... ولكنني بحاجةٍ إليك.. أنا أكره هـذا الإحساس بالتّبعيّة... يجب أن تفهمي... وحشر يديه تحت مرفقي يلزافيتا كييفنا، وجذبها بقوّة، وأطبق على صدغها شفتيه الجافتين الحارتين كالجمر.

واندفعت يلزافيتا كييفنا لتحـرر نفسها، إلا أنّه كان يعصرها بقوّة، حتـى أنّ عظامها قد قرقعت، فألقـت رأسها إلى الخلف، وتدلّت ثقيلةً بين يديه. قال لها:

– لست مثل الأخريات. سأعلمك...

وصمـت فجـأةً، ورفّ رأسـه. كان صوتٌ حادّ نافـذ يتنامى في الظلمة. قال جادوف من خَلل أسنانه:

– أوه، اللعنة!

وفي الحـال دوّى انفجارٌ على مسافةٍ بعيدة. اندفعت يلزافيتا كييفنا مرّةً أخرى، إلا أنّ جادوف كان يعتصرها بقوّةٍ أشدّ. قالت باستماتة:

– اتركني!

انفجـرت قنبلـةٌ ثانية. واستمرّ جـادوف يُتمتم بشيءٍ مـا، وفجأةً تصاعـد عمودٌ ناريٌّ أسود على مقربةٍ كليّة وراء الزريبة، وأرسل دويّ الانفجار حزم القشّ المُحترقة عالياً في الهواء.

أفلتـت يلزافيتا كييفنا من يدي جادوف، وعدت نحو الملجأ. كان الضبـاط يخرجون سراعاً من فتحة الملجـأ، ويعدون على الأرض التي بدت سوداء مخدودةً مـن جراء الضوء المائل، مُلقين نظرات إلى الزريبة المُحترقة وراءهم. اتّجه بعضهم يساراً نحو الغابة، حيث كانت الخنادق، واتّجه الآخرون يميناً في ممرّ الاتّصال المؤدي إلى تحصينات الجسر. كانت

البطاريـات الألمانيّة تهدر وراء النّهر، بعيـداً خلف التلال. كان الرّمي يأتـي من اتّجاهين: من اليسار مصوّبـاً نحو الجسر، ومن اليمين مصوّباً نحو المعبر الذي كان يؤدي إلى مزرعة كانت قد احتلّتها سريّةٌ من فوج أوسولسكي قبل فترةٍ في الضّفة الأخرى من النهر. وكان قسمٌ من النار موجّهاً على البطارياتٍ الروسيّة.

رأت يلزافيتـا كييفنا النقيب جادوف يسـير حاسر الرّأس ويداه في جيبيه مُتجهاً في خط مُستقيم نحو وكر الرّشاش. وفجأةً ظهرت دائرةٌ ناريّـةٌ سـوداء شعثاء في المكان الـذي كان يقف فيـه شخصه الطّويل. أغمضـت يلزافيتـا كييفنا عينيهـا، وحين نظرت ثانيـةً رأت جادوف يسير أكثر إلى اليســار وكوعاه ما زالا مُنفرجين. صاح النقيب تيتكين غاضباً. كان واقفاً قرب يلزافيتا كييفنا ومعه مِنظار:

– لقـد قلت لهم أنّنا لسنا بحاجةٍ إلى هـذه المزرعة والآن، تفضّلوا وانظروا. قلبوا المعبر كلّه. آه خنازير!

ونظـر في المنظار مـرّةً أخرى–آه، الخنازير يصوّبـون على المزرعة تماماً! هلكـت السريّة السادسـة. آه!–واستدار وحـكّ علباءه الجرداء بشدّة، ونادى: شلابكين!

– نعم.

أسرع في الرّدّ عليه شخصٌ صغير كبير الأنف يرتدي قُبّعةً قوزاقيّة.

– هل اتّصلتم بالمزرعة؟

– الاتّصال مقطوع.

– أخبر الكتيبة الثامنة بأن تُرسل تعزيزاتٍ إلى المزرعة.

– سمعاً.

أجــاب شلابكــين، وأنزل يــده من صدغيــه بحركةٍ قويّــة وابتعد خطوتين وتوقّف.

ونادى النقيب ثانيةً بصوتٍ وحشيّ:

– مُلازم شلابكين.

– نعم،

– نفّذ الأمر.

– سمعاً.

وابتعد شلابكين أكثر، وأنــزل رأسه، وأخذ يحفر الأرض بقصبة. فصرخ النّقيب:

– يا مُلازم شلابكين!

مكتبة
t.me/soramnqraa

– نعم.

– أتفهم لغة الإنسان أم لا؟

– نعم، أفهم.

– أنقــل الأمــر إلى السّريّــة الثامنة. ولك أن تقول لهــم بإسمك إلا ينفّذوه. فهم ليس من البلاهة بحيث يرسلون رجالاً إلى هناك. ليرسلوا زهاء خمسة عشر رجــلاً إلى المعبر لإطلاق النار وأبلغ الفرقة حالاً بأنّ السريّــة الثامنة تجتاز المعبر بضربة بارعة. أما الخسائر فيمكن أن نقتبسها مــن السريّة السادسة. اذهب، أمّا أنــت يا آنسة، فانصرفي –والتفت إلى يلزافيتا كيفنا– اقلعي من هُنا إلى الشيطان فإنّ الرّمي سيبدأ الآن.

وفي تلــك اللّحظة انطلقــت قذيفة بازيز، ووقعــت وانفجرت في الجوار.

٢٢

كان جـادوف مُستلقيـاً عند فتحة مخبأ الرشاش، يُتابع المعركة من خلال المنظـار بلهفةٍ غير صارف بصره عنها. كان المخبأ قد حفر على منحدر تلٍّ مُشجرٍ يجري تحته نهرٌ باستدارةٍ خفيفة. وإلى اليمين كانت أعمـدة الدّخـانٍ تتصاعد من الجسر الذي احترق قبـل حين، ووراءه، في الضّفـة الأخرى من النهر وفي مُستنقـع مكسوٍّ بالعشب كان خطّ الخنـادق المُلتوي يرى من مخبأ الرشاش، وكانت السريّة الأولى من فوج أوسولسكـي تتخندق فيها. وإلى اليسار مـن ذلك كان جدولٌ صغير يتلـوى في مجرىً ينمو فيه القصب، ليصـبّ في النهر، وأبعد من ذلك يساراً، وراء الجدول كانت مباني المزرعة الثلاثة تحترق، ووراءها كانت السرية السادسة تتخندق في خنادق تلتقي في زاوية. وعلى بُعد ثلثمائة خطوة تقريباً كانت تبدأ خُطوط الألمان التي كانت تتّجه بعد ذلك يميناً بعيداً نحو التّلال المُشجرة.

كان النّهـر يبدو أحمـر مُتسخاً مـن جرّاء لهـب الحريقين، وكان مـاؤه يفور لكثرة ما تساقط فيه من قذائف، ويتطاير كالنوافير، ويتلفّع بسحبٍ بنيّة.

كانت المدفعيّـة تركّز أقوى نارها على المزرعة. وكانت انفجارات قذائف الشرابنيل لا تفتاء تتوهّج فوق الأبنية المُحترقة، وتتصاعد أعمدةٌ سوداء شعثاء على جوانب خطّ الخنادق المُلتقي في زاوية. وكانت نيران البنادق تومض من وراء النّهر في القصب والعشب وميضاً صغيراً.

وكانـت انفجارات القنابل الثّقيلة تهزّ الهـواء، وقذائف الشرابنيل ذات الشظايا تتطاير بصوتٍ واهن فوق النّهر وفوق المُروج، وفي هذه

الضّفـة من النهر فوق خنـادق السرايا الثانية والثالثـة والرابعة. وكان هـزيم الرعد يترامـى من وراء التـلال، حيي كانت اثنتا عشـرة بطّارية ألمانيّة تُرسل ومضات خاطفة. وكانت قذائف المدافع الروسيّة الجوابيّة تصفر في الهواء، مُنطّلقةً إلى ما وراء هذه التلال. وكان الضجيج يشقّ الآذان، ويضغط على الصّدور ويُفجّر الغيظ في القلب.

واستمـرّت الحـال على هذا المنوال وقتاً طويـلاً. نظر جادوف في ساعتـه المُضيئة فرآها تُشير إلى الساعة الثانية والنّصف. فالفجر يوشك على الانبلاج، والهُجوم مُتوقّعٌ بين لحظةٍ وأخرى.

وبالفعل اشتدّ قصـف المدفعيّة، وفار ماء النّهر فوراناً أشدّ، وكانت القذائف تتساقط على المعابر والتلال في هذه الضّفة من النهر. وكانت الأرض أحياناً تهتزّ اهتـزازاً خافتاً، وتتناثر كُتـل الطين والحصى من جـدران المخبـأ وسقفه. إلا أنّ ساحـة المزرعة المُحترقـة باتت هادئة. وفجـأةً تطايرت مـن البعيد عشـرات الصواريـخ مثل أشرطـة ناريّة، مُنحرفة نحو النهر وأنارت الأرض كالشّمس. وحين انطفأت الانوار خيّم ظلامٌ حالكٌ لبضـع دقائق. إذن، فإنّ الألمان نهضوا من الخنادق، وخرجوا في هُجوم.

وفي الغبش المُضبّب لمح جـادوف أخيراً شُخوصاً صغيرةً مُتحرّكة بعيداً في المُروج. كانـت تارةً تسقط، وتارةً يُلاحق بعضها بعضاً. و لم تُجابهها نارٌ واحدةٌ من المزرعة.

التفت جادوف، وصاح:

– ذخائر!

ارتجّ الرشاش وكأنمـا تملّكته ضراوةٌ شيطانيّة، وراح يرشّ الرّصاص عُجولاً، ويكتم الأنفاس بدخانٍ لاذع. وفي الحال عجّلت الشّخوص

الصغيرة حرّكتها على المرج وسقط بعضها. إلا أنّ الحقل كلّه كان مغموراً بنقط المُهاجمين. وكانت طلائعهم تركض نحو الخنادق المُهدّمة للسريّة السادسة. فنهض من هناك زهاء عشرين رجلاً. وتجمّع حشدٌ من الرّجال بسرعةٍ حول ذلك المكان.

لم تكن هذه المعركة في سبيل المزرعة إلا جُزءاً تافهاً من موقعة هائلة امتدّت في جبهة طولها مئات الفراسخ، وكبّدت الطّرفين مئات الألوف من الأنفس.

كان الروس قد احتلوا المزرعة قبل أسبوعين ليضمنوا لأنفسهم رأس جسرٍ في حالة الهُجوم عبر النهر. وقرّر الألمان الاستيلاء على المزرعة لوضعِ نقطة مُراقبة في مكانٍ أقرب إلى النّهر. وكان هذا الهدف وذاك ضروريين فقط لقادتي الفِرقتين-الألمانيّة والروسيّة-ومُضمّنين في الخُطة الاستراتيجيّة للحملة العسكريّة لكلا الطّرفين، تلك الخُطّة التي تروّوا عميقاً في كلّ دقائقها.

كان قائد الفرقة الروسيّة الجنرال دوبروف الذي كن له إسم عائلة غير روسيّ فأبدله منذ نصف عام بإسمه الحالّي بترخيص من المراجع العُليا يلعب الورق حين تلقى نبأ هُجوم الألمان في قطاعٍ فوج أوسولسكي.

تلك الجنرال الورق. وانتقل مع الضباط الكبار وإثنين من المُرافقين إلى الصالة التي نشرت على منضدة فيها خرائط طوبوغرافيّة. وكان قد وردت من الجبهة أنباءٌ عن قصفِ المعبر والجسر. ففهم الجنرال بأنّ الألمان عازمون على الاستيلاء على المزرعة، أي بالذات على المكان الذي بنى عليه خطّته الشهيرة للهجوم، والتي وافقت عليها قيادة الفيلق، وقدّمت إلى قائد الجيش للتصديق عليها. إلا أنّ هجوم الألمان على المزرعة أفسد الخُطة كلّها.

كانت الأخبـار التلفونيّة تؤكّد هذا الخطر بين لحظة وأخرى. أنزل الجنـرال نظارته الأنفيّة من فوق أنفه الكبير، وقال بهدوءٍ ولكن بحزم، وهو يُلاعبها:

– حسناً، لن أتراجـع قَدماً واحدةً من المواقع التي احتلّها. وأرسل أمراً تلفونياً على الفور لاتّخاذ تدابير مُناسبة للدفاع عن المزرعة. وأمر فوج كوندرافنسكي الاحتياطيّ من الدّرجة الثالثة بالزّحف في كتيبتين نحو المعبر لتعزيز النّقيب تيتكين. وفي تلك اللحظة وصل خبرٌ من قائد المدفعيّـة الثقيلة عن قلّة القذائف، وتحطّم أحد المدافع، وانعدام إمكانيّة الرّدّ على نار العدوّ الصاعقة رداً مُناسباً.

إلا أنّ الجنرال دوبروف ردّ على ذلك، وقد ألقى نظرةً صارمةً على الحُضور:

– حسناً، حين تنفد القذائف سنُحارب بالسلاح الأبيض. وأخرج منديلاً ناصـع البياض من سترته الرّماديّة ذات القلبة الحمراء، ونفضه، ومسح نظارته الأنفيّة به، وانحنى على خارطة.

وظهـر في الباب المُرافق الأصغر الكونت بوبرويسكي الضابط في بدلـة من الكالي البُنيّ الداكن مُنسجمة مع جسمه كالقفّاز. وقال وهو يتبسّمُ ابتسامةً لا تكاد تلحظ بطرف فَمه الصبويّ الجميل:

– يـا صاحب السيادة، يقول النقيب تيتكين أنّ السريّة الثامنة تجتاز طريقها إلى المعبر بضربة ماهرة، رغم نار العدوّ المُهلكة. نظر الجنرال إلى الضابط من فوق نظارتِه الأنفيّة، وحرّك فمه الحليق، وقال:

– حسنٌ جداً.

ولكن رغم اللهجـة المُشجّعة تواردت من الجبهة أنبـاءٌ مُقلقةٌ أكثر فأكثر. وصل فوج كوندرافنسكي إلى المعبر وعسكر وتخندق. والسّريّة الثانية ماضيةٌ في ضرباتها الماهرة ولكنها لم تعبر النهر بعد. أرسل النقيب

اسلاميكوف قائد كتيبـة الهون برقيةً ذُكر فيها أنّ مدفعين من مدافعه قد أصيبا، وأنّ قذائفه قليلة. وأبلغ العقيد بوروزدين آمر الكتيبة الآولى من فوج أوسولسكـي أنّ السرايا الثانية والثالثة والرابعة تتكبّد خسائر كبـيرة في الرجال من جراء مواقعهـا المكشوفة، ولهذا فهو يطلب إذناً إمّـا بالهجوم ودحر العدوّ الوقح، وإما بالتراجـع إلى حافة الغابة. ولم ترد أنباء من السريّة السادسة التي كانت تحتلّ المزرعة.

وفي السـاعـة الثانيـة والنّصف مـن بعد منتصف الليـل عُقد مجلسٌ عسكريّ. وقال الجنرال دوبروف أنّه سيتقدّم بنفسه على رأس القوات الموكّلـة له، ولكنّه لن يتراجع فـتراً واحداً عن رأس الجسر المُحتلّ. وفي أثنـاء ذلك وصل الخـبر عن احتلال الألمـان للمزرعـة، والقضاء على السريّـة السادسـة إلى آخـر رجل. دعك الجـنرال منديلـه الكتانيّ بين أصابعه، وأغمض عينيـه. ورفع العقيد سفيتشين رئيس الأركان كتفيه المُمتلئتين وامتلأ بالدم وجهه اللحيم المُلتحي، وتكلّم ببحّةٍ ظاهرة:

– يـا صاحب السّيادة، لقد أبلغتكم أكثر من مرّة بأنّ من المُخاطرة احتلال مواقع في الضّفة اليُمنى. إننا سنفقد كتيبتين وحتى ثلاثاً وأربعاً علـى هذا المعبر، وحتى لو احتللنا المزرعة مـرّةً أخرى، فإنّ الاحتفاظ بها سيكلّفنا غالياً.

قال الجنرال دوبروف، وقد تفصّد أنفه عرقاً:

– إنّ رأس الجسر ضـروريٌّ لنا، ويجب أن يكون لنا، وسيبقى لنا. والمسألة هي أننا لو فقدنا رأس الجسر فإنّ خطّتي الهُجوميّة ستنهار.

واعترض العقيد سفيتشين وقد ازدادا حُمرة:

– يـا صاحـب السّيادة، القـوات لا تقوى على عُبـور النّهر تحت نارٍ صاعقـة إذا لم تسند بالمدفعيّة بالشّـكل المُناسب، وأنت تعرف أنّ المدفعيّة ليس لها ما تسند به

ردّ الجنرال على ذلك:

- حسناً، في هذه الحال أخبر القوت بأنّ نياشين القدّيس غيورغي مُعلّقةٌ على الأسلاك في الجانب الآخر من النّهر. أنا أعرف جُنودي.

وبعد هذه الكلمات التي سيحفظهـا التاريخ حتماً نهض الجنرال، وأخذ يتطلّع في النافذة، وهـو يُدير نظارته الذّهبيّة في إصبعه القصيرة وراء ظهـره، فرأى شجرة بتولا مُبلّلة تنمو في المرج وملفوفةٌ بالضباب الصباحـيّ الأزرق الرّقيـق، وسربـاً من العصافير يحطّ علـى أغصانها الرّقيقـة اليانعـة الخُضـرة، ويزغـرد في عجلـة وقلق، وينطلـق فجأة، ويغيب. وكانت أشعّة الشّمس الذهبيّة المُنحرفةً تُنير المرج المُضبّب كلّه بمعالم الأشجار غير الواضحة عليها.

انتهى القتال عند مطلع الشمس. واحتلّ الألمان المزرعة، والضفّة اليساريّة من الجدول. ولم يبق بيد الروس من رأس الجسر غير مُنخفض في الضفـة اليُمنـى من الجدول حيـث كانت السّريّـة الأولى. واستمرّ تراشقٌ واهن فوق الجدول طوال النهار، ولكنه كان واضحاً أنّ السريّة الأولى تحـت خطر التّطويق، وقـد انقطع اتّصالها المُباشـر بضفّة النّهر مـع الروس بسبب احتراق الجسـر، وكان أعقل مخرجٍ هو الخروج من المُستنقع في الليلة ذاتها.

إلا أنّ العقيـد بوروزديـن آمر الكتيبة الأولى تلقّى بعـد الظهر أمراً بالاستعداد لخوض النّهر في تلك الليلة للوصـول إلى المُستنقع لتعزيز موقـع السّريّـة الأولى. وأوعز إلى النّقيب تيتكـين بتجميع قوى السريّة الخامسـة والسريّة السابعة أسفـل المزرعة، والعبور علـى جسرٍ عائم. وأوعز إلى الكتيبة الثالثة الاحتياطيّة من فوج أوسولسكي باتّخاذ موقع هجوميّ، وإلى فوج كوندرافنسكي بعبور النّهر من المخاضة عند المعبرً المحروق، والقيام بهجومٍ جبهويّ.

كان الأمر جدياً، والترتيب واضحاً: تطويق المزرعة بحركة كماشة بواسطة الكتيبة الأولى يميناً، والكتيبة الثانية يساراً، على أنْ يجذب فوج كوندرافنسكي إليه كلّ انتباه العدوّ، وناره. وحدّد مُنتصف الليل للبدء في الهُجوم.

في الغبش ذهب جادوف للإشراف على وضع الرشاشات عند المعبر، ونقل رشاش واحد في زورق، في أشدّ ما تكون الحيطة، إلى جزيرةٍ صغيرة لا تتجاوز مساحتها بضع عشراتٍ من الأمتار، نمت عليها شجيراتُ الصّفصاف. وبقي جادوف هناك.

وجّهت البطاريات الروسيّة طوال النّهار ناراً ضعيفةً على المزرعة، وأعمق منها على المواقع الألمانيّة المُقتربة من النّهر. وكانت تنطلق بين الحين والآخر طلقاتٌ مُنفردة من بندقيّة صوب النّهر. وفي مُنتصف الليل بدأ عُبور النّهر في صمتٍ من ثلاثة مواقع رأساً. ولصرف أنظار العدوّ بدأت وحدات فوج بيلوتسر كوفسكي الواقعة على بعد زهاء خمسة فراسخ في أعلى النّهر بمناوشات قويّة. والتزم الألمان الصّمت حذرين.

راقب جادوف المعبر بعد أن أزاح أغصان الصّفصاف المُغطاة بنسيج العنكبوت. كانت إلى يمينه نجمةٌ صفراء مُتوامضة تتدلى على ارتفاع واطئ فوق التّلال المُشجرة، وتنعكس على النّهر الأسود شريطاً من الضّوء الكابي المُرتعش أخذت تقطعه أشياءٌ داكنة. وظهرت شُخوصٌ راكضة من مكانٍ إلى آخر على الجزر الرّمليّة والمُنبسط الرمليّ. وعلى مسافة غير بعيدةٍ عن جادوف كان زهاء عشرة أشخاص يخوضون في الماء إلى صُدورهم مُحدثين طرطشةً واطئة، مُمسكين بنادقهم وحقائب العتاد في أذرعهم المرفوعة. إنّ هؤلاء كانوا من فوج كوندروفينسكي يعبرون النّهر.

وفجأةً نشبت نيرانٌ سريعةٌ بعيداً في الضّفّة الأخرى، وصفرت القذائف في طيرانها وأخذت قنابل الشرابنيل تتفجّر عالياً فوق النّهر بقرقعة معدنيّة. وكان كلّ توهّج يضيء وجوهها مُلتحية ناهضةً من الماء. وكان المُنبسط الرّمليّ كلّه يغصّ بالرّجال الراكضين. وانطلقت نوبةٌ جديدة من النيران، وصدرت صيحات. وتصاعدت صواريخ وتناثرت في السماء كلّها بأضواء باهرة. ورعدت البطاريات الروسيّة. جرف التيّار عند قدمي جادوف رجلاً يتخبّط ويردّد بصوتٍ مكتوم: "رأسي، أصابوا رأسي!" وتشبّث بالصفصاف. ركض جادوف إلى الجانب الآخر من الجزيرة. ورأى أنّ العوامات المُمتلئة بالناس كانت تتحرّك عبر النّهر على مسافة بعيدة، والوحدات التي قد عبرت النّهر كانت تجري في الحقل. وكانت زوبعة النار الصاعقة تهدر فوق النّهر والمعابر والتّلال كما كانت بالأمس مُصمّةً مُبهرة. وكان الماء الفائر يبدو موبوءاً بالديدان. فقد كان الجُنود يتخبّطون وينسلون ويتصايحون من خلال أعمدة الدّخان السّوداء والصفراء، وبين النوافير المائيّة. والذين وصلوا إلى الضفّة الأخرى أخذوا بالزّحف إلى الشاطئ. وكانت رشاشات جادوف تُلعلع في المُؤخّرة، والقذائف الروسيّة تتفجّر في المُقدّم. وكانت سريتا النقيب كلتاهما تضربان المزرعة بنارٍ مُتقاطعة. تحوّلت الوحدات المُتقدّمة من فوج كوندروفينسكي—التي فقدت نصف رجالها أثناء العبور، كما تبيّن فيما بعد—إلى هُجوم بالحراب. إلا أنها فشلت، واستلقت تحت الأسلاك الشائكة. ومن وراء الجدول خرجت الكتيبة الأولى بصفوف كثيفة من خلل القصب. وتدفّق الألمان من الخنادق. كان جادوف يستلقي عند الرشاشة مُتشبّثاً بعدّة الإطلاق المُرتجّة ارتجاجاً مجنوناً ويصبّ ناراً مُسفّةً على رابية معشوشبة ووراء خنادق الألمان كان يجري عليها رجلان نارة، وثلاثةٌ أخرى، وجمعٌ من الرجال

تارةً ثالثة، وكانوا جميعاً وبلا استثناء يتعثّرون، وينكفئون أرضاً على وجوههم وجُنوبهم.

وعَدّ جادوف: "ثمانية وخمسون، ستّون". ثمّ نهض شخصٌ ضئيلٌ الجرم، وأمسك برأسه، وسار مُترنّحاً على الرابية. حوّل جادوف سبطانة الرشاش فوقع الشخص على ركبتيه، وانطرح. "واحد وستون". وفجأةً انبعث أمام بصره ضوءٌ مُحرق لا يُطاق. وأحسّ جادوف بأنّه قد رُفع في الهواء وبأنّ وجعاً حاداً يشلّ ذراعه.

احتلّت المزرعة وجميع خُطوط الخنادق المُجاورة لها وأسرّ حوالي مائتيّ أسير، وفي الفجر خمدت نار المدفعيّة في كلا الجانبين. وبدأ جمع القتلى والجرحى ووجد رجال الإسعاف عند تفتيش الجزر الصّغيرة رشاشةً مقلوبةً في الصفصاف المُحطّم، وبالقرب منها جندياً مدفوناً في الرمل، وقد شُجَّ نافوخه، وعلى بُعد عشرة أمتار، في الجانب الآخر من الجزيرة رقد جادوف ورجلاه في الماء. أنهضوه فأن، وكانت قطعةٌ من العظم الورديّ تبرز من كمّه المُلطّخ بالدّم.

وحين جلبوه إلى مُستشفى الميدان صاح الطّبيب على يلزفيتا كيفنا: "جاءوا بفتاك. إلى طاولة العمليات رأساً". وكان جادوف فاقد الوعي مُستدقّ الأنف، أسود الفم. وحين خلعوا قميصه، رأت يلزافيتا كيفنا على صدره الأبيض العريض رسماً من الوشم لقردين مُتشابكين بذيليهما. كزّ جادوف على أسنانه أثناء العمليّة، واعترت التّشنّجات وجهه.

وبعد أن انتهى التّعذيب، وضُمّد الجرح فتح عينيه، انحنت يلزفيتا كيفنا عليه فقال:

– واحد وستون.

وظلّ جادوف يهذي حتى الصباح، ثم غفا. طلبت يلزافيتا كيفنا

بـأنْ يعهدوا إليها بنقله إلى المُستشفـى العسكريّ الكبير التابع إلى هيئة أركان الفرقة.

٢٣

دخلـت داشا إلى غُرفة الطعام. كان نيقولاي إيفانوفيتش ودميتري ستيبانوفيتـش يجلسان صامتين. وكان الأخير قـد قدم من سامارا في أوّل الأمس بناءً على برقيّـة مُستعجلة. أمسكت داشا لفاحها الأبيض عنـد ذقنها، ونظرت إلى وجه أبيها الأحمـر وإلى شعره المنفوش، كان دميـتري ستيبانوفيتش يجلس وقد طوى ساقاً واحدة، ثم حوّلت داشا بصرهـا إلى نيقـولاي إيفانوفيتش المعـوجّ الأساريـر المُلتهب الجفنين وجلسـت إلى المائدة أيضاً ورأت وراء النافذة هلالاً نحيلاً صافياً يتدلى في الإغبشاش الضارب إلى الزُّرقة.

كان دميـتري ستيبانوفيتش يُدخّن ناثـراً الرّماد على صداره الموبر. وكان نيقـولاي إيفانوفيتش يجهد ليجمع فتات الخبز في كومة واحدة على الخوان. وساد الصمت وقتاً طويلاً. وفي آخر الأمر تكلّم نيقولاي إيفانوفيتش بصوتٍ مخنوق:

– لماذا تركناها جميعاً؟ هذا لا يصحّ.

– اجلسـ وسأذهب أنا–ردّت داشـا، ونهضت. لم تعد تشعر بألمٍ ولا بتعب وقالت لأبيها، وهي تلفّ اللفاح على فمها:

– بابا، اذهب واحقنها بحقنة أخرى.

نشق دميـتري ستيبانوف من أنفـه بشدّة، وألقى عقـب سيكارته النافذة عبر كتفه. كانت الأرض حوله مزروعةً كلّها بأعقاب السيكائر.

– احقنها مرّةً أخرى يا أبي، أتوسّل إليك.

عندئذ هتف نيقولاي إيفانوفيتش مُتضايقاً وبصوتٍ مُصطنع:

– لا يُمكن أن تعيش على الكافور وحده. إنّها تحتضر، يا داشا.

التفتت داشا نحوه بقوّة.

– لا تتجرّأ على هذا الكلام! لا تتجرّأ. إنها لن تموت. اختلج وجه نيقولاي إيفانوفيتش الأصفر. استدار نحو النافذة، فشاهد أيضاً الهلال الرقيق النافذ في الخواء المُزرقّ.

قال:

– أيّة وحشةٍ لو ترحل. آه، لا أطيق.

سارت داشا في غرفة الجُلوس على أطراف أصابعها. ونظرت في النوافذ مرّةً أخرى، فاستشعرت بالبرد الزّمهريريّ الأبديّ المُترامي وراءها. انسلّت إلى مخدع كاتيا المُضاء بمصباحٍ ليليّ إضاءةً لا تكاد تُغالب الظُّلمة.

هناك، في أعماق المخدع كان الوجه الصغير يرقد على الوسائد، كما كان بلا حراك، على السرير العريض الواطئ، وقد دفع شعره الجافّ المسودّ إلى فوق، وإلى الأسفل من الوجه كفّ نحيلة. ركعت داشا على ركبتيها أمام السرير. كان نَفَس كاتيا واهناً لا يكاد يُسمع. وبعد وقتٍ طويل قالت بصوتٍ خافتٍ مُتشكٍّ:

– كم الساعة؟

– الثامنة، كاتيوشا.

استنشقت كاتيا بعض الأنفاس، وسألت مرّةً أخرى وفي صوتها نبرة الشكوى:

– كم الساعة؟

وطوال النهار كانت تُعيد هذا السّؤال. كان وجهها نصف الشفاف هادئاً، وعيناها مُغمضتين...ومنذ وقت طويل وهي تسير على البساط الناعم في الدهليز الطويل الأصفر. كُلّ شيء أصفر فيه: الجدران والسّقف. وعالياً إلى اليمين ينصب ضوء أصفر مُعذّب من النوافذ المتربة. وإلى اليسار عديدٌ من الأبواب المُسطّحة. ووراءها—إذا ما فتحها—حافة الأرض، اللاقرار. وكاتيا تسير ببطء شديد، كما في النوم، مارّةً بهذه الأبواب والنوافذ المتريّة. وأمامها دهليزٌ طويلٌ سطيح في ضوء أصفر. والهواء مكتوم، وكلّ باب ينشر وحشة الموت. متى ستحلّ النهاية يا ربّ؟ لو تتوقّف، وتسمع...لا شيء يُسمع...ووراء الأبواب، في العتمة يبدأ صوتٌ بطيء خفيض يطنّ مثل صوت لولب الساعة الحائطيّة...آه، ما أشدّ الوحشة!..ليتها تفيق..ليتها تقول شيئاً بسيطاً إنسانياً. وعندئذٍ كانت كاتيا تُردّد بجهد، وفي صوتها نبرة شكوى:

– كم الساعة؟

– كاتيوشا، عمّ تسألين طوال الوقت؟

"جميلٌ أن تكون داشا هُنا..." ومرّةً أخرى كان بساط الدّهليز يمتدّ تحت قدميها بغثيانٍ ناعم وينصب الضوء الخشن المقبض من النوافذ المتربة. ويدق لولبُ الساعة من بعيد...

"ليتني لا أسمع...لا أرى...لا أحسّ...أستلقي وأتدثّر...ليت النهاية قريبة...ولكن داشا تُضايقني، لا تدعني أغيب...تمسك يدي، تقبل، تُدمدم، وتدمدم...وكأنّ نَفَسَ حياة ينصب منها في جسدي الفارغ الخفيف...ما أضجر ذلك!..كيف أُشرح لها أنّ الموت سهل، أسهل من أنْ أحسّ بهذا النّفس الحيّ في كياني...ليتها تتركني لا".

– كاتيوشا، أنا أحبّك، أحبّك، هل تسمعين؟

"لا تتركني، تشفق عليّ..يعني غير مُمكن...ستبقى الفتاة وحدها، تتيتّم".

– داشا!

– ماذا؟

– لا أموت.

يبدو أنّ أباهما يقترب. في الجوّ رائحة تبغ. ينحني، يُزيح البطانيّة، وتنغرز إبرةٌ في الصّدر بألم حادّ لذيذ. وتسري في الدّم طراوة التّسكين العذبة وتترنّح جدران الدّهليز الأصفر، وتنفرج، وينشر بردٌ منعش. وداشا تمسّد الذراع المُنطرحة فوق البطانية، وتضغط شفتيها عليها، وتبثّ فيها دفأ. وبعد دقيقة أخرى يذوب الجسد في ظلمة النوم الحلوة. ولكن الشرطات الصفراء الصارمة تتطاير مُجدداً من الجانبين ومن وراء عينيها...وتتكوّن مُتباهية، ومن تلقاء نفسها، وتتصاعف، وتقيم دهليزاً خانقاً، مُعذباً.

– داشا، داشا لا أريد أن أرحل إلى هناك.

وتمسك داشا رأسها بيديها، وتستلقي على الوسادة إلى جوارها، وتضغط نفسها عليها وهي حيّةٌ قويّة، وكأنما تنبعث منها قوّة الحياة الفظّة الحارّة!

ولكنّ الدّهليز استطال مرّةً أخرى، وكان يجب أن تنهض، وتجرجر فيه قدميها، وعلى كلّ قدم ثقل طن. لا يجوز أن تظل راقدة. وداشا تحتضنها، وتنهضها، وتقولُ لها: تعالي.

وهكذا صارعت كاتيا المُوت ثلاثة أيام بلياليها. وكانت تحسّ في نفسها دائماً بإرادة داشا المُضطرمة ولولًا داشا لخارت منذ زمان، وارتاحت إلى الأبد.

في اليـوم الثالث قضت داشا المساء كلّه والليـل عند سرير شقيقتها لا تُبارحـه. وكأنّ الشقيقتين صارتا كياناً واحـداً له ألمٌ واحد، وإرادةٌ واحدة. وقبيل الصباح تصببت كاتيا أخيراً بعرقٍ غزير، وانقلبت داشا، واستدعِت على جنبها. وكانت أنفاسها لا تكادُ تُسمع. ارتعبت داشا، واستدعت أباهما. وقررا الانتظار. وفي الساعة السابعة صباحاً زفرت كاتيـا، وانقلبت على جنبها الآخر. ومرّت الأزمة، وبدأت العودة إلى الحياة.

ولأوّل مـرّةٍ خلال تلك الأيام غفت داشـا أيضاً على المقعد الكبير عند الفراش. وعندما علم نيقولاي إيفانوفيتش أنّ كاتيا قد خلصت من الموت طوّق دميتري ستيبانوفيتش من صدره الموبّر، وأجهش باكياً.

وبـدأ النهار الجديـد بدايةً سـارّة، وكان دافئاً مُشمسـاً، وبدا كلّ واحـد منهم طيباً مع الآخر. وجلبت مـن حانوت الزّهور شجيرةً من زهور الليلق الأبيض، ووضعت في غرفة الجلوس. وأحسّت داشا بأنها قـد انتزعت كاتيا بيديها من الحفرة البـاردة السوداء المؤدية إلى الظلام الأبديّ. لم يكن على الأرض شيءٌ أغلى من الحياة، وقد أدركت ذلك الآن إدراكاً راسخاً.

في نهايـة أيـار نقل نيقـولاي إيفانوفيتش يكاترينـا دميتريفنا إلى بيـت ريفيّ مبنى من جذوع الشجر قـرب موسكو، له شرفتان كانت إحداهمـا تطلّ على حرشٍ من أشجار البتولا ينشر ظلاً أخضر مُتحركاً دائماً تسرّح فيه عجولٌ رقشاء، وتطلّ الثانية على حقلٍ منحدرٍ مُتموّج.

وفي كلّ مساء كانت داشـا ونيقولاي إيفانوفيتش ينزلان من قطار الضواحـي إلى محطّـة صغيرة، ويسـيران في المـرج المُستنقعيّ. وكان البعوضـ يحوم حولَ رأسيهمـا. ثم كان يتعيّن عليهمـا أنْ يصعدا في

مُرتفع. وهنا كان نيقولاي إيفانوفيتش يتوقّف عادةً بحجّة أن يلقي نظرةً على الغروب، ويقول لاهثاً:

– يا ربّ، ما أروع ذلك!

كانت السحائب الليلقيّة الساكنة العقيمة، وهي السحائب التي تكون عادةً عند الغروب، تجثم وراء السهب المُظلم المزروع في بعض أجزائه بشرائط من الحبوب، وفي الأجزاء الأخرى بأشجار الجوز اللفاء وأيائك البتولا، وكان وهج الغروب السماوي يشعّ ضوءاً كابياً من الفرجات الطّويلة في هذه السحائب، وقد انعكس شريطٌ برتقاليّ من السماء على مسافة غير بعيدةٍ إلى الأسفل عند خور الجدول. وكانت الضفادع لا تكفّ عن النّقيق، وأكداس الدريس وسقوف القرية تلوح داكنةً في الحقل المُنبسط الذي أوقدت نارٌ في ناحية منه. وهناك، في مكانٍ ما وراء السّدة والسياج العالي كان مُعسكر لصّ توشينو[١٠] في غابر الأزمان. ظهر قطارٌ من وراء الغابة يصفر صفيراً طويلاً، ناقلاً الجنود إلى الغرب، في الغُروب الخابي.

اقتربت داشا ونيقولاي إيفانوفيتش من البيت الريفي آخذين طريقهما في طرف الغابة، فرأيا من خلال زجاج الشّرفة المائدة معدّةً للعشاء، ومصباحاً على شكل كرةٍ زجاجيّة مُغبشة. ركضت للقائهما كلبة المنزل "شاريك" تنبح بحفاوةٍ، وحين وصلت إليهما مُبصبصةً بذيلها، ابتعدت عنهما حيطةً إلى الافسنتين، وراحت تنبح في ناحية.

نقرت يكاترينا دميترييفنا بأصابعها على زجاج الشرفة، فقد كان

١٠– كان دميتري الدعي الثاني الموبة المتدخلين البولونيين والفاتيقان. وقد ادعى أنه ابن قيصر روسيا إيفان الرابع. وقد دخل روسيا مع القوات البولونية في سنة ١٦٠٧ وعسكر في توشينو بالقرب من موسكو. في عام ١٦١٠ قتله أحد أنصاره. (المُترجم).

مـا يزال غير مسموح لها الطلوع إلى الخارج بعد حُلول الظلام. أغلق نيقولاي إيفانوفيتش باب السياج وراءه، وقال:

"في رأيي أنه بيتٌ ريفيٌّ فاتن". وجلسوا إلى العشاء. روت يكاترينا دميترييفنـا أخبـار المنطقة: جاءت كلبـةٌ مجنونة مـن توشينو، وعضّت دجاجتين من دجاجات عائلة كيشين؛ عائلة جيلكين انتقلت اليوم إلى بيت سيموف الريفـيّ، وإذا يساورهم يسرق في نفس اليوم. الطباخة ماتريونا جلدت ابنها مرّةً أخرى.

تناولـت داشا طعامها صامتـة، فقد تعبت في المدينـة تعباً شديداً. أخـرج نيقـولاي إيفانوفيتش من حقيبتـه حزمةً من الجرائـد، وأخذ يُطالعها، مخللاً أسنانه بعود التّخليل، وعندما كان يقع على أنباءٍ مؤسفة، كان يُحـدث صريفاً بأسنانه إلى أن تقول كاتيا له: نيقولاين أرجوك، لا تصرف بأسنانك. خرجت داشا إلى مُقدّمة البيت، وجلست، وأسندت حنكهـا على يدها، وحدّقت في السهل المُظلـم المُرصّع بالنيران، وإلى النجـوم الصيفيّة الصغيرة المُتنـوّرة. كانت تنبعث مـن الحديقة رائحة أحواض زهورٍ مرويّة.

في الشرفة كان نيقولاي إيفانوفيتش يقول وهو يقلب جرائده.

– لا يُمكـن أن تستمرّ الحرب طويـلاً بعد الآن لسببٍ واحدٍ هو أنّ دول الوفاق ونحن–الحلفاء–نُدمّر أنفسنا.

سألت كاتيا:

– أتريد شيئاً من اللبن الخاثر؟

– إذا كان بـارداً فقط... فظاعـة، فظاعة! فقدنـا المدينتين: لفوف وليوبلـين. يا للعـار! كيف يُمكـن أن نُقاتـل إذا كان الخونـة يغرزون السكين في ظهورنا! مُستحيل!

– نيقولاي، لا تصرف بأسنانك.

– اتركنـي وشأني! أمـا إذا فقدنا فرسوفيا فذلك هـو العار الأكبر، وبعده سيتعذّر العيش. حقـاً في بعض الأحيان يتساءل المرء مع نفسه: أليس مـن الأفضـل عقد هدنةٍ مـن نوعٍ مـا، وتحويل الخـراب نحو بطرسبورغ؟

تناهـى صفير قطارٍ من بعيد، وتردّدت قرقعـة عجلاته على الجسر المُلقـى فوق الجدول الّذي كان الغروب مُنعكساً عليه قبل حين ويبدو القطار ينقـل الجرحى إلى موسكـو. خشخش نيقـولاي إيفانوفيتش بصحفه مرّةً أخرى وقال:

– القطـارات تنقـل الجُنود إلى الجبهة بدون بنـادق. وهم يقعدون في خنادقهم مُسلّحين بالعصيّ. وبندقيّة الجنديّ المُجاور حين يُصرع. أوه، اللعنة، اللعنة!.. مكتبة سُر مَن قرأ

نزلت داشا من مدخل البيت، ووضعت مرفقها على باب الحديقة. كان ضوء الشرفة يسقط علـى أوراق الأرقطيون اللامعة عند السياج، وفي الطريق. مرّ بيتيا، ابن ماترويـنا، منكّس الرّأس بائساً فاتر الهمّة يُثير الغُبار بقدميه الحافيتين. لم يبق أمامه إلا أن يعود إلى المطبخ ويقوم نفسه للجلد، ويستلقي لينام.

خرجت داشا من باب الحديقة، وسارت ببطء إلى نهر خيمكي.

وهنـاك وقفت على الجـرف في الظلام وتسمّعـت. وترامى إليها خرير ينبـوعٍ لا يسمع إلا في الليل. دمدمت كُتلـةٌ من التربة انخلعت مـن الجرف الجـافّ، وتدحرجت عليـه، سقطت في المـاء بطرطشة. وكانـت أشباح الأشجار السوداء تنتصب على جانبيها ساكنة. وفجأةً بـدأت أوراقهـا ترسل حفيفاً ناعسـاً، ثمّ عاد السكـون، مرّةً أخرى. وساءلت داشا نفسها بصـوتٍ خفيض: متى، متى، متى!" وطقطقت

بأصابعها. في أحد الأعياد في أوائل حزيران استيقظت داشا في ساعة مبكـرة وذهبت لتغتسل في المطبخ لئلا توقظ كاتيا، رأت على المنضدة كومـةً من الخضار، وفوقها بطاقةٌ بريديّـة خضراء يبدو أنّ بائع الخضار جلبها من البريد مع الجرائد. كان بيتياً، ابن ماتريونا، يجلس على العتبة ناشقاً، وقد شـدّ ساق دجاجة إلى عصاً صغيرة. وكانت ماتريونا تُعلّق الغسيل على أغصان الأقاصيا.

صبّت داشا في وعاءٍ خزفيّ ماءً فواحاً برائحة النهر ونضّت قميصها عن كتفيها، ونظرت مرّةً أخرى لتعرف ما هذه البطاقة البريديّة الغريبة. أمسكـت طرفها بإصبعـين مُبللتين، فإذا بها تقـرأ: "عزيزتي داشا، أنا قلـقٌ لأنني لم أتلـقّ رداً على أيّة واحدةٍ من رسائلـي. أمن المعقول أنها فُقدت؟"

أسرعـت داشا بالجُلوس على المقعد، فقد غامت الدّنيا أمام عينيها، وأرخت رجلاها... "جرحي قد اندمل كلياً وأنا الآن أمارس التمارين الرياضيّـة يومياً وعلى العمـوم أمسك زمام نفسي بيـدي. بل وأتعلّم الإنجليزيّة والفرنسيّة. أعانقك، يـا داشا، إذا ما زلت تذكرينني. إيفان تليغين".

سحبت داشا قميصها على كتفيها وقرأت الرسالة للمرّة الثانية:

"إذا مـا زلت تذكرينني!.." وثبـت واقفة وركضت إلى كاتيا في مخدعها، وأزاحت السّتارة القطنيّة من على النافذة.

– كاتيا، اقرئي بصوتٍ عالٍ!..

وجلســت داشا علـى سرير كاتيا التي بدا عليهـا الفزع، ولم تنتظر أن تقـرأ أختها الرسالة، وأخذت تقرأها بنفسها، وتهضت مُسرعةً بعد هذا، رافعةً يديها:

– كاتيا، يا كاتيا. ما أفظع ذلك!

– ولكنه حي، والحمدلله، يا عزيزتي داشا.

– أحبّه!..يـا إلهي، ماذا عليّ أن أفعل؟..أجبني يا ربّ، متى تنتهي الحرب؟

اختطفت داشا البطاقة البريديّة، وركضت إلى نيقولاي إيفانوفيتش. وبعـد أنْ تلتها عليه طلبت منه مأخـوذةً أدقّ جوابٍ عن سؤالها: متى تنتهي الحرب؟

– يا عزيزتي، لا أحد الآن يعرف هذا.

– فماذا تعمل أنت، إذن" في ذلك الاتّحاد البلديّ الأحمق؟

لا شيء غير هراءٍ يقول الجميع من الصباح حتى المساء. سأذهب إلى قائد القوات في موسكو...وأطلب منه...

– ماذا تطلبين منه؟..آه، يا داشا، داشا. ينبغي أن تتحلي بالصبر.

وظلّت داشا بضعة أيام تلوب على نفسها ولا تستقرّ في مكان. ثم هـدأت، وكأنها انطفأت. وكانـت في المساء تأوي إلى غرفتها مُبكراً، وتكتب الرسائل لإيفان إيليتش، وتصنع الطرود له وتلفّها بالجنفاص. وعندما كانـت يكاترينا دميترييفنا تُبادرهـا الحديث عن تليغين كانت داشـا تصمـت عادةً. وتخلّت داشـا عن نُزهة المسـاء، وظلّت تقضي مُعظـم أوقاتها جالسـةً مع كاتيا وهي تخيـط أو تُطالع. وكانت تحسّ ضـرورة أن تخفـي كلّ مشاعرهـا في أعمـاق نفسها قـدر الإمكان، وتغطي نفسها بجلدةٍ عاديّةٍ حصينةٍ من الحياة.

أمـا يكاترينا دميترييفنا فرغم أنها أبلت تماماً خلال الصيف إلا أنها انطفأت هـي الأخرى مثل داشا. وكانت الشقيقتـان غالباً ما تقولان أنهمـا ترزحان مثل كلّ إنسانٍ الآن، تحـت ثقلٍ كحجر الرحى. كانتا

تجدان رهقاً في الاستيقاظ، ورهقاً في السير ورهقاً في التفكير والالتقاء بالناس، وتتلهفان إلى الساعة التي تأديان فيها إلى الفراش مرهقتين، فإنّ النوم والنسيان مُتعةٌ لا تعادلها متعة. بالأمس دعت عائلة جيلكين في قائمة القتلى. لقد صُرع في ساحة المجد. دخل أهل المنزل إلى البيت، ومضى الضيوف على الشرفة في الظلام بعض الوقت، ثم انصرفوا صامتين. وهكذا الحال في كلّ مكان. كانت تكاليف العيش عالية، والمُستقبل يبدو غامضاً، واليأس يُخيّم على النفوس. وجرى التخلي عن فرسوفيا، ونسفت بريست-ليتوفسك واستسلمت. وكان الجواسيس يُعتقلون في كلّ مكان.

وكثُر قطاع الطرق في المُنخفض على نهر خيمكي. ولم يخرج أحدٌ إلى الغابة أسبوعاً كاملاً خوفاً منهم. ثمّ طردهم الحراس من المُنخفض، واعتقلوا اثنين منهم، ونجا ثالث وانسلّ إلى قضاء زفينيغورود كما يقول الناس لينهب الضّياع.

ذات صباح وصلت عدواً عربةٌ إلى الساحة الصغيرة قرب بيت عائلة سموكوفنيكوف، وكان السائق واقفاً على بسطة العربة. وتراكضت نحوه من كلّ الجهات النسوة والطباخات والصبيان. إنّ شيئاً ما قد حدث. وخرج بعض المُصطافين مُستأجري البيوت الريفيّة من أبواب حدائقهم. واندفعت ماتريونا عبر الحديقة وهي تمسح يديها. كان السائق يقول أحمر مُلتهباً وهو واقفٌ على بسطة عربته:

- ...جروه من الدائرة وهزّوه وضربوه على الرصيف، ثمّ قذفوه في نهر موسكو. وكان حوالي خمسة ألمان مُختفين في المصنع... أمسكوا ثلاثة، إلا أنّ الشرطة هرّبتهم، وإلا لكان لهم نفس المصير في نهر موسكو...وفي ساحة لوبيانسكايا كلّها يتطاير الحرير والمخمل على الدوام. والنّهب يجري في المدينة كلّها...والناس حُشود...

أنــزل سوطه بــكلّ قوة على حصانــة العدّاء المنحنــي بعض الشيء بين عريشــي العربة المعكوفين، حاثــاً إياه وساطه مــرّةً أخرى فانطلق الحصــان بالعربــة المُتخلخلة وثباً في الشارع، ثاخــراً مُزبداً، وانعطف نحو الخمّارة.

كانــت داشا ونيقولاي إيفانوفيتش في موسكو. وكان عمودٌ أسود مــن الدّخان يتصاعد من هنــاك وإلى سديم السمــاء الرماديّ المسفوع بالشمــس، وينتشــر كسحابــة. وكان الحريق يُشاهد جيــداً من ساحة القرية حيث تجمهر حشدٌ من سواد أهل الريف. وحين كان المصطافون مستأجــرو البيوت الريفيّة يقتربون كانــت الأحاديث تسكت: كانت الأنظــار التي تُوجّه إلى الســادة مشوبةً بالسّخريــة أو التوقّع الغريب. وظهر رجلٌ قــويّ البدن وحاسر الرّأس يرتدي قميصــاً مُمزقاً، وصاح وهي يتقدّم إلى كنيسةٍ صغيرة مبنيّةٍ بالآجر:

– في موسكو يذبحون الألمان.

ومــا كاد ينتهــي مــن صياحه حتى أخــذت امرأةٌ حبلــى تنتحب. وتدافــع الناســ إلى الكنيسة، وركضــت يكاترينا دميترييفنــا أيضاً إلى هناك. واضطرب الحشد، وضجّ.

– محطّة فرسوفيا في موسكو تحترق. أحرقها الألمان.

– ذبحوا زهاء ألفي ألماني.

– بل ستّة آلاف. وألقى الجميع في النّهر.

– بدأو بالألمــان، ثم مضوا بصفّون بالتتابــع. يقولون أنّ حوانيت شارع كوزيتسكي موست[11] قد نُهبت إلى آخرها.

١١– شارعٌ في موسكو حيث كانت تقع حوانيت غالية كان أكثرها يعود إلى الأجانب. (المترجم).

– هذا ما يستحقونه. سمنوا على عرقنا، هؤلاء الأوغاد!

– من المُستحيل أن توقف الشّعب.

– في مُنتزه بتروفسكي، وأنا لا أكذب قَسَماً بالله، فقد جاءت أختي لتوها من هناك، في هذا المُنتزه، كما يقول الناس، عثروا على جهازٍ لاسلكيّ في بيتٍ ريفيّ ووجدوا بالقرب منه جاسوسين مُتنكرين بلحيتين مُستعارتين. وقد فتكوا بهما بالطبع.

– ينبغي أن، تُفتّش جميع البُيوت الريفيّة!

ورأى الناس فيما بعد فتيات قرويات يحملن أكياساً فارغةً وهنّ يركضن هابطاتٍ التل نحو السدّة التي يسير عليها طريق موسكو. أخذا الناس يصيحون عليهن. فألتفتن، ولوحّنَ بالأكياس وتضاحكن. سألت يكاترينا دميتريفنا فلاحاً هرماً مُحتشم المظهر كان واقفاً بالقرب منها يحمل عصاً طويلة.

– إلى أين هؤلاء الفتيات يركضن؟

– لينهبن، أيتها السيدة الكريمة.

وأخيراً وبعد الساعة الخامسة وصلت داشا ونيقولاي إيفانوفيتش من المدينة في عربة. كان كلاهما مُضطرباً، وقد رويا، وأحدهما يُقاطع الآخر أنّ الناس في موسكو كلها يجتمعون حُشوداً، ويُحطّمون بيوت الألمان والمخازن الألمانيّة. وقد أحرقت عدّة بيوت ونُهب مخزن الملابس الجاهزة التابع لماندل، وحُطّم مُستودع بيكر للبيانوهات في شارع كوزنتسكي موست. ورُميت البيانوهات من نوافذ الطابق الثاني، وألقيت في النار.

وتغطّت ساحة لوبيا نسكايا بالأدوية والزّجاج المُهشّم. ويُقال أنّ حوادث قتلٍ قد وقعت. وبعد الظّهر خرجت الدوريات، وأخذت تُفرّق الناسَ. والآن هدأ كلّ شيء.

قال نيقولاي إيفانوفيتش وهي يرمش بعينيه من النفعال:

– هـذه همجيّـة، بالطبع. ولكـن تُعجبني هـذه الـروح المُلتهبة، جـبروت الشّعـب. إذا كانوا اليـوم قد نهبـوا المخـازن الألمانيّة فغداً سيقيمـون المتاريسـ. والحُكومة تهاونت في هـذه الإباحة عن قصد. نعـم، أؤكّد لـك لتُنفّس عن شدّة غيـظ الشعب. ولكـنّ الشعب من خلال هذه الأفعال سيطمع في تذوّق شيءٍ أكثر جديّة...

وفي تلـك الليلة نهب قبو عائلة جيلكـين، وسرقت بياضات عائلة سفيتشنيكـوف مـن العُليّـة. وظلّ الضـوء مُشتعـلاً في الخمّارة حتى الصبـاح. وبعد أسبـوع صار أهـل القرية يتهامسـون، وهم ينظرون نظراتٍ مُريبة إلى المُصطافين المُتنزّهين.

وفي بداية آب انتقلـت عائلة سموكوفنيكوف إلى المدينة. وعادت يكاترينا دميتريفنا إلى عملها في المُستشفى العسكريّ. وكانت موسكو في ذلـك الخريف حافلةً باللاجئين مـن بولنده. وكان من المُتعذّر على المـرء أن يشقّ طريقه في زحام شارع كوزنيتسكي موست، وبتروفكا، وتفيرسكايـا. وكان المخازن والمقاهي والمسـارح غاصّةً بالناس، وفي كلّ مكان كانت تُسمع عبارةٌ جديدة: "معذور".

وكان هـذا اللغط والتّرف والمسارح والفنادق المُكتظّة، والشوارع المُزدحمة السابحة بالضّوء الكهربائيّ محميّةً عن جميع المخاطر بجدارٍ حيّ يكوّنه جيشٌ مؤلفٌ من اثني عشر مليوناً من البشر ينزف دماً.

واستمرّت الأوضاع الحربيّة في حالةٍ لا تبعث على الاطمئنان قط. وكان الناسـ في كلّ مكانٍ من الجبهة والمؤخّرة يتحدّثون عن تصرفات راسبوتـين البغيضة، وعن الخيانة، وعـن استحالة الاستمرار في القتال إذا لم ينقذ القديس نيقولا بمُعجزة.

وفي خضمّ اليأس والفساد هذا أوقف الجنرال روزسكي هُجوم الجيوش الألمانيّة بشكلٍ مُفاجئ وفي ميدانٍ مكشوف.

٢٤

كانت الريح الشماليّة الشرقيّة تحني أشجار الحور الجرداء على ساحل البحر في الغسق الخريفيّ، وتهزّ أطر النّوافذ في البيت القديم القائم على التلّ ببرجه الخشبيّ، وتُدمدم في السقف دمدمةً تخيّل إليك أنّ إنساناً ثقيل الوزن يتخطّى على السطح الحديديّ، وتصفر في المداخن، وتحت الأبواب، وفي كلّ شقّ.

ومن نوافذ البيت كان في مُستطاع الناظر أن يرى الورود العارية تنحني من جهة إلى أخرى انحناءً شديداً على الأرض البُنيّة المحروثة، والسّحب المُمزّقة تعوم فوق البحر المُموّج الرّصاصيّ اللّون. وكان الجوّ بارداً وموحشاً.

وكان أركادي جادوف جالساً على أريكة بالية في الغرفة المأهولة الوحيدة في الطابق الثاني من البيت. وكان الكُمّ الفارغ من سترته، التي كانت أنيقة يوماً ما، محشوراً تحت حزامها. وكان وجهه بجفنيه المُنتفخين محلوقاً حلاقةً جيّدة وشعره مصفوفاً بعناية، وعلى وجنتيه عضلتان مُتحرّكان.

قلّص جادوف عينيه من دخان سيكارته، واحتسى شيئاً من النبيذ الأحمر المُتبقّي في براميل موجودةٍ في قبو بيت أبيه. وكانت يلزافيتا كييفنا تجلس على الطّرف الثاني من الأريكة، وتحتسي النّبيذ أيضاً وتُدخّن مُبتسمةً ابتسامةً رقيقة. وقد عوّدها جادوف أن تصمت أياماً

كاملـة، أن تصمت وتُصغي، بعد أن يحتسي زهاء ستّ زُجاجات من نبيـذ "كابيرنيه" المُعتّق ويبدأ بالتّحـدّث. وقد تراكمت في نفسه أفكارٌ مريرةٌ كثيرة أثناء الحـرب وأثناء إقامته جائعاً في "قصر كابيرنيه" نصف المُهدّم وسط بضعة أفدنةٍ من دوالي الكروم–الثروة الوحيدة التي بقيت له بعد وفاة أبيه.

في ليلـةٍ من الليالي التعسة في المُستشفى العسكريّ في المؤخّرة قبل ستّـة أشهرٍ حين كانت ذراعه المبتـورة غير الموجود توجعه وجعاً مُمضاً قال ليلزافيتا كييفنا بغيظٍ وحنقٍ وتكدّرٍ:

– بـدلاً من أن تُبحلقـي فيّ بعينيـك العاشقتين طـوال الليل، ولا تدعيني أنام أستدعي القسّ غداً ليُسوي هذه القضيّة المُضجرة.

أُمتقعت يلزافيتا كييفنا ثمّ هـزّت رأسها مُوافقة. وعُقد قرانهما في المُستشفـى العسكريّ. وفي كانـون الأوّل نقل جادوف إلى موسكو، حيـث أجريـت له عمليّـةٌ ثانية، وفي بواكـير الربيع سافر مـع يلزافيتا كييفنـا إلى أنابـا، وسكنا في "قصـر كابيرنيه". ولم تكن لجـادوف أيّة مـوارد للعيش، فكانا يحصلان على ثمـن خبزهما ببيع الأثاث القديم والأدوات المنزليّة. إلا أنّ النبيـذ الكابيرنيه كان مُتوفّراً بكثرة والمخمر خلال سنوات الحرب.

وفي هـذا البيـت الخاوي نصف المُهـدّم ذي الـبرج الملوّث بذرق الطيور بدأت البطالة الطويلة الميئوسة. وقد استنفدت الأحاديث كلّها منذ زمنٍ طويل. والمُستقبل لا ينطوي على شيء وكأنّ الباب أغلق على الزّوجينِ إلى الأبد.

حاولت يلزافيتا كييفنا أن تملأ بوجودها فراغ الأيام الطويلة بشكلٍ مُعـذّب. ولكنها لم توفـق كبير توفيق: فقد كانـت رغبتها في الحظوة

بالإعجاب مضحكة وغير مُتقنة، وبلا اقتدار. وقد عيرها جادوف على ذلك. فراحت تُفكّر في يأس بأنها، رغم سعة فكرها، سريعة التأثّر كامرأة. ومع ذلك فإنها لن تستبدل بأيّة حياة أخرى هذه الحياة المُعدمة المملوءة بالإهانات، المُترعة بالسّأم، والخضوع للزوج، واللحظات النادرة من النشوة المجنونة.

وفي الآونة الأخيرة، حين أخذ الخرف يصفر على الساحل الأجرد أصبح جادوف مُتوتّر الأعصاب بشكلٍ خاص: فما تكاد تبدي حركةً حتى ترتفع شفته فوق أسنانه الحانقة، ويتفوّه بأشياء فظيعة من خلال أسنانه مقطعاً الكلمات بوضوح. وكانت يلزافيتا كييفنا فقط ترعد داخلياً في بعض الأحيان، وتسري القشعريرة في جسدها من الإهانة. ومع ذلك كانت تُصغي إلى هذيانه ساعاتٍ طويلة غير صارفةٍ عينيها عن وجهه الجميل الناحل.

وكان يُرسلها لتجلب النبيذ من القبو الآجريّ المُقوّس السقف، مسرح العناكب الكبيرة الراكضة. فكانت تُقرفص هناك عند برميل، وتراقب نبيذ كابيرنيه الأحمر ينزل في الجرّة الخزفيّة وتطلق العنان لأفكارها. وتفكّر بمرارةٍ مُنتشية في أنّ أركادي سيقتلها ذات يوم هنا، في القبو، ويدفنها تحت برميل. وستمرّ ليالي شتائيّة طويلة وذاتَ ليلة يوقد شمعة، وينزل إلى العناكب هنا. ويجلس أمام البرميل، ويراقب هذا النبيذ النازل كما نُراقبه الآن، وينادي فجأةً "ليزا..." وما من شيءٍ غير العناكب تركض على الجدران. فيجهش لأوّل مرّةٍ في حياته من الوحدة، ومن الوحشة القاتلة. لقد كانت يلزافيتا كييفنا تعوّض بمثل هذه الأحلام عن كلّ الإساءات، فإنّها في آخر المطاف ستكون هي الرابحة لا هو.

اشتدّت الريح. واهتزّ الزجاج من عصفاتها. اعولّ صوتٌ وحشيّ

من البرج، وسيظلّ يعوّل، علـى ما يبدو، طوال الليل. و لم تتوقّد نجمةٌ واحدةٌ فوق البحر.

وكانـت يلزافيتا كييفنـا قد نزلت ثلاث مـرّات إلى القبو، وملأت الجرّة. وبقي جادوف على جلسته الساكنة وعل صمته. في هذه الليليّة لا بُدّ أن تجري أحاديث من نوعٍ خاصّ.

وتكلّم جادوف فجأة وبصوتٍ عال:

– أليسـت عندنا بطاطس، على الأقـلّ؟ كان في إمكانك، على ما يبـدو، أن تُلاحظي أنني لم أتناول شيئاً من الأكل منذ الأمس. وذهبت يلزافيتا كييفنا. بطاطـس، بطاطس... إنّها منذ الصّباح كانت مشغولةً بأفكارهـا، بعلاقة أركادي بهـا حتى أنّ العشـاء لم يخطر على بالها. وثبت من الأريكة. فقال جادوف بصوتٍ مُتثلّج:

– اجلسي يا قذرة. أنا أعرف بدونك أننا لا نمتلك بطاطس. يجب أن أقـول لـك أنّك لا تجيدين شيئـاً في الحياة خـلا التفكير في مُختلف السّفاسف.

– سأذهـب إلى جيراننا، فقد يبادلوننا النبيـذ بشيءٍ من الخبز ومن البطاطس.

– افعلـي ذلك حين أفرغ من الحديث. اليـوم حلّلت نهائياً مسألة إباحـة الجريمة. (وبهذه الكلمـات لفّت يلزافيتا كييفنـا اللفاح عليها، وانـزوت في طرف الأريكة) إنّ هذه المسألـة استهوتني منذ الطّفولة. والنّسـاء اللائي التقيت بهـنّ اعتبرتني مُجرمـاً، واستسلمن لي بتعطّشٍ كبـير. إلا أننـي لم أحـلّ فكرة الجريمـة إلا في الأربـع والعشرين ساعةً الماضية.

ومدّ يده إلى القدح، وشرب النبيذ بنهمٍ وأشعل سيكارة:

– تصوّرينـــي جالساً في الخندق على بُعد ثلثمائة خطوة عن العدوّ. فما الذي يمنعني من تخطّي المتراس، والذهاب إلى خندق العدوّ، لأقتل مَــنْ ينبغي أن يُقتــل، وأنهب فلوسهم وبطانياتهــم والقهوة والتّبغ؟ لو كنت واثقاً من أنّهم لــن يرموني أو يرمونني ولكن لا يصوبونني فإنني بالطبع لذهبت وقتلت ونهبت، ونشرت صورتي في الصّحف كبطل. إنّ ذلــك يبــدو واضحــاً ومنطقياً. والآن، هــا أنا قاعدٌ علــى بُعد ستّة فراسخ من أنابا، في "قصر كابيرنيه" وليس في خندق، فلماذا لا أذهب ليــلاً إلى المدينة ولا اقتحم مخــزن مورافيتشيك للمُجوهرات، واستولى على المجوهــرات والذّهب، وإذا صادفت مورافيتشيك نفسه، فأغرز فيــه سكيناً بكلّ سُرور، في هذا الموضع–وأشار بإصبعه إلى بداية الرّقبة بحزم–لمــاذا لا أفعل ذلك حتــى الآن؟ هذه المرّة أيضــاً بدافع الخوف فقط. والخوف من الاعتقال، والمُحاكمة، والإعدام. يبدو أنّني أتحدّث بمنطق. ها؟ إنّ سُلطة الدّولة هي التي تبتُّ في مسألة قتل ونهب العدوّ. أيُّ تبــت فيها وفــق الأخلاق التــي ترسمها الحكومــة، أي بمجموعة القوانــين الجنائيّة والمدنيّة، في المعنى الإيجابيّ. ومعنى ذلك أنّ المسألة تنحصر في إحساسي الشّخصيّ بمن أعتبره أنا عدواً لي.

قالت يلزافيتا كييفنا بصوتٍ لا يكاد يسمع:

– العدوّ في الحالــة الأولى هو عدوّ الدّولة وفي الحالة الثانية عدوّك فقط.

– تهــانيَّ! حدّثيني شيئاً ما عن الاشتراكيّة؟ هــراء! الأخلاق قائمة على حقّ الفرد، لا المجموع. أعتقد بأنّ التّعبئة قد نجحت نجاحاً باهراً في جميــع الأقطار والحرب ماضيــةٌ في سنتها الثالثة بــكلّ معمعاتها، مهما احتجّ بابا روما، فقط لأنّنا جميعاً، كلّ فرد منا، قد تجاوزنا قماط الرّضاعــة إننا نُريــد القتل والنّهب، وإذا لا نُريدُ بشــكلٍ مُباشر فإننا لا

نعترض عليهما في شيء. والدّولة تنظّم القتل والنّهب. والحمقى والقاصرون ماضون في تسمية القتل والنّهب قتلاً ونهباً. والحمقى والقاصرون ماضون في تسمية القتل والنّهب قتلاً ونهباً. وأنا منذ الآن أسمّيها التّحقيق الكامل لحقّ الفرد. النّمر يأخذ ما يُريد. وأنا أرفع من النّمر. فمن يجرؤ على تحديد حقوقي؟ مجموعة القوانين؟ لقد أكلتها الديدان. وضمّ جادوف قدميه، ونهض بخفّة، وراح يذرع الغرفة التي كان يتسلل إليها من خلال الزّجاج المُغبر خطّ كابٍ من الغروب لا يكاد يُنيرها.

– إنّ ملياراً من الناس يجدون أنفسهم الآن في حالة حرب. وخمسمائة مليون من الرّجال يُقاتلون في الجبهات، وهم مُنظّمون ومُسلّحون. ويُمثّلونَ في الوقت الحاضر مجموعتين مُتعاديتين. ولكن لا شيء يمنعهم من أن يوقفوا القتال في أحد الأيام، ويتّحدوا وسيحدث هذا حين سيقول رجلٌ لهذه الخمسمائة مليونٍ من الرّجال: "أيها الحمقى، إنّكم لا تصوّبون إلى الهدف الصّحيحٍ". ولا بُدّ أن تنتهي الحرب بتمرّد، بثورة، بحريقٍ يشمل العالم. وتتحوّل الحراب إلى داخلِ البلاد. وسيكون المجموعٍ سيّد الحياة وسيجلسون على العرش فقيراً من الحُثالة ويُقدّمون له فروض الطّاعة. وليكن ذاك. إنّ ذلك سيزيد من إطلاق يديّ للنّضال. فمن ناحية يوجد قانون الجماهير، ومن الناحية الثانية يوجد قانون الفرد. أنتم الاشتراكيّة ونحن قانون الغاب، نحن الفوضويّة المُقدّسة، المُنظّمة بانضباطٍ حديديّ.

كان قلب يلزافيتا كييفنا يخفق خفقاناً مجنوناً. إنها هذه بالذات تلك "المهاوي" التي كانت تحلم بها حين كانت في شقّة تليغين. ولكنّها لم تعد تلك المزحات المرحة المُصاغة بالبنود الاثني عشرة "للاستفزاز الذاتي" التي علقها نزلاء شقّة تليغين على باب ليزا... والآن في الغسق مرّ بالنّوافذ رجلٌ رهيبٌ حقاً مثل حيوان الكوجر الأمريكيّ في قفص.

كان يتحـدّث لمُجرّد أنـه غير طليق. وحين أصغـت يلزافيتا كييفنا إليه أحسّـت وكأنّها رأت عدواً مجنوناً لخيولٍ مُنطلقة، وسهباً، ووهجاً... وتراءى لها أنّها تسمع صيحات، وضجيج معركة والزّعيق قبل الموت وأغاني السّهب.

٢٥

في أوائـل الشتاء من عام ١٩١٦، ووسـط الجزع العامّ والتوقعات التـي لا تحمل أملاً استولت القوات الروسيّـة فجأةً على قلعة أرضروم بالعنوة حافرةً أنفاقـاً عميقةً خلال الثّلوج، مُتسلّقةً مُنحدرات كساها الجليد. وكان ذلك في وقتٍ مُني فيه الانجليز بهزائم عسكريّة في ما بين النّهرين وقرب القسطنطينيّة، وجـرى فيه قتالٌ عنيد في الجبهة الغربيّة على بيـت المعدّاوي على نهر أيسر، وكان الاستيـلاء على بضعة أمتارٍ مـن الأرض المرويّة بالدّماء رياً كثيفاً يُعتـبر نصراً كان برج إيفيل يُسرّع لإذاعته على جميع العالم.

وفي الجبهـة النّمساويّـة تحوّلت الجيوش الروسيّة بقيـادة الجنرال بروسيلـوف إلى هجـوم حاسم بنفـس الفجاءة أيضـاً. وحدثت بلبلةٌ عالميّة. وصدر في إنجلترا كتابٌ عـن الروح الروسيّة المُلغّزة. وبالفعل، وخلافـاً للفكر المنطقيّ، وبعد سنةٍ ونصف سنة من الحرب، والهزيمة، وفقـدان ثمـاني عشـرة ولايـة، وخـور العزيمةً العـام وبعـد الخراب الاقتصاديّ، والانحطاط السّياسيّ عـادت روسيا مُندفعةً إلى الهُجوم على طول جبهتها تمتدّ ثلاثة آلاف فرس. وارتفعت موجةٌ مُعاكسة من القوّة النّضرة التي تبدو غير مُستنفدة.

وسارت صفوف مئات الألوف من الأسرى داخل روسيا. وتلقّت

النمســا ضربــةً مُميتة ونتيجةً لهــا تهشّمت بعد سنتــين بسهولة وكأنّها وعاءٌ مــن الفخار. وعرضت ألمانيا الصّلح ســراً. وارتفع سعر الروبل. وانبعثت من جديد الآمال بإنهاء الحرب العالميّة بضربة حربيّة. وراجت "الروح الروسيّــة" رواجاً فائقاً بين الناس. وشُحنت بواخر المُحيطات بالفرق الروسيّة. وغنى فلاحو أوريول، وتولا، ورييازان أغاني الجنود الروسيّــة في شوارع سلانيك، ومارسيليــا، وباريس، وشنّوا هجماتٍ جنونيّةٍ بالحراب إنقاذاً للحضارة الأوروبيّة.

واستمــرّ الهُجوم طيلة الصّيف واستدعي للخدمة رجالٌ من أعمارٍ مُتزايــدة ممــن كانــوا في الاحتياط، وانتــزع الفلاحون في ســنّ الثالثة والأربعــين مــن الحقل، من العمــل. وكان يجري تشكيــل الوحدات التكميليّــة في جميع المُــدن. واقترب عدد المعبئــين إلى أربعة وعشرين مليونــاً وخيّمــت على ألمانيــا، وأوربّا كلّها سحابــة الرّعب القديم من الجحافل الآسيويّة.

وخــلال هذا الصيف أقفرت موسكو إقفــاراً شديداً. فقد امتصّت الحــرب الرّجــال مثل مضخّــة ماصّة. ورحــل نيقــولاي إيفانوفيتش إلى الجبهــة في مينســك. وعاشت داشا وكاتيا في المدينــة عيشةً هادئةً مُنعزلــة، وكان العمل كثــيراً، وأحياناً كانت تأتي مــن تليغين بطاقاتٌ بريديّــةٌ مُقتضبــةٌ حزينة، فقد حــاول كما يظهر، الهــروب من الأسر، إلا أنــه قبضــ عليه، ونقل إلى قلعة. وفي أحــد الأوقات زار الشّقيقتين رجــلٌ لطيفٌ جداً هو النقيب روتشين الــذي أوفد إلى موسكو لتسلّم الذّخيرة. وكان نيقولاي إيفانوفيتش قد أخذه ذات مرّةٍ في سيارته من الاتحــاد البلدي ليتناول طعام الغداء في البيــت. ومنذ ذلك الحين أخذ روتشين يتردّد على البيت.

كان جرس البــاب الخارجــيّ يــدقّ عند حلــول الظــلام من كلّ

مساء. فتتنهّـد يكاترينا دميتريفنا على الفـور تنهيدةً حذرة، وتذهب إلى الصـوان، وتضع مربّـى في سكرجة أو تشـرّح الليمون شرائح في للشاي. ولاحظت داشا أنّ كاتيا حين يظهر روتشين في غرفة الطعام، بعد أن يدقّ الجرس، لا تدير رأسها إليه حالاً، بل تتباطأ برهةً، ثمّ تطلّ من شفتيها ابتسامتهـا الرّقيقة المُعتادة. وكان فاديم بيتروفيتش روتشين ينحني بتحيّة صامتة. كان نحيلاً ذا عينين داكنتين خاليتين من البهجة، ورأس حليقٍ مُتناسق... وكان يجلس إلى المائدة مُتمهلاً ويشرع برواية الأنباء الحربيّة. وكانت كاتيـا تشرب الشاي، وتنظر في وجهه، وكان يبدو مـن عينيها بحدقتيها الواسعتين أنّها تُصغـي إليه باهتمام خاص. وحـين تلتقي عينـاه بعينيهـا كان يظهر علـى وجهه عبوسٌ خفيف ويصلصـل مهمازه تحـت المائدة. وأحيانـاً يخيّم علـى المائدة صمتٌ طويـل، وفجأةً تتنهّد وتحمرّ، وتبتسم عن تقصير. وينهض روتشين في نحـو الساعة الحاديـة عشرة ويُقبّل يد كاتيا باحـترام ويد داشا بذهولٍ وينصرف، راجيـاً ألا يُرافق إلى الرواق. وكانت خطواته القويّة تسمع وقتـاً طويلاً في الشـارع الخالي. وكانت كاتيا تمسـح الأكواب وتُغلق الصـوان، دون أن تنطـق كلمـةً واحدة، وتـأوي إلى غرفتهـا، وتُدير المفتاح في الباب.

ذات مـرّة كانت داشا تجلس قرب النافـذة المفتوحة عند الغروب. كانـت الخطاطيـف تُحلّق عالياً فـوق الشـارع. واستمعـت داشا إلى أصواتها الرقيقة الرنانة، وفكّرت في أنّ يوم غد سيكون حاراً صاحياً، مـا دامت الخطاطيف تُحلّق عالياً. إنّها طيورٌ سعيدة ما دامت لا تعرف شيئاً عن الحرب.

غربـت الشّمس، وتلـوّن الغبار فوق المدينة بلـون ذهبيّ. وجلس الناس في الغبشـ عند البوابات ومداخل البيوت. وشاعت وحشةٌ في نفسهـا، وانتظرت داشا شيئاً ما وها هو أورغن الشوارع بدأ عزفه في

مــكانٍ غير بعيد مُضيفــاً نغمةً عاطفيّةً مُتكرّرةً مُزمنــة تعبّر عن وحشة المســاء. وضعــت داشا مرفقها نغمــةً عاطفيّةً مُتكــرّرةً مُزمنة تعبّر عن وحشــة المساء. وضعت داشا مرفقها على إفريــز النافذة. كان صوتٌ نسائيٌّ عالٍ يرتفع إلى سطوح البيوت نفسها مغنياً: "تغذيت على الخبز اليابس، وشربت الماء القارس..."

تقدّمت كاتيا نحو مقعد داشا من الخلف، ويبدو أنها سمعت أيضاً، فقد وقفت بلا حراك.

– إنها تُغني جيداً، يا كاتيوشا.

قالت كاتيا فجأةً بصوتٍ واطئٍ وغريب.

– لأيّ شيءٍ هــذا؟ لَمَ قُدِّر لنا؟ إيُّ ذنبٍ ارتكبنا؟ عندما ينتهي هذا سأصير عجوزاً، هل فهمَت؟ لا أصطبر أكثر من هذا، لا أستطيع!..

ووقفت عند الحائط. قــرب الستارة شاحبةً مُتقطّعة الأنفاس، وقد ظهــرت غضونٌ عند فمهــا، تنظــر إلى داشا بعينين جافّتــين داكنتين. وكرّرت بخفوتٍ وبحّة صوت:

– لا أستطيع أكثر، لا أستطيع. إنّ ذلك لن ينتهي أبداً!...نموت... ولن نعرف الفرحة بعد الآن...أتسمعين عويلها؟..إنها تُدفن أحياء.

طوّقت داشا أختها، ومسّدت عليها، وأرادت تهدئتها، إلا أنّ كاتيا رفعت كوعيها حيث أرادت أن تنحيها.

دقّ الجرس في الرواق. أبعدت كاتيا أختهــا، ونظرت إلى الباب. دخل روتشــين في قميص خشنٍ من الجوخ، وحــذاء جديد مدهون. سلّــم على داشا ببسمــةً، ومدّ يدَه إلى كاتيا، وفجــأةً نَظر إليها بدهشة وتجهّم. انصرفــت داشا إلى غرفة الطّعام في الحــال ومن هُناك، وبينماً كانت تضع عدّة الشاي على المائدة سمعت كاتيا تسأل روتشين بنفس

الصوت الواطئ المبحوح، ولكن بتحفّظ:

– أنت مُسافر؟

سعل وأجاف بجفاف:

– نعم.

– غداً؟

– لا، بعد ساعةٍ وربع.

– إلى أين؟

– إلى الجبهة.

وبعد برهةٍ من الصمت، عاد يقول:

– المسألة، يا يكاترينا دميترييفنا، إنّ هذا هو لقاؤنا الأخير، على ما يبدون ولهذا قرّرت أن أقول...

أسرعت كاتيا لمقاطعته:

– لا، لا...أنا أعرف كلّ شيء...وأنت تعرف عني...

– يكاترينا دميترييفنا، أنت...

صاحت كاتيا بصوتٍ جنونيّ:

– نعم، أنت ترى بنفسك!..أتوسّل إليك أن تنصرف...ارتجّ الفنجان في يدي داشا. واللذان كانا في غرفة الجلوس صمتاً. وأخيراً تكلّمت كاتيا بصوتٍ خافتٍ تماماً:

– اذهب، يا فاديم بيتروفيتش...

– وداعاً.

وزفر رفرةً قصيرة. وصرف حذاءه المدهون وانصفق الباب

الخارجيّ. دخلت كاتيا غرفة الطعـام، وجلست إلى المائدة وضغطت يديها على وجهها بكلّ قوّة.

ومنذ ذلك الحين لم تذكر كاتيا الراحل بكلمة واحدة. تحمّلت الألم بشجاعـة، أرسل روتشـين في طريقه بطاقةً بريديّة–تحيّـةً للشقيقتين، ووضعت هذه الرسالة على طوار الموقد حيث لوّثها الذّباب.

كانـت الشقيقتان تذهبـان في كلّ مسـاء إلى بولفـار تفيرسكوي لكـي تستمعـا إلى الموسيقى. وكانتـا تجلسانً على مسطبـة، وتنظران إلى الفتيـات والصبايا يتنزّهن تحت الأشجار في أثواب بيضاء وورديّة، وكان في البولفـار كثرةٌ من النّساء والأطفـال، ونادراً ما يمرّ عسكريّ مرفوع الذّراع في ضمادة، أو مُشوّه حربٍ على عكّازة. وكان صوت الأبـواق حزيناً يتعالى في السماء المسائيّة. وكانت داشا تُمسك يد كاتيا الضعيفة النّحيلة، وتقول وهي تنظر إلى ضوء الغروب المُتسرّب من بين الأغصان:

– كاتيوشا، كاتيوشا، أتذكرين:

إيه يا حبي الذي لم يكتمل،

في قلبي يبرد الحنان...

أعتقد أننا لـو نتجمّل بالشجاعة، فسنرى الوقت الذي يُتاح لنا فيه أن نُحـبّ، دون عذاب... لأننا نعـرف الآن أنّ الحبّ أسمى شيءٍ في الدّنيـا. أنا أتصوّر أحيانـاً أنّ إيفان إيليتش سيأتـي من الأسر وسيكون مُختلفاً جداً، جديداً كلّ الجدّة. أنا الآن أحبّه بيني وبين نفسي، بالخيال. وسنلتقي وكأنّ أحدنا قد أحبّ الآخر في حياةٍ أخرى غير هذه الحياة.

قالت يكاترينا دميتريفنا، وقد مالت إلى كتفها:

– أمـا أنـا، يا عزيزتـي داشا، فـإنّ قلبي قد شاخ لما فيـه من المرارة

والعتمة. سترين أنتِ أوقاتاً سعيدة، أما أنا فلن أرى...ذبلت كالزهرة العقيمة.

– من العيب أن تقولي ذلك، يا كاتيوشا.

– لا، يا فتاتي، يجب أن أتحلى بالشجاعة.

وذات مساء من تلك الأمسية على المسطبة جلس عسكريٌّ على الطرف الآخر منها. وكانت الفرقة الموسيقيّة تعزف لحناً فالسا قديماً. وكانت أضواء المصابيح تُرسل ضوءً شاحباً من خلال الأشجار. وكان جارهما على المسطبة يتفرّس فيها بشدّة حتى أنّ داشا أحسّت بتوترٍ في رقبتها. التفتت، وندّت منها "لا!" فجّائيّةٌ مذعورةٌ خفيفة.

كان بيسونوف يجلس إلى جانبها نحيفاً رثّ المظهر في سترةٍ عسكريّة مُتهدّلة كالكيس وقبّعة عليها صليبٌ أحمر. نهض وسلّم صامتاً، قالت داشا "مرحباً"، وأطبقت شفتيها. دفعت يكاترينا دميترييفنا بجسها إلى ظهر المسطبة، محتمية بظلّ قبّعة داشا، وأغمضت عينيها. كان بيسونوف رمادياً وكأنّه مُسربَلٌ بالغُبار، أو أنّه لم يغتسل.

قال لداشا رافعاً حاجبيه:

– رأيتك في البولفار يوم أمس وأوّل أمس ولكنني تردّدت في التّقدّم منك...أنا ذاهبٌ لأقاتل.إنهم وصلوا إليّ أيضاً.

قالت داشا بعصبيّةٍ مُباغتة:

– كيف تذهب لتحارب، وأنت في الصليب الأحمر؟

– لنفرض أنّ الخطر قليلٌ نسبياً–، بالطبع. ولكن سواءٌ لديّ أن أُقتل أو أنجو، لا أبالي تماماً...الحياة مُضجرةٌ تماماً! يا داريا دميترييفنا– ورفع رأسه، ورمق شفتيها بنظرةٍ كابية–مُضجرةٌ من كلّ هذه الجُثث، ولا شيء غير الجُثث...

سألت كاتيا دون أن تفتح عينيها:

– هل أنت ضجرٌ من هذا؟

– نعــم، ضجرٌ جداً، يكاترينا دميتريفنا. في الماضي كان ثمّة شيءٌ من الأمل... ولكن، بعد هذه الجُثث والجُثث خيمُ ليل أبديّ... جثث، ودمٌ وفوضــى. هكذا... يا داريا دميترييفنــا، وإذا أردّت الحقيقة، فقد جلست إليك راجياً تضحية نصف ساعةٍ من الوقت لي.

– ولأيّ شيء؟ –سألت داشا، ونظرت في وجهه الغريب والسّقيم، وخُيّل إليها فجأةً وبصفاءٍ أدار رأسها أنها ترى هذا الرّجل لأوّل مرّة.

قال بيسونوف مُغضناً وجهه:

– فكّرت طويلاً فيما جرى في القرم وأودّ أن أتحادث معك–ودسّ يده ببطءٍ في جيب سُترتــه الجانبيّ ليخرج علبة السيكائر–أودّ أن أبدّد بعض الانطباعات غير الحسنة...

قلّصت داشا عينيها، لم تجـد أيّ أثرٍ للسّحر في هذا الوجه الكريه. فقالت بتصميم:

– أحسب أنّ ليس بيننا ما نتحدّث عنه–. وأشاحت عنه.

– مع السّلامة، يا ألكسي ألكسييفتش.

تشوّه وجــه بيسونوف ببسمــة معوجّة، ورفع قُبّعتــه، وانصرف. نظرت داشا إلى ظهره الواهن، وإلى بنطاله المُترب. أمن المعقول أنّ هذا المخلوق هو بيسونوف حلم لياليها المُسهدة؟

– كاتيوشا، اجلسي، وانتظريني قليلاً.

قالــت بعُجالــة، وركضــت وراء بيسونوف الذي استــدار في ممرٍّ

جانبيّ. لحقت به لاهثة الأنفاس، وأمسكته من كمّه. توقّف، واستدار، وانسبل جفناه على عينيه الشّبيهتين بعيني طائرٍ مريض.

– ألكسي ألكسييفيتش، لا تغضب منّي.

– لست غاضباً، بل أنت لم تريدي أن تتحدّثي معي.

– لا، لا...أنت لم تفهمني على الوجه الصحيح...أنا أقدّرك كثيراً، وأرجو لك كلّ خير...ولكن لا داعي لتذكر ما فات...لا شيء يبقى من الماضي...أنا أشعر بالذّنب وأحسّ بالإشفاق عليك...

هزّ كتفيه، ونظر من خلال داشا إلى السابلة ببسمةٍ ساخرة.

– أشكرك على الإشفاق.

تنهّدت داشا، فلو كان بيسونوف غُلاماً صغيراً لأخذته إلى بيتها، وغسلته بماء دافئ، وأطعمته حلوى. ولكن ماذا تفعل مع هذا الرّجل وهو الذي خلق له ما يؤلمه ويُعذّبه ويكدّره.

– اكتب لي كلّ يوم، إذا أردت، يا ألكسي ألكسييفتش، وسأردّ عليك.

قالت له، ونظرت في وجهه بأكثر ما يُمكن من الطيبة. دفع رأسه إلى الوراء، وضحك ضحكةً باردة.

– شكراً...ولكن بي نُفورٌ من الورق والحبر...–وتغضن وكأنما ابتلع شيئاً حامضاً–إمّا أنت قدّيسة، يا داريا دميترييفنا وإمّا معتوهة... أنت عذاب الجحيم أنزل عليّ، وأنا حيّ، هل فهمت؟

وجاهد لينصرف، ولكن بدا وكأنّه لا يستطيع أن ينتزع قدميه. وقفت داشا مطرقة الرأس، فقد كانت تحسّ بالرّثاء، ولكن قلبها بارد.

نظر بيسونوف إلى جيْدها المُنحني وإلى نهدها الرقيق الفتيّ البادي من فتحة الفُستان الأبيض، وفكّر بأنّ هذه هي النّهاية، الموت.

– كوني رحيمة.

قال بصوت بسيط خفيض إنسانيّ. همست على الفور دون أن ترفع رأسها: "نعَم، نعم" وسارت بين الأشجار. وللمرّة الأخيرة بحث بيسونوف ببصره عن رأسها الأشقر الشّعر بين حشد الناس. لم تبد منها التفاتة. وضع يده على شجرة، تشبّث بأصابعه بقشرتها الخضراء. فإنّ الأرض، ملجأه الأخير، مادت من تحت قدميه.

٢٦

كان القمر يتدلّى مثل كرةٍ شاحبة فوق مُستنقعات الخث المُقفرة. وكان الضباب يتلوّى فوقَ الخنادق المهجورة. وفي كلّ مكان قرم أشجار مقطوعة، وهنا وهناك تلوح أشجار صنوبرٍ قصيرة وفي الجوّ رطوبةٌ وسكون. وصفٌ من عربات الإسعاف يسيرٌ على دربٍ ضيّق مرصوفٍ بجذوع الشّجر. وخطّ الجبهة لا يبعد غير ما يقرب من ثلاثة فراسخ وراء حدود الغابة المُسنّنة، ولا صوت يترامى من هناك.

في إحدى هذه العربات كان بيسونوف مُنطرحاً على القشّ، مُغطى بكسوة حصان مُشبعة برائحته. كانت الحُمى تنتابه كلّ مساء مع غروب الشّمس، وتصطكّ أسنانه من القشعريرة، وكان يبدو أنّ جسده يجفّ وتمرّ في ذهنه أفكارٌ صافية خفيفة ملوّنة كفَوَرانٍ بارد. كان ذلك إحساساً بهيجاً بفقدان الوزن الجسديّ. سحب الكسوة إلى ذقنه ونظر إلى السماء المُعتمة المحمومة. هذه هي نهاية الطّريق على الأرض: الظّلمة، وضوء القمر، والعربة المُتأرجحة كالمهد. وهكذا

بعـد أن تكتمل حلقة القـرون تعود عجلات السكيثيـين إلى الدوران والصريـف. ولكن كلّ الأشياء لم تكن إلا أحلاماً: أضواء بطرسبورغ، الأُبهة الحادّة لمبانيها، والموسيقى في صالاتها الدافئة المُتألّقة، وفتنة ستارة المسرحيّة وهي ترتفع، وسحر الليالي الثّلجيّة، وأذرع النّساء المطروحة على الوسائد، والحدقات الداكنة المجنونة... إثارات الشهرة... سكرة المجد... الضّـوء الهـادئ في المكتب، القلب الخافـق حماساً، النّشوة التي يبعثها خلق الكلمات... الفتـاة ذات الزّهور الاصطناعيّة البيضاء على قبّعتها، مُندفعةً من الرواق المُضاء إلى غرفته المُظلمة، إلى حياته... كلّ ذلك مُجرّد أحلام... والعربة تهتـزّ... وإلى جنبها يسير فلاحٌ بقبّعة مُنكسـة على عينيه. ألفان من السّنـين وهو يسير جنب العربة... ذلك هو امتداد الزّمن اللانهائيّ المكشـوف في ضوء القمر الكابي... ومن ظلام القرون تتحرّك الظّـلال. ويتعالى صريف العربات، وتشقّ العالم عجلاتهـا السّود. وهناك، في الضّباب الشاحب مداخن مواقد مواقد ناتئة، وأدخنة الحرائق تتعالى إلى السماء، وصريف العجلات وقعقعتها. ويرتفع الصّريف والقعقعة أكـثر، ويزداد اتّساعاً، والسماء كلّها مملوءةٌ بهديرٍ صاعق يُمزّق النّفس...

توقّفت العربـة فجأة. ومن خلال الهدير الذي يملأ الليل الشاحب تبلغ السّمع أصوات السّواقين المذعورة. رفع بيسونوف جسمه قليلاً. فـرأى في ضوء القمر عموداً طويـلاً مُتلألئ الحوافي يعوم على ارتفاعٍ واطـئ فوق الغابة، ويستدير ويلتمـع، ويهدر بزئير محركات، ويخرجُ مـن بطنه شُعاعٌ من الضوء أبيض نحيل ميـالٌ إلى الزّرقة، ويندفع فوق المُستنقعـات، فوق قـرم الأشجار، فـوق الأشجـار المطروحة، فوق شجيرات الشوح، ويستقرّ على الطريق العامّة، على العربات.

وترامت من خـلال الطنين أصـواتٌ ضعيفة مثل ضربـاتٍ سريعة

على بنـدول الإيقاع...وتناثرت الناس مـن العربات. انحرفت عربة إسعاف ذات عجلتين نحو المُستنقـع، وانقلبت...وفي اللحظة التالية توهّجَت حزمةٌ باهرة من الضّوء على الطريق على بُعد مائة خطوةٍ من بيسونوف وارتفع حصانٌ وعربةٌ في الهواء مثل كتلةٍ سوداء، وتصاعد عمـودٌ هائلٌ من الدّخـان وانقلب طابور العربات كُلّـه في زوبعةٍ من الهديـر. عـدّت الخيول في المُستنقـع ساحبةً وراءها الأجـزاء الأماميّة من العربات، وتراكض النـاس. وانقذفت العربة التي يرقد بيسونوف عليهـا، وهوت، وتدحرج بيسونوف على منحدر الطريق إلى الحفرة، وانهبد كيسٌ ثقيل على ظهره، غمره القشّ.

ألقـى المنطـاد الألمـانيّ قنبلـةً ثانية، ثمّ أخـذ دويّ محركاتـه يبتعد، وتلاشـى. عندئذ بدأ بيسونوف يزيح القشّ من فوقه مُتوجعاً، وخرج بجهـدٍ من تحـتَ الأمتعة التي وقعـت عليه، ونفض نفسـه وصعد إلى الطريق. فـرأى بعض العربات تقف هناك بجنبها وقد فقدت أنصافها الأماميّة. وكان أحد الخيول يرقد في المُستنقع مع عريش عربته، ورأسه مُلقىً إلى الوراء، يسحب رجله الخلفيّة آلياً.

تحسّـس بيسونوف وجهه ورأسه. مسّـت أصابعه بقعةً لزجة عند أذنه. وضع منديله على الخدش، وسار على الطريق نحو الغابة. كانت ساقاه ترتجفان بشدّة من الخوف والسّقطة، فاضطرّ بعد بضع خطواتٍ أن يجلـس على كومةٍ من الحجارة الغليظـة. أراد أن يشرب جرعاتٍ مـن الكونيـاك إلا أنّ القارورة بقيت مـع الأمتعة في الحُفـرة. أخرجَ بيسونوف الغليون وعلبة الكبريـت من جيبه بصعوبة، وشرع يُدخّن. كان دخان التّبغ مُراً وكريهاً. ثمّ تذكّر الحُمى، إنّ حالته سيّئة، ويجب، مهما يكن من شيء، أن يصل إلى الغابة، فقد قيل له أنّ البطاريّة تُعسكر هُنـاك. نهض بيسونـوف إلا أنّ رجليه لم تطاوعاه قـط، وكأنهما من

خشـب، ولا تـكاد تتحركان أسفـل بطنه. فقعد ثانيـةً على الأرض، وأخـذ يُدلّكهما ويمدّدهمـا، ويقرصهما، حتـى إذا أحسّ بالألم يسري فيهما فنهض وسار. كان القمر عالياً الآن الطريق يتلوّى في الظُّلمة عبر المُستنقعـات المُقفرة حتى يبدو بلا نهاية. وضـع بيسونوف يديه على حقوه، وترنّح رافعاً ومجرجراً لذانيه الثقيلين بصعوبة، وخاطب نفسه:

"جرجـر نفسـك، جرجر حتـى تسحقـك العجلات... نظمت أشعاراً، وأغويـت حمقـاوات... والآن قذفوك... جرجر نفسك في اتّجـاه الأفول حتى تنهار.. يمكـن أن تحتجّ، تفضّل احتـجّ، وازعق... حاول، حاول، اصرخ بأفظع ما تستطيع، أعول..."

والتفـت بيسونـوف فجـأة. انزلـق ظلٌّ رمـاديّ مـن الطّريق إلى الأسفل... فسـرت الـبرودة في ظهـره. ابتسـم بتهكـم، ورفع صوته بعبارات متقطّعة لا معنى لها، وسار في وسط الطّريق... ثمّ ألقى نظرةً حـذرةً إلى الخلف ورأى في الواقع أنّ كلباً كبـير الرّأس طويل القوائم كان يتبعه على بُعد خمسين خطوةٍ وراءه.

– الشيطان يعرف ما هذا!

غمغم بيسونوف، وأسرع في سيره، ثمّ ألقى نظرةً أخرى عبر كتفه. كان هناك خمسة كلابٍ تسير خلفه في صفٍ واحد، منكّسةً الأبواز، رماديّة، مرتخية المؤخرات. قذفها بيسونوفً بحجرٍ قائلاً:

– سأضربكم... ابعدوا عنّي، يا قذارة...

انحدرت الوُحوش إلى أسفل، إلى المُستنقع صامتة. جمع بيسونوف بعض الحجارة، وأخذ يتوقّف بين الحين والآخر ويقذفها... ثم واصل

سيره، وصفر، وصاح "هاي، هاي..." خرجت الوحوش من أسفل الطّريق وسارت وراءه ثانية.

بدأت شجيرات شوح صغيرة تظهر على جانبي الطريق. ثمّ إنّ بيسونوف لمح أمامه، عندَ المُنعطف، شبح شخصٍ توقّف مُتفرّساً، وبعد ذلك تراجع في ظلّ شجيرات الشّوح.

همس بيسونوف "اللعنة!" واختفى في الظّلّ أيضاً، ووقف طويلاً مُحاولاً السيطرة على خفقات قلبه، توقّفت الوحوش أيضاً غير بعيد، وجثم أولها واضعاً بوزه على قائمتيه الأماميتين. ولم يتحرّك الشّخص الذي في الأمام. رأى بيسونوف بوضوح شديد غمامةً طويلة كالنّقاب تبرقع وجه القمر. ثمّ صدر صوتٌ وانغرز في دماغه كالإبرة، هو صوت انسحاق غصنٍ تحت قدم، حي قدم ذلك الشّخص بالتّأكيد. طلع بيسونوف سريعاً إلى وسط الطّريق، وسار شاداً على قبضتيه بجنون. وأخيراً رآه إلى اليمين. كان جندياً مديد القامة، محدودياً يُلقي معطفه على كتفيه، وكان وجهه بلا حاجبين، يُحاكي وُجوه الموتى، رمادياً، وفمه نصف مفتوح. صرخ بيسونوف:

– أيّ، من أيّ فوجٍ أنت؟

– من البطاريّة الثانية.

– أوصلني إلى البطاريّة.

صمت الجنديّ، ولم يبد حركة، ونظر إلى بيسونوف نظرةً كدرة، ثمّ أدار رأسه إلى اليسار:

– ما هذه؟

أجاب بيسونوف نافذ الصّبر: كلاب.

– لا، ليست هذه كلاباً.

– لنذهب، أسرع، أوصلني.

قال الجُنديّ رافعاً صوته:

– لا، لا اذهب.

– اسمع، أنا مُصابٌ بحمّى، أرجوك، أوصلني، وسأعطيك نقوداً.

قال الجنديّ رافعاً صوته:

– لا، لن أذهب إلى هناك. أنا هارب.

– يا أحمق، إنّهم سيقبضون عليك، على أيّة حال.

– كلّ شيءٍ جائز.

ألقى بيسونوف نظرةً جانبيّةً عبر كتفه فلم يرَ الوحوش فلعلّها اختفت بين أشجار الشّوح.

– وهل البطاريّة بعيدة؟

لم يجب الجنديّ. استدار بيسونوف ليذهب، إلا أنّ الجنديّ قبض على مرفقه بقبضةٍ قويّةٍ كالكماشة.

– لا، لا أدعك تذهب إلى هناك...

– اترك يدي.

– لن أتركها! –ونظر الجُنديّ في ناحيةٍ فوق أشجار الشّوح، دون أن يترك ذراع بيسونوف–منذ يومين وأنا لم أتناول طعاماً...قبل حين

كنت غافياً في الأخدود، وسمعتهم قادمين... قلت لنفسي أنّهم رجال وحدتي. وبقيت مُستلقياً. إنّهم كُثر يسيرون على الطّريق على إيقاع واحد. فما هي الحكاية؟ ونظرت من الأخدود. فإذا هم يسيرونَ مُكفنين في خطٍ لا نهاية له... كالضّباب...

صاح بيسونوف بصوتٍ وحشيّ، وهو يُحاول فكّ ذراعه:

– ما هذا الذي تقوله لي؟

– ما قلت إلا الصّدق، فصدّقني، أيها الوغد.

انتزع بيسونوف ذراعه، وركض وكأنّه يركض على رجلين قطنيتين، لا على رجليه الأصليّتين. وتبعه الجنديّ يُطبطب بحذائه الثّقيل لاهثاً وأمسكه من كتفه. وقع بيسونوف، وغطّى رقبته ورأسه بيديه. انهدّ الجنديّ عليه آزاً بأنفه وأنشب أصابعه القاسية في حلقومه، وضغط. وبعد ذلك جمد وهمد.

همس الجُنديّ من خلال أسنانه بذلك:

– إذن، هذا أنت!

عندما سرت رعشةٌ طويلة في جسد المطروح، استطال الجسد، وارتخى، وكأنّما تسطح على التراب. عندئذٍ فكّ الجنديّ قبضته، ونهض، وتناول طاقيّته. وسار في الطريق، دون أن يلتفت إلى ما صنعت يداه. ترنّح، وهزّ رأسه، وجلس مُمدّداً ساقيه على مُنحدر الأخدود.

وقال الجُنديّ لنفسه:

– مـا العمل الآن؟ إلى أيـن؟ أوه، يا مُنيتي! تعالـوا، والتهموني، يا أوغاد...

٢٧

حـاول إيفان إيليتش تليغـين أن يهرب من مُعسكـر الاعتقال، إلا أنـه قُبض عليه ونُقـل إلى قلعة، وحُبـس حبساً انفراديـاً. وفي القلعة راح يُخطّـط لهـروب ثان، وفي غضـون ستّة أسابيـع انشغل في قطع قضبـان النافـذة. وفي أواسط الصيف أخليت القلعـة بشكل مُفاجئ، وأرسـل تليغـين إلى ما كان يُسمى بـ"الجبّ العفـن" كنوع من العقاب الإضـافيّ. وكانت هذه مكاناً رهيباً يُكرّب النّفس هو عبارةٌ عن أربعة عنابـر طويلـة مُحاطةٌ بأسلاك شائكـة مقامة في منخفض واسع وسط حقـل للفحـم النباتـيّ. وعلى مسافةٍ بعيـدة في أسفـل التلال، حيث كانـت ترتفع مداخن آجريّة، كان يبدأ خطٌّ حديديّ ضيّق صدئ ممتداً عـبر المُستنقع كلّه، ينتهـي على مقربةٍ من العنابر، عنـد حفرة عميقة، كانـت موقعـاً للعمـل في العام الماضـي حيث هلك أكـثر من خمسة آلاف جنديٍّ روسيّ بالتّيفوس والدوسنطاريا. وفي الجانب الآخر من المُنبسط البُنيّ–الأصفر كانت ترتفع جبال الكربات بسلسلتها المُسنّنة. وإلى الشمال من العنابر، في أعماق المُستنقع كان يلوح للعين عددٌ كبير من الصلبان الصنوبريّة. وفي الأيام الحارّة كانت أنفاس التّبخّر تتصاعد فوق المُنبسط، ويطنّ ذباب الخيل، وتتدلى الشمس حمراء مُغبشةً ناشرة التفسّخ في هذا المكان المكرب.

كانت الإعاشة هنا صارمة، والطعـام قليلاً. وكان نصف السّجناء هنا مُصابين بأمراض المعدة والحّمـى، والتقيّحات، والطّفح الجلديّ. ومـع ذلك فإنّ معنويّة السّجنـاء مرتفعة: فقد كان الجنرال بروسيلوف

يتقدّم بمعارك قويّة، والفرنسيون يدحرون الألمان في شمبانيا وعند فيردون، والأتراك يخلون شبه جزيرة البلقان. وكانت نهاية الحرب تبدو الآن قريبةٌ قرباً حقيقياً.

إلا أنّ الصيف انقضى، وبدأت الأمطار، والجنرال بروسليوف لم يستول على كراكوفيا، ولا على لفوف، وهدأت المعارك الدّامية في الجبهة الفرنسيّة وأخذت دول الحلف الثُّلاثيّ ودول الوفاق تلعق جراحها. وكان واضحاً أنّ نهاية الحرب قد تأجّلت إلى الخريف المُقبل.

عندئذ بدأ اليأس يدبّ في "الجبّ العفن". وكفّ فيسكوبوينيكوف، جار تليغين، عن الحلاقة والاغتسال فجأة. وصار يقضي أياماً كاملةً مُستلقياً على سريره غير المُرتّب، لا يردّ على سؤال. وأحياناً كان ينهض قليلاً مُكشّراً عن أنيابه، ويحكّ جسمه بأظافره في كراهية، كانت بعض القرح الورديّة تظهر تارةً على جسمه ثمّ تختفي. وذات ليلةٍ أيقظ إيفان إيليتش، وقال له بصوتٍ كامد:

– تليغين، هل أنت مُتزوّج؟

– لا.

– أمّا أنا فلي زوجةٌ وإبنة في تفير. يجب أن تزورهما!

– كفى، نم.

– سأنام نوماً عميقاً، يا أخ.

وفي الصّباح الباكر، عند تعداد السّجناء لم يرد فيسكوبوينيكوف على اسمه. ووجدوه في المرحاض مشنوقاً بحزام رفيع. واضطرب العنبر كلّه وتزاحم السُّجناء بالقرب من جثّته المطروحة على الأرض. كان المصباح يُضيء وجهه المجزع بألم مُفعم بالكراهية، وآثار الحكّ على صدره تحت القميص المُمزّق. كان ضوءُ المصباح كدراً بدت فيه

وجـوه الأحياء المُنحنية علـى الجُثة مُنتفخة، صفـراء، مُشوّهة. التفت أحـد السّجناء، وهو المُقدّم ميلشين، نحو ظـلام العنبر، وقال بصوتٍ عالٍ:

– وهل سنظلّ ساكتين يا رفاق؟

وسـرت دمدمةٌ مخنوقةٌ في الجمـع، وعلى الأسـرّة. انصفق الباب، وظهـر ضابطٌ نمساويّ، هـو آمر المُعسكـر، وانشقّ الجمـع يفسح له الطّريق إلى الجُثة الهامدة، وإذا بأصواتٍ عاليةٍ ترتفع:

– لن نسكت!

– عذّبوا الرّجل!

– هذا دأبهم!

– أنا أتعفّن حياً!

– لسنا مُجرمين.

– كان يجب أنْ نضربكم أكثر يا أوغاد...

وقف الآمر على أطراف أصابعه وصرخ:

– سكوت! كلٌّ في مكانه! خنازير روس!

– ماذا؟.. خنازير روس؟!

– نحن خنازير روس؟!

وفي الحال اندفع نحو الآمر رجلٌ ركين له لحيةٌ منقوشة هو النّقيب جوكوف. دفع بإبهامـه إلى وجه الضابط النّمساويّ، وصاح بصوتٍ مختلجٍ مُشيراً إشارةً فاحشة.

– يا ابن الكلبة، هل رأيته؟

وهـزّ رأسـه الأشعـث، وأمسك الآمر مـن كتفيه وهـزّه بضراوة، وطرحه أرضاً، وانطرح عليه.

وصمت الضّباط الذين أحاطوا بالمُتصارعين بدائرة مُتماسكة. ولكن سرعان ما تردّد صوت خطوات الجنود المُتراكضين على الألواح، وصرخ الآمر "النّجدة!" عندئذ نحى تليغين رفاقه قائلاً: "لقد جُنّ، وسيخنقه!" وأمسك جوكوفَ من كتفيه، وأبعده عن النّمساويّ. وصرخ الآمر بالألمانيّة: "أنت وغد!". كان جوكوف لاهثاً. قال بصوت خافت "اتركني، وسأريه، هذا الخنزير". إلا أنّ الآمر قد نهض، ولبس طاقيّته المُجعّدة، وألقى نظرةً مُتفرّسةً سريعة على وجه جوكوف، وتليغين، وميلشين، واثنين أو ثلاثة آخرين واقفين بالقرب منهم، وكأنّما يُريد أن يحفظهم في ذاكرته، وسار خارجاً من العنبر مُصلصلاً بمهمازيه بقوّة. وقفل الباب في الحال، ووضع الحُراس عند المدخل.

في ذلك الصباح لم يجر تعداد، ولم يرتفع صوت طبل، ولم توزّع قهوة البلوط. وقبيل الظّهر دخل جنودٌ إلى العنبر ومعهم نقالة، وحملوا جثّة فيسكوبوينيكوف. وأغلق الباب مرّةً أخرى. وتفرّق السّجناء إلى الأسرّة، واضطجع الكثيرون منهم. وران هُدوءٌ كليّ على العنبر، وكان الأمر واضحاً: تمرّد، ومحاولة قتل، ومحاكمةٌ عسكريّة.

بدا إيفان إليتش ذلك اليوم، على عادته، غير مُخالف أيّة قاعدة من القواعد التي وضعها لنفسه، والذي ظلّ يُراعيها تمام المُراعاة منذ أكثر من عام: في الساعة السادسة ضخّ ماءً بنيّ اللون في جردل، وبلل جسده، ودلّكه وقام بالمائة تمرينٍ وتمرين من التمارين الرياضيّة حارصاً على أن تُطقطق عضلاته، ولبس ثيابه، وحلق وجهه، ولأنّ القهوة لم توزّع اليوم جلس، على الريق، يدرس النّحو الألمانيّ.

كان العطالة الجسديّة أصعب الأشياء في الأسر وأكثرها تهديماً. وقد ضعضعت الكثيرين. كان أحدهم يعمد فجأةً إلى بودرة وجهه وتزيين

عينيه وحاجبيه، ويظلّ يتهامس أياماً كاملةً مع شاب مُبودرٍ مثله، وكان آخرٌ يتحاشى رفاقه، ويتهافت على السّرير ساحباً بطانيّته المُهلهلة من رأسه، لا يغتسل ولا يحلق، ويأخذ ثالث باستعمال فاحش الكلام ويزعج الجميع بحكاياتٍ غريبة، وينتهي أخيراً إلى القيام بفعلٍ قبيحٍ جداً حتى ينقل إلى مُستشفى المُعسكر.

وكانت الصّرامة هي الخلاص الوحيد من هذا كلّه. انقلب تليغين خلال فترة الأسر ميالاً إلى الصمت، وقد جفّ جسده الذي كان مُدرّعاً بالعضلات، وصار حاداً في حركاته، واكتست عيناه لمعاناً بارداً عنوداً، وفي لحظة الحنق والتصميم تصيران مُرعبتين.

اليوم كرّر تليغين بعناية أشدّ من المُعتاد الكلمات الألمانيّة التي سجّلها بالأمس، وفتح كتاب شبيلهاغين المُهترئ. جاء جوكوف وقعد على حافّة سريره، ولم يلتفت تليغين إليه، واستمرّ يقرأ بصوتٍ واطئ. زفر جوكوف وقال:

– يا إيفان إيليتش، أريد أن أقول في المحكمة أنّني مجنون. نظر تليغين إليه بسرعة. كان وجه جوكوف العريض الأنف، الأجعد اللحية، ذو الشّفتين الناعمتين الدافئتين الظاهرتين من خلال شاربيه الكثين، مُطرقاً يبدو عليه الذّنب، وكانت رموشه الفاتحة ترمش باستمرار.

– لا أعرف ما الذي وسوس لي لأشير له إشارتي الفاحشة تلك، أنا نفسي لا أدري الآن ماذا كنت أريد أن أثبت له. أنا أدرك، يا إيفان إيليتش، أنّني مُذنب، بالطّبع... اندفعت، وورطت رفاقي... هذا ما عزمت عليه: أقول أنني مجنون... هل توافقني؟

أجاب إيفان إيليتش، معلماً بإصبعه على المكان الذي وصل إليه من الكتاب.

– اسمع، يا جوكوف، سيرمون عدداً منّا بالتّأكيد... أتعرف هذا؟

– نعم، أفهم.

– إذن، أليس من الأحسن ألا تتباله في المحكمة؟ ما رأيك؟...

– أنت على حقّ، بالطّبع.

– لن يلومك أحدٌ من رفاقك... سوى أنّ المتعة في ضرب بوز نمساويٍّ غالية الثّمن جداً.

– وحالتي أنا مؤلمةٌ جداً لأنني عرّضت رفاقي إلى المُحاكمة!

– وهزّ جوكوف رأسه المنفوش الشّعر–ليت أولئك الأوغاد يقضون عليّ وحدي.

وظلّ يتحدّث على هذا المنوال وقتاً طويلاً، إلا أنّ تليغين لم يعد يُصغي إليه، وواصل قراءته لكتاب شبيلهاغين، ثمّ نهض، وتمطّى، مُفرقعاً بعضلاته. وفي تلك اللّحظة انفتح الباب الخارجيّ بعنف، ودخل أربعة جنودٍ شاكّين الحراب في بنادقهم، ووقفوا على جانبي الباب، وقعقعوا بترابيس البنادق، ودخل الرّقيب الأوّل، وهو رجل عبوسٌ معصوب العين أجال بصره في العنبر، وصرخ بصوتٍ ضارّ لا رنّة فيه:

النّقيب جوكوف، المقدّم ميلشين، المُلازم الثاني تليغين...

خرج المدعوون، وحدّق الرقيب الأوّل في كلّ واحدٍ منهم بعناية، وأحاط الجنود بهم، اقتيدوا من العنبر عبر العناء إلى بيتٍ خشبيٍّ صغير هو بيت الآمر. وكانت تقف هناك سيارةٌ عسكريّةٌ قد وصلت قبل حين. وأزيحت الأسلاك العائقة التي تسدّ الطّريق إلى خارج المُعسكر. وكان أحد الحراس واقفاً بلا حراك عند كشكٍ مُخطط. وفي داخل السيارة جلس السائق، وهو صبيٌّ ذو عينين منفوختين بعض الشّيء،

مائلاً على ظهر مقعده أمـام الدفّة. لكز تليغين بكوعه ميليشين الذي كان يسير إلى جانبه.

– هل تعرف سياقة سيارة؟

– أعرف، ولكن لماذا؟

– اسكت.

ادخلـوا إلى مكتـب الآمـر. كان ثلاثـة ضبـاط نمساويـين جدد يجلسون إلى طاولةٍ من خشـب الصّنوبر مغطاة بورقٍ نشاف ورديّ اللـون. وكان أحدهـم، وهو رجلٌ مزرقّ الوجه مـن الحلاقة، تطفح علـى خديه الممتلئين بقـعٌ حمراء، يدخّن سيغـاراً. وقد لاحظ تليغين أنّـه لم يرفع بصره إلى الداخلين. وكانت يـداه مُستقرتين على الطاولة وأصابعـه السميكـة المُشعرة مُتشابكة، وعينـه مُتقلّصة بسبب دخان السيغار، وياقته تضغط على رقبته. وفكّر تليغين: "إنّ هذا اتّخذ قراره مع نفسه".

وكان الحاكم الآخر، الذي يرأس المحكمة، رجلاً عجوزاً أعجف ذا وجـه مُستطيل كئيـب قليل الغضـون النظيفة، له شاربـان أشيبان كثّـان. وكان أحدُ حاجبيـه مرفوعاً بنظارةٍ من عدسـةٍ واحدة. أمعن نظره في المُتّهمين، وحوّل إلى تليغين عينه الرّماديّة التي بدت كبيرةً من وراء العدسـة. كانت عيناً صافيةً ذكيّة تنـمّ عن رقّة. واختلج شارباه. فكـر إيفـان إيليتش مع نفسـه: "في مُنتهى السّوء" ونظـر إلى الحاكم الثالث الـذي كان يضع أمامه نظارةً ذات إطار مـن قوقعة السّلحفاة وورقـة صغيرة مكتوبة بخطٍّ دقيـق. كان رجلاً قصـيراً مُمتلئاً، بشرته صفراء مُشرّبةٌ بلـون رماديّ، وشعره خشنٌ مُسـرّح تسريحةً قصيرة، وأذنـاه كبيرتان. وكان واضحاً من كلّ شيء أنه واحدٌ من العسكريين الفاشلين.

حين صــفّ المُهتمّون أمــام الطاولة لبســ هذا نظارتــه المُستديرة بحركــة بطيئة. ومرّر كفّه الجافّ علــى ورقةٍ مكتوبة، وبدأ فجأةً يقرأ قرار الاتُّهام كاشفاً عن أسنانٍ صناعيّةٍ صفراء.

كان الآمر المُعتدي عليه يجلس إلى ناحيةٍ من الطاولة عاقداً حاجبيه، ضامــاً شفتيه. ركّز تليغين انتباهــه ليُتابع كلمات الاتّهام، إلا أنّ فكره، رغم إرادته، كان يعمل بحدّةٍ ودأب في اتّجاهٍ آخر.

"...عندما أدخلت جُثّة المُنتحر إلى العنبر استغلّ بعض الروس هذه الحادثــة لتحريض رفاقهم على العصيان المكشــوف للسلطة، وأخذوا يهتفون بشتائم وتعابير فاحشة هازّين قبضاتهم مُهدّدين. وكان المقدّم ميليشين، مثلاً يحمل بيده مطّواةً مفتوحة..."

شاهد إيفان إيليتش عبر النافذة الصبيّ السائق يُدير إصبعه في أنفه، ثمّ انقلب على جنبه في مقعده، ودفع على وجهه قبّعته الضّخمة، تقدّم جنديان قصريان من السيارة، وقد ألقيا على كتفيهما معطفين أزرقين، ووقفا يتطلعان. قرفص أحدهما، ومسّ إطار العجلة بإصبعه ثمّ استدار الإثنان—فقــد دخلــت عربة المطبــخ إلى الفناء، والدّخــان يتصاعد من مدخنتــه بوداعة، واســتدارت نحو العنابر، حيث اتّجــه الجنديان أيضاً بتكاسل. لم يرفع السائق رأسه، و لم يلتفت، فلعلّه قد غفا. عضّ تليغين على شفتيه من نفاد الصّبر، وعاد يُصغي إلى صوت المُدعي الصارف:

"...النّقيــب جوكوف المُشار إليه سابقاً أظهر للسيّد الآمر خمس أصابع مطويّة مُهدّداً حياته عن عمد ظاهر وسبق إصرار، بالإضافة إلى أنّ الإبهام كان بارزاً بــين السّبابة والوُسطى، وهي إشارةٌ مقيتة كانت تهدف، في الظاهر، إلى تحقير شرف البزّة الملكيّة الامبراطوريّة..."

وبعد هذه الكلمات نهض الآمر، وبدأ، وقد تبقّع وجهه ببقع حُمر، يشرح للحاكمــين بالتّفصيل حكاية أصابع النّقيب غير المفهومة كثيراً،

بينما أصغى جوكوف نفسه، وكان قليل الإلمام بالألمانيّة، بكلّ ما لديه من قدرة، وحاول أن يدسّ كلمةً واحدة، والتفت إلى رفاقه بابتسامة تقصيرٍ طيّبة، ولم يضبط نفسه، فتكلّم بالروسيّة مُخاطباً المدّعي:

– يا حضرة العقيد، اسمح لي بالتّنويه–أنا أقول له لمَ هذا التّحامل علينا، لم؟ أنا لا أعرف التّعبير بالألمانيّة، فلذلك أظهرت له بأصابعي.

قال إيفان إيليتش من خلال أسنانه:

– جوكوف، اسكت.

نقر رئيس المحكمة بالقلم. تابع المُدعي مُطالعته.

وصف العقيد كيف وبأيّ موضع أمسك جوكوف بالآمر و"طرحه أرضاً وضغط بإبهامي يديه علىً حلقومه، بُغية التّسبّب في موته" وانتقل إلى أحرج نقطة في الاتّهام: "...كان الروس بتدافعهم وصياحهم يُحرّضون القاتلَ على القتل. فإنّ أحدهم، وهو المُلازم الثاني يوهان تليغين اندفع إلى مكان الحادث، حين سمع خطوات الجنود المُتراكضين، وأبعد جوكوف ولثانية واحدة فقط كانت بين الحياة والموت المُحتّم لحضرة الآمر". وهنا توقّف المُدّعي، وابتسم راضياً عن نفسه–"ولكن في تلك اللحظة ظهر الخفراء من مراتب أوطأ، فلم يستطع المُلازم تليغين إلا أن يصرخ بضحيّته: "يا وغد".

وأعقب ذلك تحليلٌ سيكولوجيٌّ مُنمّق لتصرّف تليغين "الذي حاول، كما هو معروف، الهروب مرّتين من الأسر..." ووجّه العقيد اتّهاماً قاطعاً لكلٍ من تليغين وجوكوف وميلشين الذي كان يُحرّض على القتل ملوّحاً بالمطواة. ولتشديد قوّة الاتّهام عمد إلى تبرئة إيفانوف وأوبيكو "اللذين وقعا تحت تأثير حالة الهيجان". بعد نهاية المُطالعة أكّد الآمر أنّ ذلك كلّه وقعٌ طبقَ الصورة المرويّة تماماً. واستجوب الجنود فذكروا أنّ المتّهمين الثلاثة الأوائل مُذنبون فعلاً، ولم يعرفوا

شيئاً عن المُتّهمين الآخرين. فرك رئيس المحكمة يديه النحيفتين، واقترح إسقاط التّهمة على إيفانوف وأوبيكو بسبب عدم توفّر الأدلّة. هزّ الضابط الأحمر الوجه رأسه بعد أن دخّن السيغار حتى وصل إلى شفتيه. ووافق المُدعي أيضاً بعد شيءٍ من التردّد. عندئذ تنكب اثنان من الحرس السلاح. وقال تليغين "..وداعاً يا رفاق". نكّس إيفانوف رأسه، وصمت أوبيكو ونظر إلى إيفان إيليتش بذعر.

أُخرج المبرّآن، وأعطى رئيس المحكمة الكلام بمتّهمين.

سأل تليغين:

– هل تعتبر نفسك مُذنباً في التّحريض على التّمرّد، وفي الاعتداء على حياة آمر المُعسكر؟

– لا.

– وماذا تُريد أن تقول بالذات في هذا الخصوص؟

– الاتّهام مُختلقٌ من ألفه إلى يائه.

وثب الآمر مسعوراً طالباً الإيضاح. فأوقفه الرئيس بإشارة.

– أليس لك ما تُضيفه إلى إفادتك هذه؟

– لا.

ابتعد تليغين عن الطاولة، وتفرّس في جوكوف، فاحمرّ هذا، ونخر من فمه، وأعاد في إجابته عن الأسئلة ما صرّح به تليغين كلمةً كلمة. وفعل ميلشين مثله. استمع رئيس المحكمة إلى الأجوبة، وأغمض عينيه بتعب. وأخيراً نهض الحكام، اختلوا في الغرفة المُجاورة، وعند الباب بصق الضابط الأحمر الوجه، وكان آخرهم، عقب سيغاره المُحترق حتى شفتيه، ورفع ذراعيه، وتمطّى بتلذّذ.

قال تليغين بصوتٍ هامس:

– الرمي. وقد عرفته منذ دخولنا.

وتوجّه إلى الحارس قائلاً:

– أعطني قدح ماء.

تقدّم الجُنديّ من الطاولة مُسرعاً، وأخذ يصبّ من القارورة ماءً كدراً، وهو ما يزال مُمسكاً بُندقيّته. همس إيفان إيليتش في أذن ميلشين بسرعة:

– عندما يُخرجوننا، حاول أن تُشغّل المُحرّك.

– مفهوم.

بعد دقيقة ظهر الحُكام، واحتلوا أماكنهم السابقَة. خلع رئيس المحكمة نظارته الأحاديّة بتؤدة، وقرّب من عينيه قصاصة ورق كانت تهتزّ قليلاً، وقرأ قرار الحُكم القصير الذي أنزل على تليغين وجوكوف وميلشين عقوبة الإعدام رمياً بالرّصاص. ورغم أنّ إيفان إيليتش كان متيقّناً من صدور هذا القرار إلا أنّه لدى سماعه لتلك الكلمات، أحسّ بأنّ الدّم يُغادر قلبه. نكّس جوكوف رأسه. أمّا ميلشين القويّ العريض المنكبين ذو الأنف العُقابيّ فقد لعق شفتيه ببطء.

فرك رئيس المحكمة عينيه المُتعبتين. ثمّ غطاهما بكفّه، وتكلّم بوضوح، ولكن بخفوت:

– يعهد إلى السيد الآمر بتنفيذ الحُكم على الفور.

نهض الحكام، وظلّ الآمر وحده جالساً لبرهة من الوقت مُنتصب الجذع مُخضوضر الوجه. ونهض، وعدّل سترته النّظيفة وأوعز للجنديّين الباقيين بصوت مُبالغٍ بحدّته بأن يُخرجا المحكومين. عند الباب الضيّق تلكّأ تليغين لمكّن ميلشين من الخروج أوّلاً. أمسك ميلشين بذراع الحارس كمن خارت قواه، وتمتم بلسانٍ مُتلعثم:

– لنذهب، لنذهب أرجوك، مسافةٌ قليلة...بطني يوجعني وجعاً ممضاً...

حدّق الجنديّ فيه ذاهلاً وقاوم ونظر إلى الوراء خائفاً وهو لا يعرف كيف يتصرّف في الظّرف الطارئ. إلا أنّ ميلشين كان قد سار به حتى مُقدّمة السيارة، وقرفص، وغضن وجهه، وتوجّع، قابضاً بأصابعه المُرتعشة على أزرار ملابسه تارة، وعلى مقبض السيارة أخرى. وظهر على وجه الحارس رثاءٌ واشمئزاز. قال غاضباً:

– اجلس، إذا كان بطنك يوجعك. أسرع!

إلا أنّ ميلشين أدار مفتاح التّشغيل فجأةً بقوّة ضارية. انحنى الجنديّ نحوه مذعوراً ليُبعده. صحا الصّبيّ السائق، وصاح بشيءٍ ما مُغتاظاً، وقفز من السيارة. وكلّ ما حدث بعد ذلك لم يستغرق غير بضع ثوانٍ. راقب تليغين من تحت حاجبيه كركات ميلشين وهو يُحاول أن يقترب من الحارس الثاني قدر الإمكان. وتعالى صوت المُحرّك، وخفق قلبه مع ذلك الاهتزاز الحادّ المُذهل.

– جوكوف، أمسك البُندقيّة! –صاح تليغين مُمسكاً حرسه من وسطه، ورفعه في الهواء وقذفه على الأرض بقوّة، وبلغ السيارة ببضع قفزات حيث كان ميلشين يُصارع الجنديّ لينتزع البُندقيّة. هجم إيفان إيليتش على الجُنديّ بضربة سدّدها على رقبته بقبضته، فتأوّه هذا، وقعد. اندفع ميلشين إلى دفّة القيادة، وحرّك المقابض ورأى إيفان إيليتش بوضوح رفيقه جوكوف ينسلّ إلى السيارة ومعه البُندقيّة، والصبيّ السائق ينسلّ على طول الجدار، ويقفز إلى باب مقرّ الآمر فجأةً والوجه المُستطيل المُشوّه بالذّعر ذا النّظارة الأحاديّة يلوح في النافذة، وقامة الآمر القصيرة عند مدخل البيت، والمُسدّس الراقص في يده...وطلقة، وأخرى..."أخطأت، أخطأت، أخطأت".

وبـدا وكأنّ عجـلات السيـارة انغرست في الخـثّ، إلا أنّ تروس التّعشيـق زعقت، واندفعت السيارة. وألقـى تليغين نفسه على المقعد الجلديّ. واشتـدّ هُبوب الهواء على وجهه، وصـار الكشك المُخطّط يقترب بسرعة وكذلك الحارس المصـوّب بُندقيّته. دوت طلقة ومرّت السيـارة به كالزّوبعـة وإلى الخلف تراكض الجُنـود في الفناء، وركعوا علـى ركابهـم. طلقة! طلقـة! ولكن هـذه الطّلقات أصبحـت أصمّ وأصـم. التفـت جوكـوف، وهـدّد بقبضتـه. إلا أنّ المُعسكـر وراء المُنعطف. مرقت بهـم الأعمدة والأحراش، والأرقام على الأحجار خاطفةً مُتلاحقة. التفت ميلشين، وقد تصاعد الدّم مُلوّناً جبيه، وعينه وخدّه وصاح على تليغين:

– إلى الأمام؟

– إلى الأمام حتى نعبر الجسر، ثمّ يميناً في الجبال.

٢٨

جبال الكربات مُقفرةٌ موحشة في المساء الخريفيّ الرّياحيّ. وأحسّ الهاربـون بالاضطـراب والقلـق حين صعـدوا إلى الممرّ عـبر الطريق المُتعـرّج الأبيض المغسول بالأمطـار حتى السّطـح الحجري. كانت ثلاث أو أربـع أشجار صنوبرٍ تتمايل فوق الهُوّة. وفي الأسفل غابةٌ لا تكاد تبيّن في نقاب الضّباب يتَرامى منها حفيف. وإلى الأسفل منها في قعر الهُوّة كان سيلٌ غزير يخرّ مُندفعاً وقالباً الصّخور بهدير.

ووراء جـذوع الصّنوبر بعيـداً وراء قمم الجبال الشّجـراء المُنعزلة كان شريـطٌ طويل من الغروب يلمع بين الغيوم الرماديّة. وكانت الريح شديدةً طليقة على هذا الارتفاع تضرب في جلد غطاء السيارة.

جلس الهاربون صامتين. كان تليغين ينظر في خارطة، وميلشين يتطلّع صوب الغُروب وهو يرتفق دفّة القيادة. وكان رأسه مُضمّداً بخرقة.

سأل بصوتٍ خفيض:

– ماذا نفعل بالسيارة؟ وقد نفد البنزين.

أجاب تليغين:

– لا يجوز ترك السيارة هنا، العياذ بالله.

– ليس أمامنا إلا أن ندفعها إلى الهوّة.

قال ميلشين، وتأوّه، وقفز إلى الطّريق، وطبطب بقدميه بقصد تمرينهما، وأخذ يهزّ جوكوف من كتفه قائلاً له:

– هاء، يا نقيب، استيقظ. وصلنا!

خرج جوكوف إلى الطريق دُونَ أن يفتح عينيه، وتعثّر، وقعد على صخرة. سحب إيفان إيليتش من السيارة مماطر جلديّة–وسلّة طعام كانت قد أعدّت لغداء الحُكام في "الجبّ العفن". وزّعوا الطّعام على الجيوب، ولبسوا المماطر، وأمسكوا برفارف السيارة، ودفعوها إلى الهوّة. قال ميلشين:

– أدّيت خدمتك يا عروسة، والآن على المعاش! يا الله! تدلّت العجلات الأماميّتان فوق الهوّة، وبكت السيارة الطّويلة المُتربة بمقاعدها الجلديّة، وأطرها البرونزيّة طائعةً مثل كائنٍ حيّ، وجنحت، ثمّ هوت إلى الأسفل مع نثارٍ من الحجارة وكسر الصّخر، وتعلّقت لحظةً بنتوء صخرة، وقرقعت، وانقلبت، ودوّت إلى الأسفل في هديرٍ مُتعاظم من الحجارة وشظايا الحديد المُتطايرة حتى استقرّت في السّيل. وتردّد الصّدى، وترامى بعيداً في المضايق الضّبابيّة.

تحوّل الفارّون إلى غابـة، وساروا بمحاذاة الطّريق وكانوا يتكلّمون نزراً، وينطقـون همساً. وكان الظّلام قد خيّم تماماً، وأشجار الصّنوبر تضجّ فوق رؤوسهم مهيبة وكان ضجيجها يشبه صوت مياه مُتساقطةٍ على مبعدة.

كان تليغـين ينـزل إلى الطّريق بين الحين والآخـر، وينظر إلى أرقام الفراسـخ على الأعمـدة. وقاموا بـدورةٍ كبيرة في مـكان يُحتمل أن تكـون نقطةً عسكريّة، واجتازوا عدّة مُنخَفضات، وتعثّروا في الظّلام بالأشجار الساقطة، والجدول الجبليّة، وتبلّلوا، وتمزّقت ثيابهم. وسروا في الليـل بكاملهـا. وذات مرّة قُبيـل الصّباح سمعوا صـوت سيارة، فرقـدوا في حفـرة، ومـرّت السّيارة علـى مقربةٍ منهم، بـل وسمعوا أصواتاً فيها.

وفي الصّباح اختاروا للاستراحة موضعاً على مقربة من جدولٍ في وهـدة شجراء نائية. واكلوا، وأتوا علـى نصف قارورةٍ من الكونياك، ثـمّ طلب جوكـوف أن يحلقا وجهـه بالموسى الصّدئـة التي وجدها في السيـارة. وحين أزيلت لحيته وشارباه فوجـئ رفيقاه بأنّ له حنكُ طفـل، وشفتـين بارزتين. ضحك تليغـين وميلشين طويـلاً، مُشيرين إليـه بإصبعيهما. وابتهج جوكوف كثـيراً، كان يخور مثل بقرة ويمطّ شفتيـه، وتبيّن أنّه سكران. نثرا عليـه الأوراق، وطلبا منه أن ينام. بعد ذلـك نشر تليغين وميلشـين الخارطة على العشـب، ورسم كلٌّ منهما تخطيطـاً طوبوغرافيـاً لنفسـه. وتقـرّر أن ينقسموا يـوم غد: يذهب ميلشـين وجوكوف إلى رومانيـا، ويتّجه تليغـين إلى غاليسيا. ودفنوا الخارطـة الكبيرة في الأرض. وفرشوا الأوراق الجافّة، ودفنوا أنفسهم فيها وغفوا في الحال.

في الأعلى، عند حافّة الطريق فوق الوهدة وقف رجلٌ مُعتمدٌ على

بندقيّتـه، هو حارس الجسر. سـاد الصمت حوله في القفر الغابي تحت قدميـه، و لم يسمع غير زمزمة دجاجـة الأرض في طيرانها الثّقيل فوق مرجـةٍ في الغابة، صافقةً بجناحيها علىً شُجيرات الحور، ومسقط ماءٍ يترامى صوته من بعيد. وقف الحارس قليلاً، ثمّ انصرف مُتنكباً بندقيّته.

عندما فتـح إيفان إيليتش عينيه، كان الليـل مُخيّماً. وكانت النّجوم الساطعـة تلمـع بين أغصـان الأشجار السـوداء الساكنة. بـدأ يتذكّر اليوم الغائـب، إلا أنّ الإحساس بالجهد النّفسيّ في المحكمة، وخلال الهُروب كان موجعاً جداً بحيث طرد من ذهنه تلك الأفكار.

سأل ميلشين بصوتٍ خافت:

– هل أنت يقظان، يا إيفان إيليتش؟

– منذ زمان، انهض وأيقظ جوكوف.

وبعد ساعةٍ كان إيفان إيليتش يسير بمحاذاة الطّريق الواضح ببياضه في الظّلمة.

٢٩

في اليـوم العاشر وصل تليغـين إلى خطّ الجبهـة. وكان طوال هذه المـدّة يسـير ليـلاً، ويختفي في الغابة عنـد طلوع النّهـار، وحين كان يضطـرّ إلى النّزول في واد، كان يختار لمبيته بقعةً في منأىً عن الأماكن المأهولـة. وكان يقتات على الخضار النيء الذي كان ينشله من حدائق الخضروات.

كان الليـل بارداً مُمطـراً، وكان إيفـان إيليتش ينسـلّ على الطريق

العامّة بين عربات الإسعاف المُتّجهة غرباً، والمملوءة بالجرحى وعربات أخرى مُحمّلة بالحاجات المنزليّة، وجُموع النّساء والشّيوخ الحاملين على أذرعهم أطفالاً وصرراً وأدوات منزليّة. وكانت القوافل المُحمّلة بالجنود والامتعة العسكريّة تأتي من الاتّجاه الآخر مُيمّمةً صوب الشّرق. وكان من الغريب التّصديق بأنّ عام ١٩١٤ وعام ١٩١٥ قد انتهيا وعام ١٩١٦ يدنو من نهايته، وطوابير العربات ما تزال، كما كانت من قبل، تصرّ عجلاتها على الطّرق المُخرّبة، وأهالي القرى المحروقة يضربون في الأرض في يأس خانع. لا فرق سوى أنّ الخيول العسكريّة الضّخمة لا تكاد الآن تُجرجر أرجلها، وأنّ الجنود مُمزّقو الملابس ضئيلو الأجسام، إنّ جُموع المُشرّدين صامتين مُتلبّدو الأحاسيس. وهناك، في الشرق من حيث تسوق الريح اللاذعة غيوماً واطئة ما زال الناس يقتل بعضهم بعضاً دون أن يهلك فريقٌ فريقه الخصم.

كانت كُتلةٌ هائلةٌ من الناس والعربات تتحرّك في الظّلام على مُنخفض مُستنقعيّ، وعبر جسر مُقام على نهر مُنتفخ. وكانت العجلات تُقعقع، والسّياط تئزّ، والأوامر تصدر بأصوات صارخة، وأضواء الفوانيس الكثيرة تتحرّك، فكان ضوؤها يسقط على الماء الكدر المُلتفّ بين دعائم الجسر.

وصل إيفان إيليتش إلى الجسر مُنزلقاً على مُنحدر الطّريق العامّة. وكانت قافلةٌ عسكريّة تمرّ عليه. ولا أمل في العُبور إلى الجهة الأخرى قبل طلوع النّهار.

كانت الخُيول عند دخولها الجسر تركع بعرائش عرباتها وتتشبّث بحوافرها في الألواح الرّطبة، ولا تكاد تجرّ العربات. وعلى الحافّة وعند مدخل الجسر كان يقف رجلٌ على فرس والريح تعصف في

مشمعــه، وفي يده فانوس، وكان يصرخ بصــوتٍ مبحوح. وقد تقدّم منه عجوز، ورفع قُبّعته يطلب منه شيئاً، على ما يبدو. ولكنّ الفارس، بــدلاً من أن يُجيبــه، ضربه بالفانوســ الحديديّ علــى وجهه، وسقط العجوز تحت العجلات.

كان الطّــرف الآخر من الجسر يغيب في الظّلام، إلا أنّ نقاط الضّوء هنــاك كانت توحي بوجود آلافٍ من النازحــين. استمرّت القافلة في تحرّكها البطيء. ووقف إيفان إيليتش مُلتصقاً بعربة، كانت تجلس فيها امــرأةٌ نحيلــةٌ مُتدثّرةٌ في بطانيّــة، وشعرها مُتهدّلٌ علــى عينيها، وهي تحتضن قفص طيور بذراع، وتمسك العنان بالذراع الأخرى، توقّفت قافلة العربات فجــأةً والتفتت المرأة مذعــورة. تنامى طنين الأصوات في الطّــرف الآخر من الجسر، وتزايــدت أشعّة الفوانيس المُتحرّكة. إنّ شيئــاً قد حدث. صهل حصانٌ صهيلاً وحشياً ضارياً. وصرخ صوتٌ ممطوط باللغة البولنديّــة "انقذ نفسك". وفي الحال مزّقت الهواء طلقة بُندقيّة. واندفعت خيول، وقعقعت عربات، وارتفعت أصوات نسوةٍ وأطفال في زعيقٍ وعويل.

وبعيــداً إلى اليمــين ومضت شــراراتٌ مُتفرّقة، وترامــت أصوات طلقــات جوابيّة. صعــد إيفان إيليتش على عجلــة، وتطلّع. ودقّ قلبه كالمطرقــة. كان الرّمي كما يبدو يأتي من كلّ مــكان، على النّهر كلّه. نزلــت المرأة مع قفصها من العربة، وتعلّقت تنّورتها، فوقعت وزعقت بصوتٍ عميق: "أوي أنقذوني!" وتدحرج القفص بالطائر على مُنحدر الطّريق.

وعادت قافلة العربات تتحرّك على الجسر عدواً، وسط الصّيحات والقرقعــة. وتعالت على الفور أصواتٌ جنونيّة: "قف! قف!" وشاهد إيفــان إيليتشــ عربــةً كبــيرة تجنح علــى حافّــة الجســر، وتنقلب على

الدّرابزين، وتسقط في النّهر. عندئذ وثب من العجلة، وقفز عبر الصّرر المرميّة حتى بلغ قافلة العربــات، وانبطح على عربةٍ سائرة. وفي الحال نفــذت إلى رأسه رائحة خبزٍ حلوة. دسّ يده تحت مشمع، وقطع نهاية رغيف، وأخذ يأكلها غاصاً من النّهم.

وصلــت قافلــة العربــات إلى الضّفــة الثانية أخيراً وســط الفوضى وإطــلاق النّــار. قفــز إيفــان إيليتش من العربــة، وتسلّل بــين عربات النازحين إلى الحقل، وســار بمحاذاة الطّريق. عرف من نتف العبارات المُلتقطة من الظّلام أنّ إطلاق النار ذاك كان على العدوّ، أي على دوريّة روسيّــة: ومعنى ذلك أنّ خطّ الجبهة لا يبعد عن هذه الأماكن أكثر من عشرة فراسخ.

توقّــف إيفان إيليتش عدّة مرات مُلتقطاً أنفاسه. كان المشي عكس الريح والمطــر صعباً، وتعبت رجــلاه عند الرّكبتــين، وتوهّج وجهه، والتهبت عينــاه وانتفختا. وفي آخر الأمر جلــس على مُرتفع الحُفرة، ووضــع رأسه بين يديه. وكانــت قطرات المطر البــاردة تتساقط تحت رقبته، وجسمه كلّه يئنّ مُتوجّعاً.

في تلــك اللّحظة بلغ أذنــه صوتٌ خافتٌ عميق مثــل انهيار أرضٍ علــى مسافة بعيدة. وبعد بُرهة زفر الليل مثل تلك الزّفرة للمرّة الثانية. رفــع إيفان إيليتش رأســه، وتسمّع وميّز بين تينــك الزّفرتين العميقتين همهمةً جوفاء تخمد تارةً وتتنامى أخرى في ذبذباتٍ غاضبة. لم تكن تلــك الأصوات تأتي من الجهــة التي كان يسير إليهــا، بل من يساره، مــن الجهة المُعاكسة تقريباً. جلس على الجانب الآخر من الحُفرة. الآن صارت تُرى بوضوح مزّق الغيوم الواطئة السارحة في السماء المُتّسخة الحديديّة. كان ذلك هو الفجر. وكان ذلك هو الشّرق. وكانت روسيا هناك. نهض إيفــان إيليتش، وشدّ حزامه، وسار في تلك الجهة مُباعداً

بين ساقيه في الوحـل، مُتخطياً الجذامات المُبلّلـة والأخاديد وخنادق العام الماضي نصف المُتهدّمة.

وحين تنـوّرت الدّنيا تماماً رأي تليغين ثانيـة في نهاية الحقل طريقاً عامّة غاصّة بالناس والعربات. توقّف، وأجال بصره. فرأى في ناحية مـزارا أبيضً تحت شجرةٍ هائلة تعرّت مـن نصف أوراقها. كان الباب مخلوعـاً، والأوراق الذاويـة مُتناثـرة علـى سطحـة المُستديـر، وعلى الأرض.

قرّر إيفان إيليتش أن ينتظر هُنا حلول الظّلام. فدخل المزار، واستلقى علـى الأرض الخضراء من الطّحلـب. كانت رائحـة الأوراق الرّقيقة المُثـيرة برخاءتها تبعث الـدّوار في رأسه. ترامت إليه مـن بعيد كركبة عجـلات، وضربات سياط. وكانت هذه الضّوضـاء تبدو لطيفةً على الأذن بشـكل مُذهل، وفجأةً بلاشـت. وكان يحسّ بما يُشبه الأصابع يضغـط على عينيه. وشيئـاً فشيئاً ظهرت بقعةٌ حيّـة في النّعاس الثّقيل عليه كالرّصاص. بدت وكأنّها تُحاول أن تكون حُلماً، فلم تقدر. فقد كان الإعيـاء شديداً جعله يئنّ ويغرق أكثر فأكثر في النّوم. ولكنّ البقعة كانـت تُقلقه. فأخذ نومه يخفّ، ومن جديد أخذت تترامى إلى سمعه كركبة العجلات من بعيد. وزفر إيفان إيليتش، وقعد.

رأى مـن خلال البـاب سحبا مُسطّحةً سميكـة، وكانت الشّمس تجنـح إلى الغروب وأشعّتها العريضة تمتدّ تحت قاعدتها الرّطبة الرماديّة الثقيلة. وكانت بقعةٌ خفيفة من الضوء تقع على حائط المزار المُتداعي، وتضـيء الأيقونة الخشبيّة الحائلـة اللّون من تقادم الزّمـن، المائلة التي يظهر فيها وجه العذراء في هالة ذهبيّة، والطّفل في ثوب قطنيٍّ مُهترئ راقدٍ على ركبتيها، وكانت يد العذراء المُباركة مقطوعةً من الأيقونة.

خـرج إيفـان إيليتش من المزار فـرأى عند عتبته امـرأةٌ شابّة تجلس

علــى الدّرجة الحجريّة، وعلى ركبتيها طفل. كانت ترتدي رداءً أبيض مُبقّعــاً بالوحل وتسند خدّها على يد، وتضع اليد الأخرى على بطانيّة الطّفــل المُلوّنة. رفعت رأسها ببطء وتطلّعــت على إيفان إيليتش بنظرة وضيئة غريبــة، ورفّ وجهها المُخضّل بالدّمع، وكأنّها تمتسم، وقالت بالأوكرانيّة بصوتٍ خافت:

– مات الصّغير.

وعــادت تضع خدّهــا على يدهــا. انحنى تليغين نحوهــا، ومسّد رأسها، فأرسلت تنهيدةً مُندفعة. قال برقّة:

– لنذهب، سأحمله عنك.

هزّت المرأة رأسها:

– إلى أين أذهب؟ اذهب وحدك، أيّها السّيد الطّيب.

وقف إيفان إيليتش برهةً أخرى، ودفع طاقيّته فوق عينيه وانصرف. في تلــك اللحظة خــرج رجلان من الجندرمــة النّمساويّــة العسكريّة يعدوان على فرسيهما من وراء المــزار، وعليهما معطفان مُبلّلان قذران ولهمــا وجهــان مُزرقّــان مُشوربان. وحين مــرّ بإيفــان إيليتش أوقفا فرسيهما، وصاح الذي كان في المُقدّمة بصوتٍ أجشّ:

– تقدّم!

اقترب إيفان إيليتش، فانحنى الفارس من على السّرج وتفحّصه في عنايةٍ بعينيه البُنيّتين المُلتهبتين من الريح والسّهر. والتمعت عيناه فجأة، وهتف:

– روسيّ!

وأمسكَ إيفان إيليتش من ياقته. لم يُقاوم تليغين، بل ابتسم ابتسامةً هازئــةً مقهورة. حُبســ تليغين في زريبة. وكان الليــل قد هبط. وكان

دويّ التّراشــق بالمدافع يُسمع بوضــوح، ويلوح من خلل الشقون بين الأخشــاب وميضٌ أحمر كامــد. أكل إيفان إيليتشــ بقيّة الخبز الذي أخذه مــن العربة يوم أمســ، وسار على طول الجــدران المصنوعة من ألــواح الخشب عسى أن يعثر على فتحة. تعثّر ببالةٍ من التين المضغوط، وتثــاءب، واستلقى. إلا أنّ النّوم لم يُراوده. فبعد مُنتصف الليل أخذت المدافــع تقصف علــى مسافة غير بعيدة، وكانــت التّوهّجات المُحمرّة تنفــذ من خلال الشّقوق بين الألواح. رفــع إيفان إيليتش جسمه قليلاً وتسمــع. تضاءلت الفترات بــين الطلقات وصارت جــدران الزريبة تهتزّ، وفجأةً لعلع رصاص البنادق على مسافةٍ دانيةٍ جداً.

وكان واضحــاً أنّ المعركــة تقترب. وصدرت أصــواتٌ مُستثارة، وبربــر مُحــرّك سيارة. وتــردّد وقفُ أقــدام كثيرة وارتطــم جسمٌ ثقيل بجدار الزريبة من الخــارج. وعندئذ فقط لاحظ أنّ الرصاص يتساقط على جــدار الزّريبــة تساقط البندقِ علــى جسمٍ صلــب. فتمدّد على الأرض في الحال.

نفذت رائحة دُخان البارود حتى إلى داخل الزريبة. وكان الرميّ لا ينقطع، والظاهر أنّ الروس كانوا يهجمون بسرعةٍ شديدة. إلا أنّ هذه الزّوبعــة من الأصــوات الرّهيبة لم تستمرّ طويــلاً. وصدرت ضرباتٌ مُنفجرة، أي أنّ القنابل اليدويّة كانت تُفرقع فرقعة الجوز عندما يُكسر. نهض إيفان إيليتشــ مُسرعاً من الأرض وتراكض بمحاذاة الجدار. أمن المعقــول أنّ الهجــوم يُردّ؟ وأخــيراً صدر زئيرٌ أجشــّ مُجلجِل، وزعيقٌ ودمدمة أقدام. وسكتت الطلقات في الحال. ولم يسمع في تلك الثانية الطويلة غير صوت ضرباتٍ في شيءٍ لدن وصلصلة حديد. ثمّ ارتفعت أصواتٌ مذعورةٌ صارخةٌ: "نستسلم، أيّها الروس!..".

خلــع إيفــان إيليتشــ كسرةً مــن خشب البــاب، فــرأى أشخاصاً

يركضون، وقد غطّوا رؤوسهم بأيديهم. واندفع نحوهم فرسان يُلقون ظلالاً هائلة، وشقوا طريقهم في خضمّهم..وراحوا يجولون. اتّجه ثلاثةٌ من المُشاة نحو الزّريبة، فاندفع فارسٌ للحاق بهم، وعباءته تتطاير خلف ظهره، وفرسه الضّخم يشب على رجليه الخلفيّتين ثقيلاً ناخراً.

كان الفارس يلوّح بسيفه كالسّكران فاتحاً فمه على وسعه. وحين نزل الفرس على رجليه الأماميّتين أنزل الفارس سيفه بقوّةٍ فصفر في الهواء، وانغرس حدّه في لوح الباب فانكسر.

صرخ تليغين بصوتٍ جُنونيّ، وهو يقرع الباب:

– أطلقوني.

أوقف الفارس فرسه.

– من الهاتف؟

– أسير. ضابطٌ روسيّ.

– دقيقة.

قذف الفارس مقبض سيفه المكسور، وانحنى، وسحب المزلاج. وخرج إيفان إيليتش، فإذا بالّذي أطلقه، وهو ضابطٌ في الفرقة الوحشيّة، يقول بشيءٍ من التّهكم:

– يا له من لقاء!

تطلّع إيفان إيليتش إليه، وقال:

– لا يبدو إنّي أعرفك.

– أنا سابوجكوف سيرغي سيرغيفيتش–وانفجر بقهقهةٍ حادّة، وقال: لم تكن تتوقّعني؟ اللعنة، إنّها الحرب!

سار القطار في الساعة الأخيرة قبل وصوله إلى موسكو ماراً ببيوت ريفيّة مهجورة صافراً صفيراً ممدوداً. ودُخانه الأبيض يلتفّ مع أوراقِ الأشجار الخريفيّــة، وصفرة أشجار البتولا الشّفافــة، وأحراش الحور القرمزيّة الفواحة برائحة الفطر. وأحياناً كانت أغصان القيقب الحمراء العريضــة تتدلّى على سُدّة القطار تمامــاً. وحين كانت الأحراش تشفّ كانــت تلوح من خلالها هنا وهناك الكــرات الزّجاجيّة على أحواض الزّهور، والصّفاقات المُسمّــرة في البيوت الريفيّة، والأوراق الساقطة على الممرات والدرجات. مرّت محطّةٌ صغيرة كان يقف على رصيفها جندياً يضعــان على ظهريهما حقيبتين، وقد نظرا إلى نوافذ القطار بلا اكتراث، بينما كانت سيّدةٌ شابة في معطفٍ ذي مربّعات تجلس حزينة معزولة على مسطبة تُخطط رسماً بطرف مظلّتها على ألواح الرّصيف المُبلّلــة. وبعــد المُنعطَــف لاح حاجزٌ خشبــيّ مــن وراء الأشجار وقد رسمت عليه زجاجةٌ كُتب عليها: "فودكا شوستوف المُطعمة بالغبيراء لا تضــارع". وانتهــت الغابة وظهــرت إلى اليســار واليمين صفوفٌ طويلــة من الكرنــب الأبيض–الأخضر، وعند تقاطــع الخطّ الحديديّ مــع طريقٍ وقفت خلــف الحاجز عربةٌ محمّلةٌ بالقشّ؛ وامرأةٌ في فروة رجاليّــة تمسك مقــود حصان نحيلٍ عنيد. وصار مــن المُمكن الآن أنْ يلمــح البصــر في الأفق البعيد أطــراف الأبراج المُستدقّــة تحت سحابة طويلــة، وقُبّة كنيســة "المسيح المُخلّص" تلمح عاليــاً فوق المدينة. كانَ تليغين يجلس عند نافذة العربة مُستنشقاً هواء أيلول الكثيف، ورائحة الأوراق والقطــر المُتفسّــخ ودخان قشٍ يُحرق في مــكانٍ ما، ورائحة الأرضــ التي مسّها الصّقيع عند الفجر. وأحسّ إيفان إيليتّش بأنّه قطع درببــاً من الآلام امتدّ سنتــين، ونهايته هنا، في ساعــة الانتظار الطّويلة الرائعــة هذه. وقد خمّن أنه سيضغط في الساعــة الثانية والنّصف تماماً

علـى زرّ الجرسـ في ذلك الباب الوحيـد–وكان يتصوّره من الخشب البلـوط الفاتح فوقه شباكان صغيران–الباب الذي كان سيبلغه و لم كان ميتاً. انتهـت حدائق الخضار المُلحقة بالبيـوت، وظهرت على جانبيّ الطّريق بيوت الضّواحي الصغـيرة المُبقّعة بالوحل، وشوارع موصوفة رصفاً غير مُتقن تسير عليها عرباتٌ مشحونة مُكركبة، وأسيجة وراءها حدائق نبتت فيها أشجار زيزفون مُعمّرة تفرش أغصانها حتى مُنتصف الشوارع الجانبيّة، ولافتات ملوّنة، وسابلة ذاهبون في شؤونهم التافهة دون أن يلتفتوا إلى القطـارً الهادر وراكبه–إيفان إيليتش–الجالس عند نافذة إحدى عرباته، وفي الأسفل، سار نحو داخل الشارع ترامٌ صغير كاللعبـة، وطلعت قبّة كنيسة صغيرة مـن وراء بيت، ودقّت العجلات علـى المحوّلات. وأخـيراً، أخيراً–بعـد سنتين طويلتين–مـرّ بالنوافذ رصيف محطّة موسكو الخشبـيّ. وصعد إلى العربات شيوخٌ نظاف لا مُبالـون في مآزرَ بيضاء. أخرج إيفــان إيليتش رأسه بعيداً وراء النافذة، وتطلع. من الحماقة انتظار أحد ما: إنّه لم يُبلّغ عن وصوله. خرج إيفان إيليتشـ من المحطّة إلى ساحـةً المحطّة، و لم يضبط نفسه فضحك: فقد كان صفٌّ طويل من العربات يقف في الساحة على بُعد زهاء خمسين خُطوة. وكان السواقون يصرخون من مقاعدهم ملوّحين بقفازاتهم:

– أنا حاضر! أنا حاضر! أنا حاضر!

– تفضّل، يا حضرة السيّد، على الحصان الفاحم!

– عربتي سريعة، وبعجلاتٍ من مطاط!

وكانـت الخيـول بأعنّتهـا المتوتّـرة تضـرب الأرضـ بحوافرها، وتحمحم، وتصهل، وكان الصياح ينتشر في الساحة كلّها. وبدا وكأنّ العربات توشك على اجتياح المحطّة.

صعـد إيفان إيليتش علـى عربةٍ عاليةٍ جداً، لها مقعـدٌ ضيّق. سأله

السائق الجميل الصّفيق عن العنوان بتساهلٍ لطيف، ولكي يُبهر زبونه جلس بانحرافٍ على مقعده، ممسكاً العنانَ رخواً بيده اليُسرى، مُطلقاً حصانه في عدوٍ سريع. وراحت العجلات المطاطيّة المنفوخة تنطّ على حجارة الشارع.

– هل أنت قادمٌ من الحرب، يا حضرة؟

– هربت من الأسر.

– صحيح؟ وكيف الحال عندهم؟ يقولون ليس لهم ما يألونه. أنت، يا جدّة، احذري. معي بطلٌ وطنيّ. يهرب الكثيرون من هناك. احذر، يا صاحب العربة..آه، المغفّف!..هل تعرف إيفان تريفونيتش؟

– من هو؟

– إنّه في شارع رازغولاي، يُتاجر بالأقمشة الجوخ!..يوم أمس ركب في عربتي، دامع العينين. آه، حكاية!..أترى من الصفقاتٍ الحربيّة، وهو لا يعرف كيف يُنفق فلوسه لكثرتها، ولكنّ زوجته هربت مع بولونيٍّ قبل يومين. وأصحابنا السواقون نشروا الحادث في طول موسكو وعرضها. وإفان تريفونيتش الآن لا يجرؤ على الخروج إلى الشارع..ذلك جزاء نهب الناس...

– أرجوك أن تُسرع، يا صاحبي.

جُثّة إيفان إيليتش رغم أنّ حصانه السريع العالي كان مُنطلقاً في شارع جانبيّ كالريح، مُلقياً رأسه الغاضب إلى الوراء على عادته القبيحةً.

– وصلنا، يا حضرة السيّد، المدخل الثاني. قف، يا فاسيا!..

ألقى إيفان إيليتش نظرةً سريعةُ مُنفعلة على النوافذ السّت من بيتٍ أبيض، حيث تدلّت ستائرٌ من الدّنتلا وادعةٍ نقيّة، وقفز عند المدخلِ.

كان البــاب قديمــاً منقوشاً محلــيّ الرأس أسد، وجرسه غــير كهربائيّ، مــن النوع القــديم. توقّف إيفان إيليتش بضع ثــوانٍ، غير قادرٍ على أن يرفع يــده إلى الجرس، وقلبه مُتباطئ الخفقــان مُوجِع. "في واقع الأمر أننــي لا أعرف شيئاً الآن. فقد يكون البيــت خالياً من الناس، وربما لا يستقبلونني". فكّر بذلك مــع نفسه. وضغط المقبض النّحاسيّ وسمع الجرس يدقّ في أعماق البيت. "بالطّبع لا يوجد أحدٌ في البيت". ولكنّه سرعان ما سمع وقع خطوات إمرأة سريعة. فتلفّت مُشتّت اللب. فرأى وجــه السائق المرح يغمز لــه. ثمذً صلصلت سلسلــة، وانفتح الباب، وأطلّ وجه وصيفةٍ عليه آثار جدريٍّ قليلة. سعل تليغين وسألها:

– هل تسكن داريا دميتريفنا هنا؟

ردّت الفتاة المجدوة برقّة وعذوبة صوت:

– إنّهــا في البيت، في البيت، تفضّــل. السّيدة والآنسة موجودتان في البيت.

ســار إيفان إيليتش كالحــالم في رواقٍ ضيّق تنتشر فيــه رائحة فراء، له جــدارٌ زجاجيّ وفيه ســلال. فتحت الوصيفة إلى اليمــين باباً ثانياً مُبطّنــاً بشمع أسود، فوجد إيفان إيليتش نفسه في ممرٍّ صغير علقت فيه معاطــف نسائيّة، وأمام المــرآة قفازات، ومنديلٌ عليــه صليبٌ أحمر، ولفــاحٌ أزغب. وكانت كلّ هــذه الأشياء البريئة تعبــق برائحةٍ خفيفة مألوفة لعطورٍ نسائيّة مُذهلة.

ذهبــت الوصيفة لتُبلّغ عن وصول ضيفٍ دون أن تسأل عن اسمه. مسّ إيفــان إيليتش بأصابعه اللفاح الأزغــب، وخامره شعورٌ مُفاجئ بــأنّ لا صلة بين هذه الحياة النّقيّة الفاتنة وبينه، وهو الخارج من الحمأة الدّامية. سمــع صوت الوصيفة آتياً من أعمــاق البيت: "يا آنسة، جاء مــن يسأل عنك". أغمض إيفان إيليتش عينيه، وكأنّ صاعقةً ستنقضّ

عليه من السماء بعد لحظة، وسمع صوتاً عجولاً صافياً بثّ الرّجفة من رأسه حتى قدميه:

– هل يسأل أحدٌ عني؟ من؟

تردّدت خطـواتٌ في الحجرات، جاءت مُندفعةً من هاوية السّنتين مـن الانتظار. وظهرت داشـا عند باب الممرّ، وقد سقـط عليها ضوءٌ مـن النّوافذ، وسرت شقرةٌ في شعرها الناعم. وبدت أعلى قامة، وأكثر نحافة، وهي في بلوزةٍ مُحاكة، وتنّورةٍ زرقاء.

– هل سألت عني؟

وتلجلجـت، وارتعش وجهها، وارتفع حاجباه، وانفغر فمها، إلا أنّ ظلّ الفزع زايل وجهها في اللحظة التالية، وتألّقت عيناها بالدّهشة والفرح.

– أهذا أنت؟

قالتهـا بصوتٍ لا يكاد يُسمـع، وبسطت ذراعيهـا وطوّقت رقبة إيفان إيليتش بانفعال، وقبّلتـه بشفتين رقيقتين مُرتعشتين. ثمّ ابتعدت عنه:

– إيفان إيليتش، تعال إلى هنا.

وركضت إلى غرفة الجلوس وجلست على مقعد، وطوت جذعها نحو ركبتيها، وغطّت وجهها بيديها.

– بالطبع، هذا من الحماقة...

همسـت بذلك، وهـي تمسح عينيها بـكلّ جهدها. وقـف إيفان إيليتش أمامها. وفجأةً أمسكت داشا بذراعي المقعد، ورفعت رأسها:

– إيفانن إيليتش، هل هربت؟

– هربت.

– يا ربّي وماذا؟

– ورأساً إلى هنا.

وجلس في مقعدٍ قبالتها، وهو يضمّ طاقيّته بكلّ قوّته.

سألت داشا مُتلعثمة:

– كيف حدث... ذلك؟

– بشكلٍ اعتياديّ، عموماً.

– وهل تعرّضت للخطر؟

– نعم... أقصد ليس بذاك الخطر.

وتبادلا كلمات أخرى لبرهةٍ أخرى. وبالتّدريج أخذ الحياء يستولي عليهما. غضّت داشا بصرها، وسألت:

– منذ زمان وأنت في موسكو؟

– جئت من محطّة القطار رأساً.

– سأطلب قهوةً الآن...

– لا، لا داعي للكلفة... سأذهب الآن إلى الفندق.

عندئذٍ سألت داشا بصوتٍ لا يكاد يُسمع:

– هل ستأتي في المساء؟

هــزّ إيفان إيليتش رأسه بعد أن أطبــق شفتيه. وكان يحسّ بعسرٍ في تنفّسه.

نهض.

– إذن، أنا ذاهب: وسآتي في المساء.

مدّت داشا يدها لــه، فتناولها ناعمةً قويّة، ومن هذه الملامسة شعر بتوهّــج، وتصاعــد الدّم إلى وجهــه. ضغط على أصابعهــا، وسار إلى الرواق، إلا أنّه التفت عنــد بابه. كانت داشا تقف وظهرها إلى النور، ترمقه من تحت حاجبيها.

– هــل مــن المُمكن أن أجــيء في نحو الساعــة السابعــة، يا داريا دميترييفنا؟

هــزّت رأسها بالإيجاب. خــرج إيفان إيليتشــ مُسرعاً من مدخل البيت، وقال للسائق:

– إلى الفندق، إلى فندقٍ جيّد، بل وأحسن فُندق!

جلســ في العربــة مُتكئاً على ظهر مقعدها، حاشــراً يديه في جيبي معطفه، وابتسم ابتسامــةً عريضة. مرّت به سريعاً ظلالٌ مزرقّة–ظلال الناس والأشجار والعربات. وبرّدت وجهه نسمةٌ قارسةٌ فوّاحة بنكهة مدينــةٍ روسيّة. رفع إيفان إيليتش إلى أنفه كفّــه التي ما تزال مُلتهبةً من مُلامسةِ داشا، وضحك قائلاً بينه وبين نفسه: "سحر!"

في تلــك اللحظة كانت داشا تقف عند نافذةٍ في غرفة الجلوس بعد أن ودّعــت إيفان إيليتش. كان رأسهــا يطنّ، وكانت، مهما بذلت من جهد، لا تستطيــع أن تتغلّب على الرّهبة والانفعال وتفكّر بما حدث. أطبقت عينيها بشدّة، وأهّت فجأة، وركضت إلى مخدع أختها.

كانت يكاترينــا دميترييفنا تجلس عند النافذة تخيــط شيئاً وتُفكّر. وعندما سمعت خطوات داشا سألتها دون أن ترفع رأسها إليها:

– من كان عندك، يا داشا؟

ونظرت كاتيا، وسرت رعشةٌ في وجهها.

– هو... ألا تفهمين؟.. هو... إيفان إيليتش. أنزلت كاتيا خياطتها، وبسطت ذراعيها ببطء. وقالت داشا بصوتٍ خافت:

– افهميني، يا كاتيا. أنا لست فرحة. بل ويتملّكني الخوف.

٣١

مــا أن هبط الظّلام حتى أخذت داشا تجفل عند كلّ نامة، وتركض إلى غرفــة الجلوس، وتتسمّع.. فتحت عدّة مراتٍ كتابــاً على صفحة لا تتغيّر "أحبّت ماروسيا الشوكالاتــه التي اشترّاها لهــا زوجها من مخـزن كرافت..." وفي الغسق البارد أضيئت نافذتان في بيت المُمثّلة تشارو ديفــا المُقابــل لبيتهم، وأخذت خادمةٌ علــى رأسها طاقيّةً تهيء المائدة، ثم ظهرت مخملياً، وجلســت إلى المائدة، وتثاءبت، ربّما نامت علــى الأريكة، صبّت لنفسها حساء، وغرقت فجأةً في تفكير، وثبّتت عينيهــا الجامدتين في مزهريّة فيهــا وردة الشوكالاتــه". ودقّ الجرس فجــأة. وغاض الدّم من قلبٍ داشا. ولكنّ الطــارق لم يكن إلا مُوزّع الصّحيفــة المسائيّة. وقالت داشا لنفسهــا: "لا يأتي" وذهبت إلى غرفة الطّعام، حيث كان مصباحٌ واحد يُضيء فوق المفرش الأبيض، وحيث الساعــة تُكتك، وكانت تُشــير إلى السابعة إلا خمس دقائق. جلست داشا إلى المائدة، "وعلى هذا النّحو تمضي الحياة ثانيةً بعد ثانية..."

ودقّ البــاب الخارجيّ مــرّةً أخرى. تقطّعت أنفاســ داشا، وهبّت واقفــة، وركضت إلى الــرّواق... كان القــادم حارساً مــن المُستشفى العسكــريّ جلب رزمةً من الــورق. وإيفان إيليتش لــن يأتي بالطّبع، وهــو على حقّ. فقد انتظرته سنتين، وعند اللقاء لم تجد كلماتٍ مُناسبة تقولها له.

أخرجـت داشا منديلها، وأخذت تعضّ طرفه. لقد كانت تتوجّس وتعـرف أنّ ذلك سيحدث بالصورة التي حـدث بها بالضّبط. عامين أحبّت صورة رجلها الخيالي، ولما جاءها حياً...ذُهلت عن أمرها.

وقالت داشـا لنفسها: "فظاعة، فظاعـة". و لم تُلاحظ الباب يُفتح قليلاً، وتظهر ليزا المجدورة.

– يا آنسة، جاءوا لزيارتك.

زفرت داشا زفرةً عميقة، ومشت إلى غرفة الطعام بخفّة، وكأنّما لا تمسّ الأرض. كانت كاتيا أوّل رأت داشا، فابتسمت لها. نهض إيفان إيليتش، ورمش وانتصب واقفاً.

كان يلبس قميصاً جديداً من الجوخ، وحزام عتادٍ جديداً ألقاه على كتـف واحدة. وكان حليـق الوجه بإتقان، قد حلقَ شعـر رأسه لتوّه. والآنَ كان واضحـاً بشـكلٍ خاصّ ارتفـا ع قامتـه، وامتشاقه وسِعة كتفيه. وبالطّبع، كان هذا رجلاً جديداً إطلاقاً. نظرة عينيه الوضاءتَين قويّـة، وعلى طرفي فمه المُستقيم الدّقيق غضنـان، خطان صغيران... وجـب قلب داشا، فقد فهمت أنهما من أثر الموت والفزع والعذاب. كانت يده قويّةً باردة.

أخذت داشا مقعداً، وجلسـت إلى جانب تليغين. فوضع هو يديه علـى الخـوان، وقبضهمـا، وأخذ يتحـدّث عن الأسـر والهروب من الأسر، وهو ينظر إليها نظرات سريعة خاطفة. وكانت هي في جلستها الشّديدة القُرب منه تتطلّع إلىَ وجههَ فاغرة الفمّ.

وأحسّ إيفان إليتش وهو يروي وكأنّ صوته يرنّ من مسافة بعيدة، وليس بصوتـه، وأنّ كيانه كلّه يهتزّ مُنفعـلاً. وإلى جانبه تجلسُ مخلوقةٌ تعجـز الكلمات عـن وصفها ماسّـةً بثوبها ركبته–فتاةٌ غـير مفهومةٍ مُطلقاً، يضوء منها شذىً دافئ يُدير الرّأس.

ظـلّ إيفان إيليتش يتحـدّث طوال المساء. وكانـت داشا تستفهمه وتُقاطعه، وتبسط يديها، وتلتفت إلى أختها:

– كاتيوشا، هل فهمت؟ حكموا عليهم بالإعدام رمياً بالرّصاص!

وحين وصف تليغـين الصّراع من أجل السّيـارة، والثانية الفاصلة عـن المـوت، وانطلاق السيـارة، والريـح الهابّة علـى الوجه–الحريّة والحياة! –لاحَ شحوبٌ كثير على وجه داشا، وأمسكت يده وقالت:

– لن تدعك تذهب إلى أيّ مكانٍ بعد الآن!

ضحك تليغين:

– سيستدعونـن ثانية، ولا مفرّ مـن ذلك. وكلّ ما آمله أنْ يُرسلون إلى مصنعٍ حربيّ.

وضغط علـى يدها بحذر.. أخـذت داشا تُحـدّق في عينيه، وتُمعن النّظر فيهما، ولوّنت خدّيها حُمرةٌ خفيفة. فكّت يدها، وقالت:

– لماذا لا تُدخّن؟ سأجلب لك علبة ثقاب.

وخرجت بسرعة، وعـادت في الحال ومعها علبة ثقاب، وتوقّفت أمام إيفان إيليتش، وأخذت تقدح أعواد الثّقاب مُمسكةً إياها من رأسها تمامـاً فتنكسر في يدها. تلك هي أعـواد الثّقاب التي تشتريها صاحبتنا ليـزا! وأخيراً اشتعل عودُ ثقاب. رفعته بحذر إلى سيكارة إيفان إيليتش فأنار ضوؤه حنكها. امتصّ تليغـين أنفاساً من سيكارته مُقلّصاً عينيه. ولم يـدر بخلده أنّ من المُمكن أن يحسّ بمثل هـذا السّعادة من إشعال سيكارةٍ له.

كانت كاتيا طول هذا الوقت تُراقب داشا وتليغين صامتة. وكانت

سعيــدةً كلّ السّعادة لداشا، ومع ذلــك فقد كانت تحسّ بحزن شديد. ذلــك لأنّ فاديم بتروفيتش روتشين لن يغب عن ذاكرتها أبداً رُغم أنّها كانت تأمل أنْ تنســاه. وقد كان يجلس معهما على المائدة أيضاً، وقد جلبــت له أيضاً علبة ثقاب ذات مرّة، وأشعلــت له سيكارته، دون أن تكسر عود ثقابٍ واحد.

انصــرف تليغين عنــد مُنتصف الليل. طوّقت داشــا أختها، وقبّلتها بقــوّة، وأغلقت بــاب غرفتها. اضطجعت على السريــر وألقت يديها وراء رأسهــا، وفكّــرت بأنها قد طلعــت أخيراً من الركــود الكئيب، ورغــم أنّ كلّ شــيء حولها ما يزال وحشياً فارغــاً ومُرعباً، إلا أنّ كل هذا زرقة أمل، نفحةٌ من السعادة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

٣٢

تلقّى إيفان إيليتش في اليــوم الخامس من وصوله رسالةً رسميّة من بطرسبورغ تبلغه بالحضور فوراً إلى مصنع البلطيق. وقد تعاقب كالحلم الفرح بهذه الرسالة، وبقيّــة النهار التي قضاها مع داشا بهمومهما في المدينة، والوداع السريع في محطّة نيكولايفسكي، ثمّ مقصورة الدّرجة الثانية بدفئها الجاف، وقطقة جهاز التّدفئة والظّرف الذي عُثر عليه في جيبه فجأةً مربوطــاً بشريط، وفيه تُفاحتان وشوكالاته وكعكات. فكّ إيفان إيليتش زرّ ياقة قميصه الجوخ، ومدّ رجليه، ودون أن يستطيع أن يتخلّى عــن ابتسامته الحمقاء نظر إلى الجار الجالس قبالته، وهو عجوزٌ لا يعرفه ضئيل الجسم صارم الهيئة في نظّارة.

سأل العجوز:

– هل أنت خارجٌ من موسكو؟

– نعم، من موسكو–ثمّ تابع مع نفسه:

– يا للرّب، أيّة كلمةٍ لطيفةٍ عجيبة هي "موسكو" هذه!..

شوارع صغيرةٌ مغمورة بشمس الخريف، وأوراقٌ جافّة تحت الأقدام، وداشا الخفيفة الهيفاء تسير على هذا الأوراق، وصوتها الصافي الذّكيّ–وهو لم يفهم أيّة كلمة منها–والشّذى الدائم لزهورٍ دافئة يشمّه حين كان ينحني نحوها أو يُقبّل يدها.

قال العجوز:

– هرجٌ ومرج وضوضاءٌ في هذه المدينة. أمضيت ثلاثة أيام في موسكو... ورأيت ما فيه الكفاية–وباعد بين ساقيه بحذائيهما الطّويلين وكالوشين عاليين، وبصق وأكمل: وفي الشوارع تجد أناساً يتراكضون هنا وهناك... وفي الليل أضواءٌ وصخب، ولافتات، وكلّ شيءٍ يدور... وزحام الناس... جُنون!!! نعم، هذه هي موسكو... بداية الأرض... بينما لا أجد غير طرادٍ جهنّميٍّ مخبول. وأنت، أيها الشاب، لقد خضتُ معارك. فهل جُرِحت؟ لقد أدركت ذلك من الوهلة الأولى... قل لي، أنا العجوز، أمن المعقول أنّ دماءنا تسفك هناك في سبيل هذه الضّوضاء اللعينة؟ أين الوطن؟ أين الدين؟ أين القيصر؟ دلّني. أنا مُسافرٌ إلى بطرسبورغ لأجلب خُيوطاً... ليأخذها الشّيطان! تفو!.. بأيّ شيءٍ سأعود إلى تيومن؟ بخيوط؟.. لا لا أعود بخيوط بل أعود وأقول: يا ناس، نحن هالكون جميعاً. هذا ما سأعود به... تذكّر قولي، أيها الشاب. إنّنا سندفع الثّمن، سندفع ثمن كلّ شيء... سيكون علينا أن نُحاسب على هذا الجنون.

وأسند العجوز يده على ركبتيه، ونهض، وأنزل الستارة الصّغيرة

على النافذة التي كانــت تتطاير وراءها في الظلام شرارات القطار مثل خطوطٍ ضوئيّة. وتابع العجوز حديثه:

– نسينــا الــرّبّ فنسانا... هذا مــا أقوله، آوه، سندفــع الثّمن غالياً جداً...

فسأل إيفان إيليتش:

– هل تظنّ أنّ الألمان سيغلبوننا؟

– ومن يعرف؟ من سيرسله الرّبّ لعقابنا فسنتحمّل العذاب منه... لنفرض أنّ الخدف في حانوتي بدأوا يتوقّحون. سأتحمّل بعض الوقت، ثــمّ أوجّه لأحدهم ضربةً على قفاه، والآخر لطمةً على رقبته، والثالث أطــرده شرّ طردة... ولكــنّ روسيا ليست حانوتي، بل هــي استثمارةٌ شاسعــة. إنّ الــرّبّ رحيمٌ بالعبــاد، ولكن إذا لوّث الناس الطريق إليه وجــب تنظيف الطّريق، أم لا؟ ذلك ما أرمي إليه... الرّبّ انصرف عن العالم... ولا يُمكن أن يوجد أرهب من ذلك...

وضع العجوز يديه على بطنه، وأغمض عينيه والتمعت نظارته لمعاناً كالحــاً حين راح يهتــزّ في ركن رفّه الرّماديّ. خــرج إيفان إيليتش من المقصــورة، ووقف عند نافذة في الممرّ ووجهه يكاد يُلامس زجاجها. كان يتسرّب من الفتحة هواءٌ مُنعشٌ حادّ. ووراء النافذة كانت الخُطوط الناريّة تتطاير في الظّلام، وتتشابك، وتسقط على الأرض. وبين الحين والآخر كانت تمرّ سحابةٌ رماديّة من الدّخان. وكانت عجلات القطار تقــرع مُطواعة. وصفــرت القاطرة صفيراً ممــدوداً، وهي تنعطف في مُنعطف، وألقت نار حجــرة الوقود فيها ضوءاً على القمم المخروطيّة لأشجــار الشــوح، وقد برزت هذه من الظّلمة ثــمّ اختفت. وقرقعت محــوّلات الخطوط. واهتــزّت العربة اهتــزازاً خفيفــاً، وومض قرصٌ

أخضر لمصباح، ومـرّةً أخلي مرّت خطوطٌ ناريّـة طويلة بالنوافذ مثل مطرٍ ناريّ.

وفيما كان إيفان إيليتش يُراقبها امتلأ قلبه بكلّ ما حدث خلال تلك الأيام الخمسة غامراً إياه بفرحٍ مُفاجئ. و لم كن في مقدوره أن يكشف هذا الشعور لأحد من الناس لأُعتبر مجنوناً. ولكنّ ذلك بالنّسبة له ليس غريباً أو بعيداً عن العقل، إنّ كلّ شيءٍ فيه واضحٌ كلّ الوضوح.

وأحسّ بـأنّ ملايين وملايـين من النـاس تعيش في ظـلام الليل، وتتعـذّب، وتموت. إلا أنّها تعيشـ بالمعنى الرّمزيّ لهذه الكلمة، وكلّ ما يحدث بهـذا المعنى، وتوهماً تقريباً. وهذا التّوهّم من القوّة بحيث لو بذل إيفان إيليتش أيّ جهدٍ لتغيّر كلّ شيء، وصار مُختلفاً. وبين هذا التّوهّـم يوجد صميمٌ حيّ هو إيفـان إيليتش، بقامته المُنحنية الآن على النافذة. إنه مخلوقٌ محبوب خرج من عالم الظّلال ومُنطلقٌ وسط المطر الناريّ فوق العالم المُظلم.

واستمرّ هذا الشّعور غير الاعتيـاديّ لحبّ نفسه بضع ثوانٍ. وعاد إلى المقصـورة، وصعـد إلى الرّفّ العلويّ، ونظـر إلى يديه الكبيرتين، وهو يخلع ثيابه، وفطن لأوّل مرّةٍ في حياته بأنهما جميلتان. وألقاهما خلـف رأسه، وأغمض عينيه، وتراءت داشا له في الحال. كانت تُحدّق في عينيـه بإنفعالٍ وعشـق (حدث ذلك اليوم في غرفـة الطعام. لفّت داشا بعض الكعكً. دار إيفان إيليتش حول المائدة، وتقدّم منها، وطبع قُبلـةً على كتفهـا الدافئة. التفـت التفاتةً سريعة، فسألهـا: "داشا، هل تقبلين أن تكـوني زوجتي؟" فاكتفت بأن حدّقت فيه). أما الآن، وهو مُضطجـع على الرّفّ، يتخيّل وجه داشـا، دون أن يُشبعه هذا التّخيّل فقـد أحسّ، ولأوّل مرّة في حياته أيضاً، بالحبـور، وبنشوة كون داشا تُحبّه، تحبّ الشّخص ذا اليدين الكبيرتين الجميلتين.

ذهب إيفان إيليتش إلى مصنع البلطيق في يوم وصوله إلى بطرسبورغ، وعُيّن في إحدى الورش ضمن النّوبة الليليّة. وكانت تغيرات* كثيرة قد حصلت في المصنع خلال ثلاث سنوات. ازداد عدد العُمال ثلاث مرات. كان جزءٌ منهم شباناً، وجزءٌ آخر نُقل من الأورال أو من المدن الغربيّة، وجزءٌ أخذ من الجيش العامل. وكان العُمال يقرأون الصّحف، ويلعنون الحرب، والقيصر، والقيصرة، وراسبوتين، والجنرالات، وكانوا ساخطين، وواثقين جميعاً من انّ "الثورة ستندلع" بعد الحرب.

وكانو ساخطين بشكل خاصّ على خلط الحنطة بالنّخالة في المخابز، واختفاء اللحم في الأسواق لعدّة أيام مُتتالية، وإذا وُجد فهو مُنتن، والبطاطس أضرّ بها الصّقيع، والسُّكر قَذر، وعلاوةً على ذلك فإنّ الغلاء قد استشرى، وأصحاب الحوانيت، وهم أغنياء حديثون ومضاربون، قد أثروا من الصفقات الحربيّة، كانوا يشترون علة الحلوى بخمسين روبلاً، وزجاجة الشامبانيا بمائة روبل، و لم يُريدوا أن يسمعوا و لم كلمةً عن الصّلح مع الألمان. أجيز إيفان إيليتش ثلاثة أيام لتدبير شؤونه الخاصة، فقضى المُدّة كلها في التّجوال في أرجاء المدينة بحثاً عن شقّة. وقد تفقّد عشرات البيوت دون أن يعجبه واحدٌ منها. ولكنه في اليوم الأخير عثر فجأةً على ما لاح في خياله وهو في عربة القطار: خمس غرف صغيرة ذات نوافذ نظيفة تطلّ على مغرب الشّمس. وكانت هذه الشّقة الواقعة في نهاية جادة كامينواستروفسكي غاليةً بعض الشّيء بالنّسبة لإيفان إيليتش، ولكنه استأجرها في الحال، وكتب يُخبر داشا بذلك.

وذهب إلى المصنع في الليل الرابع. كانت المصابيح مُضاءة على الأعمدة العالية في الفناء المسودّ من قذارة الفحم، والدّخان الخارج من المداخن ينزل سافلاً نحو الأرض بفعل الرّطوبة والريح، والهواء

أصفـر ثقيل مُشبّع بذرات السّخام. ومن خلال النّوافذ نصف الدائريّة الهائلـة المُغبرة في مباني المصنع كان الناظر يرى دوران عددٍ ضخم من البكـرات وسيور النّقل، وحـركات أجسام المخـارط الحَديديّة وهي تثقب، وتخرط، وتصقل الحديـد والبرنز. وكانت الأقراص العموديّة لمكابس التّخريم تـدور. وفي الأعلى كانت مقاصـير الرافعات تروح وتجـيء في الظلام. وكانت أفران الصّهر تتوهّج بضوءٍ ورديٍّ وأبيض، والمطرقـة البخاريّـة الجبـارة تهزّ الأرض بضرباتها، وأعمـدة اللهب تتصاعد من المداخن الواطئة في ظلام السّماء الرّماديّة. وكانت أشباح الناس تتحرّك وسط هذا الطّنين وهدير الآلات...

دخـل إيفـان إيليتشـ الورشة حيـث كان المكابس تعمـل صانعة أغلفـة قنابل الشرابنيل. طاف المُهندس ستروكوف به في أنحاء الورشة شارحـاً له بعض خصائص العمل الجديدة على إيفـان إيليتش. وكان هذا المُهندس صاحباً قديماً له. ثمّ دخل معه إلى مكتب محجوزٍ بالألواح الخشبيّة في ركنٍ من الورشـة، حيث أطلعه على الكُتب والسّجلات، وسلّمه المفاتيحَ، وقال له وهو يرتدي معطفه:

– نسبـة التّلـف في الورشة هي ثلاثة وعشرون بالمائـة من إنتاجها العام. فحاول أن تتمسّك بهذه النّسبة.

وجد إيفان إيليتشـ في هذا الكلمات، وفي طريقة تسليمه للورشة عـدم اكتراث بالعمل. وقد غمّه ذلك، فقد عرف ستروكوف مُهندساً ممتازاً ورجلاً مُتحمّساً في الماضي. عندئذٍ سأله:

– أتحسب من غير المُمكن التّقليل من نسبة التّلف؟

هزّ ستروكـوف رأسه مُتثائبـاً، وسرّح طاقيّتـه إلى أسفل شعره غير المصفوف، وعاد إلى المخارط مع إيفان إيليتش.

– ابصـق على ذلك، يا صاحبي. ما الـذي يُهمّك فيه؟ أيهمّك أننا

سنقتـل من الألمان في الجبهة أقلّ بنسبة ٢٣ بالمائة؟ وبالإضافة إلى ذلك ليس في اليد حيلة، فإنّ الآلات قد استُهلكت، فلتذهب إلى الشيطان!

وتوقّـف عند مكبس. وضع عاملٌ عجـوز قصير الساقين في مئزرٍ جلـديّ قطعة حديـد محميّةٍ إلى حـدّ الاحمرار تحـت المكبس، وهبطَ القالـب، ونفذ ذراعُ المكبسِ في الفولاذ الورديّ وكأنّه ينفذ في زبدة، ويتطاير اللهب، وارتفع القالب، وسقط غلاف الشرابنيل على الأرض التُّرابيّة. وفي الحال تناول العجوز قطعةً جديدة. وكان عاملٌ آخر شابٌ مديـد القامة أسود الشاربين مُنشغلاً عند فرن الصّهر. قال ستروكوف مُخاطباً العامل العجوز:

– إذن، الأغلفة بالتّلف، يا روبليف؟

ابتسـم العجـوز، وأدار لحيته الهزيلة إلى جانـب، ونظر إلى تليغين نظرةً ماكرةً بطرف عينيه الضّيقتين:

– صحيـح بالتّلـف. انظر كيف يعمل؟ –ووضع يـده على عمودٍ صغـير مُخضرّ من الزيت كان قالب المكبس ينزلق عليه. –إنّه يهتزّ. كانَ يجب أن يلقى في كومة المُهملات منذ زمان.

ضحك العامل الشاب الواقف عنـد فرن الصّهر، وهو فاسيلي بن إيفان روبليف وقال:

– هناك أشياءٌ كثيرة يجب أن نُقذف من هنا. الآلة أدركها الصّدأ.

قال ستروكوف بمرح:

– على مهلك، يا فاسيلي.

– تلك هي المسألة...

وهـزّ فاسيلي رأسه بشعره الأجعـد، وظهرت تكشيرةٌ خبيثة واثقة على وجهه النّحيل العالي الوجنتين قليلاً ذي العينين الثاقبتين الغاضبتين والشاربين الأسودين.

قال ستروكوف لإيفان إيليتشش بصوتس خافض وهو يبتعد:

– إنهمـا أحسن العُمال في الورشة. إلى اللقـاء. سأذهب اليوم إلى "الأجراس الحمراء". ألم تذهب إلى هناك؟ كازينو مُمتاز، ويقدّمون فيها النّبيذ.

بـدأ تليغين يهتمّ بروبليـف الأب والإبن بفضـول. فقد أذهلته في الحديـث الأوّل ذاك لغة الكلام الرّمزيّـة تقريباً، والبسمات والنظرات التي تبادلهـا ستروكوف معهما، وكأنّ الثّلاثـة كانوا يختبرون تليغين ليكتشفـوا أهو مـن أصحابهم أم عـدوٌّ لهم. وقد أدرك مـن البساطة الخاصة التي تحدّث بها روبليف الأبّ والإبن معه في الأيام التالية أنهما يعتبرانه "من أصحابهم".

وهذا الانحياز لم يكن يتعلّق، في أغلب الظّنّ، بآراء تليغين السّياسيّة التـي كانت غـير واضحة وغير مُحـدّدة، بل كان يتعلّـق، على الأكثر، بذلـك الإحساس بالثّقة الذي كان يوحيه وجوده لـكلّ إنسان. كان لا يتحـدّث ولا يقوم بشيء يُلفت النّظرن ولكن كان واضحاً أنّه رجلٌ نزيه، رجلٌ فاضل، صافٍ إلى النهاية، إنّه من أصحابهم.

وفي النّوبـات الليليّـة كان إيفـان إيليتش إذا دنا مـن الأب والإبن يسمعهما يتجادلان في الغالـب.

كان فاسيلـي روبليـف رجلاً مُطّلعـاً لا يفتأ يتحـدّث عن الصّراع الطبقـيّ ودكتاتوريّة البروليتاريا، وهو إلى ذلـك يتحدّث بلغة الكتب وبطلاقـة. وكان روبليـف الأب مـن أتبـاع الكنيسة القديمـة، ماكراً وشيخاً غير مُتديّنٍ البتّة. وكان يقول:

– كلّ شـيءٍ مُدوّنٌ في كتـب الأديرة عندنـا في غابات بيرم: هذه الحـرب نفسها، وكيف ستجلب الخراب، ستُدمّـر أرضنا كلّها، وكم سيبقى من الناس؟ سيبقى منهم القليـل النّزر...وعندئذ سيخرج من الغابـات، من أحد الأديرة رجلٌ سيحكـم الأرض، يحكُم بكلمة الله الرّهيبة.

فكان فاسيلي يقول:

– التّصوف.

– آه، أيها الأرعن، الجلـف، أراك تتبجّح بالألفاظ...تعتبر نفسك اشتراكيـاً!..وأيّ اشتراكيٍّ أنت! مُجرّد قوقازيٍّ ريفيّ! كنت مثلك أيام زمـان. لا يهمّه إلا أن يتهافت على الأمر: فيدع قبّعته إلى أذنه، ويوسّع عينيه، ويصرخ: "انهضوا للنضال..." مع من، ولأيّ شيء؟ أحمق!

فيقول فاسيلي مُشيراً إلى أبيه بإبهامه:

– اسمع إلى العجوز كيف يتحدّث. فوضويٌّ متزمّت. لا يفقه شيئاً من الاشتراكيّة، ولكنّه لا يكفّ عن لومي ليعترض عليّ فقط.

قاطعـه إيفان روبليف، وهـو يخرج من فرن الصّهـر قطعة حديد مُتطايرة الشّرر ورسـم بها نصف دائرةٍ في الهواء ووضعها بخفّةٍ تحتَ ذراع المكبس النازل:

– لا، لا يا سادة. أنتم تقرأون الكتب، ولكنكم لا تُطالعون الكتب التي ينبغـي أن تُطالع. والتواضع ليس بشيمة أحدٍ منهم، ولا يُفكّرون فيـه...ولا يفهمون أنّ كلّ إنسانٍ يجـب أن يكونَ فقيراً في روحه في زماننا هذا.

– رأسـك مُشوّش، يا أبي. مـن الذي صاح قبل حـينٍ وجيز: أنا ثوريّ؟

– نعم، صحت... وإذا حدث شيء فسأكون أوّل من يُمسك بمذراة للقتال. وما الذي يجعلني أتمسّك بالقيصر؟ أنا فلاحٍ. وهل تعرف كم حرثت من الأرض خلال ثلاثين عاماً؟ أنا ثوريٌّ بالطّبع. وهل تحسب أنني لا أهتمّ بخلاص روحي؟

كان تليغين يكتب لداشا كلّ يوم. وكان ردّها عليه أندر. كانت رسائلها غريبة، وكأنّما قد مسّها صقيع، فكان إيفان إيليتش يحسّ وهو يقرأها بقشعريرةٍ خفيفة. وكان في العادة يجلس إلى النافذة مُعيداً عدّة مرات قراءة رسالة داشا المكتوبة بسطورٍ كبيرةٍ مائلةٍ إلى الأسفل. ثمّ كان ينظر إلى الغابة الرّماديّة الليلقيّة على الجزر، وإلى السّماء الغائمة الكدرة كماء القناة، كان ينظر ويُفكّر بأنّ هذا ما يجب أن تكون عليه رسائل داشا لا بالرّقة التي يودّها لقصر رويته.

كتبت له:

"صديقي العزيز. تقول أنّك استأجرت شقّةً مؤلّفةً من خمس غُرف. ففكّر في النّفقات التي ستُثقل كاهلك بها. وحتى إن لم تعش فيها وحدك فإنّ خمس غرف كثيرة. ثمّ إنّك ستحتاج إلى خادمتين، وهذا في أيامنا هذه غالٍ للغاية. حلّ الخريف عندنا في موسكو، والجوّ بارد. ومُمطر، وما من بصيص..وعلينا أن ننتظر الرّبيع..."

ومثلما ردّت بنظرةٍ على سؤاله يوم سفره: هل تقبلين أنْ تكوني زوجتي؟ لم تشر مُباشرةً في رسائلها قط إلى القِران، ولا إلا حياتهما المُقبلة معاً. كان يجب انتظار الرّبيع.

وصار انتظار الرّبيع هذا، والأمل المُبهم اليائس في حُدوث مُعجزةٍ يُراود الجميع الآن. توقّفت الحياة، ودخل كلّ الأحياء في سُبات الشّتاء

مثــل سُبات دبٍّ يمصّ قائمتــه. وكان يبدو وكأنّ المــرء لم تعد له القوّة ليتحمّل انتظار ربيعٍ دمويٍّ آخر إلا في الحُلم.

ذات مرّة كتبت داشا:

"... لم أرد أن أخــبرك ولا أن أكتــب لــك عن وفــاة بيسونوف. ولكننــي يوم أمسٍ حكوا لي تفاصيل عن مقتله المُريع. قبل خروجه إلى الجبهة بوقتٍ قصيرٍ التقيت به في بولفار تفيرسكوي. كان بائساً جداً، يبــدو لي أنني لو لم أصدّه آنذاك لما لاقى حتفــه. ولكنني صددته. وما كان لي ألا أفعل ذلك، وسأفعل الشيء نفسه لو أعيد الماضي".

قضــى تليغين نصف يوم في الرّدّ على هــذا الرّسالة... "كيف يُمكن أن تُفكّــري بأننــي لا أتقبّلُ كلّ مــا يخصّك" كتب ذلــك ببطء شديد حريصــاً على أنْ تكــون كلّ كلمة صادقة كلّ الصّــدق. "أحياناً أختبر نفسي فأتصوّر أنّك أحببت رجلاً آخر، وهذا أفظع ما يُمكن أن يحدث لي، وحتى في هذا الحــال سأقبل بذلك... ولا يعني هذا أنني سأخضع لهذا. لا، فــإنّ شمسي ستُظلم... ولكن هل حبي لك في الفرح فقط؟ أنا أعرف ذلــك الإحساس الذي يُراود المُحبّ حــين يُريد أن يُضحي بحياته بسبب حبّه القويّ... والظاهر أنّ بيسونوف أحسّ أن تشعري بــأنّ لك مُطلــق الحريّة... وأنــا لا أسألــك شيئاً، حتــى الحُب... وقد أدركت ذلك في المُدّة الأخيرة...".

بعد يومين غادر إيفــان إيليتش المصنع عند الفجر عائداً إلى البيت، ولــدى وصولــه أخذ حمامــاً، واستلقى في السّرير، ولكنّــه أوقظ بعد قليل، وسلّم برقيّة:

"**كلّ شيءٍ بخير. أحبّك بشدّة. داشاك**".

وفي يوم من أيام الآحاد جاء المُهندس ستروكوف إلى إيفان إيليتش، وأخذه إلى كازينو "الأجراس الحمراء".

كان الكازينو يحتلّ قبواً رُسمت على سقفه المُقوّس وعلى جُدرنه طيورٌ مُبرقشة، وأطفالٌ ذوي وجوه صغيرة مُنحلّة وجعدات كثيرة الدّلالة. كان الكازينو صاخباً وكثير الدّخان. وعلى المسرحً جلس رجلٌ ضئيل الجسم أصلع مُحمرّ الخدّين يضرب على البيانو. وكان بعض الضّباط يشربون "كروشون"[١٢] قوياً، ويُطلقون المُلاحظات بصوتٍ عالٍ على النساء الداخلات. وبعض المُحامين المولعين بالفنّ يصرخون ويتجادلون. وكانت ملكة القبو، الحسناء السّوداء الشّعر المُنتفخة العينين تُقهقه بصوت عالٍ. بينما كان أنتوشكا أرنولدوف يكتب رسالةً من الجبهة، وهو يلوي خصلة شعره. وكان مؤسّس المُستقبليّة–وهو طبيبٌ بيطريّ مشوّه الوجه مسلول المظهر–يهوم متدلّي الرأس من السّكر على منصّة قرب الحائط. وكان صاحب القبو–وهو مُمثّل سابق طويل الشّعر وديع عليه خُمول الإدمان على الخمرة–يظهر بين الحين والآخر عند بابٍ جانبيّ ناظراً إلى الزبائن بعينين مخبولتين ويختفي.

انتشى ستروكوف من "الكروشون" فقال يُحدّث إيفان إيليتش:

– أتدري لماذا أحبّ هذا الكازينو؟ لأنّك لن تستطيع أن تجد مثل هذا التّعفّن في مكان آخر. مُتعة!.. انظر، إلى تلك الزاوية، هناك تجلس امرأةٌ نحيفة مُخيفة لا تستطيع حتى أن تُحرّك جسمها. هستريا في آخر مراحلها، ولكنها تحظى بنجاحٍ خارق.

وضحك ستروكوف، وعبّ من "الكروشون" وأخذ، دون أن يمسح شفتيه الناعمتين المُظللتين بشارب تتري، يسمي لإيفان إليتش

١٢– مزيجٌ لعدّة أنواع من النبيذ الأبيض والكونياك والروم. (المُترجم).

أسماء الجُلاس مُشيراً بإصبعه إلى وجوههم المؤرقة السقيمة الشبيهة بوجوه المجانين.

– هؤلاء آخر الموهيقان[١٣]... بقايا الصالونات الجماليّة. باه! عفن. باه! وقد تقوقعوا هنا، يتظاهرون بأنّه لا توجد حرب، وإنّ كلّ شيءٍ كما هو في الماضي.

أخذ تليغين يتسمّع وينظر... وكان كلّ شيءٍ يبدو لعينيه كالحلم بسبب الحرّ والدّخان والنّبيذ، وكان رأسه يدور... رأى بعض الأشخاص يلتفون إلى باب المدخل، والطّبيب البيطري يفتح عينيه المُصفرّتين، ووجه صاحب الكازينو المخبول يبرز من وراء الحائط، والمرأة شبه الميّتة الجالسة إلى ناحيةٍ من إيفان إيليتش ترفع جفنيه الناعسين، وترتدّ الحياة إلى عينيها فجأةً، وتستقيم قامتها بحيويّة غريبة وهي تنظر إلى حيث كان الجميع ينظرون... وران سكونٌ مباغتٌ في القبو، ورنّ قدحٌ عند سقوطه...

كان رجلٌ كهل مُتوسّط الطول يقف في باب المدخل وقد دفع كتفيه إلى الأمام، وحشر يديه في جيبي ردائه الجوخي. كان وجهه الضيّق بلحيته السوداء المُتدلّية يبتسم مرحاً بغضنيه العميقين المألوفين، وشعّت في وجهه عينان ذكيتان نفاذاتان مُتفحصتان مُلتهبتان بلون رماديّ. وقد استمرّ ذلك دقيقة. ومن ظلام الباب اقترب منه وجهٌ آخر–وجه موظّف–ارتسمت عليه بسمةٌ مُقلقة، وهمس له شيئاً في أذنه. غضّ الرّجل أنفه الكبير كارهاً:

– مرّةً أخرى أنت وسخافتك... آه، كم سئمت.

١٣– قبيلةٌ منقرضة من الزّنوج الحمر في أميركا الشماليّة. (المُترجم).

وألقى نظـرةً أخـرى إلى رواد القبو بمرحٍ أشدّ، وهـزّ لحيته، وقال بصوتٍ عالٍ ممدود:

– وداعاً، يا أصدقائي المرحين.

واختفى في الحال، وصفق الباب. وسرى طنينٌ في أنحاء القبو كلّه. غرز ستروكوف أظافره في يد إيفان إيليتش، وقال لاهث الأنفاس:

– هل رأيت؟ رأيت... هذا راسبوتين.

٣٣

خرج إيفان إيليتش من المصنع ماشياً في الساعة الثالثة بعد مُنتصف الليل. كانـت ليلةٌ قارسة من ليـالي كانـون الأوّل، ولم يُصادف عربةً ليستأجرهـا، فقد أصبح الآن من الصعـب الحصول على واحدةٍ منها في مثل هذه الساعة حتى في مركز المدينة. سار تليغين بسرعة في وسط الشارع المُقفر، مُتنفّساً البخار في ياقته المرفوعة.

كان الهـواء كلّـه يبدو في ضوء المصابيح النـادرة مثقباً بإبر الجمد، وكان الثلـج يُخشخشـ تحت قدميه بصوت عـالٍ. وإلى الأمام لمحت عينـاه ومضـاتٌ ضاربـة إلى الحمـرة تتراقص في الواجهـة الصفراء المُسطّحـة لأحد البيـوت. استـدار تليغين في مُنعطـف، ورأى لهب نار في مجمـرةٍ مشبكة، وشخوصـاً مُتثلجة متدثّـرة وسط سحبٍ من البخـار. وإلى مسافة أبعد على الرصيف وقف زهـاء مائة شخصٍ بلا حـراك في صفٍّ واحدٍ من النساء والشيوخ والغلمان. إنّه طابورٌ يقف قرب حانـوتٍ لبيع الأغذية. وعلى مقربة كان الحارس الليلي يُطبطب بحذائه اللباديّ، ويضرب قفازيه أحدهما بالآخر.

سار إيفان إيليتش بمحاذاة الطابـور ناظراً إلى الشخوص المُنكمشة

المُلتصقة على الحائط، الملتفّة بالمناديل، والبطانيات. وسمع صوتاً يقول:

– يوم أمس حطّموا ثلاثة حوانيت في منطقة فيبورغسكايا.

– هذا ما يبقى.

– يوم أمسٍ حطّموا ثلاثة حوانيت في منطقة فيبورغسكايا.

يكون هناك كيروسين بعد الآن. وبينما أنا هناك جائت طباخة آل ديمينتيف، وأخذت خمس زجاجات بسعرٍ فاحش.

– بكم؟

– الزجاجة بروبلين ونصف، يا فتاتي.

– الكيروسين؟

– لن يفلت صاحب الحانوت من العقاب. سنتذكّره إذا دقّت الساعة.

– قالت أختي في أوختا أنّ الناس أمسكوا صاحب حانوت من هذا الصّنف، وحشروا رأسه في برميلٍ مملوء بالماء المُخلّل وغرقَ فيه وهو يتوسّل إليهم أن يُنقذوه.

– لم يُعاقبوه بما فيه الكفاية، يجب أن يُعذَّب أكثر.

– ونحن نتجمّد في الطابور.

– وهو ينتفخ بالشاي.

سأل صوتٌ مبحوح:

– من الذي ينتفخ بالشاي؟

– كلّهم ينتفخون بالشاي. زوجة الجنرال التي أخدم عندها تنهض في الساعة الثانية عشرة، وتظلّ تشرب الشاي حتى الليل، ولا أعرف كيف لا تنفجر هذه البلهاء.

– وتجمد أنت، وأمرض بالسّل.

– قولك صحيحٌ تماماً عندي سعالٌ بالفعل.

– أما الفتاة التي أخدم عندها، يا أعزائي، فهي محظيّة.

أعود من السوق فأجد الضيوف يملؤون غرفة الطعام في بيتها، وجيعهم سكارى. وفي الحال يُطالبون بالبيض المقلي، والخبز والفودكا، وباختصار بطعامٍ بسيط ومشروبٍ قويّ.

وارتفع صوتٌ واثق:

– ينفقون النّقود الانجليزيّة في شرب الخمرة.

– ما هذا الذي تقوله؟

– باعوا كلّ شيء. صدّقوني، فأنا أعرف ما أقول. أنتم تقفون هنا، ولا تعرفون شيئاً، بينما هم باعوكم جميعاً ولمدّة خمسين عاماً مُقدّماً. كما باعوا الجيش كلّه.

– يا إلهي!

ومرّةً أخرى ارتفع صوتٌ مبحوح يُنادي:

– يا حضرة الحارس، يا حضرة الحارس!

– ماذا حصل؟

– هل سيباع الملح اليوم؟

– على أكثر الاحتمالات لا يُباع الملح اليوم.

– آه، الملاعين.

– منذ خمسة أيام والملح غير موجود.

– الأوغاد يمتصون دم الشّعب.

قال الحارس بصوتٍ عالي النبرة كثيف:

– كفى كلاماً، يا نساء، وإلا فإنّ الحُنجرة ستُصاب بالبرد. وخلف تليغين الطابور وراءه. وهدأ لغط الأصوات الغاضب، ومن جديد خيّم القفر والظلام الزمهريريّ.

وصل إيفان إيليتش إلى الكورنيش، واستدار إلى الجسر، وحين عبثت الريح بأطراف معطفه تذكّر أنّ يبحث عن عربة، على أيّة حال، إلا أنه سرعان ما نسي ذلك. كان عيون المصابيح تتوامض على الشاطئ الآخر باهتةً لا يكاد البصر يلمحها. وكانت الالتماعات الخافتة من ممرّ المُشاة عبر النهر تنعكس خطاً مائلاً على الجليد. وكان المُتّسع العريض المُقفر المُظلم لنهر النيفا نهبةً لريح قارسة تُحدث عويلاً بالثّلج، وصفيراً شاكياً في أسلاك خطوط الترام، وفي فتحات درابزين الجسر الحديديّ.

كان إيفان إيليتش يتوقّف من حينٍ لآخر، ويحدّق في تلك القمّة الموحشة، ثـمّ يواصل سيره، ويُفكّر، كدأبه الآن في التفكير في اتّجاه واحد: في داشا، وفي نفسه، وفي تلك اللحظة التي راودته السعادةً كالنار، وهو في عربة القطار.

كان كلّ شيءٍ يكتنفه الآن مُبهماً مُضطرباً مُتناقضاً مُعادياً لتلك السّعادة. وكان يضطرّ في كلّ مرّة أن يبذل جهداً ليقول لنفسه: إنني حيّ، سعيد، وستكون حياتي مُنيرةً رائعة. لقد كان من السّهل أن يقول هذا الكلام حين كان عند النافذة وسط شرارات القطار المُنطلق، بينما

صار الآن يحتاج إلى جهد هائل ليفصل نفسه عن تلك الشّخوص المُتجمّدة تقريباً في طوابير الانتظار، عن الوحشة المُميتة للريح المعولة في كانون الأوّل، عن الشعور بالخسارة العامّة، والهلاك المُعلّق فوق الرؤوس.

كان إيفان إيليتش واثقاً من شيء واحد: كان يجد خيراً في أشياء جمّة: في حبّه لداشا وفي فتنة داشا، وفي ذلك الإحساس السار الذي راوده وهو واقفٌ آنذاك عند نافذة العربة وفي حبّ داشا له. إنّ معبد الحياة المُريح العريق، المكتظّ ربّما، والرائع رغم ذلك، قد اهتزّ، وتصدّع بضربات الحرب، وتمايلت أعمدته، وظهر صدعٌ على عرض قبّته، وتساقطت الحجارة القديمة، وهناك وسط الغبار المُتطاير، وهدير المعبد المُحطّم شخصان: إيفان إيليتش وداشا، كانا وهما في حميا الحبّ البهيجة، ورغم كلّ شيء، يطمحان في أن يكونا سعيدين. فهل ذلك صحيح؟

فكّر إيفان إيليتش، وهو يمدّ بصره في الظّلمة الليليّة الموحشة، ونقاط الأضواء المُتوامضة، ويسمع الريح تصفر كنواح يُمزّق القلب: "لماذا أغالط نفسي؟ إنّ الرغبة في السعادة أسمي الأشيّاء. وأنا راغبٌ فيها، وليكن ذلك بالرغم من كلّ شيء.

فهل أستطيع أنا القضاء على الطوابير أمام الحوانيت، وإطعام الجياع، وإيقاف الحرب؟ لا. ولكن إذا كنت لا أستطيع فهل يتحتّم عليّ أيضاً أن أتلاشى في هذا الدّيجور، وأرفض السعادة؟ لا، ليس حتماً. ولكن هل أستطيع أن أكون سعيداً؟ هل سأكون سعيداً؟.."

قطع إيفان إيليتش الجسر. وسار على شارع الكورنيش دون أن يُلاحظ الطريق الذي يسلكه. كانت المصابيح الكهربائيّة العالية المُهتزّة بفعل الريح تُرسل ضوءاً ساطعاً. وكان رذاذ الثّلج يتناثر على الرصيف

العالي بهسهسة جافّة. كانت نوافذ قصر الشتاء مُظلمةً خاوية. عند كشك الحراسةً المُخطّط في الثلج المُكوّم وقف حارسٌ عملاق مُرتدياً فروة خروف، ضاغطاً البُندقيّة على صدره.

كفّ إيفان إيليتش عن السير فجأة، وتطلّع إلى النوافذ، ثمّ حثّ خطاه مُصارعاً الريح في بادئ الأمر، ثمّ مدفوعاً بها من ظهره. وبدا له أنّه يستطيع الآن أن يقول للجميع، لكلّ الناس قاطبة، حقيقةٌ بسيطةٌ واضحة، فيصدقون بها جميعاً. يستطيع أن يقول لهم: "أنتم ترون أنّ المُضيّ في العيش على هذه الطريقة مُستحيل. الدّول قائمةٌ على البغضاء، والحدود مُخطّطةٌ بالبغضاء. وكلّ واحد منكم كتلةٌ من البغضاء، قلعةٌ مصوّبةٌ مدافعها إلى كلّ الجهات والدّنيا مُكتظّةٌ ورهيبة، والعالم كلّه مُختنق بالكراهية والناس يفتك بعضهم ببعض، وتسيل أنهار الدّم. ألم يكفكم هذا؟ ألم تُدركوا بعد؟ أتريدون أن يقضي الإنسان على الإنسان، هنا أيضاً، في كلّ بيت؟ ثوبوا إلى رشدكم، وألقوا السلاح، وحطّموا الحدود، وافتحوا أبواب الحياة ونوافذها...هناك الكثير من الأرض للحبوب، والكثير من المروج للماشية، والكثير من المُنحدرات للكروم...وبطون الأرض لا تنضب، ولكلّ إنسانٍ مُتّسعٌ من الأرض...أمن المعقول أنكم لا ترون أنكم ما تزالون في ظلام القرون الغابرة..."

لم تظهر عربةٌ في هذه الناحية من المدينة. عبر إيفان إيليتش النيفا ثانية، وتوغّل في الشوارع الصغيرة المُلتوية في منطقة بطرسبورغسكايا. واصل طريقه وهو غارقٌ تفكيره ومناجاة نفسه بصوتٍ مسموع، فطاف على غير هدىً في شوارع مُقفرةٍ مهلهلة الظّلمةً حتى خرج إلى كورنيشٍ لقناة.

"يا لها من نزهة!" وتوقّف إيفان إيليتش مُلتقطاً أنفاسه، وضحك،

ونظر في ساعته. وكانت في تمام الخامسة. خرجت من مُنعطفٍ قريب سيــارةٌ كبيرة مكشوفــة منطقة المصابيــح يهسّ الثلج تحــت عَجلاتها يسوقهــا ضابــطٌ في معطــفٍ عسكــريّ مفتــوح الأزرار. كان وجه الضابــطِ الضيق الحليق شاحباً، وعينــاه جامدتين، مثل عيون المفرطين في السّكر، وإلى الخلف منه جلس ضابطٌ آخر سرّح قبّعته على علبائه، و لم يكــن وجهه مرئياً لتليغين، فقد كان يُمســك بكلتا يديه لفّةً ملفوفة بحصــيرة. وكان ثالــث ركاب السيــارة في ملابســ مدنيّــة يرفع ياقة معطفه ويضع على رأسه قبّعةً عالية من فرو عُجول البحر. رفع جسمه قليلاً، وأمسك بكتف السائق، توقّفت السيارة غير بعيد عن القنطرة. ورأى إيفــان إيليتش الثلاثة يقفزون منهــا إلى الثلج، ويخرجون اللفة، ويسحبونها لعدّة خطواتٍ على الثلج ثمّ يدفعونها بجهد، ويوصلونها إلى مُنتصف القنطرة ويحملونها فــوق درابزين القنطرة، ويسقطونها في الماء. عاد الضابطان إلى السيارة في الحال، بينما انحنى المدني لبعض الوقت ماداً بصره إلى الأسفــل، ثمّ أنزل ياقته، وركض لاحقاً برفيقيه. وانطلقت السيارة بأقصى سرعتها، واختفت.

تمتــم إيفــان إيليتش في ســرّه: "أوه، يا للقذارة". فــكان طوال هذا الوقت واقفاً حابساً أنفاسه. سار إلى القنطرة، ولكنّه مهما أمعن النظر لم يلتقط بصره شيئاً في الثّغرة السوداء الكبيرة في الجليد تحت الجسر. لا شيء غير بقبقة الماء الدافئ المُنتن من أنبوب تصريف المياه.

"أوه يــا للقــذارة" -تمتم إيفــان إيليتش ثانية وتعبّســ، وسار على الرصيف المُحاذي للقنــاة. حصل أخيراً في زاوية الشارع على زلاجة يجرّها حصــانٌ غليظ الشفتين، كان سائق الزلاجــة العجوز مُنكمشاً مُتخشّبــاً من البرد. وحين صعد إيفــان إيليتش إلى الزلاجة وشدّ الدّثار المُتجمّــد وأغمض عينيــه، كان كلّ جسمه يئنّ مــن التّعب. وفكّر مع

نفســه: "أنا مُحبّ، وتلك هي الحقيقة. ومهما فعلت، وإذا بدافع الحبّ هذا، فهو جيّد".

٣٤

كانــت اللفّة الملفوفة بحصيرة، والتــي ألقاها الثلاثة من القنطرة في ثغــرة الجليد تحتوي علــى جثّة راسبوتين القتيل. وقــد اقتضى قُتل هذا الرجل القويّ الذي كان يملك حيويّةً لا إنسانيّة أن يسقى نبيذاً مخلوطاً بسيانيد البوتاسيوم ثــمّ يُطلق عليه الرصاص في صدره وظهره وقفاه، ثــمّ يهشّــم رأسه بوصلــةً مفصليّة. ومــع ذلك فحين عــثر على جثّته، وأخرجــت من ثغرة الجليد قــرّر الطبيب أنّ راسبوتــين لم يلفظ نفسه الأخيرة إلا تحت الجليد.

كان هذا القتل بمثابة إباحة لكلّ ما كان قد بدأ بعد شهرين. وقد قال راسبوتــين غير مرّة أنّ العرش سينهار بموته، وتسقط سلاسة رومانوف الحاكمــة. والظاهر أنّ هذا الرّجل الوحشيّ الضاري كان يملك حاسيةً غامضــة لتشوف المحنة، على غــرار الحاسية التي تملكها الكلاب قبيل حلول وفاة في البيت، وقد مات، بصعوبة شديدة، آخر حماة العرش، الفلاح وسارق الخيول، والغول المُتعصّبً.

وبموته خيّم جزعٌ مشؤوم علــى القصر، بينما عمّت البهجة أرجاء البــلاد، وراح الناس يُهنئ بعضهم بعضاً. وكتب نيقولاي إيفانوفيتش إلى كاتيا من مينسك: "في ليلة وصول النبأ أوصى ضباط هيئة الأركان للقائد الأعلى على ثماني دوزينة من الشمبانيا للمائدة المُشتركة. وردّد الجنود في الجبهة كلّها هاتفاً بالتّهليل..."

وبعــد عدّة أيام نسي النــاس في روسيا مقتل راسبوتين إلا أنّ القصر

لم ينس. فقد كان أهله يؤمنون بنبوءته، واستعدّوا لمواجهة الثورة بيأسٍ منحوس. فقسمت بتروغراد سرياً إلى أقسام، وطلبت الرشاشات من كبير الأمراء سيرغي ميخائيلوفيتش، ولما رفض تسليمها طلبوها من أرخانقلسك، وخزّنت أربعمائة وعشرون رشاشة في عليات البيوت ومفارق الشوارع. وزيد الضّغط على الصحافة، وكانت الصّحف تصدر وفيها أعمدةٌ غير مكتوبة. وكتبت الامبراطورة إلى زوجها رسائل مُفعمة باليأس ساعةً إلى أن تثير فيه العزيمة وصلابة النّفس. إلا أنّ القيصر ظلّ قابعاً كالمسحور في موغيليف وسط العشرة ملايين من المُقاتلين الموالين له–وكان لا يشكّ في ولائهم. و لم تكن النساء المُتمردات، واللغط في الطوابير على الطّعام في بتروغراد يهمّه أكثر مما كان تهمّه جيوش الامبراطوريات الثلاث الضاغطة على الجبهة الروسيّة. وفي ذلك الوقت وخفيةً عن القيصر كان الجنرال ألكسييف رئيس هيئة الأركان للقائد الأعلى يعدّ الخطط في موغليف لاعتقال القيصرة، والقضاء على الكتلة الألمانيّة في البلاط.

في كانون الثاني وقّع على قرار الهجوم في الجبهة الشماليّة توقعاً للحملة الرّبيعيّة. وبدأت المعركة قرب ريغا في ليلةٍ زمهريريّة. وارتفعت عاصفةٌ ثلجيّة مع إطلاق نيران المدفعيّة. وزحف الجُنود في الثلج العميق وسط عويل العاصفة الثلجيّة، ولهب القذائف المُنفجرة بغزارة. واشتركت عشرات الطائرات في المعركة لمساندة الوحدات المُهاجمة فجرفتها الريح نحو الأرض، وفي ظلام العاصفة الثلجيّة راحت تصبّ نيران رشاشاتها على القوات المُعادية والقوات الروسيّة دون تمييز. لقد كانت روسيا تُحاول للمرّة الأخيرة تحطيم الطّوق الحديديّ المُطبق عليها، وللمرّة الأخيرة كان الفلاحون الروس المرتدون البدلات المُموّهة البيضاء والريح تدفعهم من ظهورهم يقاتلون في سبيل الامبراطوريّة التي كانت تحتلّ سدس العالم، وفي

سبيل الحكم المُطلق الذي استطاع ذات مرّة أن يبني دولةً كبرى ويهدّد العالم، والذي لم يعد الآن غير أثر من آثار الماضي كان يجب أن يقبر من زمان، وسخافةٌ تاريخيّة، ومرضاً مُميتاً للبلاد كلّها.

واستمرّت المعركة الضّروس عشرة أيام. وتناثرت آلاف الجثث تحت أكوام الثّلج. وأوقف الهجوم وجمد. وخمدت الجبهة في الثلوج.

٣٥

كان إيفان إيليتش قد نوى السفر إلى موسكو في عيد الميلاد، إلا أنه بدلاً من ذلك أوفد من قبل المصنع إلى السويد، ولم يعد منها إلا في شباط؛ ولدى وصوله استطاع أن يحصل على إجازةٍ لمدّة ثلاثة أسابيع، وأبرق لداشا بأنّه سيغادر في السادس والعشرين من الشّهر.

وكان عليه قبل السّفر أن يعمل أسبوعاً كاملاً في الورش. وقد أدهشته التّغيرات التي حدثت خلال غيابه: أضحت إدارة المصنع ليّنة الجانب بادية الاهتمام على غير عادتها، بينما بلغ الحنق عند العُمال حداً كان يُخيّل إليك معه أنّ أحدهم سيقذف مفتاح الرّبط على الأرض في اللحظة التالية، ويصرخ: "اتركوا العمل، واخرجوا إلى الشارع..."

وقد أثارتهم في هذه الأيام بشكل خاصّ مُحاضر مجلس دوما الدّولة حيث كانت تجري المُناقشات حول قضيّة الطّعام. وكان واضحاً جداً من تلك المحاضر أنّ الحكومة التي كانت تُحافظ بالكاد على رباطة جأشها وكرامتها تبذل آخر قواها لتقف أمام الهجوم، وأنّ الوزراء القيصريين لم يعودوا يتحدّثون كالعمالقة الأسطوريين، بل بلُغة البشر، وأنّ أقوال الوزراء وما يُقال في الدوما مُنافٍ للحقيقة، بينما الحقيقة

هــي على ألسِنة الجميــع: شائعاتٌ مشؤومةٌ غامضة عــن هلاكٍ شاملٍ موشك الوقوع في الجبهة والمؤخّرة بسبب المجاعة والخراب.

أثنــاء العمــل الأخير لاحــظ إيفان إيليتش قلقاً غير اعتيــاديٍّ عند العُمال. فقد كانوا يتركون المخــارط باستمرار ويتشاورون. والظاهر أنّهم ينتظرون أخباراً مُعيّنة. وعندما سأل فاسيلي روبليف فيم يتشاور العُمــال، ألقــى فاسيلــي سترته المُبطّنــة على كتفه بحنــق، وخرج من الورشة، وصفق الباب. وقال إيفان روبليف:

صار فاسيلي سيّء الطّبع بشكلٍ فظيع. وقد حصل على مُسدّسٍ من مكانٍ ما، وهو يحمله معه.

إلا أنّ فاسيلــي عــاد بعد وقت قصير، وأحاط بــه العُمال في أقصى الورشــة وتقاطــروا مــن جميع المخــارط. وأخــذ فاسيلي يقــرأ ورقةً بيضــاء بصوت عــالٍ وبتشديد على المقاطع: "بيــان قائد قوات منطقة بطرسبــورغ الفريق خابالوف. في الأيام الأخيرة ا توزيع الطّحين على المخابز، وخبز الخبز يجريان بنفس الكميّة المُعتادة من قبل..."

وإذا بالأصوات تتعالى:

– كذب، كذب. إنّهم لا يبيعون الخبز منذ ثلاثة أيام...

– "ولا يُمكن أن يوجد نقصٌ في بيع الخبز..."

– أمر وتصرّف؟

– "وإذا كان هنــاك نقصٌ في الخبز لدى بعض الحوانيت فإنّ ذلك راجــعٌ إلى أنّ الكثيرين راحــوا، تخوّفاً من نقصٍ فيــه، يشترونه لصُنع البقسماط..."

وزعق صوت:

– ومن يصنع البقسماط؟ عسى أن يختنق به.

وصاح فاسيلي بصوتٍ أعلى:

– اسكتـوا، يـا رفاق. يجـب أن نخرج إلى الشـارع، يا رفاق... هناك أربعة آلاف عامل من مصنع أوبوخوفسكي يزحفون على جادّة نيفسكي... وهناك عُمّالٌ آخرون قادمون من منطقة فيبورغسكايا...

– صحيح! ليرونا الخبز!

– لـن يروكم الخبز، يا رفاق. لا يوجد في المدينة من الطحين إلا ما يكفي لثلاثة أيام، وبعدها لن يكون هناك لا خبزٌ ولا طحين. القطارات كلّها مُتوقّفة وراء الأورال... وهناك السايلوات مملوءةٌ بالقمح... وفي تشيليابينسـك كمياتٌ هائلة من اللحـوم تتعفّن في محطّة القطار. وفي سيبيريا يشحمون العجلات بالزّبدة...

وهدرت الورشة كلّها، ورفع فاسيلي ذراعه قائلاً:

– أيهـا الرفـاق، لا أحد يعطينا الخبز إذا لم نأخـذه نحن بأيدينا... لنخـرج مـع عُمال المصانـع الأخـرى إلى الشارع تحت شعـار: "كلّ السّلطة لسوفييتات"...

فهتف العُمال مُتراكضين في الورشة:

– أوقفوا المخارط!.. اتركوا العمل!.. أطفئوا أفران الصّهر!..

تقـدّم فاسيلي روبليـف من إيفان إيليتشـ، وكان شارباه يرتجفان. وقال بلهجةٍ واضحة:

– انصرف، انصرف قبل أن تتأذى!

نـام إيفان إيليتش بقيّة تلـك الليلة نوماً سيئـاً، واستيقظ قلقاً. كان الصباح غائماً وكانت قطـرات الماء تتساقط على الإفريز الحديديّ في الخارج... بقي إيفـان إيليتش مُستلقياً يستجمع أفـكاره. لا، لم يُزايله القلـق، والقطرات تُثير أعصابه، وكأنّها تسقـط في داخل دماغه. "لا

حاجة إلى الانتظار حتى السادس والعشرين، بل يجب أن أسافر غداً". فكّر على هذا النّحو وخلع قميصه. ومشى إلى الحمام عارياً، وفتح الدّشَ، ووقف تحت الرشاش اللاذع البرودة.

كان لديه الكثير من المشاغل قبل السّفر. فشرب قهوته على عجل، وخرج إلى الشارع، وقفز إلى ترام غاصٍّ بالناس. وهنا أيضاً أحسّ باضطراب. كان الركاب يجلسونَ صامتين مُتجهّمين على عادتهم طاوين أرجلهم، مُنتزعين أطراف ثيابهم من تحت من يُشاركونهم المقاعد، كانت أرضيّة الترام لزجة، وقطرات الماء تتساقط على نوافذه، والجرس بالقرب من سائق الترام يدقّ مثيراً للأعصاب. وكان يجلس قبالته موظّفٌ عسكريّ له وجهٌ أصفر مُنتفخٌ قليلاً وقد جمدت ابتسامةٌ معوجّة على فمه الحليق. وكانت عيناه تنظران بتساؤلٍ وحيويّة لا تتميزان بهما على ما يبدو. وحين أمعن إيفان إيليتش النّظر لاحظ أنّ جميع الرّكاب ينظر بعضهم إلى بعضٍ بنفس النّظرة المُتسائلة الحيرى.

توقّف الترام عند زاوية جادّة بولشوي. وتململ الركاب، وأخذوا يجيلون أبصارهم، وقفز بعضهم من الترام. نزع سائق الترام مفتاح التدوير، ووضعه في صدر معطفه الفرائيّ الأزرق، وفتح الباب الأماميّ قليلاً، وقال بانفعالٍ غاضب:

– الترام سيتوقّف عند هذا الحدّ.

كانت عربات الترام تقف في جادّة كامينواستروفسكوي، وجادّة بولشوي كلّها على امتداد البصر. وكان جمهورٌ من الناس يتحرّك على الأرصفة كبقع سوداء. وبين الحين والآخر كانت تهبط الصفاقة الحديديّة على نافذةٍ أحد الحوانيت محدثةً دوياً. وتساقط ثلجٌ رطب.

صعد على سطح إحدى عربات الترام رجلٌ ذو معطفٍ طويلٍ مفتوح، وانتزع طاقيّته، وراح يصرخ بشيءٍ على ما يبدو. وتعالى بين

الجمهور و–و–و–...أخذ الرّجل يربط حبلاً بسطح الترام، وانتصب ثانية، وانتزع طاقيّته مرّةً أخرى. وتعالى مرّةً أخرى في الحشد و–و–و! قفـز الرّجل إلى الرصيف. وماج الحشد مُتراجعاً. وعندئذ تجلّت للعين جمهـرةٌ كثيفة مـن الناس تجـرّ الحبل الذي رُبـط بعربة الـترام مُنزلقةً علـى الثلج الأصفر القـذر. وبدأت العربة تجنـح إلى جانب. وتراجع النـاس، وصفر الصّبيان. إلا أنّ العربة ترنّحـت ثمّ عادت إلى وضعها السابق، وارتفع صوت انطباق عجلاتها على السكة. عندئذ انضمّ إلى الساحبين أناسٌ تقاطروا من مختلف الجهات، وأمسكوا بالحبل باهتمام وصمـت، وجنحت العربة مرّةً أخرى، وانقلبت فجأةً وتهشّم زجاجُ نوافذها. تقدّم الناس نحو العربة المقلوبة، وهم ما زالوا على صمتهم.

– واختلط الحابل بالنّابل!

سمـع إيفـان إيليتش ذلك الموظّـف العسكريّ ذا الوجـه الأصفر المُنتفـخ يقول هذه الجملة من ورائه. وارتفعت في الحال عدّة أصواتٍ مُتنافرةٍ ممطوطة:

سقطتم صرعى في النضال الحاسم...

ورأى إيفـان إيليتش في طريقه إلى جـادّة نيفسكي نفس النظرات الحائرة والوجـوه المُضطربة. كان المُستمعون المُتعطّشون يلتفّون حول رواة الأخبار مثل دوامات صغيرة. وعند مداخل البيوت وقف بوابون ممتلئو الأجسام. وأطلّت خادمـةٌ بوجهها تنظر في الشارع. كان سيّدٌ ذو لحيةٍ مُعتنى بها يرتدي معطفاً مُبطّناً بالفراء مفتوح الأزرار، ويحمل محفظةً يسأل الكنائس:

– قل لي، يا صاحبي، ما هذا الحشد هناك؟ ماذا يحدث هناك؟

– يُطالبون بالخبز، أيها السيد، ويتمرّدون.

– واضح!

وعند مُفترق الطّريـق وقفت سيّدةٌ شاحبة تحمل كلباً نحيلاً راعشاً رجلاه الخلفيتــان مُتدليتان مرتعشتان وكانت هــذه السيّدة تسأل كلّ من مرّ بها:

– ما هذا الحشد؟.. ماذا يريدون؟

هتف السيّد ذو المعطف المُبطّن بالفراء مرحاً، وهو يمرّ بها:

في الجوّ رائحة ثورة، أيتها السيّدة.

سار عامــلٌ على الرصيــف وطرفا سُترته من فــراء الخروف يفقان بشدّة، واختلــج وجهه السقيم. التفت فجأةً وصــرخ بصوتٍ مُتقطّعٍ باك:

– يا رفاق، هل سيظلون يشربون دمنا زمناً طويلاً؟..

أوقــف ضابــطٌ ممتلئ الخدّيــن صبــويّ الأسارير العربــة التي كان يستقلّهــا، وأمسك بحزام السائق. وحدّق في الناس المُضطربين وكأنّه يُحدّق في كُسوف الشّمس.

وصاح العامل عليه وهو يمرّ به بصوتٍ ناشج:

– تفرّج، تفرّج!

وتعاظــم حشــد الناس، وصار يشمل الشارع كلّــه وهَدَرَ هديراً مُنفعــلاً، وتحرّك باتّجاه الجسر. وارتفعت أعــلامٌ بيض في ثلاثة أماكن. وجــرف هذا السّيل المارة فيي طريقه كالقشّ. عبر إيفان إيليتش الجسر مع الحشد. كان بعض الخيالة يعدون على خيولهم عبر ميدان "مارسوفو بوليه" المُضبّب المكسوّ بالثّلج المحفور بآثار حوافر. وحين رأوا الحشد أداروا خيولهــم، واقتربوا منه بخطوات وئيدة. ضحك أحدهم، وهو عقيدٌ مــورّد الوجنتين مشقوق اللحية، رافعاً يــده بالتّحيّة، وتعالى في الحشــد غناءٌ ثقيلٌ جــزع. وطارت غربانٌ شعثاء مــن الأغصان العارية

الداكنــة، من ظلام الحديقة "ليتني "نفس الغربان التي أفزعت ذات مرّة قاتلي الامبراطور بافل.

سار إيفــان إيليتشــ في المُقدّمة، وكان يحسّ بغصّــة في حنجرته. تنحنــح ليزيلهــا، إلا أنّ الانفعــال كان يتصاعــد من أعماقه مــرّةً بعد أخرى. بلغ حصن إينجينيرني فاستدار شمالاً، وسار في جادّة ليتييني.

كان جمهــورٌ آخر مــن الناس ينصــبّ في جادّة ليتيينــي قادماً من منطقــة فيبورغسكايا. وقد امتدّ إلى مسافــة طويلة في الجسر. وكانت بوابــات البيوت على طول طريقه غاصّة بالفضوليّين والوجوه المُنفعلة في جميع النّوافذ.

توقّــف إيفان إيليتش عند بوابة أحد البيوت على مقربة من موظّف عجــوز كانــت الرّعشة تســري في وجنتيه الشّبيهتــين بوجنتي كلب. وكان صــفٌّ من الجنود الجامدين المُتكئين علــى بنادقهم يسدّ الشارع بعيداً إلى اليمين.

اقترب الحشد وتباطأ سيره. وتطايرت أصواتٌ مذعورة متّجهة إلى وسطه: "قفوا، قفوا!.."

وإذا بــآلاف من الأصــوات النّسائيّة العالية تعول مُــردّدة: "خبز، خبز، خبز!.."

قــال الموظّــف: "لا يجــوز السماح بهــذه المشاهد" وألقــى نظرةً صارمــة على إيفــان إليتش من فوق نظارتــه. وفي تلك اللحظة خرج بوابــان ضخمــان مــن إحــدى البوابات وراحــا يدفعــان الفضوليين بكتفيهمــا. اهتزّت وجنتا الموظّف، وزعقت سيّدةٌ شابّة ترتدي نظارةً أنفيّــة: "لا تتجاسر، أيها الأبلــه!" إلا أنّ البوابة قــد أغلقت. وأخذت مداخل البيوت تُغلق في الشارع كلّه. وتعالت أصواتٌ مذعورة:

– لا داعي، لا داعي!

واقترب الحشد الهادر. وطلع في مقدّمته شابٌّ ذو وجهس محمرّ الخدّين مُنفعل يضع على رأسه قبّعةً عريضة الحافّة. وتردّدت أصواتٌ:

– الراية في المُقدّمة، الراية في المقدّمة!

وفي تلك اللحظة ظهر أمام صفّ الجنود ضابطٌ ضخمٌ ضيّق الخصر يرتدي قُبّعةً قوقازيّة بميلان. وضع يده على قراب المُسدّس عند خصره، وصرخ بصوتٍ كان من المُمكن أن تفهم منه هذه الكلمات: "صدر أمرٌ بإطلاق النار... لا أريد سفك الدّماء... تفرّقوا!.."

فارتفعت أصواتٌ وحشيّة:

– الخبز، الخبز، الخبز!

وزحف الحشد على الجُنود... وبدأ الناس يمرّون بإيفان إيليتش والطيش في عيونهم...

– الخبز!.. يسقط!.. أوغاد!..

وسقط أحدهم. وصرخ مُستطار اللب رافعاً وجهه المُتغضّن:

"أكرههم... أكرههم!"

وفجأةً صدر في الشارع صوتٌ مثل صوت تمزيق قماش خشن. وسكن كلّ شيءٍ في الحال. وشدّ أحد الطلاب على طاقيته بين أصابعه، وغاص في الحشد... ورفع الموظّف يده المُعقّدة ليرسم علامة الصّليب. وأطلقت طلقةً في الهواء و لم تتّبعها طلقةٌ أخرى إلا أنّ الحشد تراجع. بعضه قد تفرّق، والبعض الآخر توجّه إلى ساحة زنامينسكايا. ومعه الراية. وبقيت قبّعات وكالوش ملقاة على الثّلج الأصفر في الشارع. طلع إيفان إيليتش إلى جادة نيفسكي فسمع ثانيةً هدير أصواتٍ كثيرة. إنّه حشدٌ ثالث كان قد عبر النيفا قادماً من جزيرة فاسيليفسكي. وكانت الأرصفة مكتظّة بالنساء الأنيقات، والعسكريين، والطلاب،

وغرباءٌ لهم مظهرٌ أجنبيّ. وكان ضابطٌ انجليزيّ ذو وجه ورديّ طفليّ يقف كالعمود. وكانت البائعات ذوات الشرائط السوداء في شعورهنّ يضغطن وجوههنّ المبودرة على زجاج أبواب المخازن. بينما سار حشدٌ غاضب من العاملات والعمال في وسط الشارع مُتغلغلاً في امتداده الضبابيّ، وهو يعول: "الخبز، الخبز، الخبز!.."

كان سائق زلاجة يقف بمحاذاة الرّصيف وقد مال بجنبه نحو جزئها الأماميّ، وأخذ يُحدث بمرح راكبته السيّدة ذات الوجه الأحمر المذعور.

– إلا أين أذهب؟ ها أنت ترى بنفسك. ذبابةٌ لا يُمكن أن تمرّ من هنا.

– امض في طريقك، أيها الأحمق، ولا تجرؤ على التحدّث معي؟ز.

– لا، لست أحمق منذ اليوم...انزلي من الزّلاجة...

تدافع المارّة على الرّصيف، رفعوا رؤوسهم، وتسمّعوا، وتساءلوا مُنفعلين:

– قتلوا مائة شخصٍ في جادّة ليتييني؟..

– كذب...أطلقوا النار على حبلى ورجل عجوز...

– يا ربّ! وما ذنب العجوز هذا؟

– هذه كلّها أوامر بروتوبوبوف. وهو مجنون...

– أيّ نبأٍ هذا، يا سادة...لا يُصدّق! إضرابٌ عام...

– كيف؟ والماء والكهرباء؟

– ليت الرّبّ يجعلها أنباءً صحيحة، آخر الأمر.

– مرحى للعمّال!..

– لا تفرحوا، سيقمعونهم...

– حاذر أن تُقمع قبلهم، وأنت بهذه السّحنة...

مضى إيفان إيليتش إلى العناوين التي يُنشدها آسفاً على تضييعه الوقت الكثير، غير أنّه لم يجد أحداً ممن قصدهم في البيت. فعاد يتجوّل في جادّة نيفسكي غاضباً.

كانت حركة الزّلاجات قد عادت إلى الشارع، وخرج البوابون يزيحون الثّلج من الأرصفة، وظهر الرّجل المهيب ذو المعطف الأسود على مفرق الطّرق ورفع فوق الرّؤوس المُحتدّة، وأفكار الناس المُضطربة هراواته البيضاء، عصا النّظام السّحريّة. ولربّما فكر عابر سبيل خبيث، وهو ينظر إلى الشّرطيّ عند اجتيازه الشارع قائلاً لنفسه: "انتظر، يا أخي، وسيأتي وقتك". ولكن لم يدر في خلد أحد من الناس أنّ الوقت قد حان فعلاً، وأنّ هذا الشّخص المشورب المُنتصب كالعمود الحامل للهراوة لم يعد أكثر من شبح وأنه سيختفي بين عشيّة وضحاها من مفرق الشّوارع، من الحياة العامّة، من ذاكرة الناس...

– تليغين، تليغين! قف أيها الأصمّ!..

وركض المهندس ستروكوف نحو إيفان إيليتش وطاقيته مُنسرحة على مؤخّرة رأسه، وعيناه تلمعان بمرحٍ فياض..

– إلى أين ذاهب؟ لندخل إلى مقهى...

وأمسك يد إيفان إيليتش وجرّه إلى مقهى، كان دخان السيغار في المقهى يلذع العيون. وكان الناس بقبعاتهم المُستديرة السوداء وبقبعاتٍ من فراء عجول البحر، وبمعاطفهم غير المُزرّرة يتجادلون، ويتصايحون، ويقفزون واقفين. شقّ ستروكوف طريقه نحو نافذة، وجلس إلى مائدةٍ صغيرة قبالة إيفان إيليتش وهتف مُمسكاً المائدة بكلتا يديه.

– الروبـل يسقط، والسندات الماليّـة تذهب إلى الجحيم. تلك هي القوّة!.. خبّرني ماذا شاهدت...

– كنت في جادّة ليتييني، وقد أطلقوا النار هناك، ولكن في الهواء، على ما يبدو لي...

– وما رأيك في هذا كلّه؟

– لا أدري. أعتقـد أنّ على الحكومـة الآن أنْ تعالج بجديّة مسألة نقل الأطعمة.

صاح ستروكوف، وهو يضرب سطح المائدة الزّجاجيّ:

– فات الوقت! فات!.. أكلنا أمعاءنا بأنفسنا... ولتنته الحرب، فقد لاقينـا ما فيه الكفاية!.. أتدري ماذا ينادون في المصانع؟ ينادون بدعوة سوفييت نواب العُمال. بأن لا يؤمنوا بغير السوفييتات!

– صحيح؟

– تلك هي النهاية، يا عزيزي! أنهار الحكم المُطلق... فافتح عينيك. ليس هذا تمرّداً، بـل وليس ثورة... إنّه بدايـة الفوضى... بل الفوضى العظيمـة بعينها... –وانتفخ عرقٌ علـى عرض جبين ستروكوف تحت قطـرات العرق– وبعد أيام ثلاثة لن تبقى هنـاك دولة، ولا جيش، ولا حُـكام، ولا رجال شرطةً... بل مائة وثمانون مليوناً من الناس الشُّعث البدائيين. وهل تدري من هو الإنسان البدائيّ الأشعث؟ النّمر ووحيد القـرن دُميتان للأطفـال بالنّسبة له. خليّةٌ في جهـاز عضويٍّ مُتفسّخ. ذلك هـو الإنسان البدائـيّ الأشعث. وذلـك شيءٌ رهيبٌ جـداً. إنّه بكتيريا تأكل بكتيريا أخرى في قطرة ماء.

قال تليغين:

– أوه، ليتخطّفك الشّيطان! لا شيء من هذا، ولن يكون شيءٌ من هذا! إنها ثورة، وشكرٌ للرّب عليها.

– لا، إنّ ما رأيته اليوم ليس ثورة. إنّه تحلّل المادة. وستأتي الثّورة، فيما بعد ستأتي... ولكننا أنا وأنت لن نراها.

قال إيفان إيليتش وهو ينهض:

– قد يكون ذلك. وأنّ فاسيلي روبليف هو الثّورة. أمّا أنت، يا ستروكوف، فلا. أنت كثير الضّجيج، وتتحدّث بشكلٍ مُبهم...

عاد إيفان إيليتش إلى شقّته في وقت مُبكّر، وأوى إلى فراشه في الحال. ولكنّ النّوم لم يغشه إلا برهةً قصيرة، تنهّد بعدها، وانقلب ثقيلاً على جنبه، وفتح عينيه. شمّ رائحة جلد الحقيبة التي كانت مفتوحةً على أحد المقاعد. في هذا الحقيبة التي اشتراها في استوكهو لم محفظةً صغيرة من الجلد البديع لأدوات الزينة الفضيّة، هديّةً لداشا. وكان إيفان إيليتش يحسّ بالرّقّة نحوها، فيفكّ ورقها الناعم كلّ يوم، ويعاينها. بل وكان يتخيّل مقصورة عربة بنافذة طويلة، كما هي في القطارات غير الروسيّة، وداشا في لباس السّفر تضع على ركبتيها هذه المحفظة الفواحة بالعطر والجلد رمزاً لسياحاتٍ رخيّة مُدهشة.

رأى إيفان إيليتش السماء الداكنة وراء النافذة تتشبّع بانعكاس ضوء المدينة الليلقيّ الكدر. وأدرك بصفاء شعور الكراهية الحزينة الذي لا بُدّ أن يُعتمل في نفوس أولئك الذين كانوا يُطالبون بالخبز اليوم، حين ينظرون إلى هذا الضّوء. المدينة غير المحبوبة، الموحشة، الكريهة... دماغ البلاد وإرادتها مُصابةٌ الآن بداء قتال... وهي في احتضار...

خرج إيفان إيليتش من البيت في حوالي الثانية عشرة، فرأى الجادة العريضة الضّبابيّة مُقفرة. لاحت من وراء نافذةٍ رطبة لحانوت

بيـع الزهور مزهريّة بلوريّـة فيها باقة بديعة من الـورود الحمراء المُبلّلة بقطـارتٍ كبيرة من الماء. فرنا إيفان إيليتش إليها برقّةٍ من خلال الثّلج المُتساقط.

ظهرت من شارع جانبيّ دوريّـةٌ تتألّف من خمسة قوزاقيين، أدار آخرهـم فرسه، وعـدًا به نحو ثلاثة من الرجال يرتـدون الكيبيه كانوا يسـيرون على الرصيف وهم منهمكـون في حديث منفعل مُنخفض. توقّـف الرّجال، وأمسك أحدهم، وهـو يتحدّث بمرحٍ، شكيمة فرس القوقـازيّ. كانت هذه الحركة غـير اعتياديّة كلياً جعلـت قلب إيفان إيليتشـ يثب في صـدره. ولكنّ القوزاقـي ضحك، ودفـع رأسه إلى الخلف، ثمّ أطلق العنان لفرسه الغليظ الرّقبة الذي كان يضرب بقوائمه، ولحق برفاقه، وانطلق الجميع في عدوٍ سريع حتى غيّبهم ظلام الجادة.

وحـين كان إيفـان إيليتش يقترب من الكورنيشـ أخذ يلتقي بزمرٍ مـن سكان المدينة في هيجان. والظاهر أنّ أحداً لم يستطع أن يهدأ بعدً حدث يوم أمس: وهاهم الناسـ يتداولون الرّأي ويتناقلون الشائعات والأخبار، وكان الكثيرون منهم يسيرون نحو النيفا. وكان هناك بضعة آلاف مـن الفضوليين يتحرّكون على الثلج بمحـاذاة السياج الغرانيتي كجمّاعـاتٍ سوداء مـن النمل. وكانت زمـرةٌ ن الزاعقين تصرخ عند الجسر علـىً الجنود الذين كانـوا يسدّون الطريـق بوقوفهم في عرض الجسر، وعلى طوله حتـى نهايته الأخرى التي لم تكاد ترى في الغبش من جرّاء الثلج المُتساقط.

– لماذا سددتم الجسر؟! اتركونا نمرّ!

– نُريد أن نذهـب إلى وسط المدينة.

– قلّة حياء، يُضايقون الأهالي...

– الجسور أقيمت لعبور الناس، وليس لشاكلتكم.

– هل أنت روسيّ أم لا؟..دعونا نعبر!

كان ضابـط صفٍّ ضخم ذو أربعة نياشين القديس غيورغي يذرع الجسـر عرضاً من درابزيـن إلى آخر مصلصلاً بمهمازيـه، وحين سمع الشتائـم تتعالى مـن الجمع أدار إلى المُتصايحين وجهـه العابس المجدّر المصفرّ. وقال وشارباه الفتولان يهتزان:

– آه، سادةٌ وتتكلمون على هذا النّحو. لا أستطيع أن أسمح بعبور الجسر...سأضطر إلى استخدام السّلاح في حالة عدم الامتثال للأمر...

وتصايح الزاعقون من جديد

– لن يُطلق الجنود النار علينا.

– وضعوك هناك، وأنت الكلب، الشيطان المجدّر...

استـدار ضابـط الصّفّ مرّةً أخرى وراح يتكلّـم، ورغم أنّ صوته كان أجشّ حاداً–عسكريـاً، فقـد انعكـس في كلماتـه نفس الحيرة المذعورة التي كانت تعتمل في نفوس الجميع في تلك الأيام وقد أحسّ الزاعقون بذلك، وشتموا، وضغطوا على الحاجز. وفجأةً تكلّم رجلٌ طويل نحيل ذو نظارةٍ أنفيّة معوجّة، ورقبةٌ طويلة ملفوفة بلفاح، وكان صوته عالياً عميقاً:

– إنهم يضيقون حركة المرور، والحواجز في كلّ مكان، والجسور قد طوّقت. وذلك مُنتهى التّحقير. هل نستطيع التّنقّل في المدينة بحريّة، أم أصبـح حتى ذلك مُتعذراً؟ أيها المواطنـون أقترح عدم الالتفات إلى الجنود، والعبور على الجليد إلى الضّفّة الأخرى...

– كلامك صحيح. على الجليد! هورا!..

وعلى الأثـر ركض عدّة أشخاصٍ على الدّرجات الغرانيتيّة المُغطاة

بالثّلـج، والمؤدّية إلى النّهر. وسار الرجل الطويل ذو اللفاح المُتطاير في الريح بخطوات حازمة على الجليد بمحاذاة الجسر. انحنى الجنود على الدرابزين في الأعلى وصاحوا:

– يـا هؤلاء، ارجعـوا، وإلا سنطلق النار...ارجـع، أيها الشيطان الطويل!..

إلا أنّ الرّجـل مضى في سيره دون أن يلتفت، ومن خلفه سار عددٌ متزايد مـن الناس في صفّ واحد وفي سيرٍ سريع، وانزلقوا واحداً بعد الآخر علـى مُنحدر السّـدّة إلى الجليد، وتَراكضـت أشباحهم السود علـى الثّلج. صاح الجنود عليهم من فوق الجسر فردّ الراكضون عليهم بصيـاحٍ مثله محيطين أفواههم بأيديهم. رفع أحد الجنود بُندقيّته، إلا أنّ جندياً آخر دفعه من ظهره فأقلع ذاك عن إطلاق النار.

واتّضح فيما بعد أنّ أيّة خطّة مُحدّدة لم تكن لأحد من الذين خرجوا إلى الشّـوارع، ولكـنّ الأهاليَ حـين شاهدوا الحواجـز على الجسور ومفـارق الطّرق تملكهم جميعاً الدافع الكامن في نفوسهم منذ القدم، ورغبوا فيما محظـورٌ الآن: عبور الجسور، والتّجمّع في حشود. وهذا الظّـرف وهج الخيال المريض توهّجاً شديداً. وشاعت في المدينة شائعةٌ تقول أنّ شخصاً يقود كلّ هذه القلائل.

في نهايـة اليوم الثـاني كمنت وحداتٌ من الفـوج بافلوفسكي في جـادّة نيفسكـي، وأطلقـت رشقاتٌ طويلـة من النـار على تجمعات الفضوليـين وعلى بعض المارة. وأخذ الأهـالي يُدركون أنّ شيئاً شبيهاً بالثّورة آخذٌ في الظّهور.

ولكنّ أحداً لم يكن يعرف بؤرتها، ولا الموجّه لها. كما لم يكن يعلم بذلك قائد القوات، ولا الشرطة، بله بروتوبوبوف الدّكتاتور صاحب الحظوة، وصاحب معمل الجوخ مـن سيمبيرسك، ذلك الرّجل الذي

شجّ له صاحب الأطيان ناؤوموف رأسه في يوم ما في فندق ترويتسكايا بعد أن شقّ به الباب، فسبّب له ذلك الضّرر في الجُمجمة والدّماغ آلاماً في الرأس وانهياراً عصبياً، ثمّ تخلخلا مُستميتاً فيما بعد، حين عهدت إليه إدارة الامبراطوريّة الروسيّـة. كانت بؤرة الثّورة في كلّ الانحناء، في كلّ بيت، وفي رأس كلّ مواطنٍ عاديٍّ زاخرٍ بالخيالات والسّخط والتّذمّر. وكانت هـذه الاستحالة في تحديد بؤرة الثورة تُنذر بالشّؤم. فقـد كانت الشّرطة تتصيّد الأشبـاح. وكان عليها في الواقع أن تعتقل مليونين وأربعمائة ألف، هم مجموع سكان بتروغراد.

أمضى إيفان إيليتش اليوم كلّه في الشوارع يُخامره ذلك الإحساس الغريـب الذي كان يُخامر كلّ فرد، لا محالـة، الإحساس بدوارٍ دائم. وكان يلتمس تعاظم الهيجـان في المدينة إلى حدٍّ يقـرب من الجُنون. فقـد كان جميـع النّاس يتحلّلون إلى دوارٍ جماعـيٍّ شامل، وكان هذا المجمـوع في تجواله في الشوارع وهياجه يبحث ويتوق إلى أمارة، إلى ومضةٍ تعمي البصر، وتدمج الجميع في كتلةٍ واحدة.

لم يرهب الرّصاص في جادّة نيفسكي غير قلّةٍ من الناس. فقد انثال الناس كما تنثال الوحوش وتجمّعوا حول جثّتين مطروحتين عند زاوية شارع فلاديميرسكايا إحداهما لامرأة في تنورةٍ من القماش الرّخيص، والثانيـة لعجوز في معطف من فراء الراكون.. وحين اشتدّ إطلاق النار تراكض الناس شتاتاً، ومرّةً أخرى تسكّعوا بمحاذاة الجدرن.

هـدأ إطلاق النار عند هبوط الظّـلام. وهبّت ريحٌ قارسة، ونظفت السّماء، وتوهّج الغروب بكآبةٍ في السّحب التي تراكمت وراء البحر. وطلـع هلالٌ حادّ الطرفـين، وتدلى واطئاً فوق المدينـة في بقعةٍ سوداء فاحمةٍ من السّماء.

ولم تُضأ المصابيح في تلك الليلة. وكانت النوافذ مُظلمة، ومداخل

البيـوت مسدودة. وامتـدّت أهرام البنادق المُشبكـة على طول جادّة نيفسكي الخالي المُظلم. وكانـت أشباح الحُراس الضّخمة تتراءى على مفـارق الطّرق. وكان ضوء القمر يلمع بين الحين والآخر على زجاج نافذة أو علـى شريط سكّة الترام، أو على فـولاذ حربة. وخيّم الهدوء والسكينـة. ولكنّ سماعات التّلفون في كلذ بيت كانت تُنقل كلماتٌ جنونيّة عن الأحداث بصوتٍ مذعورٍ خافت.

وفي صبـاح ٢٥ شبـاط غصّت ساحـة زنامينسكايـا بالوحدات ورجـال الشّرطة. ووقفـت أمام فُندق "سيفرنايـا" خيالة الشرطة على صهـوات خيولٍ صهبـاء متوثّبة دقيقة القوائـم. ورابط رجال الشّرطة المشـاة بمعاطفهمٍ السوداء حـولً تمثال الإمبراطـور ألكسندر الثالث، وتجمّعـوا زُمـراً في الساحة. ووقـف القوزاق عند محطّـة القطار وقد عـلا المرح وجوههـم المُلتحية، وقبعاتهـم القوزاقيّة العاليـة المُنسرحة إلى جانـب، وبرزت حـزم التّبن عند سروجهـم. وكانت رجال فوح بافلوفسكـي يلوحون بمعاطفهـم بلونها الرّماديّ المُتّسـخ باتّجاه جادّة نيفسكي.

ارتقى إيفان إيليتش النّتـوء الحجريّ لمدخل محطّة القطار، وفي يده حقيبةٌ صغيرة، كانت الساحة كلّها تُرى من هنا بوضوحٍ جيّد.

كان نُصُـب الامبراطـور يتوسّطهـا بفرسـه المُعتلـي صخـرةً من الغرانيـت حمراء بلون الدّم، وقـد تدلّى رأسه البرونـزيّ لثقل راكبه. وكان الامبراطـور يجلس على الصّهوة ثقيلاً كالجاذبيّة الأرضيّة، وقد كسا الثّلـج كتفيه الكئيبتين، وطاقيّته المُستديـرة. كانت حُشود الناس تشقّ طريقها نحو قاعدة النُصب في الساحة قادمةً من خمسة شوارع، رافعةً أصواتها بالصياح والصّفير والسّباب.

ومثلما حدث بالأمس على الجسر، كان الجنود، ولا سيما القوازق

الذين يتقدّمون على صهوات خيولهم أزواجاً من الناس الذين كانوا ينثالون من جميع الجهات، يتبادلون معهم الشّتائم ولواذع الكلمات. وكان الصّمت والبلبلة الواضحة يريئان على زمر رجال البوليس المُتجهّمين الضخام الأجسام. وكان إيفان إليتش يعرف جيداً ذلك القلق الذي يسود فترات انتظار الأمر بالاشتباك في معركة، حين يكون العدوّ المُهاجم قاب قوسين أو أدنى، وكلّ الدّلائل تُشير إلى ما ينبغي القيام به، ولكنّ صدور الأمر يتأخّر، وتستطيل الدّقائق بشكل مؤلم. صلصل باب المحطّة فجأةً وانفتح، وطلع على السّلّم ضابطٌ جندرمة شاحب الوجه برتبة عقيد يرتدي معطفاً قصيراً. انتصب بقامته، وأدار عينيه الوضيئتين في الساحة، ومرّرهما على وجه إيفان إيليتش... ثمّ هبط الدّرجات بخفّة بين القوازق المُتراجعين ليفسحوا الطّريق له، وأخذ يقول شيئاً لضابط قوزاقيّ رافعاً إليه لحيته، أصغى الضابط القوزاقيّ إليه مُرتمياً على السَّرج، وعلى شفتيه ابتسامةٌ هازئة. أشار العقيد برأسه بمشية مُتوثّبة. ركض نحوه ضابط شرطة أحكم شدّ حزامه على بطنه الضّخم، واهتزّت يده تحت طاقيّته عندماً رفعها لتحيّته. تعاظمت صيحات الحشد المُتقدّم من ناحية جادة نيفسكي، ثمّ أخذت الأذن أخيراً تُميّز غناءً. أحسّ إيفان إيليتش بيدٍ تُمسك كمّه بقوّة، ورأى رجلاً مُهتاجاً يرفع جسمه بالقرب منه حاسر الرّأس يمتدّ على وجهه القذر خدشٌ أحمر.

– أيها الإخوان، القوازق!

صاح الرّجل بصوتٍ وحشيّ يهزّ النّفس كالصّوت الذي يُطلق قُبيل القتل وسفك الدّم فيغوص منه القلب، وتغطي غشاوة الجنون على العيون: "قتلوني، يا إخوان... تدخّلوا... إنهم يقتلون!"

استدار القوازق على سروجهم، ونظروا إليه صامتين. وقد شحبت وجوههم، واتّسعت حدقات عيونهم.

وفي تلــك الأثناء لاحت في جادة ستــاري نيفسكي رؤوسٌ سوداء كثيفــة، هي رؤوس عُمــال حاضرة كولبينو الذين كانــوا يتقدّمون في الشارع. ورفرف علمٌ أحمــر مُبلّلٌ في الريح. ابتعد خيالة الشرطة عن مدخــل فنــدق "سيفرنايا"، وما هــي إلا لحظة حتى لمعــت في أيديهم سيوفٌ عريضةٌ مُستلّة. ارتفع في الحشد صياحٌ ضار. ووقع بصر إيفان إيليتشــ مــرّةً أخرى على عقيــد الجندرمة. إنّه يركضــ مُمسكاً غلاف مُسدّسه بيد، وملوّحاً للقوازق بالأخرى.

تطايــرت مــن حشــد عُمــال حاضــرة كولبينــو قطع مــن الجليد والحجــارة، باتّجاه العقيد، وخيالــة الشّرطة. تواثبت الخيــول الصّهباء الدقيقة القوائم أكثر. وتــردّدت طلقاتٌ واهنة من مُسدّسات، وارتفع دخانٌ عند قاعــدة النُّصب: لقد كان رجال الشّرطة يُطلقون النار على عُمــال حاضــرة كولبينو. وفي تلــك اللحظة شبّ في صــفّ القوازق فرسٌ أصهر أفطس مــن أفراس منطقة الدون، على بُعد عشر خُطوات من إيفــان إيليتش. انحنى راكبه القوزاقي علــى رقبته، ولكزه، وبعدّةٍ وثبات وصل به إلى عقيد الجندرمة، وقد استلّ سيفه أثناء جريه، وضربه بــه ضربةً صافــرة، ثم عاد فرفــع فرسه على رجليــه الخلفيّتين. وتحرّك القــوزاق كتلةً واحدةً نحو مكان القتل. شقّت حشود الناس الحواجز وتدفقوا علــى الساحة. .سُمعت طلقاتٌ صــادرة من مكانٍ ما غطّتها صيحةٌ جماعيّة تهتف:

"هورا...هورا.."

– ماذا تعمل هنا، يا تليغين؟

– أريد أن أسافر مهما يكن من شيء، ولا يهمّني إذا كان ذلك على قطار بضائع، أو على قاطرة...

– أقلع عن ذلك فالسّفر مُستحيلٌ الآن، يا صاحبي. إنها الثورة...

كان المُتحدّث أنتوشكا أرنولدوف وهو غير حليق نافر المظهر، أحمر الجفنين، جاحظ العينين. وقد غمغم كالهاذي غارزاً أصابعه في طيّة معطف إيفان إيليتش:

– هل رأيت كيف قطعوا رأس عقيد الجندرمة؟..تدحرج مثل كرة القدم. جمال!..أنت، أيها الأبله، لا تفهم. إنها الثورة!

كان الرّجلان واقفين في ممرّ محطّة القطار مضغوطين في زحام الناس. وتابع أنتوشكا كلامه:

– في الصباح رفض الفوج الليتوانيّ وفوج فولينسكي إطلاق النار...وخرجت سريّةٌ من فوج بافلوفسكي إلى الشارع ومعها سلاحها...والمدينة في فوضى، ولا أحد يفهم شيئاً...والجنود في جادة نيفسكي كثار كالذباب، يتسكعون، ويخافون الذهاب إلى الثكنات...

٣٦

كانت داشا وكاتيا تسيران بخطىً سريعة على طبقات الجمد الرقيقة المتكسّرة تحت أقدامها في شارع مالايا نيكيتسكايا الباهت الإضاءة. كانتا ترتديان معطفين فرائين، وتلفّان رأسيهما بلفاحين أزغبين. ارتفع في السماء الباردة الضاربة إلى الخضرة هلال مدبّب الطرفين صاف. وترامى إلى السّمع نُباح كلاب وراء بوابة. ضحكت داشا في زغب لفاحها الرّطب، وهي تنصت إلى تكسّر الجليد.

– كاتيا، لو أنّ أحداً من الناس اخترع آلةً ووضعها هنا—ووضعت داشا يدها على صدرها—فإنها ستسجّل أشياء فريدة. وترنّمت داشا بصوتٍ خافت. فتناولت كاتيا يدها.

– دعينا نذهب، هيا!

توقّفت داشا ثانيةً بعد بضع خطوات.

– كاتيا، أتعتقدين أنها الثورة حقاً؟

من بعيد شعّ في عيونهما مصباحٌ كهربائيٌّ صغير موضوعٌ فوق مدخل نادي الحقوقيين، حيث دعت كُتلة الكاديت، تحت تأثير الشائعات الجنونيّة القادمة من بتروغراد، إلى إقامة اجتماع عامّ في الساعة التاسعة والنصف مساءً لتبادل الآراء، وإيجاد قاعدةٍ مُشتركة للعمل في هذه الأيام الحرجة. صعدت الشقيقتان السُّلّم إلى الطابق الثاني ركضاً، ودخلتا القاعة دون أن تخلعا معطفيهما، بل اكتفتا بفكّ لفاحيهما. كانت القاعة غاصّةً بالناس تستمع بتوتّر إلى سيّد بدين مورّد الخدّين مُلتحٍ يُحرّك يديه الكبيرتين حركاتٍ لطيفة. كان هذا الرّجل يقول بصوتٍ جميل مُتوسّط الجهارة:

– ...الأحداث تتنامى بسرعة تُدير الرّأس. في بتروغراد نُقلت كلّ السلطة يوم أمس إلى الجنرال خابالوف الذي ألصق في أنحاء المدينة كلّها هذا الإعلان: "في الأيام الأخيرة حدثت في بتروغراد قلاقل مصحوبةً بالعنف والاعتداء على حياة ضباط الجيش والشّرطة. أمنع كلّ تجمّع في الشوارع، وأنبّه سكان بتروغراد إلى أنني أكّدت للقوات اللجوء إلى السلاح عند الحاجة، وعدم التوقّف أمام أيّ شيء في سبيل إعادة النظام إلى العاصمة..."

– جزارون!

رنّ صوت طالبٍ جهير من جوف القاعة.

– ...إنّ هذا الإعلان، كما كان مُتوقّعاً، قد جعل كأس الصّبر تطفح، فانضمّ إلى جانب المُنتفضين خمسة وعشرون ألف جنديٍّ من حامية بتروغراد يُمثّلون مُختلف أصناف السّلاح...

وقبل أن يُنهي كلامه ضجّت القاعة بالتّصفيق. وقفز بعض الرّجال على مقاعدهم، وهتفوا، وأومأوا بأيديهم، وكأنّهم يوجّهون الطّعنات إلى النظام القديم. نظر الخطيب إلى القاعة الهادرة مُبتسماً ابتسامةً عريضة، ثمّ رفع ذراعه، وتابع كلامه:

– وصلت قبل حينٍ برقيّةٌ تلفونيّة غايةٌ في الأهميّة–وهنا دسّ يده في جيب سترته ذات المُربعات، وبسط ورقةً مطويّة، وقال: اليوم أرسل رودزيانكو رئيس مجلس دوما الدّولة إلى القيصر برقيّةً تلفونيّة على الخطّ المُباشر: "الوضع يُنذر بالخطر. الفوضويّة في العاصمة. الحكومة مشلولة. النّقل والتّمرين والوقود في انهيارٍ تامّ. الرّصاص يُطلق في الشّوارع بلا نظام. القوات تُطلق النار بعضها على بعضٍ أحياناً. من الضّروريّ إسناد الوزارة الجديدة إلى رجلٍ يتمتّع بثقة البلاد. لا يجوز الإبطاء. كلّ إبطاءٍ صنو الموت ندعو الله ألّا يوقع المسؤوليّة على رأس العاهل في هذه السّاعة الحرجة".

أنزل السيّد ذو الخدّين الورّدين الورقة، وأدار عينيه البراقتين في القاعة. لم يذكر الموسكوفيّون مثل هذه المسرحيّة الخلّابة. وتابع الخطيب كلامه بصوتٍ ناعمٍ مُنغّم:

– نحن الآن، يا سادة، على عتبة أعظم حدثٍ موشك على الوقوع في تاريخ بلادنا. ولربّما في هذه اللحظة تُحقّق هناك–ومدّ ذراعه مثل تمثال دانتون–مطمح العديد من الأجيال، وأُخذ الثّأر لطيوف الديسمبريين المفجوعة...

تأوّهت امرأةٌ ولم تتمالك نفسها.

– آه، يا إلهي!

– ولربّما ستندمج روسيا غداً في جوقةٍ أخويّةٍ فرحة تُردّد كلمة: الحريّة!..

فردّدت أصواتٌ صارخة:

– عاشت الحُريّة!..

وهبـط السّيّد في مقعده، ومرّر ظاهر كفّـه على جبهته. نهض من طـرف الطاولة رجلٌ مديد القامة ذو شعرٍ طويـل كتانيّ اللون، ووجه ضيّق، ولحيةٍ صهباء ذابلة. وأخذ يتكلّم بصوتٍ نبرة هزءٍ دون أن ينظرَ إلى أحد.

– منذ لحظـة سمعت بعض الرّفاق يهتفـون: عاشت الحريّة. شيءٌ صحيح. وأيّ شيءٍ يُمكن أن يكون أفضل من اعتقال نيقولاي الثاني في موغليف، ومحاكمةً الوزراء، وطرد حكام الولايات ورجال الشّرطة... ورفع رايـة الثّورة الحمراء... إنهـا بدايـةٌ صحيحة... العلميّة الثّوريّة، حسـب المعلومات المُتوفّرة، قد بدأت بدايـةً صحيحة وبطاقة حيويّة. وفي هذه المرّة، على ما يبدو، ستنجح. ولكن ها أنتم قد سمعتم السيّد الفاضـل الذي تحدّث قبلي يقول كلاماً جميلاً جـداً. فقد أعرب–إنْ لم تخنّـي أذني–عن الرّضى التام بالثـورة الموشكة الحدوث، وأفترض أنّـه سيندمج بروسيـا كلّها في المُستقبل القريب جـداً في جوقةٍ أخويّةٍ واحدة...

أخـرج الرّجل ذو الشّعر الكتـانيّ منديلاً، ووضعه على فمه، كمن يُحاول أن يُخفي ضحكـةً هازئة. إلا أنّ وجنتيه تبقّعتا، وسعل، ورفع كتفيه العظميّتين. سألَ شخصٌ وراء داشا التي كانت تُشارك أختها في مقعدٍ واحد:

– من المُتكلّم؟

همس أحدهم في الإجابة همساً سريعاً:

– الرّفيـق كوزما. كان في عام ١٩٠٥ عضـواً في سوفييت نواب العُمال. قبل مُدّةٍ قصيرة عاد من المنفى.

وتابع الرّفيق كوزما كلامه:

– لو كنت في مكان الخطيب السابق لتريّثت قليلاً في إبداء الغبطة– وفجأةً اكتسى وجهه الشّمعيّ موجدةً وحزماً وهو يقول: إنّ اثني عشر مليونـاً من الفلاحين قد أعدّوا للقتال، وهم ما يزالون في الجبهات... وملايـين من العمال يختنقون في الأقبيـة، ويقفون جياعاً في الطوابير أمام حوانيـت الطّعام. فلعلّكم تريدون أن تغنـوا جوقةً أخويّة واقفين على ظهور العُمال والفلاحين...

وصـدرت في القاعـة هسهسـة، وصـرخ صـوتٌ حانـق: "هذا استفـزاز!" هزّ السيّـد ذو الوجنتين المُحمرّتين كتفيـه، ومسّ الجرس، وواصل الرفيق كوزما كلامه:

– ...ألقـى الإمبرياليّـون أوروبـا في حـرب مُريعـة، واعتبرتهـا الطّبقـات البرجوازيّة عاليها وسافلها حربـاً مُقدّسة–تلك الحرب من أجـل الأسواق العالميّة، من أجل انتصار مُنقطع النّظير للرّأسمال...أما الخونة، الاشتراكيّون–الديمقراطيون فقد أيّدوا السادة مُتواطئين معهم، وأقـرّوا معهم بأنّ الحرب وطنيّةٌ ومُقدّسـة. وسيق الفلاحون والعُمال إلى المجزرة...وأنا أريـد أن أسأل: من الذي رفع صوته في هذه الأيام الدمويّة؟

– ماذا يقول؟..! اجعلوه يخرس!

ارتفعـت أصواتٌ خانقـة، وعـلا الضّجيج ونهض بعضـ الناس قافزين من أماكنهم مؤشّرين بأيديهم.

– ...الساعـة دقّت...ولهب الثّورة سيمتـدّ، لا محالة، إلى صميم الفلاحين والعُمال...

وبعد ذلك تعذّر تمامـاً أن تلتقط الأذن كلامه، بسبب الصّخب في القاعـة. هرع بعض الأشخاص المُرتدّين سـتر النهار إلى الطاولة. ارتدّ

الرّفيــق كوزما عن المنصّة، وتوارى وراء الباب. واحتلّت مكانه خبيرةٌ مشهورة في تربيّة الأطفال.

– إنّ الكلمة المُثيرة للاستياء التي ألقاها الخطيب السابق...

وفي تلــك اللحظة همس شخصٍ علــى مقربةٍ شديدة من أذن داشا بصوتٍ منفعلٍ رقيق:

– مرحباً يا عزيزتي...

نهضــت داشــا مُسرعةً حتــى دون أن تجد الوقــت لتلتفت، فرأت إيفان إيليتش واقفاً عند الباب. نظرت إليه–إلى رجلها، فبدا لها أجمل رجلٍ في العا لم. أما هو فقد أذهله مرّةً أخرى، كما حدث له مراراً من قبــلً، أن يرى داشا مُختلفةً تماماً عما كان يتصوّرها في ذهنه في غيابها، ولكنهــا أكــثر جمالاً بها لا حــدّ له: شاعت حُمرةٌ حــارّة في خدّيها، وبدت عيناهــا الرّماديتان الزرقاوان مثل بحيرتين لا قرار لهما. كانت صورتها كاملة، ولا ينقصها شيء. ردّت داشا التّحيّة بصوتٍ خافت، وتناولــت يده، وخرج الإثنان إلى الشــارع. توقّفت داشا في الشارع ورنــت إلى إيفان إيليتشــ مُبتسمة. ثمّ تنهّدت، ورفعــت ذراعيها إلى كتفيــه، وقبّلته من شفتيه. وفاحت منها الفتنــة الأنثويّة لعطرٍ فيه بعض المــرارة. أمسكــت داشا يــده ثانيةً وهــي صامتة، وســار الإثنان على قشرات الجليــد المُخشخشة، والمُلتمعة بضوء الهــلال المُتدلّي مُنخفضاً هناك، في أعماق الشارع.

– آه، كم أحبّك، يا إيفان! كم أنتظرتك...

– لم أستطع القدوم، أنت تعرفين..

– لا تغضــب إذا كنــت قد كتبت لك رسائل سيّئــة. فأنا لا أُحسن الكتابة.

توقّف إيفان إيليتش، وحدّق في وجهها المرفوع إليه، الباسم بصمت. كان المنديل المُزغب يُضفي عليه مسحةً خاصّة من الحلاوة والبساطة، ويجعل الحاجبين المُخططين تحته أكثر اسوداداً. جذبها إيفان إيليتش إليه برفق، فالتصقت به مُنقّلةً قدميها. قبّلها مرّةً أخرى. وعادا يسيران.

– هل ستمكث طويلاً، يا إيفان؟

– لا أعرف. هذه الأحداث...

– نعم، إنها الثورة.

– تصوّري! إنني جئت على قاطرة...

– أتعرف، يا إيفان أن...

وسارت معه على خطوٍ واحد ناظرةً إلى طرفي حذائيها.

– ماذا؟

– سأذهب هذه المرّة معك إلى بيتك...

لم يرد إيفان إيليتش عليها. و لم تشعر داشا إلا بأنّه يحاول أن يملأ صدره بالهواء عدّة مرات. وأحسّت بالحنان والإشفاق عليه.

٣٧

كان اليوم التالي رائعاً لأنّه أثبت مفهوم نسبيّة الزّمن فقد نقلت العربة إيفان إيليتش من فندقه في شارع تفيرسكايا إلى شارع أُربات بحوالي عام ونصف عام. وقد قال الحوذيّ: "لا، يا حضرةَ المُحترم فات ذلك الزمان الذي تستطيع أن تستأجر فيه عربةً بنصف روبل. في بتروغراد كسب الناس حريّتهم وسنفعل ذلك في موسكو في

القريب العاجل. انظر إلى ذلك الشّرطيّ الواقف هناك. أودّ لو أسوق العربة عليه، وألهب وجهه بسوطي. ابن الكلبة ذاك. انتظر، يا مُحترم، وسنصفّي حسابنا مع الجميع".

استقبلت داشا إيفان إيليتش عند باب غرفة الطّعام. كانت في روبها البيتيّ، وشعرها الأشقر قد صُفّ على عجل، وعبق الماء الطازج يفوح منها. ودقّ جرس الزّمن، وتوقّف الزّمن، وامتلأ كلّه بكلمات داشا، وضحكها، وشعرها الناعم الخفيف المُشعّ في شمس الصّباح. وكان إيفان إيليتش يحسّ بالاضطراب حتى حين كانت داشا تنتقل إلى الطّرف الآخر من المائدة. فتحت داشا باب دولاب الأواني، ورفعت ذراعيها، وانحسر كُمّا روبها العريضان. وفكّر إيفان إيليتش مع نفسه بأنّ من المُستحيل أن يكون للناس مثل هاتين الذّراعين، ولكنّ الأثرين الأبيضين للتطعيم ضدّ الجدريّ فوق المرفق كانا يؤكّدان وحدهما بأنّ هاتين الذّراعين إنسانيّتان على الرّغم من ذلك. تناولت داشا قدحاً، وأدارت رأسها الأشقر الشّعر، وقالت شيئاً مُدهشاً، وضحكت.

جعلت إيفان إيليتش يشرب عدّة أقداح من القهوة. كانت تنطق بكلمات، وإيفان إيليتش ينطق بأخرى، ولكنّ كلمات الناس، على ما يبدو، لا يكون لها معنىً إلا في الزّمن المُتحرّك بشكل طبيعيّ. أما اليوم فلم تكن للكلمات معان. كانت يكاترينا دميتريفنا جالسةً معهما في غرفة الطّعام تسمعهما يُثرثران بالتّوافه عن القهوة، وعن محفظة جلديّة لأدوات الزينة، وعن رأس قُطع في بتروغراد، وعن شعر داشا الذي يبدو أصهب في الشّمس الساطعة—ويا للعجب! وهما في ذلك ما بين دهشة شديدة، ونسيان سريع للموضوع.

جلبت الخادمة الصُّحف. نشرت يكاترينا دميتريفنا "روسكيه فيدوموستي"، وتأوّهت وأخذت تتلو بصوتٍ مسموع بيان الإمبراطور

عن حلّ دوما الدّولة. اندهشت داشا وتليغين من هذا الخبر اندهاشاً كبيراً. إلا أنّ يكاترينا دميتريفنا بعد ذلك، واصلت قراءتها "روسكيه فيدوموستي" في سرّها. قالت داشا لتليغين: "تعال إلى غرفتي" وقادته عبر دهليز مُظلم صغير إلى غرفتها. دخلت داشا الغرفة قبله، وقالت بعُجالة: "انتظر لحظة، لا تنظر"، وأخفت شيئاً أبيض في جرّار الخزانة.

كان إيفان إيليتش يرى غرفة داشا لأوّل مرّة. يرى منضدة الزّينة بأشيائها العديدة الغريبة عليه، والسّرير الأبيض الضّيّق بوسادتين كبيرة وصغيرة. وكانت داشا تتوسّد الأولى في نومها، وترتفق الثانية حين تهوّم، والمقعد الوثير عند النافذة، وقد ألقى على ظهره لفاحٌ مزغب.

طلبت داشا إلى تليغين أن يجلس عليه قبالته مُسندةً مرفقيها على ركبتيها، موسدةً حنكها على يدها، وحدّقت في وجهه دون أن يرفّ لها جفن، طالبةً منه أن يقول لها كم يحبّها. دقّ جرس الزّمن مرّةً أخرى.

قال تليغين:

– داشا، لو وهبوني كلّ ما هو موجود، كلّ الأرض لما أسعدني ذلك. هل تفهمين؟ –فهزّت داشا رأسها. –ما الحاجة إليّ إذا كنت وحيداً في الدّنيا؟ صحيح؟..وما نفع نفسي لنفسي؟ –هزّت داشا رأسها. –ولأيّ شيءٍ آكل، وأسير، وأنام؟ وما نفع هاتين اليدين، وهاتين القدمين؟..وماذا وراء امتلاكي لثروات أسطوريّة؟..ولكن أتتصورين أيّة وحشة أشعر بها وأنا وحيد؟ –هزّت داشا رأسها. –ولكن الآن، حين تجلسين هذه الجلسة بقربي...أنسى وجود نفسي...أشعر فقط بوجودك، بالسّعادة، فأنت كلّ شيء. أنظر إليك فيدور رأسي. أمن المعقول أنّك تتنفّسين، وأنّك حيّة، وأنّك لي. داشا، أتفهمين شيئاً مما أقوله؟

قالت داشا:

– أتذكر جلوسنا على ظهر السّفينة، وقد هبّ النسيم، وتلألأ النبيذ في الأقداح، وقد أحسست آنذاك بأننا نمخر نحو السعادة...

– وهل تذكرين الظّلال الزّرق هناك؟

هـزّت داشا رأسهـا، وخُيّل إليها على الفور بأنهـا هي أيضاً تتذكّر ظـلالاً زرقاً رائعة. وطافت في ذاكرتها طيور النّورس التي كانت تطير وراء السّفينة، والشّطئان الواطئة، والدّرب المُتلألئ الذي ألقته الشمس بعيداً على الماء، والذي بدا لها كان نهايته الأخرى تلتقي ببحر السّعادة الأزرق المُتألّق. بل وتذكّرت داشا الثّوب الذي كانت ترتديه...إلى كم من سنين طويلة قد مرّت منذ ذلك الحين...

في المسـاء عادت يكاترينـا دميتربيفنا راكضةً مـن نادي الحقوقيين وهي مُنفعلةٌ مُتهلّلة، وروت قائلة:

– في بروغـراد انتقلـت كلّ السّلطـة إلى لجنـة الدّومـا. واعتقـل الـوزراء، ولكنّ شائعات رهيبةً تسري بين الناس تقول أنّ القيصر غادر مقرّ القيـادة، وأنّ الجنرال إيفانوف يزحف على بتروغراد بفيلق كامل ليضـع حـداً للقلاقل...أمّا هنـا فقد حدّد يوم غـد لاقتحام الكُرملين والتّرسانة...يـا إيفان إيليتش، غداً سنأتي، أنا وداشا، إليك في الصّباح لنشاهد الثّورة...

٣٨

كان في وسع المُشاهد أن يرى من نافذة الفندق سيل الناس الأسود يتقدّم ببطءٍ في شارع تفيرسكايا الضيّق، وتتحرّك الرّؤوس، وطاقياتٌ كثـيرة العـدد، وقبّعـات، ومناديـل رأس، ورقـع الوجـوه الصّفراء.

والفضوليون يطلّون من جميع النوافذ، والأولاد على السّطوح.

وكانت يكاترينا دميتريفنا واقفةً عند النافذة وقد رفعت برقعها حتى حاجبيها. كانت تُمسك يد تليغين مرّة، ويد داشا أخرى وتقول:

– ما أرهب ذلك!..ما أرهب ذلك!

فكان إيفان إيليتش يقول:

– يكاترينا دميتريفنا، أؤكّد لك أنّ الشّعور السائد في المدينة مُسالمٌ للغاية. قبل مجيئكما هرعت إلى الكريملين، فعلمت أنّ المُفاوضات جاريةٌ هناك. والظاهر أنهم سيسلمون الترسانة دون إطلاق رصاصة...

– ولكن لماذا هم ذاهبون إلى هناك؟..انظر أيَّ عددٍ ضخم من الناس...ماذا يريدون أن يفعلوا؟..

كانت داشا تنظر إلى سيل الرّؤوس المُتموّج وإلى خطوط السّطوح والأبراج. كان الصباح باهت الضّوء، خفيف البرد. وكان ثمّة سربٌ من غربان الزّروع يحومُ بعيداً فوق القباب الذّهبيّة لكنائس الكريملين وفيق النسور المقوّسة الأرجل في أعلى الأبراج المُدبّبة.

وخُيّل لداشا أنّ أنهاراً عظيمة قد اكتسحت الجليد، وطفحت على الأرض وأنها وعزيزها محمولان بهذا التيار، وليس عليها الآن إلا أن تمسك بده بقوة. وخفق قلبها قلقاً وفرحاً، مثل قلب طائرٍ يُحلّق في أعالي الجوّ.

قالت كاتيا:

– أريد أن أرى كلّ شيء، لنخرج إلى الشارع.

كانت الأعلام الحمراء تُزيّن بناية دوما المدينة الآجريّة الداكنة اللّون–مقرّ قيادة الثّورة–ذات الأعمدة الشّبيهة بالقناني، والدرابزينات العديدة، والشّرفات والأبراج. وكانت شرائط القماش الأحمر تلفّ

الأعمـدة، وتتدلى فوق إفريز المدخـل الرّئيسيّ، وأمـام المدخل أربعة مدافـع رماديّة علـى عجلات عاليـة رابضة على الرّصيـف المتجمّد. وعلـى المدخل جلس جنود الرّشاشات متكوريـن على أنفسهم، وقد زينوا كتافياتهم بأشرطة حمراء. وكانت جماهيرٌ غفيرةٌ من الناس تنظر بتوجّس مرح إلى الأعـلام الحمراء، وإلى نوافذ الدّوما المُتربة السوداء، حتـى إذا ظهر في الشّرفـة الصغيرة فوق مدخل البنايـة شخصٌ صغير الجرم بادي الانفعال، ولوّح بيديه، وصرخ بشيءٍ غير مسموع. ارتفع من الحشد هدير الفرح.

وكان الناس إذا ملأوا أبصارهم بالنّظر إلى الأعلام والمدافع انصرفوا سائريـن على الثّلج الذائب قليلاً والقـذر عبر أطواق كنيسة إيفرسكايا العميقـة خارجـين إلى الساحـة الحمـراء، حيـث كانـت الوحدات العسكريّة الثائرة تجري مفاوضات عند بوابتي سباسكيه ونيكولسكيه مع المُنتدبين من الفوج الاحتياطيّ المُرابط والمُتحصّن في الكريملين.

دفعـت الجماهير كاتيا وداشـا وتليغين بسليلهـا إلى مدخل الدوما تمامـاً. كان الصّباح يترمى مُتعالياً من شارع تفيرسكايا حتى ملأ أرجاء الساحة.

– يا رفاق، تنحّوا... يا رفاق راعوا النّظام!

ارتفعـت بذلـك أصواتٌ شابّـة مُنفعلـة. انشقّ حشـد الناس على مضض، فاندفـع خلالـه إلى مدخـل الدّومـا أربعة طـلاب يلوّحون ببنادقهـم، وشابّـةٌ مليحة الوجه شعثـاء الشّعر في يدهـا سيف. كانوا يسوقـون عشرة مُعتقلين من رجال الشّرطة ضخـام مشوربين مُطرقي الرّؤوس عابسـين شُدّت أيديهـم وراء ظهورهم. سـار في مُقدّمتهم شابط شرطـة له رأسٌ حليق مزرقٌ حاسر، والـدّم قد تخثّر مسوداً عند صدغـه. مرّر عينيـه الصّهباوين اللامعتين بسرعة علـى وجوه الحشد

المُستهزئة. كانت كتافيّتا معطفه قد انتزعتا مع قطعةٍ منه.

وتردّدت أصواتٌ من الحشد:

– جاء ما كان ينتظركم، يا أصحاب! لعبتم علينا، وكفى.

– وحكمتم حكم القياصرة...

– عترةٌ ملعونة!...

– أمسكوهم، واجعلوهم يذوقون العذاب...

– يا أولاد، هيا!..

صاح الطّلبة مبحوحي الأصوات:

– يا رفاق، يا رفاق. اتركوهم يمرّون. راعوا النّظام الثّوريّ!

وصعدوا إلى مدخل الدوما راكضين دافعين رجال الشّرطة، وغيّبتهم الأبواب. وعندئذٍ تدافع وراءهم بعض الأشخاص، ومن بينهم كاتيا وداشا وتليغين.

كان بعض جنود الرشاشات يُقرفصون عند رشاشاتهم على الأرض الرّطبة في دهليزس عارٍ عالي السّقف باهت الإضاءة. وكان أحد الطّلبة–وهو فتىً مُمتلئ الخدّين صعقه الصّياح والتّعب على ما يبدو–يصيح بكلّ داخل.

– لا أريد أن أفهم شيئاً! أعطني التّرخيص بالدّخول!..

وكان بعض الداخلين يبرزون له تراخيصهم، والبعض الآخر يكتفون بهزّ أذرعهم عليه، ويرتقون السّلّم العريض إلى الطابق الثاني، حيث كان الجنود المُتربون النّعسى الصموتون مُستلقين أو قابعين قرب جدران الممرات العريضة غير تاركين بنادقهم. كان بعضهم يمضغ الخبز، والبعض الآخر يشخر، وسيقانهم الملفوفة بلفائفها منطويةً

تحتهـم. وكان المُتفرّجون يمرّون مُتسكّعين ويقرأون الإعلانات الغريبة المُدبّسـة على الأبواب ويتطلّعـون إلى المفوّضين المبحوحين الراكضين من حجرةٍ إلى أخرى، المُهتاجين إلى آخر حدود الطاقة الإنسانيّة.

امتلأ بصر كاتيا وداشا وتليغين بكلّ هذه الغرائب، وشقّوا طريقهم إلى قاعة ذات علوٍّ مزدوجٍ تغطي نوافذها ستائر أرجوانيّة حائلة اللون، وتصطفّ فيها المساطب المُبطّنة بالأرجوان على شكل أنصاف دوائر. وكان علـى الجـدار الأماميّ إطاران مُذهّبان فارغـان كانا يضمان من قبـل صورتـي القيصر والقيصرة ويبـدوان الآن مثل بقعتـين سوداوين ضخمتـين. وأمـام الإطارين تمثـالٌ مرمريّ للامبراطـورة يكاترينا في روبهـا البرونـزيّ المُتباعد الطّرفين. تبتسـم مُنطلقـةً الأسارير مُداهنة شعبها.

وعلى مساطب القاعة جلس أناسٌ مُرهقون يسندون رؤوسهم على أيديهـم وقد بدت وجوههم مسودّةً غـير حليقة. وكان بعض الرّجال نائمـين دافنـين وجوههم في لوحـة الكتابة أمامهـم، والبعض الآخر ينزعون القشرة عن قطع السّجق في غير ما رغبة، ويأكلون الخبز. وفي الأسفـل، أمام تمثال يكاترينا المُبتسمـة، جلس شبان ممتقعو الوجوه في قمصان سـود إلى منضدةٍ طويلة فُرش عليها غطاءٌ من المخمل الاخضر المُذهّـب الحواشي، وبين هؤلاء رجـلٌ أصهب اللحية طويل الشّعر... قالت كاتيا:

– انظري يا داشا، هذا هو الرّفيق كوزما وراء المنضدة.

وفي تلـك اللحظـة تقدّمت من الرفيق كوزما فتـاةٌ قصيرة الشّعر، مُدبّبـة الأنف، وأخذت تهمس بشـيء. أصغى الرّجل دون أن يلتفت ثمّ نهض وقال:

– أعلن غوتشوف رئيس البلديّة للمرّة الثانية أنه لن يوزّع الأسلحة

على العُمال. اقــترح التّصويت بدون مُناقشةٍ على احتجاجٍ ضدّ عمل اللجنة الثّوريّة.

وأخـيراً استطاع تليغين أن يعرف (بعـد أن استجوب طالباً قصيراً مُستغرقاً في تدخين سيكارة) أنّ اجتماع سوفييت نواب العُمال مُستمرٌّ هنا في قاعة يكاترينينسكي هذه لليوم الثاني بلا انقطاع. في فترة الغداء رأى جُنود الفوج الاحتياطـيّ الموجودون في الكريملين دخان مطابخ الميـدان المُتنقّلة في الساحة الحمراء فاستسلمـوا، وفتحوا البوابة. وعمّ الصّيـاح الساحة، وارتفعت القُبّعات في الهواء. وارتقى جُنديٌّ صغير لوبنويـه ميستو[١٤] الموضع الذي قُتل فيه دميتري الدّعيّ[١٥] في زمانه، فانطرح عارياً تماماً، وقناع خروفٍ على وجهه، ومزمار البهلول على بطنه، ذلـك المكان الذي كان يُعلن فيه تتويـج القياصرة وتنحيهم عن العرش، وتُذاع فيه جميـع حريات الشّعب الروسـيّ وقيوده، ارتقى تلك المنصّة الواطئـة التي كان الأرقطيون يتناثر عليها أحياناً كثيرة، ثمّ يعـود الدّم المسفوك فيرويها. وكان هذا الجُنديّ الضّئيل يرتدي معطفاً صلبـاً، وبدأ يتكلّـم عن شيء منحنيـاً للناس، دافعاً طاقيّتـه العالية إلى أذنيـه بكلتا يديه، و لم يتبيّن أحدٌ شيئاً من كلامه لشدّة الصّخب. وكان الجُنـديّ ضئيلاً جداً، غُربل في آخر موجة للتجنيد من إحدى الأماكن النائيـة، ومع ذلك فإنّ سيّدةً كانت تضـعُ على رأسها قُبّعةً بريش مائلةً إلى جانـب قد شقّت طريقها إليه، وقبّلته. وبعـد ذلك أنزله الناس من "لوبنويه ميستو"، ورفعوه على أذرعهم، وحملوه هاتفين.

١٤– منصّةٌ حجريّة مستديرة الشّكل كانت تعلن من فوقها مراسيم القياصرة وأحكام الإعدام. (المترجم).

١٥– المُدعي الثالث على عرش روسيا. وقد تسمى باسم دميتري ابن القيصر إيفان الرّابع (الرّهيب) وأعدم سنة ١٦١٣ في موسكو في "لوبوتيه ميستو". (المترجم).

وفي تلك الأثناء صعد شابٌ من المُحتشدين على تمثال الجنرال سكوبليف مُقابل دار الحاكم العامّ في شارع تفيرسكايا، وشدّ قطعةً من القماش الأحمر على سيفه. وتعالى الهتاف له. وانسلّ بعض الأشخاص الغامضين إلى قسم البوليس السّريّ من الزّقاق وسمع من هناك صوت زجاج يتكسّر، ثمّ طلع دخان. وهتف أناس: "هورا". وعند نُصب بوشكين في بولفار تفيرسكوي تحدّثت كاتبةٌ مشهورة والدّمع يسيح من مآقيها عن فجر الحياة الجديدة، وبعد ذلك وضعت بمساعدة طالب علماً أحمر صغيراً على يد بوشكين الواقف في لحظة استغراق. وهتف الناس: "هورا". وكانت المدينة كلّها كالسّكرى طيلة ذلك اليوم. و لم يعد أحدٌ إلى بيته حتى ساعة متأخّرة من الليل، وقد تجمهر الناس في تجمّعات، وراحوا يتحدّثون، ويبكون من الفرح، ويتعانقون، وينتظرون برقيات. فإنّ روح أهالي المدينة تطغى بعد ثلاثة أعوامٍ من الجزع والكراهية والدّم.

عادت كاتيا وداشا وتليغين إلى البيت عند هُبوط الظّلام فعرفوا أنّ الخادمة ليزا قد خرجت إلى بولفار بريتشستنسكي لحضور اجتماع، وأنّ الطّباخة قد حبست نفسها في المطبخ، وأنّها تبكي وتُطلق صرخاتٍ خافتة. أفلحت كاتيا بعد لأي في إجبارها على فتح الباب:

– ماذا حدث لك، يا مارفوشا؟

– قـ...تـ...لوا...قيصرنا.

قالت وغطّت بيدها فمها المُمتلئ ذا الشّفتين المُنتفختين من البُكاء. وكانت رائحة الكُحول تفوح منها.

قالت كاتيا مُنزعجة:

– أنت تقولين هراء. إنّ أحداً لم يقتله.

وضعت سخان الشاي على موقد الغاز، وذهبت لتعدّ المائدة. استلقت داشا على الأريكة في غرفة الجُلوس وجلس تليغين عند قدميها. قالت داشا:

– إيفان، يا عزيزي، إذا أخذتني غفوةٌ دون أن أدري فأيقظني حين يُعدّ الشاي فأنا مُشوّقةٌ إليه جداً.

وانقلبت، ووضعت كفّيها تحت خدّها، وقالت بصوتٍ أدركه النّعاس:

– أحبّك كثيراً.

في الشّفق كان اللفاح الذي كان تلتفّ به داشا يلوح أبيض. وكان تنفّسها غير مسموع. جلس إيفان بلا حراك، وقد انفعم قلبه. ظهر ضوءٌ في شقّ الباب في نهاية الغرفة، ثمّ انفتح الباب، ودخلت كاتيا، وجلست إلى جانب إيفان إيليتش على مسند الأريكة وطوّقت ركبتيها. وبعد بُرهةٍ من الصّمت سألت بصوتٍ خفيض:

– غفت داشا؟

– طلبت أن توقظ عند تهيئة الشاي.

– ومارفوشا تبكي في المطبخ لأنّ القيصر قُتل. ماذا سيحصل، يا إيفان إيليتش؟..يُخامرني شُعورٌ بأنّ جميع السّدود قد خُرقت... وقلبي يوجعني خوفاً على نيقولاي إيفانوفيتش...

– أرجو، يا عزيزي، أن ترسل له برقيّةً في الصباح الباكر غداً...قل لي متى تنويان—أنت وداشا—السّفر إلى بتروغراد؟

لم يُجب إيفان إيليتش. أدارت كاتيا له رأسها وتفرّست في وجهه

بعينيهـا الواسعتين كعيني داشا تماماً، سوى أنهمـا عينا امرأةٍ جدّيتان، وابتسمت، وجذبت إيفان إيليتش، وقبّلته من جبينه.

في صبـاح اليـوم التالي خرج الناسـ جميعاً إلى الشـارع. سارت الشاحنـات المملوءة بالجنود في شـارع تفيرسكايا وسط زحام الناس، والهتافـات المُتواصلة، فـكان الجنود مُسلّحين بالحـراب والسّيوف. واعتلى الصّبيان متون المدافع المُقرقعة ووقفت على أكوام الثّلج القذرة وعلـى الأرصفـة لحراسة النّظام فتيـاتٌ في ريعان الشبـاب شاهرات السّيوف متوتّـرات الوجوه وطلاب مُدجّجـون بالسلاح لا يعرفونَ الرّحمـة. إنهـم الميليشيـا المُتطوّعة. صعـد أصحـاب الحوانيت على السـلالم وأنزلوا النّسور الامبراطوريّة من لافتاتهم. وسارت في شارع المدينـة فتياتٌ سقيمات المظهر-هنّ عاملات مـن معمل التّبغ يحملن صـورة ليـف تولستوي الـذي كان ينظـر بجهامة من تحـت حاجبيه المعقوديـن إلى كلّ هذه الغرائب. وبدا وكأنّ مـن المُستحيل أن تكون بعد الآن حربٌ أو بغضاء، ولم يبق إلا أن ترفع الراية الحمراء على أحد أبـراج الأجراس العالية حتى يُدرك العالم أجمع أننا جميعاً إخوة، وأنّ القوّة الوحيدة في الدّنيا في الفرح والحريّة والحبّ، والحياة...

وحـين حملت البرقيات النّبـأ الصاعق عن تنحيـة القيصر وانتقال المُلـك إلى كبير الأمراء ميخائيل، وعن رفضه للعرش القيصريّ بدوره، لم يُدهش أحدٌ كثـيراً، فقد بدا وكأنّ تلك الأيام حبلى بأعظم من هذه العجائب.

لمعـت نجمةٌ في السمـاء الشّفافـة اللانهائيّة العُمـق، فوق خطوط السّطوح غير المُستقيمة، والشّفق البُرتقاليّ. ولاحت أغصان الزّيزفون العاريـة سوداء ساكنة تلبّدت الظّلمة تحتهـا تماماً، وتجمّدت البرك علي الرّصيـف وراحت تتكسّر تحت الأقدام. توقّفت داشا، ودون أن تفك

يديهـا المُتشابكتين اللتـين طوّقت بهما يد إيفـان إيليتش مدّت بصرها عـبر السّياج الواطئ في الضّـوء الباهت في النافذة الصّغيرة العميقة في كنيسة القدّيس نيقولا.

كانـت الكنيسة وفناؤهـا في الظّلّ تحت أشجـار الزّيزفون. ترامى مـن بعيد صوت انصفاق باب وسـار في الفناء رجلٌ قصير في معطف طويـل يصل إلى الأرضـ، وقبّعةٍ معكوفة الحافّـة. وكان الجليد يتكسّر تحـت حذائه اللبـاديّ، وترامت صلصلة المفاتيـح. أخذ الرّجل يرتقي برج الجرس على مهل. همست داشا:

– ذهب القندلفت ليدقّ الجرس.

ورفعـت داشا رأسهـا. كان ألَـقُ الغروب يرتمي على ذهـب القُبّة الصّغيرة على برج الكنيسة.

دقّ الجرس الذي يدعو الناس منذ ثلاثمائة عام إلى سكينة النّفس قبل النّوم. وقفزت إلى ذاكرة إيفان إيليتش في الحال تلك الكنيسة الصّغيرة في الطّريق، والمرأة التي كانت تبكي بصمتٍ على عتبتها وهي بردائها الأبيض، والطّفل الميّت على ركبتيها. ضغط إيفان إيليتش بكوعه على يد داشـا ضغطةً قويّة. نظرت داشا إليه نظرة تسـاؤل. وسألته بهمسٍ سريع:

– أتدري؟ لنذهب...

ابتسـم إيفـان إيليتشـ ابتسامةً عريضـة، فعبست داشـا وضربت الأرض بحذائها.

– ليسـ في الأمر ما يُضحك حـين تسير امرأةٌ ويدها بيد الشّخص

الذي تحبّه أكثر من أيّ شيءٍ آخرٍ على الأرض، وتبصر ضوءاً في نافذةٍ فيدخلان الكنيسة، ويعقدان قرانهما...

وتناولت داشا يد إيفان إيليتش ثانية، وسألت:

– هل أنت فاهمي؟

٣٩

– أيها المُواطنون، جنود الجيش الروسيّ الحرّ منذ الآن فصاعداً. لقد حظيت بشرف نادر، هو أن أهنّئكم بيوم مجيد: إنّ قيود العبوديّة قد حُطّمت، وقامَ الشّعب الروسيّ خلال ثلاثة أيام بأعظم ثورةٍ في التاريخ دون إراقة قطرةٍ من الدّماء. فقد خُلع القيصر المُتوّج عن العرش، واعتُقل الوُزراء القيصريون. وتنازل ميخائيل وليّ العهد من تلقاء نفسه عن عبء العرش الثّقيل. ومنذ اليوم انتقلت السّلطة بكامل هيئتها إلى الشعب. وأصبحت على رأس الدّولة حكومةٌ موقّتة لكي تجري الانتخابات إلى الجمعيّة التّأسيسيّة لعموم روسيا في أقرب وقتٍ مستطاع، على أساس التّصويت السريّ المُباشر المُتساوي العام... فلنهتف منذ اليوم: عاشت الثّورة الروسيّة، عاشت الجمعيّة التّأسيسيّة، عاشت الحُكومة المؤقّتة!...

تعالى هُتافٌ طويل من آلاف الجنود المُحتشدين. أخرج نيقولاي إيفانوفيتش سموكوفنيكوف منديلاً كبيراً كاكيّ اللون من جيب سترته الشّموا، ومسح رقبته ووجهه ولحيته. كان يتكلّم وهو واقفٌ على منصّة مصنوعة بارتجالٍ من ألواح خشبيّة، يضطرُّ الصاعد إليها إلى التّسلّق على عوارض مُتقاطعة. وكان يقف وراء ظهره آمر الكتيبة

تيتكين الذي رقّي قبل حين إلى رتبة مُقدّم، وقد ارتسم الانتباه المُتوتّر على وجهه المسفوع بلحيته القصيرة وأنفه المُمتلئ. وحين تعالى الهُتاف رفع يده إلى طرف طاقيّته بتحيّة ساهمة وكان زهاء ألفيّ جنديّ يقفون أمام المنصّة في الحقل المُنبسط المُرقّش ببقع سوداء من الأرض والثّلج المُتسخ. كانوا يقفون فاغري الأفواه مُعتمرين بالخوذ الحديديّة لابسين المعاطف المُتجعّدة بلا أحزمة، وبلا سلاح، يُصغون إلى الكلمات المُذهلة الذي كان ينطق بها سيّدٌ أحمر كالديك الحبشيّ. وفي المدى البعيد كانت مداخن قرية محروقة تلوح بارزةً من خلال الضّباب الرّماديّ. ووراء القرية كانت تبدأ مواقع الألمان.

– أيها الجُنود!

تابع نيقولاي إيفانوفيتش خطابه، وقد مدّ إلى الأمام يده مُنفرجة الأصابع، وتدفّق الدّم إلى رقبته:

– بالأمس فقد كنتم أناساً من درجة واطئة، قطيعاً أعجم كانت القيادة العُليا تُرسله إلى المذبحة. ولم يكونوا يسألونكم ما الذي يجب أن تموتوا من أجله.. كانوا يجلدونكم على أقلّ ذنب، ويرمونكم بالرّصاص دون محكمة. (سعل المُقدّم تيتكين، ورفع قدماً ووضع أخرى، إلا أنّه صمت، وأنزل رأسه ثانية، وعاد إلى إصغائه)، لقد عيّنتني الحكومة المؤقّتة مفوضاً لجيوش الجبهة الغربيّة–وهنا شدّ نيقولاي إيفانوفيتش على أصابعه كمن يُمسك بعنان–وأصرّح لكم أنه منذ اليوم لا توجد رتبٌ واطئة، ولا ألقاب. وأنتم الجنود، منذ اليوم، مواطنون مُتساوون للدّولة الروسيّة ولا يوجد الآن فرقٌ بين الجنود وقائد الجيش. وقد ألغيت ألقاب صاحب السّيادة، صاحب المعالي، صاحب الفخامة. منذ اليوم ستقولون "مرحباً أيها السّيّد الجنرال" و"لا، أيها السيد الجنرال" و"نعم، أيها السّيدّ الجنرال". وصيغ الجواب

المُهينة مثـل "بالأمر والخدمة، يا صاحب السيادة" قد ألغيت كما ألغي أداء الجنـديّ التحيّـة العسكريّـة لـكلّ ضابط مهما تكـن رتبته. وفي إمكانكم أن تصافحوا الجنرال إذا شئتم ذلك...

ها–ها–ها–

سرت هذه الوهوهة مرحةً في حشد الجنود. وابتسم تيتكين أيضاً، ورفّت رومشه خوفاً.

– وأخيراً نأتي إلى الشّيء الأهمّ: أيها الجنود، من قبل كانت الحكومة القيصريّة هي التي تخوض الحرب، ومنذ اليوم سيخوضها الشّعب، أنتم أنفسكم. ولهذا تقترح الحكومة المؤقّتة عليكم تشكيل لجان الجنود في جميع الجيوش–لجان السّرايا والكتائـب والأفواج صعوداً حتى لجان الجيوش...أرسلـوا إلى هذه اللجان الرّفـاق الذين تثقون بهم!..ومنذ اليـوم سيتحرّك إصبع الجنديّ على الخارطـة العسكريّة إلى جانب قلم القائد الأعلى...أيّها الجنود، أهنّؤكم بمكسب الثّورة الرئيسيّ!..

وضجّـت الهتافـات في الحقـل مرّةً أخـرى. وقف تيتكـين بهيئة استعـداد، وأدّى التحيّـة العسكريّـة. واكتسـى وجهه لونـاً رمادياً. وأخذت الصيحات ترتفع من الجنود المُحتشدين:

– هل سنعقد الصّلح مع الألمان عن قريب؟

– كم سيخصصون من الصابون للفرد الواحد؟

– وماذا بخصوص الإجازات؟ ما هي التّعليمات؟

– أيهـا السيّد المُفوّض. مـاذا سيكون عندنـا الآن؟ هل سننتخب ملكاً؟ ومن سيُحارب؟

ولكـي يردّ على الأسئلة على نحوٍ أفضل نزل نيقولاي إيفانوفيتش من المنصّـة، فأحاطه الجُنود المُهتاجونَ في الحـال. أسند المُقدّم تيتكين

مرفقه على درابزين المنصّة، وراقب رأس المفوّض الحربيّ الحليق الحسير وقفاه المُمتلئ وهو يتحرّك وسط الخوذ الحديديّة، ويدور ويبتعد. أمسك جنديٌّ أحمر الشّعر يلوح عليه المرح والغضب يضع معطفه على كتفيه (كان تيتكين يعرفه جيداً، من سريّة المُخابرة) أمسك نيقولاي إيفانوفيتش من حزام سترته، وراح يسأله مطوفاً بصره فيما حوله:

– أيها السيّد المُفوّض الحربيّ، أنت تحدّثت لنا حديثاً مشوّقاً، ونحن أصغينا إليه بشوق... والآن أجبني على هذا السّؤال.

ضجّ الجنود فرحين، واشتدّ تزاحمهم. تعبّس المُقدّم تيتكين، ونزل من المنصّة واجماً.

قال الجنديّ وهو يكاد يمسّ أنف نيقولاي إيفانوفيتش بإظفره الأسود:

– أطرح عليك هذا السّؤال. تلقّيت من قريتي رسالةً تخبرني بأنّ البقرة التي كانت في بيتي قد فطست، وأنا لا أملك حصاناً، زوجتي راحت تطوف في الأرض مع أولادنا تستجدي الناس كسر الخبز... أريد أن أسأل: أيحقّ لك الآن أن ترميني بالرّصاص إذا حاولت الهرب؟

– إذا كانت سلامتك الشّخصيّة أغلى عندك من الحُريّة، ففي وسعك أن تخونها، تخونها كيهوذا. عندئذ ستقول روسيا لك في وجهك: لا تستحقّ أن تكون جندياً في الجيش الثّوريّ...

– اذهب إلى بيتك!

صرخ نيقولاي إيفانوفيتش بحدّة، فقال الجُنديّ:

– لا تصرخ علي!

– ومن أنت لتصرخ علينا!

– أيهـا الجنود–ورفع نيقـولاي إيفانوفيتش جسمـه على أطراف أصابعه–هنـا يجـري سـوء تفاهـم...إنّ الوصيّـة الأولى للثورة هي الإخلاص لحلفائنا...وعلى الجيش الروسيّ الثـوريّ الحرّ أن يُهاجم بقوّةٍ جديدة عدوّ الحُريّة الألدّ، ألمانيا الامبرياليّة...

فارتفع صوتٌ غليظ:

– وأنت هل سبق لك أن غذّيت القمل من دمك في الخنادق؟

– إنّه لم ير قملةً واحدةً منذ ولادته..

– إهدِ له ثلاثاً للتّكاثر...

– لا تحدّثنا عن الحُريّة. حدّثنا عن الحرب. نحن نُحارب منذ ثلاث سنوات...أنـت في طيب مقام في المؤخّرة، تغذّي لك كرشاً أما نحن فيجب أن نعرف كيف نُنهي الحَرب...

صاح نيقولاي إيفانوفيتش مرّةً أخرى:

– أيها الجنود، إنّ راية الثّورة قد رُفعت. الحريّة والحرب حتى النّصر والأخير...

– أوه، أبلهٌ ملعون لا فائدة منه...

– نحن نُحارب منذ ثلاث سنوات، ولم نجد نصراً...

– ولماذا إذن خلعوا القيصر؟..

– خلعوا القيصر عن قصد. كان يعرقل عليهم تطويل الحرب...

– إنه مأجور، يا رفاق...

شـقّ المُقـدّم تيتكين طريقه إلى نيقـولاي إيفانوفيتـش دافعاً الجنود بكوعـه، وشاهد مدفعياً ضخمـاً مكوّر الكتفين أسـود الشّعر يُمسك

المُفوّض من صدره، ويهزّه ويصرخ في وجهه:

– لماذا جئت إلى هنا؟ قل: لماذا جئت إلينا؟ جئت لبيعنا، يا إبن الكلبة...

وغار قفا المُفوّض المُستدير في رقبته، واهتزّت لحيته الشائلة إلى فوق، الشّبيهة بلحية مُستعارة. دفع الجُنديّ، ومزّق بأصابع مُرتجفة ياقة قميصه. تعبّس الجُنديّ وخلع خوذته الحديديّة، وضرب بها رأس نيقولاي إيفانوفيتش ووجهه عدّة ضرباتٍ قويّة...

٤٠

جلس حارسٌ ليليّ ورجلٌ من رجال الميليشيا عند باب مخزن المجوهراتيّ مورافييتشيك يتبادلان الحديث بخفوت، وكان الشارع خالياً، والمخازن مُغلقة، وريح آذار الخفيفة تصفر في أشجار الحور التي لم تكتس أوراقاً بعد، وتخشخش في إعلان "قرض الحريّة" المُلصق على سياجٍ، والقمر الوضاء كقمر الجنوب، الحيّ، مثل قنديل البحر يتدلى عالياً فوق المدينة.

وكان الحارس الليليّ يتحدّث ببطء:

– وكان هو يصطاف في منزله على الساحل البحريّ في يالطا، وكان قد خرج إلى التّنزّه في سروالٍ أبيض، حسب الأصول، بكلّ نياشينه. وإذا بهم يسلّمونه برقيّةً في الشارع عن خلع صاحب الجلالة الإمبراطور. ويقرأ البرقيّة، وتنفجر الدّموع من عينيه أمام الناس جميعاً.

ردّد رجل الميليشيا مُتعجباً:

– أي، أي، أي.

– وبعد أسبوعٍ أُقيل.

– والسّبب.

– لأنّه حاكم، والحاكم غير مقبولٍ في هذه الأيام.

– أي، أي، أي..

– كرّر رجل الميليشيا تعجبه، ناظراً إلى قط ضاوٍ كان ماضياً في شؤونه بحذرٍ في ظلّ القمر تحت شجيرات الأقاسيا.

– ...وكان جلالة الامبراطور يعيش في ذلك الوقت في موغيليف بين قواته وحياته رخيةً مطمئنّة. في النهار يشبع من النوم، وفي الليل يُطالع التقارير عن المعارك الحاصلة...

قال رجل الميليشيا:

– الملعون عطشانٌ بالتّأكيد، وذاهبٌ لشرب الماء.

– عمّن تتحدّث؟

– عن قطّ مخزن سينوبلي للدخان. خرج يتمشى.

– حسناً. وفجأةً يتّصلون بجلالة الإمبراطور بالخطّ المُباشر، ويُبلغونه بكذا وكيت، ويقولون أنّ شعب بتروغراد ثائر، والجنود لا يريدون التّصدّي للشّعب، بل يبتغون العودة إلى بيوتهم. ولكنّ صاحب الجلالة لا يظنّ ذلك بالأمر الخطير. ويستدعي جميع الجنرالات، ويلبس النّياشين والوشائح، ويخرج إليهم ليقول: "الشّعب ثائرٌ في بتروغراد، والجنود لا يريدون التّصدّي للشّعب بل يبتغون العودة إلى بيوتهم. فماذا يجب أن أفعل؟ ادلوا لي برأيكم. وماذا تحسبون؟ نظر جلالته إلى الجنرالات، ولكن هؤلاء، يا صاحبي، لم يقولوا رأيهم، بل أداروا وجوههم جميعاً..

– أي، أي، أي، مُصيبة!

واحدٌ منهم فقط لم يدر وجهه عن الامبراطور، وهو جنرالٌ عجوزٌ سكّير. قال لـه: "يا صاحب الجلالة، مُرني أضع رقبتي لـك". هزّ صاحب الجلالة رأسه، وابتسم بمرارة، وقال: "من بين جميع رعاياي الأحباء لم يبق إلا واحدٌ مخلص، وحتى هذا تجده سكران كلّ يوم منذ الصّباح. والظاهر أنّ مُلكي قد انتهى. ناولوني ورقةً فيها شعار الدّولة لأوقّع على تنازلي عن العرش".

– ووقّع بالفعل؟

– وقّع، وذرف دموعاً مريرة.

– أي، أي، أي، مُصيبة...

وفي تلك الأثناء مرّ بالمخزن رجلٌ طويل يلبس كيبيه ذات رأسٍ مُدبّب كبير غاطسةٍ حتى حاجبيه. وكان ردن سترته الفارغ محشوراً في حزامه. أدار وجهه نحو الرّجلين الجالسين عند المخزن، ولمعت أسنانه بوضوح. قال الحارس خافت الصّوت:

– هذا الرّجل يمرّ للمرّة الرابعة.

– إنّه لصٌّ بالتّأكيد.

– هذه الحرب هي التي ولدتهم بهذه الكثرة يا صاحبي. ظهروا في أماكن لم تعرفهم من قبل، فنانون في صنعتهم.

دقّت الساعة على برج الجرس ثلاث دقات من مسافة بعيدة، وأعقبها صياح ديكة الفجر. وظهر ذو الذّراع الواحدة في الشارع مرّةً أخرى. وقد اتّجه هذه المرّة إلى الحارسين تماماً، نحو المخزن. صمت الرّجلان وراحا يتطلّعان إليه. وفجأةً قال الحارس بهمسٍ مُتسارع:

– وقعنا في داهية، يا إيفان، أطلق صفارتك.

أخـذ رجل الميليشيا يُخرج صفارته إلا أنّ ذا الذراع الواحدة وثب عليـه، وضربه بمقدّمه على صدره، وفي نفـس اللحظة ضرب الحارس الليلـي بمقبض المُسدّس على رأسه. وفي تلـك البرهة ركض رجلٌ ثانٍ نحو المدخل: كان قصيراً بارز الشاربين في معطف جُنديّ، وقد انقضّ على رجل الميليشيا، ولوى ذراعيه وراء ظهره بحركةٍ سريعةٍ قويّة.

وأخـذ ذو الذراع الواحدة والقصير يعالجـان القفل صامتين حتى فلاه، ودخلا مخـزن مورافييشيك ساحبين إلى دخله الحارس المصعوق ورجل الميليشيا المشدود الذراعين، وسدّا الباب وراءهما.

وانتهى كلّ شيءٍ في بضع دقائق. شدّت الأحجار الكريمة والذّهب في صُرّتين. وبعد ذلك قال القصير:

– وهذان؟

ورفـس بحذائـه رجل الميليشيا الـذي كان مُنطرحـاً على الأرض قرب البسطة.

تمتم رجل الميليشيا بصوتٍ ضغيف:

– يا عزيزي، لا داعي للقتل لا تفعلاه أيها الطّيّبان..

قال ذو الذّراع الواحدة بحدّة:

– لنذهب.

– أقول لك إنّهما سيبلّغان عنّا.

– لنذهب، يا سافل!

وأمسك أركادي جادوف الصُّرّة بأسنانه، ووجّه مُسدّسه "الموزر" علـى شريكه. فضحك هذا بتحكّم، وسار نحو الباب. وكان الشارع

ما يزال خالياً. خرج الإثنان بهدوء، وانعطفا في ركن الشارع، وسارا نحو "قصر كابرنيه". قال جادوف للرّجل القصير أثناء سيره:

– سافل، قاتل، وغد. تجنّب ذلك، إذا كنت تريد العمل معي. فهمت؟

– فهمت.

– والآن، أعطني الصّرة. واذهب في الحال وأعدّ القارب. سأذهب أنا لإحضار زوجتي. يجب أن نكون في البحر عند الفجر.

– نذهب إلى يالطا؟

– ليس هذا شأنك. إلى يالطا أو إلى القسطنطينيّة...أنا صاحب الأمر.

سافر تليغين وداشا إلى بتروغراد، وبقيت كاتيا وحيدة. وقد رافقتهما إلى محطّة القطار–كانا في حالة من شرود الذّهن، وكأنّهما في حُلم–وعادت إلى البيت وحدها عند حلول الظّلام. كان البيت خالياً. فقد خرجت مارفوشا وليزا إلى اجتماع خُدا البيوت. كانت غرفة الطّعام ما تزال عابقةً برائحة تبغ وزهور، وشجيرة الكرز المُزهرة ما تزال واقفةً في موضعها بين أوانيً الطّعام غير المرفوعة. سقت كاتيا الشُّجيرة بدورق الماء، وجمعت أواني الطّعام وجلست على مقعد دون أن تُشعل الضّوء، ووجهها إلى النافذة فرأت السماء وراءها مُظلمةً ملفعةً بالسّحب. دقّت ساعة الحائط في غرفة الطعام. وستمضي في دقّاتها، حتى لو تمزّق القلب حزناً وكمداً. ظلّت كاتيا جالسةً في سكون وقتاً طويلاً، ثم تناولت لفاحاً أزغب من على الكرسيّ الوثير، وألقته على كتفيها، وذهبت إلى غرفة داشا.

كان الفراش المُخطّط على السرير العاري يلوح في الظّلمة. وعلى أحد المقاعد علبةٌ كرتونيّةٌ فارغة من علب القُبعاتن وعلى الأرض

تناثـرت أوراقٌ ومزق. وبعد أن عرفت كاتيا أنّ داشا أخذت معها كلّ حاجياتهـا، و لم تبـق أو تنس شيئاً. فكدّرها ذلـك عظيم التّكدّر حتى تندّتـت عيناها. جلست علـى السرير، على الفراش المُخطّط، ساكنةً أيضاً وبلا حراك كما كانت في غرفة الطّعام.

دقّت ساعة غرفة الطّعـام العاشرة دقات رنانة. عدّلت كاتيا اللفاح علـى كتفيهـا، وذهبـت إلى المطبخ ووقفـت هناك برهـة، وأرهفت سمعها، ثمّ رفعت جسمها على أطراف أصابعها، وتناولت من الرّفّ دفـتر المطبخ، انتزعت منـه ورقةً بيضاء، وكتبت بقلـم رصاص: "ليزا ومارفوشـا. كان يجـب أن تخجلا على ترككما البيـت طوال النهار وحتـى الليل". ونزلـت دمعةٌ على الورقة. وضعـت كاتيا الورقة على طاولـة المطبخ، وذهبـت إلى مخدعها. فخلعـت ملابسها على عجل، وانسلّت إلى سريرها، وهدأت.

في مُنتصـف الليل صفـق باب المطبـخ، ودخلت ليـزا ومارفوشا تُطبطبـان بأقدامهمـا وتتحدثـان بصوت عـالٍ، ووراحتـا وجاءتا في المطبـخ، ثمّ هدأت حركتهما. وبعد ذلـك ارتفع ضحكها فجأة، بعد أن قرأتا الورقة. طرفت كاتيا بعينيها، و لم تُبد حراكاً.

ساد السّكون في المطبخ في آخر الأمر. ودقّت الساعة مُعلنةً الواحد بعد مُنتصـف الليل. وترامت هذه الدّقة رنانـةً ومؤرقة. انقلبت كاتيا على ظهرهـا، وأزاحـت البطانيّة عنهـا بضربةٍ من قدمهـا، وتنهّدت بصعوبـة عدّة مـرات، وكأنّها لا تجد الكفاية مـن الهواء، وقفزت من السريـر، وأضـاءت المصباح الكهربائـيّ، وقلّصت عينيهـا من ضوئه المُفاجـئ واقتربت من المرآة الكبيرة القائمة. كان قميص النوم الخفيف لا يصل إلى ركبتيها. نظرت كاتيا إلى صورتها في المرآة بسرعةٍ وسهوم، إلى صـورةٍ تبدو جدّ أليفةٍ لها، وارتعش حنكها. دنت من المرآة كثيراً،

ورفعت شعرها من الجانب الأيمن. "نعم، نعم، بالطّبع. هذا ثمّ هذا... وتمعّنت في وجهها كلّه-نعم، طبعاً... وبعد عام سيشتعل رأسي شيباً، ثـمّ تدركني الشّيخوخـة". أطفأت الكهربـاء، واستلقت على السرير ثانيـة، وغطت عينيها بكوعها. "لم أذق لحظةً من الهناء طوال حياتي. والآن انتهـى كلّ شيء... لن يكوّقني أحدٌ بذراعيه، ولا يعتصرني، ولا أحد يقول لي: يا عزيزتي، يا حبيبتي، يا فرحتي..."

ومن بين الأفكار المُرّة والتّأسفات طاف في ذاكرة كاتيا فجأةً دربٌ رمليٌّ رطب عبر مرج من الأرض مزرورق من المطر، وأشجار زيزفونٍ كبيرة... وهي نفسهاً-كاتيا-تسير في هذا الدّرب في ثوب بنيّ ومؤزرٍ أسود، والرّمـل يُهسهس تحت نعليها، وهي تحسّ بخفّتها، ورشاقتها، والنّسيـم يُداعب شعرها، والطالـب أليوشا يقود دراجته على العشب الرّطـب، لا على الـدّرب، ولكن على العشب المُبلّـل. وانقلبت كاتيا لتمنـع نفسها مـن الضّحك... وأليوشـا يقول بصوتٍ أجـوف: "أنا أعرف-أنـا لا آمل بـأن تبادليني شعـوري. وقد جئتُ لغايـة واحدة فقـط، هـي أن أُفضي ذلك لك. سأنهي حياتي يومـاً ما في محطّة قطارٍ نائيـة، فوداعاً..." ويمتطي دراجته ويسير عبر المـرج، مُخلفاً وراءه أثراً أزرق على العشب... ظهره مكوّرٌ في سترته الرّماديّة، وطاقيّته البيضاء تختفي وراء الخضرة. وتصرخ كاتيا: "أليوشا، عد!"

...أحقاً أن هذه التي يُعذّبها الأرق الآن، كانت واقفةً آنئذ في ذلك الدّرب الرّطب، والنّسيم الصّيفـيّ العبق برائحة المطر يُداعبُ مئزرها الأسود؟ قعدت كاتيا في السرير، ووضعت رأسها بين يديها، وأسندت كوعيهـا على ركبتيهـا العرايتين، ولاحت في خيالهـا أضواءٌ شاحبة، ورذاذٌ ثلجـيّ، وريـحٌ تدوي في أشجارٍ جـرداء، وصرير زلاجة زاعقٍ موحشٍ قانط، وعينا بيسونوف الجليدتانِ قريبتين عن عينيها... حلاوةُ الخورٍ وشلل الإرادة... رعشة الفضول المُقزّزة...

اضطجعت كاتيا مرّةً أخرى. ورنّ الجرس بحدّةٍ في سكون البيت. سرت البرودة في جسد كاتيا. ورنّ الجرس للمـرّةً الثانية. سارت ليزا في الدّهليز حافية نصف نائمة ترسل زفرات غاضبة، وصلصل مزلاج الباب الخارجـيّ، وبعد دقيقة سمعت كاتيا طرقـاً على باب مخدعها: "جاءت برقيّةٌ لك، يا سيّدة".

تناولـت كاتيا الظّرف الضيّـق مُتغضّنة الاساريـر، وفضّت الختم، ونشرت الورقة، وإذا ببصرها يغيم.

– ليزا–قالت وهي تنظر إلى الفتاة التي أخذت شفتاها ترتجفان من الذّعر–مات نيقولاي إيفانوفيتش.

صرخت ليزا، وانفجرت بالبكاء. طلبت كاتيا إليها أن تنصرف، ثمّ أعادت قراءة الحـروف الشّنيعة على شريط البرقيّة للمرةّ الثانية: "توفيّ نيقولاي إيفانوفيتش مُتأثراً بجراح بليغة أصابته أثناء تأدية واجبه النّبيل نقطة سينتقل جثمانه إلى موسكو على نفقة الاتّحاد..."

أحسّـت كاتيـا بثقل الغثيـان تحت نهدهـا، وغشاوةٌ سـوداء أمام عينيها، مدّت جسمها إلى الوسادة، وفقدت الوعي...

في اليـوم التـالي جـاء لزيـارة كاتيا ذلـك السّيّـد المُلتحـي المورد الوجنتـين الذي سمعته في اليوم الأوّل للثّورة يتحدّث في نادي الأمير كابوستين–أونجسكي–وقد أخذ يديها بيديه، وضغطهما على صداره الموبـر، وراح يقول له أنـه بإسم المُنظّمة التي كان يعمل فيها مع الفقيد نيقـولاي إيفانوفيتشـ، وبإسم مدينة موسكو الذي هـو الآن مُساعد مفوّضهـا، وبإسم روسيا والثّورة ينقل إلى كاتيا التّعازي والأسف على فقد مُناضلٍ مجيد في سبيل الفكرة تخطّفَهُ الرّدى قبل الأوان.

كان الأمـير كابوستين–أونجسكي بطبعه مُفعمـاً بالسّعادة والعافية والمـرح، وصادقـاً في إظهار أسـاه وتفوح من لحيته وصـداره رائحة

سيغــارٍ مُهدّئة حتــى أنّ كاتيا أحسّــت لبرهةٍ من الوقت بــأنّ انقباض نفسهــا يتراخــى. فرفعت إليــه عينيها اللامعتَين مــن السّهاد وباعدت شفتيها الجافّتين:

– شكراً على ما قلته عن نيقولاي إيفانوفيتش...

أخــرج الأمير منديــلاً كبيراً ومسح عينيه. إنّه قــد أدى واجباً ثقيلاً وانصرف. زعقت سيارته في الشارع الجانبيّ بصوتٍ كصوت الغول. وعادت كاتيا تطوف في الحجرة. توقّفــت أمام الصورة الفوتوغرافيّة لجنــرالٍ لا تعرفه له وجه أسد، وتناولــت ألبوماً للصّور، وكتاباً، وعلبةً مــن صنع الصّين رُسم على غطائهــا مالك الحزين مُمسكاً بضفدعة. ثمّ تمشّت من جديد، ناظرةً إلى ورق الحائط، إلى السّتائر...ولم تمسّ طعام الغداء. قالت الخادمة ليزا: "على الأقلّ لو أكلت مهلّبيّة الفواكه". هزّت كاتيــا رأسها رفضاً دون أن تُحــرّك شفتيها. كتبت لداشا رسالةً قصيرة، ولكن مزّقتها في الحال.

كانــت تودّ لــو ترقد وتنام. ولكــنّ الرّقود في السّريــر كالرّقود في التابوت–رهيبٌ بعد الليلة البارحة...وكان أشدّ ما يوجعها هو أسفها اليائس علــى نيقولاي إيفانوفيتش، فقــد كان إنساناً طيباً رقيق القلب مُشوّش الفكر...كان يجب أن تحبّه على ما هو عليه...أما هي فعذبته؛ فشــاب قبل الأوان. نظرت كاتيــا في النافذة إلى السماء الكئيبة الحائلة اللون. ولمت أصابعها حتى فرقعت.

وفي اليوم التالي أقيم قُداسٌ تــذكاريّ لنيقولاي إيفانوفيتش. وبعد يوم دُفن رُفاته. وقيلتْ كلماتٌ جميلة على قبره، فشُبّه الفقيد بقادوس بحريّ هلــك في أعماق اليــم، وبرجلٍ حمل المشعــل المُلتهب طوالَ حياته المجيدة. وحضر الدّفن رجــلٌ قصِير القامة يلبس نظارة هو أحد الاشتراكيين–الثّوريــين المشهوريــن، وقد جــاء مُتأخراً، وقــال لكاتيا

بدمدمـة غاضبة: "تنحي، يا مُواطنـة". وشقّ طريقه حتى حافة القبل، وأخـذ يتكلّـم قائلاً أنّ موت نيقـولاي إيفانوفيتش يؤكّـد مرّةً أخرى صحّـة سياسة حزبه حول مسألة الأرض. وكانت التُّربة تتفتّت تحت حذائـه القبيح المظهر، وتسقط مرتطمـةً بالتابوت. شعرت كاتيا بنوبة غثيان تصكّ حلقومها، فانسلّت من الجمع خلسة، وعادت إلى البيت.

كانت تراودها رغبةٌ واحدة: أن تغتسل، وتنام. ولكّن حين دخلت البيت استولى عليها الرُّعب: إذ وقع بصرها على ورق الحائط المُخطّط، والصّـور الفوتوغرافيّـة والعُلبـة بمالكهـا الحزين، والخـوان المدعوك في غرفـة الطّعـام والنّوافذ المُتربة. فأيّ وحشـة كانت تنبعث من هذه الأشياء! طلبت كاتيـا أن يُملأ حوض الحمام، واستلقت في الماء الدافئ وهي تئنّ. فـإنّ جسمها كلّه قد أحسّ أخيراً بتعب قاتل. ثمّ جرجرت نفسهـا إلى مخدعها بجهد شديد، وغفـت دون أن ترفع غطاء الفراش الخارجـيّ. وهجست لهـا في نومها رنّات جرس، ووقع خطوات، وأصوات، وطرقٌ على الباب و لم تردّ عليها.

استيقظـت كاتيا حين خيّم الظّـلام التام، وقلبهـا مُنقبضٌ موجع. وتساءلـت مذعورةً شاكية "ماذا؟ مـاذا؟" ورفعت جسمها في السرير قليـلاً، وللحظـة أملت أن يكـون كلّ ذلك مجرّد حلـم مُرعب تراءى لها... ثمّ شعرت، وللحظة أيضاً، بالغُبن واللاإنصاف. فعلام تتعذّب؟ وعـادت إلى عالم اليقظة تماماً، وعدّلت شعرهـا، ولبست خفّيها على قدمـين عاريتين، وقالت لنفسها بوضوحٍ وهـدوء: "لا أريد أن أتحمّل أكثر من ذلك".

فتحـت كاتيا، على مهل، باب صنـدوق الأدوية البيتيّ المُعلّق على الاحائط، وأخذت تقرأ الأوراق المُلصقة على القوارير. فتحت قارورة المورفـين الصغيرة، وشمّتها وضمّت عليهـا راحتها، وذهبت لتخرج

قدحاً من غرفة الطّعام، إلا أنها توقّفت في الطريق إليها إذ رأت ضوءاً في غرفة الجلوس. وسألت بخفوت: "أهذا أنت يا ليزا؟" وفتحت باب الغرفة قليلاً، ورأت رجلاً ضخماً في قميص عسكريّ يجلس على الأريكة ورأسه الحليق مضمّدٌ بعصابة سوداء. نهض بسرعةٍ حين رآها. أخذت ركبتا كاتيا ترتعشان، وأحسّت بخواءٍ تحت قلبها. حدّق الرّجل فيها بعينين مُخيفتين مُتّسعتين، زامًّا شفتيه المُستقيمتين. لقد رأت أمامها فاديم بتروفيتش روتشين. وضعت كاتيا كلتا يديها على صدرها. وقال روتشين ببطءٍ وعزم دون أن يصرف بصره عنها:

– جئت لأقدّم لك احتراماتي. إنّ خادمتك أخبرتني بمُصابك. وقد بقيت لأنني رأيت من الواجب أن أخبرك بأنّ في وسعك أن تضعيني أنا وحياتي كلّها تحت تصرّفك.

وارتعش صوته حين قال الكلمات الأخيرة، وامتلأ وجهه النّحيل بحمرةٍ داكنة. ضغطت كاتيا يديها على صدرها بكلّ قوّتها. وقرأ روتشين في عينيها الحاجة إلى أن يدنو منها ويعينها. وحين اقترب قالت وأسنانها تصطكّ:

– أهلاً بك، يا فاديم بتروفيتش...

وبحركةٍ لاإراديّة رفع ذراعيه، وهو يهمّ بتطويقها، فقد بدت متهافتةً تعيسة، وهي تضمّ قبضتها على القارورة بتشنّج، إلا أنه أحجم في اللحظة التالية، وأنزل ذراعيه وتقطّب. أدركت كاتيا فجأةً بفطرة المرأة أنها، وهي المرأة التعيسة الصغيرة، الخاطئة، العاجزة بكلّ دموعها التي لم تذرف بعد، وبقارورة المورفين البائسة أصبحت ضروريّة وعزيزة على هذا الرّجل المُتأهّب بصمت وتجهّم إلى أن يمزج روحها بروحه. حبست كاتيا دموعها غير قادرةٍ على أن تقول شيئاً

وأن تفكّ أسنانهـا، وانحنت على يد فاديم بتروفيتش، وضغطتها على شفتيها، وعلى وجهها.

٤١

وضعت داشا كوعيها علـى القاعدة المرمريّة، ونظرت في النافذة. كان الشّفـق يملأ نصف السّمـاء وراء الغابات الداكنـة في نهاية جادّة كامينـو أوستروفسكـي. وكانت السماء مسرحاً تصنـع فيه عجائب، كان إيفـان إيليتش يجلس جنـب داشا يُحدّق فيها بلا حراك، رغم أنّه كان يستطيع أن يتحرّك على هواه، فإنّ داشا لن تُغادر الآن غُرفتها التي انعكس الشّفق القاني على جدارها الأبيض.

قالت داشا:

– ما أشجى الجوّ، وما أعذبه! كأننا نطير في سفينةٍ جويّة...

هـزّ إيفان إيليتش رأسه مُوافقاً. رفعت داشا يديها من قاعدة النافذة وقالت:

– يُعذّبنـي شـوقٌ طاغ إلى الموسيقى. فكـم مضى من الوقت دون أن أعزف؟ منذ أن بـدأتً الحرب...تصوّر وما تزال الحرب قائمة... ونحن...

تحرّك إيفان إيليتش، ومضت تقول:

– حـين تنتهي الحـرب سنهتمّ بالموسيقى...أتتذكّـر يا إيفان كيف استلقينا على الرّمل، وقد جرى البحر على الرّمل تماماً؟ أنت تذكر أيّ لونٍ كان البحر؟ أزرق فاتح...وأتصوّر أنتي قد أحببتك طوال حياتي.

وتحــرّك إيفان إيليتش ثانية، وهمّ أن يقــول شيئاً، إلا أنّ داشا سبقته قائلة:

- السّخان يغلي!

وخرجت من الحُجرة راكضة، إلا أنها توقّفت عند الباب. وكان لا يــرى في الظلام الوليد غير وجهها، ويدها المُمسكة بالسّتارة، وقدمها في جوربٍ رمــاديّ. اختفت داشا، وألقى إيفــان إيليتش ذراعيه وراء رأسه، وأغمض عينيه.

كان تليغــين وداشا قد وصــلا اليوم في الساعة الثانيــة بعد الظُّهر. وكانــا قد اضطــرا إلى قضاء الليــل كلّه جالسين علــى الحقائب في ممرّ العربــة المُكتظّة. وعند وصولهما مُباشرة شرعــت داشا في فكّ أمتعتها والنّظر في جميع الأركان، ومســح الغُبار. أعجبت بالشّقّة، وعزمت أن تُعيد ترتيب كلّ شيءٍ فيها. وكان يجب القيام بذلك فوراً. استدعي البواب من الأسفل، وتعاون مع إيفان إيليتش لنقل الأصونة والأرائك من غرفة إلى أخرى. وحين تمّ تغيير وضع الأثاث طلبت داشا من إيفان إيليتشً أن يفتــح جميع نوافذ التّهويــة الصغيرة في أعــالي الشّبابيك، وذهبت هــي لتستحمّ. وظلّت وقتاً طويلاً تسكب الماء على جسدها، وصنعــت شيئاً لوجههــا ولشعرها، ومنعت إيفــان إيليتش من دخول هــذه الغرفة مرّة وتلك الغرفة أخرى، رغــم أنّ إيفان إيليتش كان يُمنّي النفس طوال الوقت بأن يلتقي بداشا كلّ لحظة ويطيل النّظر فيها.

ومــع هبوط الظّلام هــدأت داشا أخيراً. دخل إيفــان إيليتش غرفة الجلوس وقد اغتسل وحلق، وجلــس إلى جانب داشا. وكانا يختليان في سكون للمرّة الأولى بعد مُفارقتهما موسكو. جاهدت داشا أن تملأ الوقت بالحديث وكأنها كانت تخاف من هذا السكون. فقد أرهبها،

كما اعترفت لإيفــان إيليتش فيما بعد، أن يقول لها بصوتٍ "خاصّ": "إذن، يا داشا..."

ذهبــت لتنظــر في أمر الشخــان. وجلس إيفــان إيليتشــ مُغمض العينــين. انصرفت، والهواء ما يزال مملوءاً بأنفاسها. ودقّ كعبابها على أرض المطبــخ بفتنة لا توصف. وفجأةً رنّ شيءٌ يتهشّم هناك، وتناهى صــوت داشا الشاكي: "كوب!" وانفعم قلب إيفان إيليتش بفرحٍ حارّ قائــلاً لنفسه: "حين أستيقظ غداً سأرى صباحــاً غير اعتياديّ، سأجد داشا معي". ونهض مُسرعاً وظهرت داشا عند الباب.

– كسرت كوباً...يا إيفان، أتريد شاياً حقاً؟

– لا...

وتقدّمــت منــه، ولما كانت الغرفــة غارقةً في ظــلام. فقد وضعت ذراعيها على كتفيه وسألت بخفوت:

– فيم كنت تفكّر؟

– فيك.

– أعرف. وماذا كنت تظنّ فيَ؟

وبــدا وجهها المغبشــ في الظلمة عبوســاً، بينما كانــت تبتسم في الواقع. وكان صدرها يرتفع وينخفض مُنتظم الأنفاس.

– فكّــرت في أنّ ذهنــي غير قادرٍ على أن يتصــوّرك كزوجتي. ثم فهمت فجأة، وجئت إليك لأخبرك. أما الآن فلا أتذكر شيئاً.

قالت داشا:

– آي، آي. اجلس، ودعني أجلس جنبك.

وجلس إيفان إيليتش على الكرسي وجلست داشا جنبه على ذراع الكرسي وقالت:

- وفيم فكّرت أيضاً؟

- جلست هنا عندما كنت في المطبخ، قلت لنفسي: "حلت في البيت مخلوقةٌ مُدهشة..." أهذا سيئ؟

أجابت داشا مفكّرة:

- نعم، هذا سيئٌ جداً.

- هل تحبينني يا داشا؟

- أوه-وحرّكت رأسها من الأسفل إلى الأعلى-أحبّك حتى شجرةة البتولا.

- حتى شجرة البتولا؟

- أحقاً أنك لا تعرف أنّ لكلّ امرئٍ في نهاية عمره حدبةٌ من الأرض تظللها شجرة بتولا باكية؟

أمسك إيفان إيليتش داشا من كتفيها. فاستجابت لعناقه برقّة. وتبادلا قبلةً طويلة مثلما فعلا منذ زمن بعيد على ساحل البحر. وتقطّعت أنفاسهما. قالت داشا: "آه، إيفانً" وطوّقت عنقه، وسمعت قلبه يدقّ دقات ثقيلة فأشفقت عليه. تنهّدت، ونهضت من ذراع المقعد، وقالت ببساطة:

- إيفان، لنذهب.

تلقّت داشا رسالةً من شقيقتها في اليوم الخامس من وصولها تخبرها كاتيا فيها بوفاة نيقولاي إيفانوفيتش.

"...مررتُ بفترةٍ الشقاء واليأس. وشعرت في وضوح بأنني

سأظل وحيدةً إلى أبد الدّهر. أوه، ما أرهب ذلك!..ولرهبته عزمت على أن أتخلّص منه بأسرع وقت...أتفهمين؟..وأنقذتني مُعجزة... وربما مُصادفة...لا، لا، كانت معجزةً حقيقيّة...ولا يُمكنني أن أكتب عن ذلك...سأخبرك به حين نلتقي...»

وصعقت داشا بنعي نيقولاي إيفانوفيتش وبرسالة كاتيا، فعزمت على السفر إلى موسكو في الحال، إلا أنها تلقّت في اليوم التالي رسالةً أخرى من كاتيا تُخبرها فيها بأن تتهيأ للسفر إلى بتروغراد، وتسألها أن تبحث لها عن غرفة غير غالية الإيجار. وقد احتوت الرّسالة على ملاحظة تقول فيها: "سيزوركما فاديم بتروفيتش روتشين وسيروي لكما كلّ شيءٍ بالتفصيل. فهو لي أخٌ وأب وصديق العمر".

كان تليغين وداشا يتمشيان في شارع معرش في يوم أحد من نيسان. كانت قطعٌ مهلهلة من السحاب الذائب من الشمس تطوف في السماء الزرقاء زرقةً ربيعيّة وفي الجوّ برودة. وكان ضوء الشمس ينفذ خلال الشارع المعرش، وكأنه ينفذ من خلال ماء. ويرتمي على ثوب داشا الأبيض وكانت جذوة الصنوبر الجافة الضاربة إلى الحمرة تقترب منهما بينما كانت الريح تضجّ في أعاليها، وتحرّك أوراقها. رنت داشا إلى إيفان إيليتش الذي كان قد خلع قبّعته، وعقد حاجبيه مُبتسماً. كان يغمرها إحساسٌ بالسكينة والامتلاء–بسحر النهار والبهجة لأنها تتنفس بيسر، وتسير خفيفةً مستسلمةً كلياً إلى هذا النهار وإلى هذا الرجل السائر بجانبها.

– إيفان.

نادت داشا مفترة الثّغر، فتسائل إيفان في بسمة:

– ماذا، يا داشا؟

– لا...فكّرت بشيءٍ ما.

– عمّ؟

– مجرّد فكرة.

– عمّ؟

– فيما بعد.

– أنا أعرف عمّ.

التفّت داشا التفاتةً سريعة.

– أقسم على أنك لا تعرف...

وصلا إلى شجرة صنوبرٍ كبيرة. نزع إيفان إيليتش قطعةً من القشرة مغطاة بقطرات ناعمة من الصمغ، وكسرها بين أصابعه وألقى على داشا نظرةً حائيةً من تحت حاجبيه:

– كلا، أعرف.

ارتجفت يد داشا وقالت هامسةً:

– أحسّ وكأنّ كياني كلّه يجب أن ينصب في فرحٍ أشد وأعظم... كلّ كياني مُمتلئ...

هزّ إيفان إيليتش رأسه. وكانا قد خرجا إلى فرجة بين أشجارٍ مكسوّة بعشبٍ أخضر ناعم، وشقائق صفر تهتزّ بالريح. وكان ثوب داشا يخفق في الريح بين حينٍ وآخر، فكانت تنحني في كلّ مرّةٍ ساهمة، وتعدّل تنورتها، وتقول:

– هذه الريح عقاب!..

في نهاية الفرجة امتدّ سياجٌ مشبّك عالٍ لأحد القصور، تقشر الطّلاء المُذهّب عن رؤوس قضبانه بفعل الزّمن. دخلت حصاةٌ صغيرة في حذاء داشا. قعد إيفان إيليتش. وخلع الحذاء من قدم داشا الدافئة

المكسوّة بجورب أبيض، وقبل القدم قرب أصابعها. لبست داشا حذاءها وطبطبت بقدمها، وقالت:

– أريد أن يكون لي ولدٌ منك... هذا ما كنت أفكّر فيه...

٤٢

أقامت يكاترينا دميتريفنا في بيتٍ خشبيّ غير بعيد عن شقّة داشا تديره إمرأتان عجوزتان، كانت إحداهما تُدعى كلافديا إيفانوفنا–مغنيّةٌ في سالف الأيام، والأخرى–وتدعى سوفوتشكا–مرافقٌ لها. كانت كلافديا إيفانوفنا تُخطّط حاجبيها منذ الصباح، وتضع على رأسها لّمة مُستعارة فاحمة السواد، وتجلس لتلعب لعبة الحظّ والتّمنّي في الورق. بينما كانت سوفوتشكا ذات الصوت الرجوليّ الخشن تقوم بتدبير شؤون البيت. وكان البيت نظيفاً مكتظاً على الطراز القديم بالعديد من أفرشة المائدة الصغيرة والسدائل، والصور المصفرّة لعهد الشباب الغابر. وفي الصباح كانت الحجرات تمتلئ برائحة القهوة الشذيّة، وعند إعداد الغداء كانت كلافديا إيفانوفنا تشمّ الملح لأنها لا تطيق رائحة الطّبخ، وكانت سوفوتشكا تصيح بصوتها الرّجوليّ من المطبخ: "أين أذهب بهذه الرائحة المقزّزة لك، فأنا لا أستطيع أن أقلي البطاطس بماء الكولونيا". وفي المساء كانت توقد مصابيح الكيروسين ذات الزجاجات المغبشة الكرويّة الشكل. وكانت العجوزتان تحيطان كاتيا بالرعاية.

كانت كاتيا تعيش حياةً هادئة في هذا المأوى القديم الطراز، السالم من عوادي الزمن. كانت تستيقظ في الصباح الباكر وترتّب الحجرة بنفسها، وتجلس قرب النافذة ترتق الثياب، وترفأ الجوارب، أو تصنع

مــن فساتينها الأنيقة القديمة لباساً أبســط. وبعد الفطور كانت تخرج في العادة إلى الجزر وتتجول ومعها كتابٌ أو صرّة تطريز، وتجلس على مسطبــة في المكان المُفضّل لها بالقرب مــن البحيرة الصغيرة، وتراقب الأطفــالَ يلعبون عنــد تليلة الرّمــل، وتطالع، وتطــرّز وتفكّر، وتعود في نحــو السادسة لتناول الغداء عند داشــا. وفي الساعة الحادية عشرة كانت داشا وتليغين يوصلانها إلى البيت. كانت الشقيقتان تسيران في المقدّمة وذراعيهما مُتشابكتان، بينما كان إيفان إيليتش يسير وراءهما مسرحاً قبّعته على علياته صافراً وبمثابة "غطاء للمؤخرة"، لأنّ الخروج في المساء لم يعد مأموناً في تلك الأيام.

كانــت كاتيــا تكتب لفــاديم بتروفيتش روتشين كلّ يــوم. وكان روتشــين طليلــة هذه المدّة موفــداً في مهمّة إلى الجبهــة. وكانت كاتيا تروي في رسائلها بعناية وصدق كلّ ما فعلته وفكّرت فيه خلال ذلك اليــوم. وكان روتشــين يسألها ذلك، ويؤكّد لهــا في رسائله الجوابيّة: "كــم كان عزيزاً عليّ أن تكتبي لي، يكاترينــا دميتريفنا، إنّ المطر قد بــدأ يرذّ رذاذاً حــين عبرت جسر يلاغين اليــوم، ولم تكن لديك مظلّة فاحتميــت تحت الأشجــار ريثما يتوقّف المطــر! إنّ كلّ دقائق حياتك عزيــزةٌ عليّ، وأريــد أن أعرفها حتى لم يعد في وسعــي الآن أن أعيش بدونها".

كانت كاتيا تعرف أن روتشين يُبالغ، وأنّ في وسعه بالطّبع أن يعيش بــدون أن يعرف دقائق حياتها، ولكــنّ التفكير في أن تظلّ وحيدةً مع نفسها كان يفزعها أشدّ الفزع حتى أنها كانت تحاول ألا تتشكك، بل تصــدّق بأنّ حياتها كلّها لازمةً لفــاديم بتروفيتش وعزيزة عليه. ولهذا فــإنّ كلّ ما كانت تفعله الآن يتّخــذ مغزىً خاصاً. أضاعت الكشتبان وبحثت عنــه ساعةً بكاملها، وأخيراً وجدتــه في أصبعها. ولعلّ فاديم

بتروفيتش سيضحك من ذهولها الشّديد هذا. والآن كانت كاتيا تنظر إلى نفسها كما تنظر إلى شيء غريب عنها تماماً. ذات مرّة، حين كانت تعمل عند النافذة وتفكّر لاحظت أنّ أصابعها ترتجف. رفعت رأسها، وغرزت الإبرة في تنورتها عند الركبة وحدّقت إلى الأمام طويلاً. وأخيراً ميّز بصرها وجهاً نحيلاً أمامها في المكان الذي كانت فيه مرآة الصوان، وجهاً نحيلاً له عينان واسعتان حزينتان، وشعرٌ بسيط التّصفيف، مضمومٌ في عقدة إلى الخلف...وتساءلت كاتيا مع نفسها: "أمعقول أنّ هذه أنا؟" وغضّت بصرها، وتابعت خياطتها، إلا أنّ قلبها وجب في صدرها، ووخزت إصبعها بالإبرة، فرفعت الإصبع إلى فمها، وعادت تنظر إلى المرآة، ولكنها رأت صورتها في المرآة هذه المرّة، أقبح من الصورة التي رأتها في المرّة الأولى...وفي تلك اللّيلة كتبت لفاديم بتروفيتش: "فكرت فيك وطوال هذا اليوم وقد اشتقت إليك، يا صديقي العزيز. اجلس عند النافذة وانتظر. إنّ ما يحدث في نفسي الآن يشبه شيئاً قد نسيته منذ زمانٍ طويل... مشاعر فتاة..."

وحتى داشا الشاردة الفكر، الغارقة في علاقاتها مع إيفان إيليتش، تلك العلاقات المُعقّدة التي لم يشهد العالم مثيلاً لها منذ بدء الخليقة، حسب ظنّها، لاحظت تغيّراً طرأ على كاتيا، وفي أحد الأمسيات أثناء شرب الشاي، راحت تُبرهن طويلاً على أنّ كاتيا ينبغي أن ترتدي الآن، وإلى الأبد، ثياباً سوداء تغطي العنق. وأنشأت تقول: "أؤكّد لك إنّك لا ترين نفسك يا كاتيوشا، إنّ مظهرك مظهر فتاةٍ في التاسعة عشرة...حقاً يا إيفان، ألا تراها تبدو أصغر مني؟"

– نعم، أقصد، ليس تماماً، ولكن أظن...

قالت داشا:

– آه. أنـت لا تفهم شيئـاً. شباب المرأة ليس لـه علاقةٌ بالعمر، بل بأسبابٍ أخرى، ليس للعمر أيّة أهميّةٍ هنا...

وأوشكـت علـى النّفـاد النّقـود القليلـة التـي تركهـا نيقـولاي إيفانوفيتش لكاتيا. فأشار تليغين عليها بأن تبيع شقّتها القديمة في شارع بانتيليمونوفسكايـا الفارغة منذ شهر آذار. فوافقت كاتيا، وذهبت مع داشا إلى الشّقة لتأخذ منها بعض الأشياء العزيزة لارتباطها بالذكريات.

حـين صعدت كاتيـا إلى الطابق الثـاني، ووقع بصرهـا على الباب البلّوطيّ ذي الرقعة النحاسيّة التي تحمل إسم "ن. ي. سموكوفنيكوف" شعـرت بأنّ الحيـاة توشك على إتمـام دورتها. خلع البـواب العجوز المألـوف لكاتيا، الـذي كان يفتح الباب الخارجيّ بعـد مُنتصف الليل ناخراً من أنفه بغضب، والنّعاس عالقٌ في أجفانه، وعنقه ملفوفٌ بياقة معطفـه المُلقى على كتفيـه، وكان دائماً يُطفئ الضّـوء الكهربائيّ قبل أن تلحّـق كاتيـا بأن تصعد إلى شقّتها، أمـا الآن فقد جعل كاتيا وداشا تدخلان قبله، وقال مطمئناً:

– تأكدي، يكاترينا دميتريفنا، من أنّ أيّ قلامة لم تضع من شقّتك. كنـت أراقب المستأجرين ليل نهـار. إبنهم قُتل في الجبهـة وإلا لظلوا ساكنين فيها حتى الآن، فقد كانوا راضين عن الشّقّة...

كان الـرّواق مُظلماً ليست في هوائه رائحة أنفاس حيّة. وكانت الستائـر مُسدلةً في جميع الغـرف. ذهبت كاتيـا إلى غرفة الطّعام، وأدارت مفتـاح الضوء. شعّت الثريا البلّوريّة بنور ساطع فوق المائدة المغطـاة بمفرشٍ من الجوخ الرّماديّ، وكانـت سلّة الزّهور الخزفيّة ما تـزال في وسطها، وفيهـا غصن الميموزا الذابل منـذ زمان. وكانت الكراسي ذات الظهور العالية والبطون الجلديّة–الشهود اللامبالون على الحياة المرحة العاصفـة التي فاتت–تقف في أماكنها على طول

الجدران. وكانت أحد أبواب صوان الأواني المنحوت الضّخم كالبيانو مفتوحاً تلوح الأقداح المقلوبة من خلال فتحته. وكان الغبار يُغطي المرآة الفينيسيّة البيضويّة، والصبيّ الذهبيّ ما يزال راقداً ماداً يده إلى خصلةٍ ذهبيّة.

وقفت كاتيا عند الباب بلا حراك، وقالت لداشا بخفوت:

– داشا، أنت تذكرين الوضع!.. تصوّري، والآن لا وجود لأحد...

ثم ذهبت إلى غرفة الجلوس، وأشعلت الثريا الكبيرة وأجالت بصرها، ثم هزّت كتفيها. كانت اللوحات التكعيبيّة، والمستقبليّة التي كانت تبدو في وقتٍ ما متحدّيةً ومخيفة تتدلى على الجدران بائسةً كابية، وكأنها، زيناتٌ كرنفاليّةٌ مهملة بعد أن انتفت الحاجة إليها.

– وهل تذكرين هذه، يا كاتيوشا؟

قالت داشا، وأشارت إلى لوحة "فينوس الحديثة" القابعة في ركنٍ أصفر مع زهورها، وأكملت قولها:

– آنذاك بدت لي وكأنها علّة كلّ المصائب.

وضحكت داشا وشرعت بتصفّح النوتات. ذهبت كاتيا إلى مخدعها السابق. كان كلّ شيءٍ فيه على حالته تماماً كما كان منذ ثلاثة أعوام، يوم ارتدت ثياب السّفر والبرقع وهرعت إلى هذه الغرفة للمرة الأخيرة لتأخذ قفازها من طاولة الزينة.

والآن كان كلّ شيءٍ كابياً وبدا أصغر حجماً مما كان من قبل. فتحت كاتيا الدولاب والإخفاق البيتيّة. وكانت رائحة عطرٍ خفيفةٍ ما تزال تفوح من هذه الأشياء التي كانت تبدو لها فيما مضى

ضروريّـة. أخذت كاتيا تقلبها دون غاية، فقـد كان كلّ غرضٍ منها مُرتبطاً بذكرى الحياة التي ذهبت بلا رجعة...

وفجـأةً تحطّم السكون الـذي كان يُخيّم على البيـت كلّه وملأت أنغام الموسيقى جنباتـه، حين أخذت داشا تعزف السّوناته التي كانت تتـدرّب عليها أثنـاء تحضيرها للامتحانـات قبل ثلاثة أعـوام. سدّت كاتيـا باب الدولاب، وذهبت إلى غرفة الجلوس وجلست بالقرب من شقيقتها.

استدارت داشا نصف استدارة، وقالت:

– أليس ذلك رائعاً، يا كاتيا؟

وعزفـت بعض الفواصـل الأخـرى وتناولت كرّاسـةً أخرى من الأرض. قالت كاتيا:

– لنخرج. بدأت أشعر بصداع.

– والحاجيات؟

– لا أريد أن آخذ شيئاً من هنا. سأنقل البيانو وحده إلى شقّتك. أما سائر الأشياء فلا حاجة إليها...

جـاءت كاتيا إلى الغداء مُنتعشةً من المشـي السّريع، مرحة، في قبّعة جديـدة، وبرقعٍ سماويّ اللون. قالت، وهيـي تلثم خدّ داشا بشفتيها الدافئتين:

– وصلت بالكاد قبل أن يهطل المطر الغزير. وحذائي قد تبلّل على أية حال. أعطني نعلاً استبدله به.

وسـارت نحو النافذة في غرفة الجلوس، وهي تخلع قفازها. كان المطر الذي راح يكرّ ويفرّ عدّة مرات يهطل الآن سيولاً رماديّة ويدور في خفقـان الريـح، ويضجّ في أنابيب التّصريـف. رأت كاتيا بعيداً في

الأسفل مظلات تجري راكضة. وخرق ضوءٌ ابيضّ الهواء المُعتم أمام النّوافذ، وسرت قرقعةٌ جعلت نفس داشا يتقطّع في صدرها. سألت كاتيا وقد أفتر فمها عن ابتسامة:

– أتدرين من سيزوركما مساء اليوم؟

سألت داشا:

– من؟

إلا أنّ الجرس رنّ في الرّواق، فركضت داشا لتفتح الباب وتردّدت ضحكة إيفان إيليتش، وحفيف قدميه على بساط الرواق ثم مرّ وداشا إلى غرفة نومها وهما يتحادثان بصوت عالٍ ويضحكان. خلعت كاتيا قفازيها، وقبّعتها وعدّلت شعرها، والابتسامة المتكتّمة الناعمة ما تزال ترفّ على شفتيها.

جلس إيفان إيليتش إلى المائدة مرحاً مورداً مبلّل الشعر وروى لهما الأخبار. العمال في مصنع البلطيق مضطربون مثل جميع العُمال الآن في المصانع والمعامل الأخرى. والسوفييتات تؤيّد مطاليبهم باستمرار. والمشروعات الخاصة أخذت تغلق أبوابها شيئاً فشيئاً، والمشروعات الحكوميّة تعمل بخسارة، ولكن لا أحد يهتمّ بأن تجني الأرباح الآن والحرب والثّورة قائمتان. واليوم عقد في المصنع اجتماعٌ حاشدٌ آخر خَطَبَ فيه بلاشفة، قالوا جميعاً كلاماً واحداً: "يجب إنهاء الحرب، ولا تنازلات، أياً كانت، للحكومة البرجوازيّة، ولا اتّفاقيات مع أصحاب المشاريع، وكلّ السّلطة للسوفييتات التي ستتكلّف بالنّظام!.."

– وأنا أيضاً صعدت لاخطب. ولكنّهم سحبوني من المنصّة. وجاء فاسيلي ليقول: "أنا أعرف أنّك لست لنا عدواً فلماذا تقول سخافات. إنّ رأسك محشوٌّ بالسّفاسف". فقلت له: "فاسيلي، بعد ستّة أشهر ستتوقّف المصانع ولا يجد الناس شيئاً يأكلونه". فردّ عليّ قائلاً: "يا

رفيـق، قبل أن يهلّ العام الجديد ستنقل الأرض كلّها، والمصانع جميعاً إلى الشغيلـة، ولن نترك برجوازياً واحداً في الجمهوريّة ولو للمتحف. ولـن يكون للنقود وجـود. اشتغل وعش وكلّ شيءٍ لـك. إنها الثورة الاجتماعيّة، فافهمني!" وَعَدَ أن يكون كلّ ذلك في العام الجديد.

وضحك إيفان إيليتش ضحكةً مُتّزنة إلا أنه هزّ رأسه، وأخذ يجمع الفتات على الخوان بإصبعه. وتنهّدت داشا:

– قلبي يُخبرني بأنّ بلاياً كبيرة ستحصل.

قال إيفان إيليتش:

– نعـم. إنّ الحرب لم تنتـه، وفي ذلك علّة الأمر. ما الذي تغيّر منذ شباط؟ أطاحوا بالقيصر، ولكـنّ الفوضى استفحلت. هناك حفنةٌ من المُحامـين وأساتذة الجامعات وهم أناسٌ مُثقّفون دون ريب يؤكدون للأمّـة كلها قائلين: اصبروا، حاربوا وسيأتي زمنٌ نعطيكم فيه دستوراً انجليزيـاً، بل وأحسن منه بكثير، إنّ هؤلاء الأساتذة لا يعرفون روسيا، ولم يطّلعوا على التاريخ الروسيّ بشكل جيّد. إنّ الشعب الروسيّ ليس كماً مجرداً. إنّ الشّعب الروسـيّ شعبٌ فياض الشّعور موهوبٌ قويّ. فـلا عجب أن يشقّ الفـلاح الروسيّ طريقـه إلى المُحيط الهادئ وهو بحذائـه الليفي. أما الألمـانيّ فيبقى في مكانه ويسعـى إلى بغيته خلال مائـة عام ويصـبر. بينما الروس غـير صبور. ومن المُمكـن أن يحفّزه الحلم بالاستيلاء على الكون فيسير في سرواله المصنوع يدوياً، وحذائه الليفي، وفأسه في حزامه...أمـا الأساتذة فيريدون أن يحضروا خضم الشّعـب الهدار في إطار دستورٍ وقور. نعـم، يبدو أننا سنشهد أحداثاً خطيرةً جداً.

كانت داشـا واقفةً عند المائـدة تصبّ القهوة في أقـداح. فإذا بها

تترك ركـوة القهوة فجـأة، وتضغط وجهها إلى صدر إيفـان إيليتش. فقال إيفان إيليتش وهو يُمسّد شعرها:

– لا، لا، لا حاجـة إلى القلق يا داشـا. لم يحدث شيءٌ فظيع حتى الآن... حدث أنْ وقعنا في مأزقٍ أسوأ. فأنا أذكر–اسمعيني–أذكر أننا وقعنا في "الجبّ العفن"...

وأخذ يتذكّـر المشاقّ العسكريّة التي صادفتـه. رفعت كاتيا بصرها إلى الساعة الحائطيّة، وخرجت من غرفة الطعام. نظرت داشا إلى وجه زوجها الهـادئ القويّ المَلامـح وإلى عينيه الرماديّتـين الضاحكتين، وهدأت شيئاً فشيئاً: إنّ المرأة تشعر بالاطمئنان في صُحبة هذا الرّجل. حين فرغت من سماع قصّته "الجبّ العفن" ذهبت إلى المخدع لتبودر وجههـا. فـرأت كاتيـا جالسةً أمـام منضـدة الزينة هناك تفعـل شيئاً لوجهها. قالت لها بصوتٍ ناعم:

– عزيزتي داشا، ألم يبق لديك شيءٌ من ذلك العطر الباريسيّ؟ أنت تذكرينه؟

جلست داشا على الأرض أمام أختها، وحدّقت فيها بدهشةٍ بالغة ثم سألت همساً:

– أراك تنفشي ريشك، يا كاتيوشا؟

– احمرّت كاتيا وهزّت رأسها:

– ماذا بك اليوم، يا كاتيوشا؟

– أردت أن أخـبرك، ولكنّك لم تسمعي كلامي إلى آخره. سيصل فـاديم بتروفيتش مسـاء اليوم، وسيأتـي إلى شقتكما مـن محطّة القطار مُباشرة... ليس من اللائق أن أستقبله في بيتي لأنّ الساعة مُتأخّرة...

دقّ جرس الباب في الساعة التاسعة والنّصف. هرعت كاتيا وداشا

وتليغـين إلى الرواق. فتـح تليغين الباب فدخل روتشـين وعلى كتفيه معطـفٌ عسكريٌّ مدعـوك وطاقيته نازلةٌ على جبينـه. وإذ وقع بصره علـى كاتيا رقّت ملامـح وجهه النحيل الكئيب الملـوح حين أفتر عن ابتسامة. نظرت كاتيا إليه مُرتبكةً فرحة. ألقى روتشين معطفه وطاقيّته على مقعد وسلّم قائـلاً بصوتٍ قويّ فيه بحّة: "اعذروني على دخولي في هـذه الساعةً المُتأخّرة. رغبـت أن أراك هذه الليلة، أنت يا يكاترينا دميترييفنا، وأنت، يا داريا دميترييفنا" فتألّقت عينا كاتيا نوراً وقالت:

– أنا مسرورةٌ لوصولك، يا فاديم بتروفيتش.

وحين انحنى ليُقبّل يدها لَثَمَتْ رأسه بشفتيها المُرتعشتين.

قال إيفان إيليتش:

– كان يجـب أن تجلـب أمتعتك معـك. إننا لن نـتركك تُغادرنا، ستبات عندنا...

قالت داشا:

– علـى الأريكـة التركيّـة في غرفة الجلوس، وإذا كانـت قصيرةً فسنضع كراسي في طرفها.

صمع روتشين ما يقوله هؤلاء الناس العطوفون الأنيقون، وكأنّه في حلم. وكان قد جاء إليهم وهو ما يزال وعقاً، بعد ليالي السّفر المؤرقة، والتسلّل في النهار من نوافذ العربة بحثاً عن الطعام، والكفاح المُستمرّ في سبيل مكان من ستّـة أمتارٍ في مقصورة وسط سبابٍ يثقب الآذان. وكان مـا يـزال يستشعر الغرابة مـن أن يفرح بوجوده هـؤلاء الثلاثة المُتنعمـون بهذا القـدر غير المعقول مـن الجمال والنظافـة، والعبقون بروائح زكيّة، والواقفون على أرض صقيلة كالمرآة...يفرحون به هو، روتشين...وحـدّق كالنائم في عينَي كاتيا البهيتين المرددتين مسرورة، مسرورة، مسرورة...

عدّل نطاقه، وسوى كتفيه، وأرسل زفرةً عميقة، وقال:

– شكراً، دلوني أين أتوجّه؟

دلّوه على الحمام ليغتسل، ثم دعوه إلى غرفة الطعام وقدّموا الطعام له. أكل وهو لا يُميّز ما كان يُقدّم به، وشبع سريعاً ووضع الماعون جانباً، وأشعل سيكارة، ولأنّ وجهه النّحيل الحليق الصارم الذي أخاف كاتيا حين رأته في الرّواق وبدا أكثر تعباً. وحين أشعل عود الثّقاب ارتعشت يداه الكبيرتان الملونتان بضوء المصباح بظليلته البرتقاليّة. كانت كاتيا تجلس في ظلّ الظّليلة، فراحت من هناك تطيّل النّظر في فاديم بتروفيتش، وتشعر بأنها تحبّ كلّ شعرة في يده، وكلّ زرٍّ في سترته البُنيّة الداكنة المدعوكة. وقد لاحظت أنه كان يطبق فكيه أحياناً وهو يتحدّث، وينطق من بين أسنانه. كانت عباراته مُتقطّعةً مُشوّشة. والظاهر أنه كان يتحسّس بنفسه، ويحاول أن يكبت في نفسه شعوراً بالحنق يعتمل فيه منذ زمنٍ طويل... تبادلت داشا النّظرات مع أختها وزوجها فسألت روتشين عما إذا كان يُريد أن يستريح بعد تعب السّفر؟ توهّج، وجلس مُنتصباً على الكرسيّ.

– لم أجئ هنا لأجد مكاناً أنام فيه، ..لا، على الإطلاق...

وخرج إلى الشّرفة، ووقف تحت المطر الليليّ الدقيق. أشارت داشا بعينيها إلى الشّرفة، وهزّت رأسها. وجاء صوت روتشين من هناك:

– اعذرني، يا داريا دميتريفنا، بحقّ الرّبّ... تلك نتيجة تلك الليالي الأربع المؤرقة...

وعاد من الشّرفة، ومسّد الشعر على قمّة رأسه وجلس في مكانه. وقال:

– جئت إليكم من مقرّ القيادة العُليا مُباشرةً أحمل إلى وزير الحربيّة أخباراً مُقلقةً جداً... وحين رأيتكم أحسستُ بالألم... فاسمحوا لي

بـأن أقصّ عليكم كلّ شـيء. ليس لي في الدّنيا شخصٌ هو أقرب إليّ منك، يا كاترينا دميترييفنا.

شحبت كاتيا. وقف إيفان إيليتش عند الحائط وذراعه وراء ظهره، وحدّقت داشا في روتشين بعينين مُرتعبتين. سعل روتشين، وقال:

– إن لم تحـدث مُعجزة فإننا سنهلك... لم يعـد للجيش وجود... والجنـود يفرون مـن الجبهة ويرحلـون على سطـوح العربات...وما مـن إمكانيّـة إنسانيّة لإيقاف انهيار الجبهة...ذلـك مثل مدّ البحر... لم يعـد الجنـديّ الروسيّ يعـرف من أجـل أيِّ شيءٍ يُحـارب، وفقد الاحـترام للحرب. فقد الاحترام لكلّ ما يتّصل بهذه الحرب–احترامه للدّولـة، ولروسيـا. يعتقد الجنـود بأنّ الحرب ستنتهـي في نفس اليوم الذي ترتفـع فيه صرخةٌ تنـادي بـ"السلام"...ونحـن وحدنا الأسياد لا نريـد السلام...إنّ الجنـديّ الآن يبصق على المكان الذي خُدع فيه خـلال ثلاثة أعوام، ويرمي بندقيّته، ولا يُمكن بعد الآن إجباره على أن يُحـارب...وفي الخريف أو نحوه، حين تفـرّ الملايين العشرة كلّها... سينتهي وجود روسيا كدولةٍ ذات سيادة...

وصكّ فكّيْه بقوّة حتى ارتفعت عضلاتٌ على وجنتيه. واستمرّ في كلامه بصوتٍ عديم الرنين.

– أنا أحمل خطّةً إلى وزير الحربيّة وضعها بعض السادة الجنرالات لإنقـاذ الجبهة...خطّـةٌ أصيلة...وعلى كلّ حال سيكـون من المُتعذّر علـى الحلفاء لوم جنرالاتنا على عـدم الرّغبة في القتال. ومعنى الخطّة: إعـلان التسريح التام للجيش في أسرع وقـت، أي تنظيم الهروب من الجيش والحفاظ بهذه الطريقة على سلامة السّكك الحديديّة، والمدفعيّة واحتياطيّة التّموين والعتاد. التّأكيد لحلفائنا عن عزمنا على المضيّ في الحـرب. وفي الوقـت نفسه نُقيم في منطقـة نهر الفولغـا حاجزاً من

الوحدات الموثوقة–ومثل هذه الوحدات موجودة–ونبدأ بتكوين جيش جديد كلياً فيما وراء نهر الفولغا، على أن تكون نواته من وحدات المتطوعين ونقوم في الوقت ذاته بتشكيل ودعم وحدات للأنصار... ونبدأ الحرب من جديد معتمدين على مصانع الأورال وفحم سيبيريا وقمحها...

صاح تليغين:

– يعني فتح الجبهة للألمان... وكشف وطننا للنّهب!

– لم يعد لنا وطن، بل مكانٌ كان فيه وطننا–وضمّ روتشين يديه المطروحتين على مفرش المائدة– لم تعد روسيا العظيمة قائمةً منذ اللحظة التي ألقى فيها الشعب سلاحه... يبدو أنّك لا تريد أن تفهم ما بدأ بالفعل... هل يستطيع القدّيس نيقولا أن يُعينكم الآن؟ لقد نسيتم أن تُصلّوا له... إنّ روسيا العظيمة الآن مُجرّد روثٍ لتسميد الأرض... يجب أن يُعاد بناء كلّ شيءٍ من جديد: القواتُ، الدّولة، ويجب أن تصبّ فينا روحٍ جديدة...

واستنشق الهواء بقوّة من خلال منخريه، وأوقع رأسه على يديه الموضوعتين على المائدة، وأجهش باكياً بصوت عميقٍ خافت كصوت الكلاب... في تلك الليلة لم تخرج كاتيا لتنام في حجرتها. أرقدتها داشا معها في سريرها، وفرشت لإيفان إيليتش في غرفة المكتب. وخرج روتشين إلى الشرفة بعد ذلك المشهد المقبض للجميع، وبعد أن بلّله المطر عاد إلى غرفة الطعام واعتذر؛ وبالفعل كان الرّقاد أحسن مخرج. وقد غفا ما أن خلع ملابسه. وحين سار إيفان إيليتش على رؤوس أصابعه ليطفئ الضوء رآه نائماً على ظهره وقد طوى ذراعيه على صدره واضعاً راحتيها إحداهما على الأخرى، وكان وجهه

النّحيل ذو العينين المُغمضتين بقوّة، والغضون التي رسمها ضوء الفجر الزرورق وجه رجلٍ يكبت ألماً في صدره.

ظلّت داشا وكاتيا تتحدثان همساً لوقت طويل، وهما تحت غطاء واحد. وكانت داشا ترهف سمعها بين الحين والآخر. مازال إيفان إيليتش غير قادرٍ على أن يهجع في مكتبه. قالت داشا: "ما يزال يذرع المكتب، بينما عليه أن يخرج إلى المصنع في الساعة السابعة..." وانسلّت من تحت الغطاء، وهرولت حافيةً إلى زوجها. كان إيفان إيليتش يجلس على الأريكة المفروشة يُطالع في كتابٍ ضخم وضعه على ركبتيه، وقد أنزل حمالة البنطلون. نظر إليها بعينين براقتين لا تريان، وسأل:

– إذن لم تنامي حتى الآن؟..اجلسي...لقد وجدت شيئاً... اسمعي...

وقلب الصفحة، وأخذ يقرأ بصوتٍ خافت:

"قبل ثلثمائة عام كانت الريح تسرح طليقةً في الغابات والسهول السّهبيّة، وفي المقبرة الهائلة المُسماة الأرض الروسيّة. كانت هناك أسوارٌ محروقة لمدن مُندثرة، ورمادٌ في أماكن مأهولة، وصلبانٌ وعظام عند طرق غطّاها العشب، وعصائب الغربان ثمّ عواء الذّئاب في الليالي. وكانت آخر عصابات اللصوص التي كانت قد أنفقت على الشراب ونهبت منذ وقت طويل الفراء الغالية والأقداح من المعادن الثّمينة، والأطر اللؤلؤية للأيقونات تجوب في بعض دروب الغاب. كان كلّ شيءٍ في روسيا قد نُهب وقُضي عليه.

شاع الدّمار في روسيا وأقوت من أهلها. وحتى تتر القرم كفوا عن اجتياح السّهب الخالي، إذ لم يبق لهم ما ينهبونه. وخلال السنين العشر من "الاضطراب الكبير" قطع الأدعياء واللصوص والفرسان

البولونيـون الأرضـ الروسيّـة كلّهـا بالسّيـف والنار صقعـاً صقعاً، وتفشّت المجاعة الشّديدة، فأكل الناس روث الخيول، واللحم البشريّ المُملّح. وسرى الوبـاء الأسود، ونزح الباقـون إلى الشّمال، إلى البحر الأبيض، والأورال، وسيبيريا.

وكان البطريـق قد أشار على أفراد الفئة العُليا الذين أصابهم الفقر، والتجـار الوافدين بعد كساد بضائعهم والفلاحين الصارمين من بقاع الشمـال والفولغا-، بأن يختـاروا صبياً عيّنه لهـم ليكون قيصراً على موسكو. فجاءوا به مرعوباً في تلك الأيام العصبيّة على زلاجة ماضين به خلال طـرق الربيع الموحلة إلى الأسوار المحروقة المحيطة بموسكو، المقفـرة المُدمّـرة إلى آخرهـا، بعد أن حُـررت من المغيريـن البولونيين بجهـودٍ جبـارة، جاءوا به نحـو موسكـو المحروقة التـي لم تكن إلا أكواماً من الرّماد. وكان القيصر الجديد لا يُحسن غير البُكاء والصلاة. فظلّ يبكـي ويُصلّي ناظراً من نافذة الزلاجة بجزعٍ إلى حشود الروس المُهلهـل الثيـاب المُتوحّشـين الذيـن طلعـوا لاستقبالـه وراء بوابات موسكو. و لم تكن للروس ثقةٌ كبيرة بالقيصر الجديد. ولكن كان يجب أن يعيشـوا، وبدأوا يعيشون. اقترضوا النّقـود من تُجار ستروغانوف. وشرع سُكان المدينة يشيّدون، والفلاحـون يحرثون الأرض الفقراء. وأرسل الطيّبون من الناسـ على الخيول وعلى الأقدام لتنظيف الطّرق من اللصوصـ. عاش الناس في فقرٍ وشظـف، وقدموا آيات الإجلال للقـرم، والليتوانيـين والسويدين. وحافظوا على إيمانهـم، وعرفوا أنّ هنـاك قوّةٌ واحدة هي الشّعب القويّ الحـاذق النّشيط المُقتدر. وأملوا أن يتغلّبوا على المصاعب، فتغلبوا عليها. ومن جديد بدأ العمران يشيع في الأرض الخراب..."

صفق إيفان إيليتش الكتاب:

– ها أنت ترين... لن نهلك الآن... لن تهلك روسيا العظيمة بينما أحفاد أولئك الفلاحين المُهلهلين الذين هبوا والرماح بأيديهم لينقذوا موسكو، دحروا كارل الثاني عشر ونابليون.. أما حفيد ذلك الصبيّ الذي جلبوه إلى موسكو على زلاجة بالقوّة فشيّد بطرسبوغ... لن تهلك روسيا العظيمة!.. وقضاءٌ واحدٌ يكفي لأن تعيد الأرض الروسيّة...

ونخر، وراح يتطلّع في النافذة التي تنوّر وراءها صباح رطب. أسندت داشا رأسها إلى كتفه، فأخذ هو يمسّده، وقبّلها من شعرها.

– اذهبي للنوم، يا خايفة...

ضحكت داشا، وودّعته وذهبت. وعند الباب التفتت وقالت:

– إيفان، إنّ كاتيا مُتيّمةٌ به...

– حسن، إنّه رجلٌ رائع...

كان المساء حاراً ساكن الريح. والهواء يفوح برائحة بنزينٍ محروق وقطران الأرصفة الخشبيّة. وكانت حشود الناس تسير في جادة نيفسكي مُبرشقة اللباس وبلا نظام وسط الأبخرة ودخان السيكار. وكانت سيارات الحكومة تنطلق بأعلامها المرفرفة مقوقعةً زاعقة. وكانت أصوات الصّبيان الحادّة، باعة الجرائد تصرخ بالأنباء المُثيرة التي لم يعد أحدٌ يصدّق بها. وكان باعة السيكار وعلب الكبريت والأشياء المسروقة يتسلّلون شاقّين طريقهم عبر حشود الناس. وفي حدائق الساحات العامّة كان الجنود يستلقون على العشب وسط أحواض الزّهور يقضمون حبوب عباد الشّمس.

خرجت كاتيا وحدها من جادّة نيفسكي. كان روتشين قد اتّفق معها على أن يكون بانتظارها في حوالي الساعة الثامنة في رصيف

النّهـر. انعطفت كاتيا نحو ساحـة القصر. كانت مصابيح صفراء تشعّ من النوافذ السوداء في الطابق الثاني من هذا القصر القاني الحمرة الجهم الـذي كانت بعض السيـارات تقف عند مدخلـه، والجنود والسواق يروحـون ويجيئون ضاحكين. مرّت دراجـةٌ بخاريّةٌ مقرقعة يسوقها سـاعٍ صبي وضع على رأسه قُبّعة سائق وقـد قبّب الهواء قميصه وراء ظهره.

وفي شرفةٍ في ركن وقف رجلٌ عجوز ذو لحيةٍ طويلة بيضاء مُرتفقاً على الدرابزين ساكن الحركة. التفتت كاتيا وراءها وهي تستدير حول القصـر فرأت الخيـول البرونزيّة الخفيفة تحت طاق مقـرّ هيئة الأركان العامّة ما تزال تشبّ على قوائمها الخلفيّة باتّجاه مغرب الشّمس. عبرت كاتيا الرصيف وجلست على مسطبةٍ غرانيتيّة قرب النّهر. كانت معالم الجسـور الشفافة الضاربـة إلى الزُّرقة تتدلى فـوق النيفا الجاري بوني. وكان الـبرج المُستـدق لكتدرائيّة بطرس وبولس ينعكس في النهر كالذّهـب الإبريز. وفي النّهر كان زورقٌ بائس المظهر يتحرّك خلال الانعكاسات المتلألئة. ووراء منطقة بطرسبورغسكايا، وراء السطوح والأدخنة كان قرص الشّمس المُنطفئ يغوص في وهجٍ برتقاليّ اللون.

وضعـت كاتيـا يديها علـى ركبتيهـا، وراحت تُحـدّق بهدوءٍ في هـذا الأُفول، وتنتظر فـاديم بيتروفيتش وادعةً صابـرة. وقد جاء فاديم بتروفيتش من الخلف دون أن تلحظه، أسند مرفقيه على السُّدّة الغرانيتيّة ورنا إليها من عـلّ. أحسّت كاتيا به، فالتفتت، ونهضت وعلى ثغرها ابتسامة. كان ينظر إليها نظرةً غريبةً ذاهلة. صعدت السُّلّم إلى رصيف النّهر، وأمسكت يد روتشين. وسار الإثنان. سألته كاتيا بخفوت:

– ماذا؟

تلـوّت شفتاه، هـزّ كتفيه و لم يجب. عبرا جسـر ترويتسكي، وفي

بداية جادّة كامينواوستروفسكي أومأ روتشين برأسه إلى دارة[16] كبيرة كسيت جدرانها الخارجيّة بالبلاط البُنيّ. كانت النوافذ الواسعة لحديقة الشّتاء تطفح بضوءٍ ساطح. وعند المدخل وقفت بعض الدّراجات البُخاريّة.

إنّ هذه الدارة العائدة لراقصة باليه مشهورة تحوّلت الآن إلى مقرٍّ رئيسيّ للبلاشفة. كانت دقات الآلات الكاتبة تسمع منها ليل نهار. وكان جمهورٌ غفير من العُمال والجنود العائدين من الجبهة والبحارة يحتشد كلّ يوم أمامها فيطلّ من الشّرفة زعيم حزب البلاشفة ويتحدّث عن ضرورة أخذ العُمال والفلاحين للسُّلطة بالقوّة، وإنهاء الحرب فوراً، وإقامة نظامٍ جديدٍ عادلٍ في بلادهم وفي العالم أجمع.

قال روتشين من خلال أسنانه:

– قبل حين كنت واقفاً هنا مع الحشد فسمعت من هذه الشُّرفة كلمات ناريّة لاهبة. والناس يستمعون... ليتك شاعدت كيف كانوا يُصغونَ!.. أنا لا أعرف الآن: من الغرباء في هذه المدينة: نحن أم هم؟ (وأومأ إلى شرفة الدارة) إنهم لم يعودوا يصغون إلينا... نحن نُتمتم بكلمات فارغة من المعنى... عندما جئت إلى هنا كنت أعرف أنني روسيّ... أما هناً فأنا غريب... أنا لا أفهم، لا أفهم...

وتوغّلا في جادّة كامينواوستروفسكي. لحق بهم شخصٌ في معطف رثّ وقبّعة من القشّ. كان يحمل دلواً في إحدى يديه، وحزمةٍ من إعلانات في الأخرى...

قال روتشين بصوتٍ أجوف، واستدار لكيلا ترى كاتيا وجهه العابس:

١٦– استعملت هذه اللفظة عوضاً عن الفيلا (المُترجم).

– أنا أفهم شيئاً واحداً، هو أنّ البقعة الحيّة المُشعّة في هذه الفوضى هـي قلبك، يـا كاتيا... أنـا وأنت يجـب ألا نفترق... أجابـت كاتيا بخفوت:

– لم أجـرؤ أن أقـول ذلـك لك... ولكـن كيف لنـا أن نفترق، يا صديقي العزيز...

وصلا إلى المكان الذي ألصق فيه الرّجل حامل الدّلو من توّه إعلاناً أبيض غير كبيرٍ على الحائط. ولأنّ كليهما كان مُتأثّراً فقد توقفا لبرهة. وفي ضـوء مصباح الشارع كان مـن المُمكن أن يقرأ في الإعلان: "إلى الجميع! إلى الجميع! إلى الجميع! الثّورة في خطر!..."

– يكاترينا دميتريفنا!

نادى روتشين وتناول يد كاتيا النّحيلة، وتابع سيره البطئ في الجادة الواسعة التي ركنت إلى الهدوء مع هبوط الظّلام، بينما الشّفق المسائيّ لم يهمد بعد في طرفه القصيّ.

– ستمـرُّ سُنون، وتـزول الحروب، وتهدأ الثّـورات، ويبقى شيءٌ واحد غير خامدٍ هو قبلك الحبيب الوديع الرّقيق...

ومـن خلال النّوافـذ المفتوحة في البيـوت الكبيرة تناهـت إليهما أصـواتٌ مرحة، ونقاشـات، وأنغام موسيقى. ومـرّةً أخرى سبقهما الرّجـل المحنيّ الظّهـر يحمل دلوه، والتفت وهو يلصـق إعلاناً آخر. ومن تحت قُبّعة القشّ المُهلهلة تفرّست بهما عيناه المُتّقدتان بالكراهية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

آب ١٩٢١

خلعت داشـا ملابسـها في غرفتها النّظيفة المُرتّبة، وأخرجت المشط من شعرها، وهزّت رأسـها حتى تطايرت دبابيس الشّعر فوراً، وانسلّت في فراشهـا الأبيض، وسحبت الغطـاء حتى ذقنها، وقلّصـت عينيها، وقالت لنفسهـا: "شكـراً لله، كلُّ شيء على ما يُرام! وليس لي الآن ما يشغل بالي، فـلأنم". وتصوّرت أمامهـا وجهاً صغيراً مُضحكاً. فابتسمت، وعكفت ركبتيهـا قليـلاً، وطوّقت الوسـادة. وغشتها سنة لذيـذة مُظلمة من النوم، وفي الحـال تردّد في ذاكرتها صوت كاتيا بوضـوح: "غير صحيح، طبعاً". فتحت داشـا عينيها، "لم أقل لكاتيا كلمةً واحـدة. سألتها فقط: صحيح أم غير صحيح. فأجابتني وكأنّما كانت تفهم تماماً مدار الحديث". وكان الوعي يوخـز جسمهـا كلّه وخز الإبـر: "خدعتني كاتيا!"، وبعـد أن تذكّرت كلّ دقائق الحديث، وكلمات كاتيا وحركاتها رأت بوضوح أنّ في الأمر خُدعةً حقـاً. وأحسّت داشا بصدمة. لقد خانت كاتيا زوجها، ولكنّها بعد اقتراف خيانتهـا، وإثمها، وكذبها، أضحت أكـثر فتنة. والأعمى وحده لا يستطيع أن يلحـظ فيها شيئاً جديـداً، ورقّةً وافية ذات نكهـة خاصة. وهي تكذب بطريقة تأخذ باللب، تغري بالحبّ. ولكنّها جانية. أنا لا أفهم شيئاً، لا أفهم. وقلقت داشا وتحيّرت.

telegram @soramnqraa

ISBN 978-2-843090-10-3
9 782843 090103